تَفْرِيغُ مُحَاضَرَاتِ سِلْسِلَةِ:

«الرَّدُّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ»

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ الدُّكْتُور

أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيد رَسْلَان

-حَفِظَهُ اللهُ وَرَعَاهُ-

«نبذة عن السلسلة»

فهذه بعض المباحث المجموعة عن هذا الأمر الكبير، والظاهرة الخطيرة، التي انتشرت في الأمة، واستشرت فيها كالنار في الهشيم، وهي: ظاهرة الإلحاد، وفي هذه المباحث:

*مقدمة عن الإلحاد.

*أسباب انتشاره في العصر الحديث.

*ذِكْرُ الأدلة على وجودِ الخالق.

*الرد على بعض شُبهات الملحدين.

****

«المُحَاضَرَةُ الأُولَى»

«مقدمة عن الإلحاد والأسباب التي دعت إلى انتشاره في العصر الحديث»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه بعضُ المَبَاحِثِ المجموعةِ عَنْ هذا الأمرِ الكبيرِ والظاهرةِ الخطيرةِ التي انْتَشَرَتْ فِي الأمةِ، واسْتَشْرَتْ فِيها كالنارِ فِي الهَشِيمِ، وهي **«ظاهرة الإِلْحَاد».**

وهذه مقدمةٌ عَنِ الْإِلْحَادِ تُعَرِّفُ به، وبالأَسْبَابِ التي دعت إِلَى انتشاره وَفُشُوِّهِ، كما وَرَدَ نَحْوُ ذَلِكَ فِي الموسوعَتَيْنِ: المُفَصَّلَةِ والمُيَسَّرَةِ.

الإِلْحَاد: هو مَذْهَبٌ فَلْسَفِيٌّ يقومُ على فكرةٍ عَدَمِيَّةٍ أساسُها إنكارُ وُجود اللهِ الخَالِق -سبحانه وتعالى-.

فيَدَّعِي الْمُلْحِدُون بأنَّ الكونَ وُجِدَ بِلَا خالقٍ، وأنَّ المادَّةَ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ، وهِيَ الخَالِق والمخلوقُ فِي نفسِ الوقت.

وهُنَاكَ معنى ثَانٍ للإِلْحَاد يُعَدُّ مِنْ إضافاتِ أَفْلَاطُون، وهو: إثباتُ وُجُود خالقٍ أو صانعٍ؛ ولَكِنها لا تُعْنَى بشيءٍ مِن حياةِ الخلقِ، فَهِيَ مُوجِدَةٌ للخلقِ؛ لَكِنها تَرَكَتِ التَّصَرُّفَ فِي الكونِ، وَتَفَرَّغَتْ لحياتِها المِثَالِيَّةِ.

وقد كَانَ يَقُول بهذا القولِ مِنَ الْفَلَاسِفَة «أَبِيطُور».

ومما لا شَكَّ فِيه: أنَّ كثيرًا مِن دُوَلِ العالَمِ الغربِيِّ والشرقِيِّ تُعَانِي مِن نَزْعَةٍ إِلْحَاديةٍ عَارِمَةٍ، جَسَّدَتْهَا الشُّيُوعِيَّةُ الْمُنْهَارَةُ، وَتُجَسِّدُها الْعَلْمانِيَّةُ الْمُخَادِعَةُ.

والإِلْحَادُ بدعةٌ جديدةٌ لم توجَدْ فِي القديمِ إلا فِي النادِرِ فِي بعضِ الأممِ والأفرادِ، وكانت الْكَنِيسَةُ الأُورُوبِّيَّةُ المسئولَ الأول عَنْ ظهورِ الإِلْحَاد، فَحَمَاقَاتُها هِيَ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى جَعْلِ الْعِلْمِ بَدِيلًا عَنْ الدِّينِ، وَجَعْلِ الصِّدَامِ الَّذِي وَقَعَ بينَ الْعِلْمِ المَادِّيِّ وأفكارِ الكَنِيسَةِ الْمُتَحَجِّرَةِ مما ليس بِدِينٍ أَصْلًا؛ سَبَبًا لِتَحَلُّلِ الناسِ مِن الدينِ.

فَالسَّبَبُ الظاهرُ جُعِلَ بَدِيلًا عَن السببِ الْحَقيقِيِّ، وتَوَقَّفَ الناسُ عَنْدَ حُدُودِ ما تُثْبِتُهُ وتُدْرِكُه حَوَاسُّهُمْ، وَجُعِلَتِ الطبيعةُ خالقةً بَدِيلًا عَنِ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-، وذَلِكَ حِينَ حَارَبَتْ الْكَنِيسَةُ الغَرْبِيَّةُ الْعِلْمَ وَالْعلماءَ، وَخَيَّرَتِ الناسَ بينَ اتِّبَاعِ الخُرَافَةِ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى الدِّينِ -على دِينِهَا الَّذِي ابْتَدَعَتْهُ وَشَكَّلَتْهُ على حَسَبِ أَهْوَائِهَا-، خَيَّرَتِ الناسَ بينَ اتِّبَاعِ الخُرَافَةِ واتباعِ الْعِلْمِ وَالخُرُوجِ مِنَ الدِّينِ.

وقد اختارَ الْعُلَمَاءُ المَادِّيُّونَ لِمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ من الْحَقَائقِ الْعِلْمية الثابتة؛ اخْتَارُوا اتباعَ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُم يَعْرِفُون قَدْرَهُ، ويَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَحَقُّ بالاتباعِ مِنَ الخُرَافَةِ التي تَمَسَّكَتْ بها الكَنِيسَةُ الغربيةُ، فلَمَّا طَرَدَتِ الكنيسةُ الْعُلَمَاءَ مِنَ الدِّينِ؛ كَانَ الْعِلْمُ بالنسبةِ إِلَيهِم البَدِيلَ عَنْ الدِّينِ، لَا لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقةِ بَدِيلٌ عَنْه، وَلَا لِأَنَّهُ بِطَبِيعَتِهِ يُغْنِي عَنْ الدِّينِ؛ وَلَكِنْ لأنَّ حَمَاقَةَ الْكَنِيسَةِ الغَرْبِيَّةِ وَضَعَتِ الأمورَ فِي هذا الوضع.

والسببُ الظَّاهِرُ ليسَ بَدِيلًا عَن السببِ الحَقِيقِيِّ؛ لِأَنَّ السببَ الظاهِرَ يُفَسِّرُ فَقَطْ: كيفَ تَحْدُثُ الأشياءُ على النَّحْوِ الَّذِي تَحْدُثُ به؟ ولَكِنهُ لا يُفَسِّرُ: لماذا كَانَت الأشياءُ على هذا النحوِ؟

وحِينَ جَعَلَتْ أُورُوبَّا الطبيعةَ بَدِيلًا عَنِ اللهِ عز وجل؛ لم يَكُنْ ذَلِكَ إلا مَهْرَبًا مِنْ إِلَهِ الْكَنِيسَةِ الَّذِي تَسْتَعْبِدُ الناسَ بِاسْمِهِ، وَتَفْرِضُ عليهِمُ الإِتَاوَاتِ والعُشُورَ بِاسْمِهِ، وتُخْضِعُهُمْ وَتُذِلُّهُمْ لِرِجَالِ الدِّينِ مَعَ مُحَارَبَةِ الْعِلْمِ، والحَجْرِ على حُرِّيَّةِ النَّظَرِ فِي أسرارِ اللهِ فِي الكونِ، وَمَعَ الوُقُوفِ الظالمِ مَعَ رِجَالِ الإِقْطَاعِ ضِدَّ الَّذِينَ كَانُوا يُطَالِبُونَ بالإصلاحِ، لم يَكُنِ الأَمْرُ قَطُّ حقيقةً عِلْمِيَّةً، وكان هذا كلُّه إِلْحَادَ العلماءِ والفلاسفةِ والمُفَكِّرِينَ.

أَمَّا الجَمَاهِيرُ؛ فكانت ما تَزَالُ تُؤْمِنُ بالدِّينِ علَى ما به مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَشْوِيهٍ وَخُرَافَةٍ، فَيُعَدُّ أتباعُ الْعَلْمَانِيَّةِ المُؤَسِّسِينَ الحَقِيقِيِّينَ للإِلْحَادِ، ومِنْ هَؤُلَاءِ: أَتْبَاعُ الشُّيُوعِيَّةِ والوُجُودِيَّةِ والدَّارْوِينِيَّةِ والعَقْلَانِيَّةِ.

وقد اسْتَغَلَّت الحركَةُ الصُّهيونيةُ كُلَّ هذا، فَعَمِلَتْ عَلَى نَشْرِ الإِلْحَادِ فِي الْأَرْضِ، فَنَشَرَت الْعَلْمَانِيَّةَ لِإفسادِ أُمَمِ الْأَرْضِ بالإِلْحَادِ والمَادِّيَّةِ المُفْرِطَةِ، والانْسِلَاخِ مِن كُلِّ الضَّوَابِطِ التشريعيةِ والأَخلاقيةِ؛ كَيْ تَهْدِمَ هذه الأُمَمُ نَفْسَها بِنَفْسِهَا، وَعِنْدَهَا يَخْلُو الجَوُّ لليهودِ؛ حتى يستطيعَ اليهودُ حُكْمَ العَالَمِ كُلِّه.

وقد نَشَرَ اليهودُ نَظَرِيَّاتِ «مَارْكِسْ» فِي الاقتصادِ والتفسيرِ المادِّيِّ للتاريخِ، وَنَشَرُوا نَظَرِيَّاتِ «فْرُويدْ» فِي عِلْمِ النَّفْسِ، وكذلِكَ نَشَرُوا «نَظَرِيَّةَ دَارْوِنْ» فِي أصلِ الأنواعِ، وَنَشَرُوا نَظَرِيَّاتِ «دُورْ كَايِنْ» فِي عِلْمِ الاجتماعِ، وكُلُّ هذه النظرياتِ مِنْ أُسُسِ الْإِلْحَادِ فِي العَالَمِ.

وأَوَّلُ كتابٍ مُصَرِّحٍ بالإِلْحَادِ ودَاعٍ له: ظَهَرَ فِي أُورُوبَّا سَنَةَ سَبْعِينَ وسَبْعِمِائَةٍ وأَلْفٍ مِنَ التاريخِ الصَّلِيبِيِّ «١٧٧٠».

أمَّا حَرَكَاتُ الْإِلْحَادِ الْمُنَظَّمَةُ فِي العالَمِ العَرَبِيِّ، وَأَمَّا المُجَاهَرَةُ بالإِلْحَادِ فِي العالَمِ الإسلاميِّ وإعلانِهِ على المَلَأِ:

فقد نَشَأَ بعدَ مُنْتَصَفِ القَرْنِ التاسعَ عَشَرَ، حِينَمَا بَدَأَ العالَمُ الإسلاميُّ والعَرَبِيُّ يَتَّصِلُ بالعالَمِ الغَرْبِيِّ عَنْ طريقِ إِرْسَالِيَّاتِ الدِّرَاسَةِ أوِ التدريبِ.

وتَسبَّبَ ذَلِكَ فِي رُجُوعِ مجموعةٍ من الطُّلَّابِ مُتأَثِّرينَ بالفِكْرِ الأُورُوبِّيِّ المَادِّيِّ الَّذِي كَانَ يَقُومُ على أساسِ تَعْظِيمِ علومِ الطبيعةِ، وَرَفْعِ شَأْنِ العقلِ، وكذَلِكَ كَانَ يَقُومُ على تَنْحِيَةِ الدِّينِ والشرعِ عَنْ حُكْمِ الحياةِ والناسِ، وإدارةِ شُؤُونِهِم.

وفي بِدَايَةِ الأمرِ لم يَكُنْ ثَمَّ دعوةٌ صَرِيحَةٌ لِلْإِلْحَادِ فِي العالَمِ الإسلاميِّ والعربيِّ، وإنما كَانَت هُنَاكَ دَعَوَاتٌ للتَّحرُّرِ، أوِ للتَّغْرِيبِ، أَوْ لِفَتْحِ المَجالِ أَمَامَ العقلِ، أو إِلَى مُحَاكَمَةِ بَعْضِ النُّصوصِ الشرعيةِ إِلَى العَقْلِ أو الحِسِّ أوِ الواقعِ، أَوْ إِلَى مُحَاوَلَةِ إِنْشَاءِ خِلَافٍ وَهْمِيٍّ وَصِرَاعٍ مُفْتَعَلٍ بَيْنَ العقلِ والشرعِ، وَمَعَ مُرُورِ الوقتِ، وَزِيَادَةِ الاتصالِ بالغَرْبِ وتُرَاثِهِ، وَانْتِشَارِ مَوْجَةِ التَّغْرِيبِ بينَ الناسِ؛ ظَهَرَتْ بعضُ الدَّعَوَاتِ الصَّرِيحَةِ للإِلْحَادِ، وَفُتِحَ بابُ الرِّدَّةِ بِاسْمِ الحُرِّيَّةِ الفَرْدِيَّةِ.

وحينما نَشَطَ اليَهودُ فِي تُرْكِيَا، وَدَعَوْا إِلَى إقامةِ قَوْمِيَّةٍ تُرْكِيَّةٍ تَحُلُّ مَحَلَّ الرابِطَةِ الدينيةِ؛ ظَهَرَتْ مَظَاهِرُ عِدَّةٌ فِي الواقعِ تدعو إِلَى نَبْذِ الدِّينِ، وتُظْهِرُ العَدَاءَ لِبَعْضِ شَعَائِرِهِ، وَمَعَ مُرُورِ الوقتِ تَطَوَّرَتْ هذه الحركةُ، حَتَّى جَاءَ مصطفى كَمَالُ أَتَاتُورْكْ، وَقَامَ بِإِلْغَاءِ الخِلافةِ، وَأَنْشَأَ الدولةَ التُّرْكِيَّةَ الْعَلْمانِيَّةَ، وَحَارَبَ جميعَ الْعُلَماءِ وَسَجَنَهُمْ، وَرَاجَ على إِثْرِ ذَلِكَ الْكُفْرُ والإِلْحَادُ، وَظَهَرَتْ عِدَّةُ كُتُبٍ تَدْعُو إِلَى الْإِلْحَادِ، وَتَطْعَنُ فِي الأديانِ، ومنها:

كتابٌ بِعُنْوَان: «مُصْطَفَى كَمَالُ» لِكَاتِبٍ اسْمُهُ: «قَابِيلُ آدَمُ».

يَتَضَمَّنُ مَطَاعِنَ قَبِيحَةً فِي الأديانِ، وَبِخَاصَّةٍ الدِّينَ الإسلاميَّ، وفي ذَلِكَ الكتابِ دَعْوَةٌ صَرِيحَةٌ لِلْإِلْحَادِ بالدينِ، وإِشَادَةٌ صريحةٌ بالعَقْلِيَّةِ الأُورُوبِّيَّةِ.

هذه الجُرْأَةُ فِي تُرْكِيَا قَابَلَهَا جَرَاءَةٌ مُمَاثِلَةٌ فِي مصر، سُمِّيَتْ ظُلْمًا وَزُورًا: **«عَصْرَ النَّهْضَةِ الأَدَبِيَّةِ والفِكْرِيَّةِ»**.

بينما هي فِي حقيقتِها حَرَكَةٌ تَغْرِيبِيَّةٌ تَهْدُفُ إِلَى إِلْحَاقِ مصرَ بالعالَمِ الغَرْبِيِّ، والتَّخَلُّقِ بأخلاقِهِ، واحْتِذَائِهَا فِي ذَلِكَ حَذْوَ تُرْكِيَا التي خَلَعَتْ جِلْبَابَ الحَيَاءِ والدِّينِ، وَصَبَغَتْ حَيَاتَهَا بالطَّابَعِ الْعلمانِيِّ، وبالسُّفورِ والتَّمَرُّدِ.

فِي تلك الحِقْبَةِ ظَهَرَ فِي مصرَ العَدِيدُ مِنَ المُفَكِّرِينَ والأُدَباءِ يَدْعُونَ إِلَى التَّغْرِيبِ والإِلْحَادِ، وفَتْحِ بابِ الرِّدَّةِ باسمِ التنويرِ تارةً، وباسْمِ النهضةِ الأدبيةِ تارةً أخرى، ومرةً باسمِ الحُرِّيَّاتِ

الفِكْرِيةِ، وتَلَقَّفَتْ مصرُ فِي تلك الفترةِ دُونَ تَمْيِيزٍ جميعَ أمراضِ المجتمعِ الأوروبيِّ، وكذَلِكَ تَلَقَّتْ أخلاقَه المُنْحَلَّةَ، وحاولت جاهدةً بِفِعْلِ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَادُوا لها التَّغْرِيبَ، حاولت أنْ تُصْبِحَ قِطْعَةً مِن أُورُوبَّا، ومِنْ فَرَنْسَا تحديدًا، وعَاثَ فِي أرضِ مصرَ بعضُ المستشرقينَ فسادًا وإفسادًا، ثُمَّ سَلَّمُوا دَفَّةَ الإفسادِ إِلَى بعضِ المِصرِيينَ مِمَّنْ لم يَتَوَانَوْا فِي نَشْرِ الْكُفْرِ والإِلْحَاد، وسَعَوْا سَعْيًا حَثِيثًا إِلَى إلغاءِ الفَضِيلةِ والأخلاقِ الإسلاميةِ، وإِحْلَالِ النَّفْعِيَّةِ والمَادِّيَّةِ مَحَلَّها، حتى أَصْبَحَ دُعَاةُ الإسلامِ والمحافظةِ غرباءَ على المجتمعِ، دُخَلَاءَ عليهِ، يُوصَفُونَ بِالجُمُودِ والتَّخَلُّفِ والرَّجْعِيَّةِ والعَدَاءِ للحضارةِ!!

ومِنْ مصرَ انْتَقَلَتْ حُمَّى الرِّدَّةِ والإِلْحَادِ إِلَى جميعِ دُوَلِ الجِوَارِ، ابتداءً مِن الشامِ، ومُرُورًا بالعراقِ والخليجِ - بِمَا فِيهَا: السعودية، وانتهاءً ببلادِ اليمنِ.

وأَمَّا أَعْلَامُ الْإِلْحَادِ فِي أُورُوبَّا:

*فَهُمْ أَتْبَاعُ الشُّيُوعِيَّةِ، ويَتَقَدَّمُهُم:

«كَارْلْ مَارْكِسْ»، وقد هَلَكَ سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ وثمانِمِائةٍ وألفٍ «١٨٨٣»، وهو يهوديٌّ ألمانيٌّ.

فأَعْلَامُ الْإِلْحَادِ فِي أُورُوبَّا:

«أَنْجِلْزْ»: وهو رفيقُ دَرْبِهِ، الْتَقَى به فِي إنجلترا، وأَصْدَرَا معًا: **«المَنِيفِيسْتُو»**، أو **«البيانَ الشُّيُوعِيَّ»** سنةَ ثمانٍ وأربعينَ وثمانِمِائةٍ وألفٍ «١٨٤٨»، وقد هَلَكَ أَنْجِلْزْ سنةَ خمسٍ وتسعينَ وثمانِمِائةٍ وألفٍ «١٨٩٥».

*أتباعُ الشيوعيةِ:

وعلى رأسهم: مَارْكِسْ وأَنْجِلْزْ.

*أَتْبَاعُ الوُجُودِيَّةِ أَيْضًا مِن أَعْلَامِ الْإِلْحَادِ فِي أُورُوبَّا:

وعلى رأسِهِم: «جَامْبُولْ سَارْتَرْ»، و«سِيمُونْ دِيفْوَارْ»، وَ«أَلْبِيرْ كَامِي».

*وكذَلِكَ أتباعُ الداروينية.

*وكذَلِكَ من أعلامِ الإِلْحَادِ فِي أُورُوبَّا من الْفَلَاسِفَةِ والأدباء:

«نِيتْشَا»: وهو فَيْلَسُوفٌ ألماني، وهو من أكبرِ الْمُلْحِدِينَ فِي العصرِ؛ بل فِي التاريخ.

وكذَلِكَ «بِيرْتِرَانْدْرَاسِلْ»: وهو فَيْلسوفٌ إنجليزيٌّ.

و«هِيجِلْ»: وهو فَيْلسوفٌ ألماني، قامت فلسفته على دراسة التاريخ.

وكذَلِكَ «هِرْبِرْتْ سْبِنْسَرْ»: وهو إنجليزيٌّ، كَتَبَ فِي الفلسفةِ وعِلْمِ النفسِ والأخلاقِ.

و«بُلْتِيرْ»: وهو أديبٌ فرنسيٌّ.

فهَؤُلَاءِ من رؤوس الْإِلْحَاد فِي أُورُوبَّا، وهم من الْفَلَاسِفَة والأدباء.

وأما أعلام الْإِلْحَاد فِي العالم الإسلامي:

فعلى رأسهم: «إسماعيل أحمد أدهم»: الَّذِي هَلَكَ سنة أربعين وتسعمائة وألف «١٩٤٠»، كَانَ من دعاة الشعوبية، وحاول نشر الْإِلْحَاد فِي مصر، وألف رسالة بعنوان: **«لماذا هو ملحد؟»**، وهو جعل مكانها «أنا»؛ لِأَنَّهُ يتكلم عَنْ نفسه، لَكِن لا يَجْمُل أن نعيد ذَلِكَ كما قيل،

كما قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ الشيطان: **«إِذَا سجد ابْنُ آدَمَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ ناحيةً يَبْكِي، يَقُول: يَا وَيْلَهُ»**.

والشيطان يدعو بالويل على نفسه، ولَكِن أتى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بضمير الغائب؛ حتى لا يحكي ما قَالَه الشيطان، كما فِي هذا النص.

فكتب «إسماعيل أحمد أدهم» رسالة بعنوان: **«لماذا هو ملحد؟»**، وطبعها بمطبعة التعاون بالإسكندرية، حَوَالَيْ سنة ست وعشرين وتسعمائة وألف «١٩٢٦م».

من أعلام الْإِلْحَاد أَيْضًا فِي العالم الإسلامي:

«إسماعيل مظهر»: الَّذِي هَلَكَ سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وألف «١٣٨١» من التاريخ الهجري، وهو أحد دعاة الشعوبية والداروينية، أصدر فِي سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وألف «١٩٢٨م» **«مجلة العصور»** فِي مصر، وكانت مجلة العصور تدعو للإِلْحَاد والطعن فِي العرب والعروبة طعنًا قبيحًا، معيدًا تاريخ الشعوبية، تمامًا كما فعل إسماعيل أدهم؛ فإنه كَانَ من دعاة الشعوبية.

وكذَلِكَ «إسماعيل مظهر» أصدر هذه المجلة – وهي **«مجلة العصور»** - تدعو للإِلْحَاد والطعن فِي العرب والعروبة طعنًا قبيحًا، معيدًا تاريخ الشعوبية، ومتهمًا العقلية العربية بالجمود والانحطاط، ومُشِيدًا بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم.

وقد تاب إسماعيل مظهر إِلَى الله بعد أن تعدى مرحلة الشباب، وأصبح يكتب بعد ذَلِكَ عَنْ مزايا الإسلام، وأَلَّفَ كتابًا أسماه: **«الإسلام لا الشيوعية»**.

وقد أُسِّسَتْ فِي مصر سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وألف «١٩٢٨» جماعةٌ لِنَشْرِ الْإِلْحَاد تحت شعار الأدب، واتخذت دار العصور مَقَرًّا لها، واسمها: **«رابطةُ الأدبِ الجديد»**، وكان أمينَ سِرِّها «كَامِلْ كِيلَانِي»، وقد تاب كَامِلْ كِيلَانِي إِلَى الله بعد ذَلِكَ.

ومن الشعراء الملاحدة الَّذِينَ كَانَوا ينشرون فِي مجلة العصور الداعية إِلَى الْإِلْحَاد فِي مصر؛ كَانَ من الشعراء الناشرين فِيها:

«الشاعر عبد اللطيف ثابت»: الَّذِي كَانَ يشكك فِي الأديان فِي شعره، و«الشاعر جميل صِدْقِي بن محمدِ بِن فيضِي الزَّهَاوِي-جميل صدقي الزهاوي-: » وهو شاعر عراقيٌّ يُعَدُّ عميدَ الشعراءِ المشكِّكِينَ فِي عصره.

وكذَلِكَ «صادق جلال العَظْم»: وهو أحد أساطين الفكر الشيوعي المادي ممن أخذ يجاهر بالإِلْحَاد، ويدعو إِلَيْهِ، وأَلَّفَ كتابًا يقرر فِيه الإِلْحَاد، أسماه: **«نَقْدَ الفِكْرِ الدِّينِيّ»**، زعم أَنَّهُ أقام فِيه براهين تثبت عدم وُجُود الله، وأن كل ذَلِكَ ـ يعني: ما عليه المؤمنون من إثبات وُجُود الله تعالى والرسالة والوحي والبعث والقيامة ـ أن كل ذَلِكَ من الأوهام والأساطير، وقد رد على هذا الرجل الكثيرون.

كذَلِكَ من أعلام الْإِلْحَاد فِي العالم الإسلامي:

«عبد الله بن عليٍّ القصيمي»: وهو أحد أشهر الملاحدة المعاصرين، له كتب عَنْ الإسلام، وكان الْعُلَمَاء يَسْتَمْلِحُونَهَا ويُثْنُون عليها، ثم أعلن بعد ذَلِكَ ردته و إِلْحَاده، وجاهر بدعوته الجديدة إِلَى الْإِلْحَاد، وأَلَّفَ مجموعة كبيرة من الكتب الداعية للتحرر من سلطة الدين والفضيلة والأخلاق، منها: **«هذه الأغلال»**، ومنها: **«أيها العقلُ مَن رَآك»**، ومنها: **«الإنسانُ يَعْصِي لهذا يَصْنَعُ الحَضَارات»**.

وهو من دعاة الصهيونية العرب، وله مقالات وعبارات بَشِعَةٌ فِي حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وحق رسله، وممن رَدَّ عليه - كما هو معلوم -: «العلامة السعدي -رحمه الله تعالى-»، فإن كتابه فِي قَطْعِ وإبطالِ أصولِ الْمُلْحِدِينَ؛ إنما كَانَ مُوَجَّهًا إِلَى هذا الرجل، وإِلَى دعوته، وقد أَبْطَلَ اللهُ رب العالمين دعوتَه، وَأَخْمَلَ ذِكْرَهُ، كما هو معلوم فِي كل مَن حَادَّ دينَ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ فإن الله -عز وجل- يُخْمِلُه، ويَجْعَلُ آثارَه بعد ذَلِكَ فِي مزبلة التاريخ؛ لِأَنَّهُ لا يَبْقَى إلا الْحَقُّ، ولا يَبْقَى إلا الخيرُ، والله جَلَّ وَعَلَا لا يُصْلِح عمل المفسدين.

كذَلِكَ من أعلامِ الْإِلْحَادِ فِي العالم الإسلامي:

«فهدُ بنُ صالحِ بنِ محمدٍ العَسْكَرُ»: وهو شاعرٌ كُوَيْتِيٌّ مَاجِنٌ، وداعيةٌ إِلَى التمردِ على الأخلاق والفضيلة، ومِن كبارِ المُتَشَكِّكِينَ والساخرينَ بالأديانِ فِي شِعْرِه، وقد هلك سنة سبعين وثلاثمائة وألف «١٣٧٠» من التاريخ الهجري.

ومنهم أَيْضًا:

«أحمد لطفي السيد»، و«طه حسين»، و«زكي نجيب محمود»، و«علي أحمد سعيد» -المعروفُ بِـ«أَدُونِيسْ» الذي يقالُ عَنْه أَنَّهُ شاعرٌ!!

فهَؤُلَاءِ بعض أعلامِ الْإِلْحَادِ فِي العالم الإسلامي.

وأما أفكار الْإِلْحَاد:

*فهي إنكار وُجُود الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، الخَالِق البارئِ المصوِّرِ، تعالَى اللهُ عمّا يَقُولون علوًا كبيرًا.

***مِن أفكارِ الْإِلْحَاد:** أنَّ الكون والإنسان والحيوان والنباتَ وُجِدَ صدفةً، وسينتهي كما بدأ، ولا توجد حياة بعد الموت.

وهذا كله تَفْرِيعٌ على الأصل الَّذِي أنكروه، على أصل الأصول وكُبْرَى اليَقِينِيَّاتِ، وهو وُجُود الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فإن الإنسان إِذَا أنكر وُجُود الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ فإنه حينئذٍ يَقُول: إنَّ الخَلْقَ الَّذِي لا بد له من خالق؛ إنما خَلَقَتْهُ الصُّدْفَةُ، أو أَوْجَدَتْهُ الطبيعةُ، أو أَوْجَدَ نفسَه!!

فلا بد أنْ يُجِيبَ عَنْ أسئلةٍ؛ فتأتي هذه الأسئلةُ مؤسَّسَةً على الأصل الَّذِي أنكره، وهو وُجُود الرب -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ ولِذَلِكَ تَجِدُ مِن أفكارِهم:

*أنَّ المادَّةَ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ، وأنَّ المادَّةَ هي الخَالِقُ والمخلوقُ فِي الوقتِ نفسِه.

*وهم يَنْظُرُونَ نَظْرَةً غَائِيَّةً للكونِ، وكذَلِكَ لِلْمَفَاهِيمِ الأخلاقيةِ، تُعِيقُ تَقَدُّمَ الْعِلْمِ.

*وأيضًا يُنكِرون معجزاتِ الأنبياء؛ لأنَّ تلك المعجزاتِ لا يَقْبَلُها الْعِلْمُ كما يزعمون، ولَكِن هم يُنكِرونَها ابتداءً؛ لِأَنَّهُم يُنكِرونَ مَنْ أَرْسَلَهُمْ، وهم ينكرون وُجُود اللهِ الَّذِي أَرْسَلَ الرسل، ونَبَّأَ الأنبياءَ، وَأَنْزَلَ الكتب، والذي كَانَ منه الوحيُ المعصوم.

*مِن العَجَبِ: أنَّ الْمُلْحِدِينَ المادِّيِّينَ يَقْبَلُونَ معجزاتِ الطَّفْرَةِ الوحيدةِ التي تقولُ بها «الدَّارْوِينِيَّةُ»، ولا سَنَدَ لها إلا الهَوَسُ والخَيَالُ؛ لأنَّ الدَّارْوِينِيَّةَ ليس عَنْدها تفسيرٌ للتطور، ثم إنَّ دَارْوِنُ - كما سيأتي إن شاء الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- النقلُ عَنْه مِن كتابِه فِي طبعتِهِ الثانيةِ- هو لم يَقُلْ فِي نَظَرِيَّتِهِ: إنَّ التَّطَوُّرَ خالقٌ، وإنما هو يريدُ أنْ يُفَسِّرَ شيئًا، فجَعَلَ التطورَ مُفَسِّرًا، لا خالقًا، فَيَبْقَى السؤالُ على حالِه؛ فمَن الَّذِي خَلَقَ؟!!

إذَن؛ «دَارْوِنْ» حتى فِي أصلِ نظريته لم يقل إنَّ التطورَ الَّذِي زعمه وجاء به فِي أصل الأنواع هو الَّذِي أَحْدَثَ الخلقَ، وهو الَّذِي أنشأه، وإنما هو يفسِّر به أمرًا على حَسَبِ نظريتِه التي ابتدعها.

فهَؤُلَاءِ الملاحدة يَقْبَلُونَ معجزاتِ الطَّفْرَةِ الوحيدةِ: أن الإنسان كَانَ قردًا، فجاءت طَفْرَةٌ، فنَقَلَتْهُ مِن القِرْدِيَّةِ إِلَى الإنسانية!

فإذا قيل لهم: كيف جاء ذَلِكَ؟

قَالُوا: هذا يأتي بالطفرة، فمن الحيوان الأول، من الخلية الوحيدة، ثم بعد ذَلِكَ إِلَى ما ارتقى إِلَيْهِ الإنسان حتى صار قردًا، ثم ارتقى بعد ذَلِكَ حتى كَانَ إنسانًا !!

يقولون: إن هذا الانتقال من هذه الأنواع، إنما يَحْدُثُ بما يسمى بالطفرة الوحيدة!

فيقال لهم: وهذه الطفرة فِي كل مرة تحدث على هذا النحو من أجل أن تنشئ شيئًا أحكم؟!

من أجل أنْ تُنشئ شيئًا أتقن؟!

فلماذا تقبلون هذا؟!

وهذا فِي حدِّ ذاته مخالف لمقرَّرات العقل، مخالف للبدهيات الفطرية، ولَكِنْ هَمُّهم وقَصدهم: أن ينكروا وُجُود الخَالِق الْعَظِيم، فهم من أجل ذَلِكَ لا يعترفون بالمفاهيم الأخلاقية، ولا بالحق، ولا بالعدل، ولا بالأهداف السامية، ولا بالرُّوح، ولا بالجمال فِي الكون؛ ولِذَلِكَ كنتَ تجد فِي فترةِ استحواذِ الاتحادِ السوفييتيِّ على الدول الإسلامية التي ابْتَلَعَها فَلَمْ يَهْضِمْهَا، حتى خَلَّصَها الله رب العالمين مِن نِيرِه؛ كنتَ تجد الصناعة الروسية على الضد من الصناعة الغربية.

فالصناعة الروسية لا جمال فِيها من حيث الشكلُ الظاهر؛ لِأَنَّهُم لا يعترفون بالروح، ولا بالجمال، ولا يعترفون بالمفاهيم الأخلاقية، ولماذا يعترفون بالمفاهيم الأخلاقية والماديون يَعْتَقِدُونَ أن الحياة هي نهاية كل كائن حي، وأنه بعد ذَلِكَ لا بعث ولا قيامة؟!!

فإذا كَانَ الإنسان فِي هذه الحياة يَحْيَا، حتى إِذَا ما مات لم يُبْعَثْ، ولم يُحَاسَبْ على شيء؛ فلماذا يتمسك بالأخلاق؟!

بل لماذا توجَدُ الأخلاقُ أصلًا؟!

وحينئذ يَحْيَا الإنسانُ فِي الحياة أَحَطَّ مِن الحيوان البَهيم، يُحَصِّلُ اللذَّات، ويستحوذُ على الملذَّاتِ والشهوات، وليس له ارْتِقَاءٌ فِي خُلُقٍ، ولا نَظْرَةٌ إِلَى هدفٍ سامٍ!!

*وينظر الملاحدة تبعًا للأصل الَّذِي قرروه فِي أصل الوجود والخلق؛ ينظرون للتاريخ باعتباره صورة للجرائم والحماقة وخيبة الأمل، ويقولون: إن قصة التاريخ لا تَعْنِي شيئًا.

*وأما المعرفة الدينية فِي رأي الملاحدة؛ فتختلف اختلافًا جِذْرِيًّا وكليًّا عَن المعرفة بمعناها العقلي أو الْعِلْمي؛ لِأَنَّهُم لا يَخْضَعون للعقل، ولا يخضعون للعلم، وَبَدَاهَةً هم لا يخضعون للنقل والشرع.

***الإنسان عَنْد الْمُلْحِدِينَ الماديين:** مادَّةٌ، تنطبق على الإنسان عَنْدهم قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم، كما تنطبق على غيره من الأشياء المادية.

فالكائن الإنساني عَنْدهم لا ميزة فِيه، هو مثل الحيوان البهيم؛ بل هو مثل الحجارة، مثل الجماد، تنطبق على هذا الإنسان قوانينُ الطبيعة التي اكتشفتها العلومُ، كما تنطبق على غيره من الأشياء المادية.

وعند هَؤُلَاءِ الملاحدة أن الحاجات هي التي تحدد الأفكار، وليست الأفكار هي التي تحدد الحاجات.

و«نظرياتُ مَارْكِسْ» فِي الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ، و«نظريةُ فْرُويِدْ» وهي «نظريةٌ جنسيةٌ مَحْضَةٌ» فِي علم النفس، و«نظرية دَارْوِنْ» فِي أصل الأنواع، و«نظريةُ دُورْكَهَايِمْ» فِي علم الاجتماع من أهمِّ أُسس الْإِلْحَاد فِي العالم، وجميع هذه النظريات هي مما أثبت الْعُلَماءُ أَنَّهَا حَدْسٌ وخيالاتٌ، وأوهامٌ شخصيةٌ، ولا صلةَ لها بالْعِلْم.

ما هي القواسم المشترَكَة بين الملاحدة العرب؟

القواسم المشتركة بين الملاحدة العرب هي:

*إنكارهم للغيب جملة وتفصيلًا، وقَصْرُهُم الإيمان بحدودِ الملموسِ والمحسوسِ فقط، دون ما غاب عَن العين، أو ما يمكن إدراكه بالحس.

***ومن القواسم المشتركة بينهم:** استهزاؤهم بالشعائر الدينية جميعها، ووَصْفُهم للمتمسكين بالشعائر الدينية بالرجعيين والمتخلفين، ومحاربة أي دعوة تدعو إِلَى التدين، أو صَبْغِ الحياةِ بمَظَاهِرِ الدين.

***ومن القواسم بينهم:** مَيْلُهُمْ نَحْوَ احتقار العرب، وهي الشعوبية التي مرَّ ذكرها، وكان عليها أوائل الدعاة إِلَى الْإِلْحَاد فِي العالم العربي والإسلامي، فهم يميلون نحو احتقار العرب، واحتقار عاداتهم وسلوكهم، ويمدحون الشعوبية والباطنية؛ بل منهم دعاة للصهيونية، كما كَانَ «القصيمي»؛ فإنه كَانَ داعية من دعاة الصهيونية.

*وكذَلِكَ هم يدعون للتغريب؛ لِأَنَّهُم إِذَا احتقروا الجنس العربي، واحتقروا العروبة؛ يريدون بذَلِكَ احتقار الدين، وإذا احتقروا اللغة العربية؛ فأي شيء يُقَدِّرُون؟!!

هم يَدْعُون للتغريب، والالتحاق بالغرب، والأخذ بجميعِ ثقافاتِهم وأمورِهم الحياتية، والتَّعَلُّم منهم ومِن سلوكياتهم، حتى إنَّ مِن غُلاة الدَّاعين إِلَى ذَلِكَ: وهو «طه حسين» كما فِي **«مستقبل الثقافة فِي مصر»**، وهو الآن يُعاد طَبْعُهُ، ويُنشر نَشْرًا مُوَسَّعًا، والرجلُ يُقرِّر فِيه أَنَّهُ ينبغي علينا من أجل أنْ نلحق بالرَّكْبِ العالَمِيِّ فِي التقدم والتِّقْنِيَةِ: أن نتخلى عَنْ كل ما نحن عليه، وأن نأخذ بما هم عليه فِي كل مجالات الحياة، حتى تكونَ فضلاتنا كفضلاتهم.

*وهم يَشُنُّونَ الحرب الشرسة على الأخلاق والعادات الحميدة.

*ويَدَّعُون أَنَّهُ لا يوجد شيء ثابت مطلقًا، فكل الأمور نسبية!!

الدين نسبي! يتغير ويتطور! ويرتقي الناس فِيه!

والشرف كَذَٰلِكَ نسبي!

فما كَانَ يقاتل المرء عَنْه ودونه فِي القديم صار شيئًا مبذولًا، لا تهتز شَعْرَةٌ فِي مَفْرِقِ أحدٍ إذا ما اعْتُدِيَ على عِرْضِه، وإذا ما دُنِّسَ فِرَاشُه، فذَلِكَ عَنْده من الأمور العادية!!

*فهَؤُلَاءِ شَنُّوا الحرب الشرسة على العاداتِ والأخلاقِ الحميدة، وادَّعَوْا أَنَّهُ لا يوجد شيءٌ ثابتٌ مطلقًا، وأن الحياة والأخلاق والعادات فِي تطورٍ مستمر، وأن الثبات على الشيء إنما هو مِنْ شَأْنِ الغَوْغَائِيِّينَ والمُتَخَلِّفِينَ والرَّجْعِيِّين.

*فعندهم أَنَّ الأخلاق تتطور وترتقي، وكَذَٰلِكَ الأديان تتطور وترتقي، وبالتالي؛ المُثُلُ والقِيَمُ تتطور وترتقي، فما كَانَ يتمسك به الناس قديمًا ينبغي أن يُهْجَرَ!

ينبغي أَنْ يُطَلَّقَ البَتَّةَ، وأَلَّا يَلْتَفِتَ الناسُ إِلَيْهِ!!

*ويعظمون المادة والطبيعة، ويعظمون جميع العلوم الطبيعية، ويجعلون ذَلِكَ أساس كل الحضارات، بافتعال الصراع المزعوم بين الدين والْعِلْم المادي التطبيقي.

ومعلوم أن ذَلِكَ إنما كَانَ فِي الغرب لَمَّا تَحَجَّرَتِ الْكَنِيسةُ علي معتقداتها البالية، وحاربت الْعِلْمَ التطبيقيَّ الماديَّ بحقائقه الثابتة، فلما وقع الصدام بين الْعِلْم والدين بِسَبَب تَعَنُّتِ وجهلِ الْكَنيسة الغربية؛ تم الفصل بين الدين والْعِلْم.

هذا وقع فِي الغرب.

ثم أرادوا أن يمدُّوا ذَيْلَ ذَلِكَ علي المجتمعات الإسلامية، فَتَسَلَّلُوا لَمَّا ذهبت البِعْثَاتُ إلي تلك الديار من أجل أن تنقل لا العاداتِ ولا الأخلاقَ ولا التقاليدَ، وإنما من أجل أَنْ تنقلَ ما وصلوا إِلَيْهِ من التقدم التقني، ومن الْعِلْم المادي، فما عادوا إلا بنقلِ العاداتِ والتقاليد، كما فعل «الطَّهْطَاوِيُّ» وغيرُه، عَنْدما كَانَ شيخًا مرافقًا للبِعثة من أجل أَنْ يَؤُمَّهُمْ فِي الصلاة، وأَنْ يُفْتِيَهُمْ فِي ديار الغُرْبَةِ فِيما يَعْرِضُ لهم من مسائل الدين.

فلما رَأَى المَسَارِحَ الفَرَنْسِيَّةَ، وأَبصَرَتْ عَيْنَاهُ النساءَ الفرنسياتِ، وقد تَهَتَّكْنَ وَتَبَذَّلْنَ وَتَعَرَّيْنَ، وكان الرجل من الجنوب فِي مصر، والمرأة فِيه فِي غاية المحافظة، فلما انتقل هذه النقلة؛ عاد مَبْهُورًا بالذي رآه، يدعو إِلَيْهِ، فكتب فِي ذَلِكَ كتابًا سماه ب«**تلخيصِ الإِبْرِيزِ فِي أحوالِ أو فِي شُئُونِ باريس**»، أو كما سماه.

و«**التَّنْوِيرِيُّونَ**» الآنَ فِي هذا العصر يبعثون هذه الكتب من كهوفها وقبورها، ويريدون أن يقرأها الناشئة من المسلمين، لَمَّا وَجَدُوا أَنَّ الناشئة من المسلمين قد أقبلوا فِي الجملة على معرفة الدين، وعلى التمسك بالتعاليم، فجاءهم الشيطان بهذه الأفكار الشيطانية، من أجل أن يَحْرِفُوا الناس عما وصلوا إِلَيْهِ من الْحَقِّ.

الْمُلْحِدُونَ الماديون فِي الدول الإسلامية والعربية؛ مِنَ القَوَاسم المشتَرَكَة بينهم:

*أَنَّهُم يمنعون من محاربة الاحتلال، يَقِفُونَ دائمًا ضد مقاومة الاحتلال.

يدْعون إِلَى الرضا بالأمر الواقع، وأن هَؤُلَاءِ إنما جاءوا لتنويرنا، وإخراجنا من الجهالة والمرض والفقر؛ فِينبغي علينا أن نشكرهم !!

كما وقع ذَلِكَ بالنسبة للحملة الفرنسية على مصر، وما زالوا إِلَى يوم الناس هذا يحتفلون بذكرى الاحتلال الفرنسي لمصرَ على أَنَّهُ بداية التنوير فِي العصر الحاضر، وفي الواقع المعاصر للأمة المصرية، وكَذَلِكَ للشرق بأجمعه!!

وهذا مَحْضُ الوَهْمِ، وإنما جاءت الحملة الفرنسية لِوَأْدِ النهضة الإسلامية فِي مصر، وكَذَلِكَ فِي العالم الإسلامي العربي، وكانت هذه النهضة الإسلامية على وَشْكِ أَنْ تُؤْتِيَ أُكُلَهَا، وأَنْ تقومَ على سوقِها وتستويَ عليه، فجاءت الحملة الفرنسية من أجل وَأْدِ هذا.

ومن القواسم المشتركة بين ملاحدة العرب:

*تعاونُهم الوثيق مع الصهيونية والماسونية، ومَدْحُهم اللَّامَحْدُود للصهاينة واليهود.

هذه سِمَةٌ غالبةٌ على جميع الملاحدة والمرتدين؛ لأَنَّ الملحدَ فِي الْحَقِّ مشرك، وقد يُستَغْرَبُ من ذَلِكَ؛ لأن الملاحدة المعاصرين على وجه الخصوص لما أنكروا وُجُودَ الخَالِقِ الْعَظِيم، فذهبوا إِلَى نظرياتٍ يفسرون فِيها الخلق، وينظرون فِيها إِلَى سبب الوجود؛ فبعضهم يَقُول: الطبيعة!!

فجعلها إلهًا معبودًا!!

فهذا مشركٌ بالله -جَلَّ وَعَلَا-.

وأما الملحد؛ فهو الَّذِي لا يُثْبِتُ خالقًا فِي الأصل، فينكر وُجُود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وينكر أن يكون سَبَبٌ مَّا قد أدى إِلَى خلق الخلق وإيجاد الوجود.

فأما هَؤُلَاءِ؛ فهَؤُلَاءِ مشركون على هذه الصورة وعلى هذا النحو، وسيأتي بسط هذا إن شاء الله -جَلَّ وَعَلَا-.

*يَدَّعِي الملاحدة أنَّ الدينَ سببٌ للتناحُرِ ونَشْرِ البغضاء فِي الْأَرْض، وأنه تسبب فِي إشعال وإذكاء نار الحروب فِي الكثير من بقاع الْأَرْض، وقد حان الوقت لتركه والتخلِّي عَنْه!!

هَؤُلَاءِ الكَذَبَةُ مِنْ الملاحدةِ الماديين يَقُولون: إنَّ الدين سببٌ للتناحرِ ونشرِ البغضاء فِي الْأَرْض!!

وهل قامت الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية لأسباب دينية؟!!

ألم تقم الحرب العالمية الأولى، وكذا الحرب الثانية بأسبابٍ علمية؟!

بأسبابٍ تِقْنِيَّةٍ؟!

لم تَقُمْ بأسبابٍ دينية!!

فهَؤُلَاءِ الكذبة يَقُولون: إن الدين هو الَّذِي يؤدي إِلَى نشر التناحر، ونشرِ البغضاء فِي الْأَرْض، فينبغي أن يُتَخَلَّى عَنْه!!

هذه هي فكرة «الماسونية» التي تجمع تحت لوائِها كلَّ منحرفٍ على ظهرِ الْأَرْضِ؛ مهما كَانَ دينه!!

ويقولون: نحن لا نناقش هذه الأمور، ثم إِذَا ما اسْتَمَرَّ مَرِيرُهُ مع الماسون؛ صار بعد حينٍ ملحدًا بلا دين؛ لِأَنَّهُ يتخلى مع الوقت بِسَبَب التعايش السلمي بين هذه الأديان المتضادة والمتباينة، فإنه بعد حينٍ يتخلى عَنْ دينه؛ حتى يصير ماسونيًا ملحدًا.

انتشر الْإِلْحَادُ أَوَّلًا فِي أُورُوبَّا، وكانت له أَسْبَابُه التي سيأتي بسطها إن شاء الله جَلَّ وَعَلَا.

انتقل بعد ذَلِكَ الْإِلْحَادُ إِلَى أمريكا، ومن أُورُوبَّا وأمريكا إِلَى سائرِ بقاع العالم.

عندما حَكَمَت «الشيوعيةُ» فِيما كَانَ يُعْرَفُ بـ«الاتحادِ السُّوفِييتِيِّ» قبل انْهِيَارِهِ وتَفَكُّكِهِ؛ فَرَضَتِ الْإِلْحَادَ فرضًا على شعوبه، وأَنْشَأَتْ له مَدَارِسَ وَجَمْعِيَّاتٍ.

كَانُوا يحاربون الدين الإسلامي خاصة؛ فإنَّ الدول التي وقعت تحت الحكم الشيوعي كَانَ أفرادُها يُؤْمَرُون؛ بل يُجْبَرُونَ على تغييرِ أسمائهم، وكان الواحد منهم إِذَا ضُبِطَ تاليًا لآية من كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ أُعْدِمَ بِأَبْشَع صُوَرِ الإِعدامِ.

وكان التفتيش لا يَفْتُرُ أبدًا عَن النظر إِلَى ما عَنْد المسلمين فِي بيوتهم؛ لأن هذه الدول كَانَت دولًا إسلامية، فلما جاءت الشيوعية على يَدَيْ ماركِسْ ومَنْ تَبِعَهُ، ثم انتشرت بعد ذَلِكَ؛ احْتَلَّت الدُّوَلَ الإسلاميةَ التي تُجَاوِرُ روسيا الشيوعيةَ، وهي دُوَلٌ إسلاميةٌ، وأهلُها كَانُوا من المسلمين، وكان لهم مَوَاقِفُ صِدْقٍ فِي نُصْرَةِ دينِ ربِّ العالمين، فَبَسَطُوا النُّفُوذَ عليهم، واحْتَلُّوا ديارَهم، وأَدْخَلُوهَا فِيما سُمِّيَ بالاتحادِ السُّوفِيتِيِّ الشُّيُوعِيِّ، وفَرَضُوا الشيوعيةَ عليهم فرضًا، فنقلوهم من الإسلام إِلَى الشيوعية!!

هذه نَقْلَةٌ لا تَقْبَلُها الطبيعةُ البَشَرِيَّة.

أَمِنَ الإسلامِ، مِنَ الحَقِّ إِلَى سواءِ الباطل؟!!

ففَرَضُوا عليهم ذَلِكَ، فكَانُوا فِي جملتهم فِي البداية يقاوِمون بعضَ المقاومةِ السَّلْبِيَّةِ، يُعَلِّمُونَ أبناءَهم فِي الخَفَاءِ ما تَيَسَّرَ مما يعرفونه من دين الله، وربما كَانَ الواحد منهم مالكًا لنسخةٍ من القرآنِ الْعَظِيمِ فَيُخْفِيهَا، بحيث إِذَا وَجَدَ غَفْلَةً من السُّلُطَاتِ؛ اِنْتَحَى ناحيةً فِي خَفَاءٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتْلُوَ آيةً مِنْ آياتِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

إذا ضُبِطَ عَنْده ورقةٌ من المصحفِ أُعْدِمَ؛ بل وَأُعْدِمَ أهلُه، حتى أجبروهم على تغيير أسمائهم؛ حتى تصير كأسماءِ أُولَئِكَ القوم، فلما جاء هذا الاتحاد بهذا البلاء؛ أُنْشِأَتْ للإلْحَاد وللشيوعية فِي تلك الدولِ الإسلاميةِ مدارسُ وجمعياتٌ.

حاولت «الشيوعيةُ» نَشْرَ الْإِلْحَادِ فِي شَتَّى أنحاءِ العالَمِ عَنْ طريق أحزابها، وسقوطُ الشيوعيةِ فِي الوقت الحاضر يُنْبِأُ عَنْ قُرْبِ سقوط الْإِلْحَاد بإذن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي العالم كلِّه؛ لأن الْإِلْحَاد لم يَجِدْ على مَدَارِ تاريخِ البَشَرِ فِي الْأَرْض سُلْطَةً تَنْشُرُهُ بالسيفِ، تَفْرِضُهُ بالقوةِ، بالقوةِ الْمُفْرِطَةِ، مع ما الناسُ عليه مِن الضَّعْفِ والْمَسْكَنَةِ.

لم يَحْدُثْ ذَلِكَ فِي تاريخِ البَشَرِ إلا فِي هذا العصرِ لَمَّا نَشَأَ الاتحادُ السُّوفْييتِيُّ، ونَشَرَ الْإِلْحَادَ فِي الدول التِي احتلها بالسيف وبالسلاح؛ ولَـكِنَّ كثيرًا من المسلمين بعد أنْ سَقَطَ وانْهَارَ عَادُوا إِلَى دين الله رب العالمين، وأكثرُهم يَتَلَمَّسُ طريقَ الْحَقِّ، وهم مَعْذُورُونَ فِي الجملةِ فِي بعض الأمورِ؛ لِأَنَّهُم خَرَجُوا مِنْ هذا التَّهَرُّءِ الأخلاقِيِّ؛ بل مِنَ الِانْعِدَامِ الأخلاقِيِّ إِلَى دِينِ اللهِ ربِّ العالمين.

مِن الجهلِ الْمَحْضِ بِدِينِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وتَجْهِيلِ الخلقِ به، إِلَى مُحَاوَلَةِ معرفةِ الدينِ والتوحيدِ.

ومسؤوليةُ المسلمينَ فِي العالَمِ قائمةٌ على كَوَاهِلِهِمْ مِنْ أَجْلِ تَعْلِيمِهِمْ دينَ اللهِ ربِّ العالمين، ونَشْرِ التوحيدِ والسنةِ بينَهم.

يوجد الآن فِي الهند جمعيةٌ تُسَمَّى ب«جمعيةِ النَّشْرِ الْإِلْحَادِيَة»، وهذه الجمعياتُ حديثةُ التكوين، وتُرَكِّزُ نشاطَها فِي المناطِقِ الإسلاميةِ، ويَرَأْسُهَا «جُوزِيفْ إِيدْيَامَارْ»، وكان نصرانيًا من خطباء التنصير، ومعلمًا فِي إحدى مدارس الأَحَد، وعضوًا فِي «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي»:

أَلَّفَ سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف «١٩٥٣» كتابًا يُدْعَى: «إنما عيسى بَشَر».

غضبت الكَنِيسة وطردته، فتزوج بامرأة هُنْدُوكِيَّة، وبدأ نشاطه الْإِلْحَادي، وأصدر مجلةً إِلْحَاديةً باسم: «إِسْكِرَا»، أي: شَرَارَةِ النار، ولَمَّا توقفت عَمِلَ مُرَاسِلًا بمجلة «كِيرَالَا شْبِيتْم»، أي: صوتِ كِيرَالَا الأسبوعي، وقد نال «جائزة الْإِلْحَادِ العالمية»!!

الإِلْحَادُ صارت له جوائزُ عالميةٌ!!

نال جائزةَ الْإِلْحَادِ العالميةَ سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وألف «١٩٧٨»، ويُعْتَبَرُ أولَ مَن نالها من آسيا.

فيتضح مما سبق: أَنَّ الْإِلْحَادَ مذهب فلسفي يقوم على إنكار وُجُود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويذهب إِلَى أن الكون بلا خالق.

مذهب فلسفي عَنْد الملاحدة من المفكرين والفلاسفة والأدباء وغيرهم.

وأما الملاحدة من العوام والجهلاء الَّذِينَ يَتْبَعُونهم؛ فإلْحَادهم ليس إِلْحَادًا فلسفيًا، إنما هو إِلْحَادُ بَطْنٍ وَفَرْجٍ؛ من أجل تحصيل اللذات، ومن أجل تحصيل الملذَّات.

يُعَدُّ أتباعُ «العقلانيةِ» المؤسسينَ الْحَقيقيينَ للإِلْحَاد الَّذِي يُنْكِرُ الحياةَ الآخرة، ويرى أنَّ المادة أزلية أبدية، وأنه لا يوجد شيء اسمه: «معجزاتُ الأنبياء»؛ فذَلِكَ مما لا يقبله الْعِلْمُ فِي زعم الْمُلْحِدِينَ الَّذِينَ لا يعترفون أَيْضًا بِأَيَّةِ مفاهيمَ أخلاقيةٍ؛ لأن الَّذِي يُؤَسِّسُ المفاهيمَ الأخلاقية هو الدينُ، هو الوحيُ، فإذا أنكروه، وإذا أنكروا وُجُود الخَالِق الْعَظِيم، وأنكروا الرسالة والوحي، وأنكروا البعث والجزاء؛ فلا شك أَنَّهُم ينكرون الأخلاق، وتصير الحياة مادية محضة؛ حتى إن الإنسان لَيَتَسَفَّلُ حتى يكون أقل من البهائم.

لا يعترفون بقيم الْحَقّ والعدل، ولا بفكرة الروح؛ ولذا فإن التاريخ عَنْد الْمُلْحِدِينَ -كما مرَّ- هو صورةٌ للجرائم والحماقات وخَيْبَة الأمل!!

وقصة التاريخ عَنْدهم لا تعني شيئًا، والإنسان مجرد مادة تُطَبَّقُ عليه القوانينُ الطبيعيةُ كافةً.

وكلُّ ذَلِكَ مما ينبغي أن يَحْذَرَهُ الشابُّ المسلمُ عَنْدما يُطَالِعُ أو يَسْمَعُ أفكارَ هذا المذهبِ الخبيثِ، وهو الآن -كما مَرَّ- يَجِدُ مُؤَسَّسَاتٍ تدعو إِلَيْهِ، ومَجَلَّاتٍ وجَمْعِيَّاتٍ، وجوائزَ لِلْحَضِّ عليه والترغيبِ فِيه.

وهو يُزَيِّنُ للشباب المسلم؛ بل للمسلمين فِي كل مكان؛ من أجل أن يَتَهَافَتُوا عليه تهَافُتَ الفَرَاشِ على النار، وقد وَصَلُوا من ذَلِكَ إِلَى درجةٍ مَّا، حتى ظَهَرَ فِي مصرَ فِي هذه الآونَةِ مِنَ الملاحدةِ مَنْ يَخْرُجُ لِلْمُنَاظَرَةِ على شاشاتِ التِّلْفَازِ، فَيُنَاظِرُ عَنْ مَذْهَبِهِ الْإِلْحَاديِّ، وهذه مِنْ أَعْظَمِ الدعوةِ إِلَى الْإِلْحَادِ بينَ المسلمينَ وفي المجتمعِ المسلم.

وأيضًا ظهر من الملاحدة فِي مصر مَنْ طَالَبَ اللجنةَ التي كَانَت تُعِدُّ مشروعَ الدُّستورِ المصري؛ مَنْ طَالَبَ اللجنةَ بإقرار حقوق الملاحدة فِي الدستور المصري الجديد، وذهب بعضهم للاجتماع برئيس تلك اللجنة من أجل أن يُبَيِّنَ له ما هم عليه، ومن أجل أن يعرضَ عليه وعلى اللجنة تبعًا مَطَالِبَ الملاحدةِ فِي مصر!!

ولا شك أن الَّذِي يظهر من هذا إنما هو قمة جبل الثلج، وجبلُ الثلج -كما هو معلوم- لا يَظْهَرُ منه إلا قِمَّتُهُ، وهي بالنسبة إِلَى قاعدة جبل الجليد الَّذِي يكون مَطْمُورًا أو مَغْمُورًا تحت سطح الماء؛ هذه القمةُ لا شيءَ بالنسبةِ لِبَقِيَّةِ جبلِ الجليدِ.

فالذي يظهر الآن إنما هو قمة جبل الجليد فِي هذا الْإِلْحَاد المعاصر، وما خفي كَانَ أعظم، والله المستعان وعليه التكلان.

كثيرٌ جدًا من المسلمين يحاولون، كُلٌّ بطريقته، وكُلٌّ فِي تخصصه، يحاولون صد الهجمة الْإِلْحَادية، ويكتبون الكتب، وينشرون النشْرات، ويُبَيِّنُون للمسلمين فِي المحاضرات وفي الخطب وغير ذَلِكَ خطورةَ الْإِلْحَاد، ولا يَلْتَفِتُ إِلَى خطورة الْإِلْحَاد فِي الجملة إلا جمعٌ قليل بالنسبة إِلَى المتكلمين فِي الدين.

فأكثر الَّذِينَ يتكلمون فِي الدين فِي هذا الوقت قومٌ فارغة عقولهم، غَلَبَت عليهم حماقاتهم، يَشْغَلُون المسلمين بأمور غريبة، ويُشَتِّتُونهم، ويفرقون صَفَّهَم، ويَدْعون إِلَى إحداثِ الفوضى والفساد فِي مجتمعاتِهم، وهي أفضل بيئة للإِلْحَاد؛ لأن الْإِلْحَاد مِنْ غَرَضِه: أَنْ يُحدِثَ الفوضى، فإذا وقعت الفوضى؛ فهذه هي البيئة المناسبة للإِلْحَاد؛ لِذَلِكَ لم يُسْمَعْ فِي هذا الوقت ولا فِي وقت سبق عَنْ الدعوة إِلَى الْإِلْحَاد فِي مصر؛ إِلَّا لَمَّا وقعت الاضطراباتُ التي وقعت فِيها، ووقع من الفوضى فِي مصر ما وقع، فظهر الْإِلْحَادُ برأسه، وَأَطَلَّ على هذا المجتمع المسلم بوجهِهِ الكَالِحِ القَبِيحِ، وارتفع صوتُ الْإِلْحَادِ يدعو إِلَى تقرير حقوقه، لا بالأمر الواقع، وإنما بقوة القانون!!

يريدون أن يَفْرِضُوا لأنفسِهم فُرُوضًا فِي هذا المجتمع بقوةِ القانون!!

ما الَّذِي دعاهم إِلَى هذا؟!!

ما الَّذِي أَفْسَحَ لهم المَجَالَ؟!!

ومَنْ أَفْسَحَ لهم المَجَالَ؟!!

ما وقع فِي مصر من هذه الاضطرابات وهذه الفوضى التي إنما كَانَت فِي مُعْظَمِها باسم دين الله رب العالمين؛ فانظر إِلَى أيِّ شيء صارت؟!!

مِن النقيض إِلَى النقيض!!

من الدعوةِ إِلَى تطبيق الشريعة، والالتزامِ بها، وإقامةِ دينِ اللهِ فِي الْأَرْض، وإقامةِ وإعادةِ الخلافةِ الإسلاميةِ، إِلَى غير ذَلِكَ من هذه الدَّعَاوَى الفارغةِ؛ إِلَى ظهورِ الْإِلْحَادِ فِي المجتمع المسلم!!

وأما ما دُونَ الْإِلْحَادِ فَحَدِّثْ عَنِ انتشارِهِ وفُشُوِّهِ بِلا حَرَجٍ؛ مِنَ انْحِلَالِ الأخلاقِ، وَمِنَ انهيار المنظومة الأخلاقية فِي المجتمع المسلم، وفي مصر على وجه التحديد؛ فإنك ما عدت تجد صغيرًا يحترم كبيرًا، ولا كبيرًا يحنو على صغير!!

وما وجدتَ أحدًا ينظر إِلَى فضيلةٍ إلا مَنْ رَحِمَ اللهُ!!

وصار البنات والنساء يتهافتن على أمورٍ فِيها من الانحلالِ ما فِيه باسمِ الحرية!!

ألم تَقُمْ ثورتُهُم مِنْ أجل الحرية؟!!

فهذه هي الحرية فِي جانبٍ من جوانبها!!

والله وحده يعلم إِلَى أي شيءٍ تؤول الأمور، والله المستعان.

في كتاب «الفيزياء ووجود الخَالِق» بحثٌ عَنِ الْإِلْحَادِ فِي العصر الْحَدِيث:

كان الناس فِي العصور الماضية يَعْتَقِدُونَ اعتقادًا جازمًا بوجود خالقٍ مُدبِّرٍ للكون، وكَانُوا يعدون هذا من البدائه العقلية، وكان الْإِلْحَاد بمعناه الْحَدِيثِ الَّذِي هو إنكار وُجُود هذا الخَالِق؛ كَانَ أمرًا شاذًّا لا يَقُول به إلا فرد بعد فرد من الناس، وكان الناس يجتنبونه كما يُجْتَنَبُ المرض الشديد، وَيُجْتَنَبُ المريضُ الَّذِي يُخْشَى مِنْ مرضه.

فكان الواحد بعد الواحد يُلْحِدُ هذا الْإِلْحَادَ، وظل الأمر على ذَلِكَ حتى القرنِ الثامنَ عَشَرَ الميلاديِّ على وجه التقريب، ثم بدأ الْإِلْحَادُ يَحُلُّ محل الإيمان عَنْد كثير من قادة الفكر الأوروبي، وصار بعد مَقْدَمِ الشيوعيةِ الدينَ الرسميَّ لِدُوَلِهَا.

ولما صارت للإِلْحَاد هذه المكانةُ فِي الغرب، ولما كَانَت الحضارة الغربية هي الحضارةَ السائدةَ فِي هذا العصر؛ فقد انتشر هذا الْإِلْحَاد، وانتشرت أكثرُ منه لَوَازِمُهُ فِي أرجاءِ الْمَعْمُورَةِ انتشارًا لم يُعْهَدْ له مَثِيلٌ فِيما مَضَى من الزمان على طُولِ تاريخِ الإنسانِ فِي الْأَرْض.

وكان من نتائج ذَلِكَ: أنْ صار الْإِلْحَاد من الناحية الْعِلْمية والعقلية الموقفَ الطبيعيَّ الَّذِي لا يحتاج إِلَى دليل ولا برهان، وصار المؤمن هو المطالَبَ بمثل هذا الدليل، أي انعكست الصورة، وانعكس الوضع والقاعدة!!

قديمًا كَانَ مَنْ أَلْحَدَ يُطَالَبُ بالدليلِ على إِلْحَاده، فلا يملك دليلًا، فلما فَشَا الْإِلْحَادُ، وصار الدينَ الرسميَّ لكثير من الدول الأوروبية؛ صار الملحدُ هو الَّذِي يطالِبُ المؤمنَ بأنْ يأتي بالدليل على وُجُود الخَالِق الْعَظِيم!!

وهذا انعكاسٌ للوضع، انعكاسٌ للحقيقة!!

صار الملحد الَّذِي يتحدى المؤمن، ويتهمه بعدم الْعِلْمِيَّةِ وعدم العقلانية، ويتهمه بالتقليد والانسياق وراء العواطف، وصار إظهار الاهتمام بالدين - لاسيما فِي وسائل الإعلام العامة - أمرًا مُسْتَغْرَبًا؛ بل منكَرًا.

قال صاحب كتاب «ثقافة الْكُفْر»:

إنه ما أَنِ انْتَشَرَتْ بعضُ الأخبارِ ونشرَت فِي مجلة **«نِيُوزْوِيكْ»**، فَنُشِرَ فِيها مقالٌ عَنِ الدين، مَا أنْ نُشِرَ حتى جاء المجلةَ خطابٌ نَشَرَتْهُ من قارئٍ يَلُومُهَا على إفساح المجال لِمِثْلِ هذا الهراء.

ثم يُعَلِّق على ذَلِكَ قائلًا من حيث الإحصاء:

فإنَّ كاتب الخطاب ينتمي إِلَى الأقلية -أي هذا الملحدُ ينتمي إِلَى الأقلية-، وأما سياسيًا وثقافيًا؛ فإنه ينتمي إِلَى التيار الأمريكي الغالب؛ لأن أُولَئِكَ الَّذِينَ يصلون بانتظام؛ بل أُولَئِكَ الَّذِينَ يؤمنون بالله يحرصون على إبقاء ذَلِكَ فِي السر؛ بل على عَدِّهِ سِرًا يُخْجَلُ مِنْ إفشاءه.

وذَلِكَ أَنَّهُ فِيما عدا الالتجاءِ إِلَى اللهِ الشعائريِّ الظاهريِّ المتوقَّعِ مِنْ سياسيينَ -هذا ما نشرَتْهُ المجلة!!-؛ فإنَّ الأمريكي الَّذِي يأخذ دينه مأخذ الجِدِّ، ويعده شيئًا مأمورًا به، لا مجردَ خيارٍ؛ يُخَاطِرُ بأنْ يُعَدَّ من المارِقِين.

صار الدينُ هو الظاهرةَ الاجتماعيةَ التي تحتاج إِلَى تفسير؛ فيقال: هَؤُلَاءِ الْمُتَدَيِّنُونَ؛ لماذا هم متدينون؟!!

هذه المجتمعات المتخلفة الرجعية، لا بد من اتخاذ الوسائل من أجل إخراجها من رجعيتها وتخلُفِها !!

كيف؟!!

بإخراجها من دينها؟!!

فصار الدينُ الظاهرةَ الاجتماعيةَ التي تحتاج إِلَى تفسير!!

وأما عدم التدين؛ فهو الأمر الطبيعي الَّذِي لا يحتاج دراسة ولا بحثًا ولا تنقيبًا!!

صار الْإِلْحَادُ القاعدةَ المعلنةَ أو المُضمرةَ التي تقوم عليها فلسفة العلوم؛ طبيعيةً كَانَت أم اجتماعيةً أم إنسانيةً؛ فصار الْإِلْحَاد لِذَلِكَ جزءًا من مفهوم الْعِلْم، ومن هنا جاءت المقابلة بين ما يسمى بالتفسير الْعِلْمي والتفسير الديني.

فالتفسير الْعِلْمي: هو التفسير الَّذِي يفترض أنَّ الكونَ مُكْتَفٍ بنفسه، لم يَخْلُقْهُ ولا يُصَرِّفُ أمرَه خالقٌ.

وأما التفسير الديني: فهو الَّذِي يجعل للإرادة الإلهية تَدَخُّلًا فِي حوادث الكون.

فصار عَنْدنا تفسيران:

تفسير علمي: وهو التفسير الْإِلْحَادي الَّذِي ينكر وُجُود الخَالِق الْعَظِيم.

وتفسير ديني: وهو الَّذِي يجعل للإرادة الإلهية تَدَخُّلًا فِي حوادث الكون.

وإذا كَانَ الْعِلْمُ قد وُضِعَ بِسَبَب فلسفته الْإِلْحَادية فِي مقابل الدين؛ فقد وُضِعَ الدينُ -مهما كَانَ نوعه- فِي زُمْرَةِ الكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ وسائرِ أنواعِ الشعوذةِ والأساطير، أو عُدَّ حين يُحْتَرَمُ -أي الدينُ- مِنْ قَبِيلِ الأدبِ والفن الَّذِي يعبِّرُ عَنْ المشاعر، ولا يقرر الْحَقائق.

صاحَبَ هذا الْإِلْحَادَ فِي أُورُوبَّا تطورٌ هائلٌ لم يُعْهَد له مثيلٌ فِي مجالات العلوم الطبيعية، وما يقوم عليها من تِقْنِيَةٍ دَخلَتْ نَوَاحِيَ الحياةِ المختلفةِ وسَهَّلَتْهَا، فَرَبَطَ الناسُ فِي الغرب بين هذا وذاك، فاعتقدوا أن هذا التطورَ ما كَانَ لِيَحْدُثَ لولا اطِّرَاحُ الدينِ وإحلالُ الفلسفةِ الماديةِ الْإِلْحَاديةِ العقلانيةِ التجريبيةِ مَحَلَّهُ.

وتَبِعَ الغربيين فِي هذا الاعتقادِ خَلْقٌ كثير من الأمم الأخرى، فظنوا أَنَّهُم لا يمكنهم أنْ يَبْلُغُوا شَأْوَ الغربيين فِي التقدم الْعِلْمي والتقني؛ إلا إِذَا هُمْ حَذَوْا حَذْوَهم فِي اطِّرَاحِ الدين واعتماد الفلسفة الْإِلْحَادية، وهو ما جاءنا به مَن بُعِثَ إِلَى الغرب من أجل أن يَنْقُلَ إلينا ما وَصَلَ إِلَيْهِ الغربُ من التقدم الْعِلْمي المادي، فرجعوا إلينا بأمثال هذه العقائد، وجَهِدُوا فِي أنْ يَنْشُرُوها بين

المسلمين، وَوَجَدَتْ بين المسلمينَ صَدَى؛ لِأَنَّهُ تم احتضانهم من جهاتٍ بعينها، وفُرِضَتْ أفكارُهم فرضًا، وغُيِّبَ الإسلامُ بِدَرْسِهِ عَنِ الْمَدَارِسِ والجامعاتِ.

وصار عَنْدنا اتجاهانِ فِي الْعِلْم، وكان الاتجاهُ قبل ذَلِكَ واحدًا، وهو الْعِلْمُ الديني، وكان يشمل تحت عباءته الْعِلْمَ المادي، فلما وقع الفِصَامُ بين هذا وذاك؛ صار الْعِلْمُ الدينيُّ مقصورًا على أقوام بأعيانهم.

هَؤُلَاءِ لا يرتقون فِي الحياة أيَّ مرتقى، ولا يعود عليهم دينهم وتَدَيُّنُهُمْ بما يُرَقِّي حياتهم المادية بحيث يَحْيَوْنَ فِي كفاية؛ فضلًا عما وراء ذَلِكَ من التَّرَفُّهِ.

وأما الَّذِينَ سلكوا مسلك الْعِلْم المادي، أو سلكوا مسلك التعليم المدني؛ فهَؤُلَاءِ فُتِحَتْ لهم الأبوابُ، وَأُعِدَّتْ لهم الوظائفُ، وأُغْدِقَ عليهم مِنَ الأموالِ ما أُغْدِقَ مِنْ رَوَاتِبِهِمْ وَمُكَافَآتِهِمْ، حتى صار الناس يحتقرون مَنْ يسلك مسلكَ طلبِ الْعِلْمِ الديني، ويحترمون مَنْ يسلك مسلك طلب **«الْعِلْم المدني اللاديني!!»**

ثم جاءت أمور شُوِّهَ فِيها مَن يتمسكُ بالدين فِي مظهره أو فِي كلامه، وصارت الرِّطَانَةُ الأعجمية هي السائدةَ والغالبةَ.

فالدينُ إِذَا ما احْتُرِمَ؛ فإنه يُعَدُّ مِن قبيل الأدب والفن الَّذِي يعبِّر عَنِ المشاعر، ولا يقرر الْحَقائق!!

أساطير!!

ولَـكِن؛ كذَلِكَ فِي الأدبِ أساطيرُ؛ فلماذا نقبل أساطير الأدب ولا نقبل أساطير الدين؟!!

فلْنجعلْ هذا مع هذا فِي قَرَن، ولْنَنْظُرْ إِلَيْهِ على أَنَّهُ من نَتَاجِ الأدبِ والفَنِّ، فهو مُعَبِّرٌ عَن المشاعر، وليس بمقرر للحقائق، حتى إِنَّ «جُومْ مِلْتُنْ» فِي **«الفردوس المفقود»** أخذ يبين طبقات الجحيم، ويجعل الناس فِي طبقات الجحيم كما يحب، فَتَصَوَّرَ أَنَّهُ قد نزل إِلَى الجحيم، وتَجَوَّلَ فِي طبقاته، وَمَرَّ على الناس الَّذِينَ يَعْرِفُهم، إِلَى غير ذَلِكَ من تخاريفه!! وكان فِي ذَلِكَ تابعًا لِ«دَانْتِي» فِي **«الكُومِيدْيَا الإلَهِيَةِ»** حذوَ النعل بالنعل؛ ولَـكِنْ هي نسخةٌ معاصرة.

صاحَبَ هذا الْإِلْحَادَ فِي أُورُوبَّا تطورٌ هائلٌ -كما مَرَّ-، فرَبَطَ الناسُ بين هذا وهذا، وقالوا: هذا الَّذِي بَلَغْنَاه من التطور الماديِّ إنما بلغناه بِسَبَبِ المعتقدِ الَّذِي صِرْنَا إِلَيْهِ، وهو الْإِلْحَاد.

ولم يقتصر أثرُ هذا الفكر الإِلْحَادي على مجال العلوم؛ بل دَخَلَ حياةَ الناسِ الاجتماعيةَ والسياسيةَ، فكما أن الدين أُقْصِيَ عَن المجال الْعِلْميِّ المشترَكِ بين الْعلماءِ، وصار فِي أحسن حالاته مسألةً خاصةً بالعالِمِ، ولا يَجْرُؤُ على ذِكْرِهَا !!

فلْيَتَدَيَّنْ ما شاء؛ ولَكِن ما عَلَاقةُ تَدَيُّنِهِ بالْعِلْمِ الَّذِي يُزَاوِلُهُ؟!!

دَعْكَ مِن الدفاعِ عَنْ معتقدِه أو الدعوة إِلَيْهِ!!

هذا فِي مجال العلوم !!

وأيضًا أُقْصِيَ الدينُ عَنْ المجال السياسي، حتى فِي البلاد الإسلامية إلا ما رحم ربك، وكاد أن يصير كما صار فِي الغرب مسألةً ذاتيةً تخص الفرد، ولا تتعلق بدساتيرِ البلادِ أو قوانينِها، أو سياساتِها الداخليةِ أو الخارجيةِ، أو التعليميةِ أو الإعلاميةِ.

هذا شيءٌ من مكونات الثقافة فِي المجتمعات!!

فالدين من مكونات الثقافة، لا أَنَّهُ الأصل الَّذِي تَصْدُرُ عَنْه جميع المقومات!!

ولَكِنْ يَقُولون: لا يمكن أن نستغني عَن الدين؛ ولَكِن على أَنَّهُ من مقومات الثقافة فِي المجتمع، مع ما يَدْخُلُ معه من هذه المقومات!!

فهكذا بدأ الإِلْحَاد فِي هذا العصر، وعلى هذا النحو انتشر فِي العالم.

وأما أَسْبَاب انتشاره فِي هذا العصر الَّذِي جعل الأمور تنقلب هكذا رأسًا على عقب، بعد أن كَانَ الملحد يتوارى ناحية، وإذا طولب بالدليل عل إنكاره وجحده للخالق الْعَظِيم لم يأت بدليل؛ صار هو الَّذِي يتعجب من وُجُود مَنْ يؤمن بوجود الخَالِق الْعَظِيم!!

الذي أدى إِلَى انقلاب الأمور هكذا رأسًا على عقب، وتَحَوُّلِ كثيرٍ من الناس فِي الغرب هذا التحولَ العجيبَ مِنَ الاعترافِ بربوبيةِ الخَالِقِ إِلَى إنكارِ وُجُودِه؛ بل إِلَى محاربةِ المؤمنينَ بوجودِه حَرْبًا ضَارِيَةً بالأقلامِ، وأحيانًا بِحَدِّ السِّنَانِ، كما حَدَثَ فِي البلاد الشيوعية.

حاول كثيرٌ من الغربيين أنفسِهم أن يفسروا هذه الظاهرة، وأن يجيبوا عَنْ مثل هذه الأسئلة، وكتبوا فِي ذَلِكَ كتبًا كثيرة.

وما ذكروه من الأَسْبَاب يُجْمَلُ فِي:

*ما كَانَ من التناقض الشديد بين كثيرٍ من دعاوى الدين الَّذِي ورثوه، والْعِلْم التجريبي الَّذِي اكتشفوه -كما مر تقرير ذَلِكَ-؛ فقد وجدوا وما زالوا يجدون كثيرًا من دعاوى دينهم مخالفةً لِمَا أَثْبَتَتْهُ عُلُومُهُمُ التجريبيةُ، والأمثلةُ على ذَلِكَ كثيرةٌ جدًا.

ويكفي أن تنظر فِي كتاب «مُورِيس بُوكَايْ»: **«الْعِلْم والكتاب المقدس والقرآن»** أو **«القرآن والتوراة والإنجيل فِي ضوء الْعِلْم الْحَدِيث»**، كما هو فِي الطبعة المترجمة إِلَى العربية.

***كذَلِكَ كَانَ من الأَسْبَاب:** التناقض بين منهج الْعِلْم التجريبي القائم على الدليل الحسي أو العقلي، ومنهجِ دينهم التسليمي؛ لأن قادتهم الدِّينِيِّينَ لم يكونوا يقبلون نقاشًا، ولا يلتزمون بالإتيان بدليل، وإنما هكذا يقررون!!

فما قرروه فهو الْحَقِيقة التي لا يُشَكُّ فِيها!!

فوقع التناقض بين منهج الْعِلْم التجريبي الَّذِي يقوم على الدليل الحسي أو العقلي، وهذا المنهجِ التسليمي، بين منهج الْعِلْم الَّذِي يشترط الاتساق المنطقي، ومنهج دينِهم الَّذِي يقبل المتناقضاتِ العقليةَ على أساس أن حقائق الدين يقبلها القلب؛ وإن رآها مخالفة لصريح العقل!!

فكذَلِكَ كَانَوا يُوهِمُونَ أتباعَ الْكَنِيسةِ الغربيةِ؛ أَنَّهُ ينبغي عليك أن تقبل هذا، وأن تعتقده، وألا تناقش فِيه، فإنْ نَاقَشَ كَانَ مُهَرْطِقًا، وربما حُكِمَ بقتله.

***من الأَسْبَاب أَيْضًا:** خوض كثير من علماء الدين وغيرهم من المثقفين الْمُتَدَيِّنِينَ فِي المسائل الغيبية، والحديثُ عَنْها بمجرد الرأي الَّذِي لا سند له من كتابهم، ولا دليل عليه من غيره.

مِنْ ذَلِكَ مثلًا: ما كتبه «نِيُوتِنْ» من كلامٍ مُفَصَّلٍ عَنْ طُوبُوغْرَافِيَّةِ جهنم. تكفل نِيُوتِنْ بأن يبينها لنا!!

مِن أين جاء بهذا؟!!

أَمِنْ كتابه؟! أَمْ مِن غيره؟!

أليس عالمًا؟!

فما دام عالمًا فِي فرعٍ من فروع الْعِلْم المادي؛ فلْيتكلمْ فِيما شاء!!

كذَلِكَ تَعُصُّبُ بعضِ الْعلماءِ الطَّبِيعِيِّينَ الْمُتَدَيِّنِينَ تعصبًا جعلهم يحاولون لَيَّ أعناقِ الْحَقائق الْعِلْمية؛ لِتُوَافِقَ الدعاوى الدينية.

من ذَلِكَ: أنَّ «المُطْرَان جِيمْزْ أَشِرْ» -وهو دارِسٌ مشهور للكتاب المقدس- اِسْتَنْتَجَ مِن تحليلٍ مُتَأَنٍّ لنصوصِ الكتاب المقدس أن الْأَرْض خُلِقَتْ فِي عامِ أربعٍ وأربعةِ آلافٍ «٤٠٠٤» قبل الميلاد!!

هكذا!!

ونُشِرَتْ هذه النتيجةُ التي تَوَصَّلَ إِلَيْها رئيسُ الْأَسَاقِفَةِ فِي سنةِ خمسينَ وستمائةٍ وألف «١٦٥٠» من التاريخ الصليبي، ولم تلبث أن أُلْحِقَتْ بهامشِ سِفْرِ التكوينِ، إِلَى النسخة المعتَمَدَةِ للكتاب المقدس!!

كأنها نُزِّلَتْ وحيًا معصومًا!!

وظَلَّتْ به حتى زمانِ دِكْتُورْيَا، ولا يزالُ مِن المُمْكِنِ وُجُودُها أحيانًا حتى اليومِ.

لم يكن غريبًا أنْ يَأْتِيَ هذا الزَّعْمُ مِنْ رجلِ دينٍ يَعْتَمِدُ على كتابِهِ؛ لَكِنَّ الغريبَ أنَّ مُعَاصِرًا لهذا الأُسْقُفِّ -وهو مُدِيرُ جامعةِ «كَامْبِرِيدج» آنذاك أَيَّدَ هذا الزعم؛ بل ذهب إِلَى أبعدَ من هذا؛ إذ زعم أنَّ الثالوثَ خَلَقَ الإنسان فِي الثالث والعشرين مِنْ أُكْتُوبر سنةَ أربعٍ وأربعةِ آلَافٍ «٤٠٠٤» قَبْلَ المِيلَادِ، عَنْدَ الساعةِ التاسعةِ صباحًا!!

كما أَوْضَحَ «رُونَالْد مِلَرْ»؛ قَالَ: إنَّ مُدِيرَ جامعةِ «كَامْبِرِيدج» هو وحدَه الَّذِي تَبْلُغُ به الْجُرْأَةُ أنْ يَجْعَلَ تاريخَ خَلْقِ الإنسانِ وَوَقْتَه مُوَافِقًا لِبِدَايَةِ العَامِ الدراسِيِّ!!

إذا رَأَى الناسُ هذا كَفَرُوا بالدين.

يقولون: هذا من الدين، ونَطَقَ به الكتابُ!!

فالناس حينئذٍ لا بد أن يَشُكُّوا فِي هذا الدين، أو أن يَكْفُرُوا به.

فكان هذا من الأَسْبَاب التي أدت إِلَى ظهور هذا الْإِلْحاد الأوروبِّيِّ وانتشارِهِ.

***وكَذَلِكَ من الْأَسْبَاب:** الخلافُ بين الْعِلْمِ والدينِ الَّذِي لم يَقْتَصِرْ على مسائلِ الدينِ الفرعيةِ؛ بل شَمِلَ مسائلَه الأُصولية.

فمِنَ المعروفِ الآنَ حتى عَنْد علماءِ اللّاهُوت: أَنَّهُ ليس هُنَاكَ مِنْ دليلٍ عِلْمِيٍّ على أن الكتاب الَّذِي يَقُومُ عليه الدينُ كلُّه هو مِنْ قَوْلِ المسيح.

بل المعروفُ أَنَّهُ كتبه أناسٌ آخَرُون، منهم مَنْ هو معروفٌ، ومنهم مَنْ ليس بمعروفٍ -هذا مقرَّرٌ حتى عَنْد علماءِ اللاهوت!-، وأنهم كتبوه بعدَ رَفْعِهِ بِآمَادٍ طويلة -هم يَقُولون: بَعْدَ مَوْتِهِ، أو بَعْدَ صَلْبِهِ!!-، وأن هُنَالِكَ تناقضًا فِي أقوالِ هَؤُلَاءِ الكُتَّاب، حتى صارت دراسةُ مِثْلِ هذا التناقضِ تُسَمَّى عَنْدهم ب«النقضِ الأعلى».

هذا مشهورٌ عَنْدَهم، ليس بِمُنْكَرٍ.

فالدين لم يَدْخُلْ فِي الصِّدَامِ مع الْعِلْمِ بالمسائلِ الدينيةِ الْجُزْئِيَّةِ؛ بل بأصلِ الأصولِ فِيهِ، هذا كُلُّه هو دينُ الْكَنيسَةِ الغَرْبِيَّةِ!!

***كذَلِكَ من الأَسْبَاب:** أَنَّهُ قد شَمِلَ التناقضُ فكرةَ الألوهيةِ نفسَها، فبينما يوصَفُ الإلهُ بأنه هو الخَالِقُ؛ يُنْسَبُ إِلَيْهِ الولد!!

وبينما يقال: إن عيسى ابن الله؛ يقال: أَنَّهُ صُلِبَ!!

وبينما يقال: إن الإله واحد؛ يقال: أَنَّهُ مُكَوَّنٌ مِن ثلاثةِ أَقَانِيمَ، هي: الأبُ، والابنُ، ورُوحُ القُدُسِ !! وهكذا.

فوقع التناقض؛ حتى فِي فكرة الألوهية ذاتِها.

رَأَى بعضُ المؤمنين من النصارى أنَّ وصفًا كهذا لله إِذَا أُخِذَ على ظاهره التي تَدُلّ عليه اللغة؛ جَعَلَ الخَالِقَ تعالى مشابِهًا للمخلوقات، ففروا من هذا التشبيه إِلَى ما سماه علماؤنا من أهل السُّنة بالتعطيل، فلم يكتفوا بتأويل هذه الصفات التي تَدُلّ على المشابهة؛ بل أَوَّلُوا كل الصفات الأخرى، فجعلوا الخَالِقَ شيئًا مجردًا، فهو لا يوصف بالعُلو، ولا بالمباينة للمخلوقات، ولا بأنَّ له ذاتًا؛ ولا أن له صورةً؛ وإنما هو شيءٌ مُجَرَّدٌ لا يوصَفُ بصفةٍ مِنَ الصفاتِ الثُّبُوتِيَّةِ؛ كالحياةِ والسمعِ والبصرِ والكلامِ وما أشبه!!

كَتَبَ أحدُ القَسَاوِسَةِ قريبًا كتابًا أسماه: «الإلهُ الباطنيُّ»، زعم فِيه أَنَّهُ ليس لله تعالى وُجُودٌ خارجي، وأن الإيمان بالله إنْ هو إلا إيمانٌ بمجموعةٍ مِن المُثُلِ والمبادئِ الخُلُقيةِ.

هذا التصورُ التعطيليُّ للخالقِ أَصْبَحَ الآنَ التصورَ الشائعَ بين جماهيرِ المثقفينَ مِنْ أَهْلِ الدِّيَانَتَيْنِ: النصرانيةِ واليهوديةِ.

فهذا الإيمانُ باللهِ عَنْدَهم، صار هذا التصورَ التعطيليَّ للخالق الْعَظِيم؛ بل ربما كَانَ الأمرُ قريبًا من ذَلِكَ؛ حتى بَيْنَ كثيرٍ مِن المثقفين من المسلمين أنفسِهم.

إنَّ المسافةَ ليست بعيدةً بين هذا التصورِ التجريبيِّ للخالقِ وبين الْإِلْحَاد.

الإِلْحَاد: إنكارٌ لوجود الخَالِق، وهذا -أي التصورُ التجريبيُّ- إنكارٌ لكلِّ صفاته، وهل يكون وُجُودُ أيِّ ذاتٍ إلا بصفاتٍ ثبوتيةٍ؟!

فمَن أنكر كلَّ الصفاتِ الثبوتيةِ؛ فقد أنكر الوجودَ، شَعَرَ بذَلِكَ أم لم يشعر؛ ولذا كَانَ مِثْلُ هذا التصورِ لِوُجُودِ الخَالِقِ مقدِّمةً مُمَهِّدَةً للإِلْحَاد، وقد فَطِنَ أئمةُ علماءِ السنةِ قديمًا إِلَى مثل هذا، فكَانُوا يَقُولون: إنَّ المُشَبِّهَ يَعْبُدُ صَنَمًا، والمُعَطِّلَ يَعْبُدُ عَدَمًا.

المشبِّهُ هو الَّذِي يَجْعَلُ صفاتِ الخَالِقِ كصفاتِ المخلوقين، وهكذا مع فارقٍ واحدٍ، هو: عِظَمُ هذه الصفاتِ حينَ يُوصَفُ بها الخَالِقُ؛ لَكِنْ يَجْعَلُونَ المُشَابَهَةَ -بل المُمَاثَلَةَ- واقعةً بَيْنَ صفاتِ الخَالِقِ وصفاتِ المخلوقين.

وأما المُعَطِّلُ؛ فهو الَّذِي يَفِرُّ من تشبيهِ اللهِ بالمخلوقات؛ لِيَقَعَ فِي تشبيهٍ شَرٍّ منه؛ وهو: تشبيه الخَالِقِ الْعَظِيم بالمعدوماتِ والمستحيلاتِ؛ لأن المعدوم هو الَّذِي يوصَفُ بكل صفةٍ سَلْبِيَّةٍ؛ كَأَنْ تَقُولَ: هُوَ لَيْسَ داخِلَ العالَمِ ولا خَارِجَهُ، ولا أَمَامَ وَلَا خَلْفَ، وَلَا فَوْقَ وَلَا تَحْتَ، ولا عَنْ يمينٍ ولا عَنْ شمالٍ.

وهكذا لا يوصَفُ بصفةٍ ثُبُوتيةٍ، ولا تُثْبَتُ له صفةٌ مِن الصفاتِ الثبوتيةِ؛ كَالْعَظَمَةِ، كَالْكِبْرِيَاءِ، كَالْبَصَرِ، كَالسَّمْعِ، كَالْحَيَاةِ، كَالْعُلُوِّ.

وقد أَدْرَكَ علماءُ أهلِ السنةِ خَطَرَ هذا التَّصَوُّرِ للخالقِ، فَأَلَّفُوا الكُتُبَ الكثيرةَ فِي الرَّدِّ على أصحابِهِ مِنَ الجهميةِ والمعتزلةِ قديمًا، ولولا ذَلِكَ لوُجِدَ الْإِلْحَادُ فِي العالَمِ الإسلاميِّ قديمًا، كما وُجِدَ فِي العالَمِ الغَرْبِيِّ تَبَعًا لِمَا قَرَّرَهُ المُعَطِّلَةُ الَّذِينَ ما زَادُوا فِي وَصْفِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِسَلْبِ الصفاتِ عَنْه على أَنْ جَعَلُوهُ مَعْدُومًا.

فَلَوْ أَنَّ إنسانًا أراد أن يُبَيِّنَ حقيقةَ المَعْدُومِ، أو صِفَةَ المَعْدُومِ، أَوْ حَدَّ وتَعْرِيفَ المَعْدُومِ؛ ما وَجَدَ أَبْلَغَ مما أَتَى به أهلُ السُّلُوبِ الَّذِينَ سَلَبُوا عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ الصفاتِ؛ ولَكِنَّ أنواعًا مِن هذا التصورِ التعطيليِّ تَعُودُ الآنَ، فَتَنْتَشِرُ بين المُثَقَّفِينَ فِي العالَمِ الإسلاميِّ بِسَبَبِ ذَلِكَ التاريخِ القديمِ، ثم بِسَبَبِ الْإِلْحَادِ المُعَاصِرِ.

فنسأل اللهَ أَنْ يَحْفَظَ علينا وعلى المسلمين دِينَنَا، وأَنْ يُثَبِّتَنَا على الْحَقِّ الَّذِي هَدَانَا إِلَيْهِ.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

http://www.rslan.com/vad/items_details.php?id=4215

«المُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

ففي كتاب «الفيزياء ووجود الخَالِق» ذِكْرٌ لبعض الأَسْبَابِ التي أَدَّتْ إلي الْإِلْحَادِ فِي العصرِ الْحَدِيث.

***ومن هذه الأَسْبَاب:** أن الخلاف بين الْعِلْمِ والدينِ لم يكن خلافًا علميًا؛ بل كَانَ أَيْضًا خلافًا أخلاقيًا وسياسيًا مع الكنيسة التي تتحدث باسم هذا الدين.

لِأَسْبَابٍ مثلِ هذه اعْتَقَدَ كثيرٌ من المؤمنين بوجود الخَالِق والمدافعين عَنْ هذا الإيمان أَنَّهُ ينبغي أن لا يُرْبَطَ الإيمانُ بالله بالدين.

قال أحد مؤرخي الْإِلْحَادِ فِي الحضارة الغربية:

«أنْ يكونَ هذا -يعني الدفاعَ عَنْ وُجُودِ الخَالِقِ- من غير لجوء إلي الكنيسة -يعني الكنيسة الغربية-؛ قَالَ: أن يكون ذَلِكَ كذَلِكَ؛ فهذا يبدو بدهيًا؛ فقد كَانَت الكنيسة جزءًا من المشكلة، جزءًا من المرض الَّذِي كَانَ يصيب كُلَّ معرفةٍ باللهِ، لا جزءًا من العلاج، لقد كَانَت الكنائس الغربية هي الْأَرْضَ التي أَنْبَتَت الْإِلْحَادَ».

قال هذا أحدُ مؤرخي الْإِلْحَادِ فِي الحضارة الغربية.

***وكان من أكبر أَسْبَاب الْإِلْحَاد:** بعض القواعد الفكرية التي أَصَّلَ لها ودافع عَنْها فلاسفةٌ مشهورون مُؤَثِّرون، كَانَوا فِي أنفسهم مؤمنين، أي: كَانَوا مؤمنين بوجود الخَالِق؛ لَكِنَّ قواعدَهم الفكريةَ كَانَت فِي حقيقتها قواعدَ الْإِلْحَاد؛

ولِذَلِكَ اقتنع كثير ممن جاء بعدهم بتلك القواعد الفكرية، وأسسوا عليها إِلْحَادهم، واعتبروا إيمان أُولَئِكَ الْفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ قَعَّدُوها؛ اعْتَبَرُوا إيمانَهم أمرًا شخصيًا لا يتناسب مع ما قَعَّدُوا مِنْ قواعدَ عقليةٍ.

كان من هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَة: «رِينِيه دِيكَارْت» الَّذِي أَتَى بنظريةٍ للطبيعة، ومِن ثَمَّ للعلومِ الطبيعيةِ، فَحْوَاهَا: أنَّ الطبيعة بعد أنْ خَلَقَهَا اللهُ صارت مُسْتَقِلَّةً تمامًا بقوانينِها التي أَوْدَعَها إياها، ولم يَعُدِ الخَالِقُ يَتَدَخَّلُ فِي شُؤُونِهَا، أو يُوقِفُ فَاعِلِيَّتَها.

صار الخَالِقِ إِذَن -على كلامِ هذا- شيئًا بعيدًا عَنْ حياة الناس اليوميةِ واهتماماتِهِمُ الحاليةِ!!

صار شيئًا يمكن أن تستمر الحياة من غير لجوء إِلَيْهِ، أو حتى من غير تَذَكُّرِهِ!!

ولم يَعُدْ مِنْ ضرورةٍ لذِكْرِهِ إلا إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ بدايةِ الخلقِ!!

لم يلبث هذا الخَالِقُ السلبي الَّذِي دلَّ عليه «دِيكَارْت» أَنْ تَحَوَّلَ عَنْدَ كثير من الْعلماء الطَّبِيعِيِّينَ إِلَى مجرد اسم مجازي للمبدأ أو المبادئ التي يقوم عليها نظام الطبيعة.

كثيرٌ من الناس يظنون أن «أَيْنِشْتَايِنْ» كَانَ مؤمنًا بالله حين يسمعون ذِكْرَهُ لله فِي عبارات؛ مثل قوله المشهور: «**إن الإلهَ الرَّبَّ لا يقامِر**»؛ لَكِنَّ «أَيْنِشْتَايِنْ» إنما كَانَ يَسْتَعْمِلُ هذه العبارةَ مجازًا؛ لِيُعْرِبَ عَنْ رفضه للنظرية التي تقول بأنَّ المصادَفَةَ حقيقةٌ موضوعيةٌ فِي بِنْيَةِ الكَوْنِ، وليست أمرًا نسبيًا خاصًا بالمُشاهِد للكون.

فِي أيامنا هذه قَالَ «جُورْج سْمُوت» الَّذِي اكْتَشَفَ وُجُودَ تَجَعُّدَاتٍ فِي الإشعاع الكوني الخَلْفِيِّ ترجع إِلَى ثلاثِ مائةِ ألفِ سنةٍ الأولى لِعُمْرِ الكونِ -كما يَقُول-!!، والتي كَانَت النواةَ التي تَكَوَّنَتْ منها الأجسام الكونية على حسب ما ذهبوا إِلَيْهِ من نظرية الانفجار الْعَظِيم.

قال وهو يعلن ذَلِكَ الاكتشاف ويشرحه لغير المختصين فِي مؤتمرٍ صحفيٍّ سنةَ اثنتينِ وتسعينَ وتِسْعِمِائَةٍ وألفٍ «١٩٩٢» من القرن الْمُنْصَرِمِ؛ قَالَ: «**إذا كنتَ متدينًا فكأَنَّكَ تَرى اللهَ**».

وكانت هذه العبارةُ مِنْ بَيْنِ كُلِّ ما قَالَ فِي شرحِ اكتشافه هي التي تناقلتها وسائل الإعلام، ونشرتها على نطاقٍ واسعٍ فِي العالم كله؛ لَكِنَّهُ حين كتب كتابه المسمى «**تجعداتٌ فِي الزمان**»؛ قَالَ وكأنه يعتذر لإخوانه الفيزيائيين فِي علم الكون:

يتلاقى علم الطبيعة بالفلسفة عَنْدما يقترب البحث من السؤال الأقصى عَنْ وُجُودنا العقلاني للكون.

قال ذات مرة: «إنني أريد أن أعرف كيف خلق الله العالم؟

أريد أن أعرف أفكاره!!»

لقد قَصَدَ أن يكونَ هذا مجازًا.

لقد كَانَ يُعَبِّرُ به عَنْ المدى العميقِ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي البحث.

وقد كَانَت ملاحظتي -كذَلِكَ هو يَقُول؛ لِأَنَّهُ عَنْدما يتكلم عما قَالَه أَيْنِشْتَايِنْ فِي تلك العبارة التي مرَّت-: «إنني أريد أن أعرف كيف خَلَقَ اللهُ العالم؟ أريد أن أعرف أفكاره».

راح يعتذر عَنْ هذه المقولة؛ قال: لقد قَصَدَ أن يكون هذا مجازًا.

لقد كَانَ يُعَبِّرُ به عَنْ المدى العميقِ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي البحث، ولقد كَانَت ملاحظتي التي كثر الاستدلال بها مَصُوغَةً فِي هذا القالَبِ نفسِهِ.

يعني كَانَت مجازًا؛ لِأَنَّهُ كَانَه يعتذر لإخوانه الفيزيائيين عما قَالَ بأنه لا يؤمن بوجود الخَالِق أصلًا.

فهذا أمر عَنْدهم مما يُسْتَحيَا منه، وإذا اعتقده معتقِد؛ فعندهم ينبغي عليه أن يُخْفِيَهُ، وأن يكون ذَلِكَ خاصًا به.

***مِنَ الْأَسْبَاب التي أدت إِلَى الْإِلْحَاد فِي هذا العصر أَيْضًا:** ما يتكررُ ذكره فِي كتابات الغربيين تعليلًا لنفورهم من الدين؛ فإنه يتكرر فِي كتابات الغربيين أَنَّ كثرةَ الحروبِ والمَآسِي التي حَدَثَتْ فِي تاريخِهِم إنما حَدَثَتْ بِسَبَبِ الخِلَافَاتِ الدينيةِ!!

فيقولون: هذا هو الْمُبَرِّرُ الَّذِي يَجْعَلُنا لا نُحِبُّ الدين ولا نعتقده؛ لِأَنَّهُ لم يأت منه خيرٌ كما يَقُولون!! وإنما حدثت بِسَبَبه فِي تاريخِهِم الْمَآسِي والحروبُ، وكلُّ ذَلِكَ إنما وَقَعَ بِسَبَب الخِلَافَاتِ الدينيةِ كما يزعمون!!

يقول عالِمُ الأحياءِ البريطانيُّ «**بِيتَرْ مدورْ**» كما نَقَلَ عَنْه «**تِيلَرْ**»:

لقد كَانَ الثمنُ الَّذِي اضْطُرَّت البشريةُ فِي عُمُومِهَا لِتَدْفَعَهُ مُقَابِلَ الراحةِ والانتعاشِ الرُّوحِيِّ الَّذِي آتَاهُ الدينُ قِلَّةً مِن الناس؛ كَانَ الثمنُ الَّذِي دَفَعَتْهُ البشريةُ اضْطِرارًا؛ كَانَ دَمًا وَدُمُوعًا، وهو مِنَ الْغَلَاءِ بحيث لا يَسُوغُ لنا أنْ نَأْتَمِنَ الاعتقادَ الدينيَّ على الْخُلُقِيِّ.

ولا جِدَالَ فِي أَنَّهُ حَدَثَ باسمِ ما يُسَمَّى بالدينِ حُرُوبٌ وَمَآسٍ وَمَظَالِمُ فِي البلادِ الغربيةِ وفي غيرِها؛ ولَـكِنْ هل يُعَدُّ هذا مُسَوِّغًا لِرَفْضِ كُلِّ دينٍ أَيًّا كَانَ؟!

هذا لا يُقْبَلُ؛ فإنَّ المنهجَ الْعِلْمِيَّ الْمُنْصِفَ يَسْتَدْعِي أَنْ نَنْظُرَ فِي هذه الأديانِ لِنُمَيِّزَ بينَها؛ فاسْمُ الدينِ اسْمٌ تَنْدَرِجُ تَحْتَهُ مُعْتَقَدَاتٌ وَقِيَمٌ وَدَعَاوَى مختلفةٌ اختلافًا لا يَجْعَلُ بينَها صلةً إلا ذَلِكَ الاسمُ، وَيَسْتَدْعِي أن نَنْظُرَ فِي هذه المعتقداتِ والقِيَمِ والدَّعَاوَى المختلفةِ؛ لِنَتَبَيَّنَ ما هو منها حَقٌّ، وما هو باطلٌ.

وإذا كَانَ بينَها أمرٌ مُشْتَرَكٌ؛ فهل كَانَ هو السببَ فِي تلك المآسِي حتى نَحْكُمَ على الأديانِ كلِّها هذا الحكمَ العامّ؟

أو أن السبب كَانَ أمرًا خارجًا عَنْ تلك المعتقداتِ، فلا تَتَحَمَّلُ جَرِيرَتَه؟

يعني: قد يكون بِسَبَب استغلال تلك الأديان، أو بِسَبَب سوء فهمٍ لها، أو بِسَبَب ظلم واقع على الفئة المتدينة؛ لأن استغلال الدين كاستغلال كل شيء حسن.

يكون استغلالًا سيئًا فِي كثيرٍ من الأحوال، كما هو الواقع فِي كثير من البلدان، وكثيرٍ من المجالات، والدينُ الْحَقّ يقرر هذا، ويُحَذِّرنا منه.

لا نعرف كلامًا هو أشد فِي التحذير من الَّذِينَ يستغلون الدين لتحقيق مآرب دنيوية، والذين يرتكبون الفظائع بِسَبَب التصور المنحرف للدين مثلَما نجد ذَلِكَ فِي كتاب ربنا وسنة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ فإن الله -عز وجل- يَقُول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

هذه صورةٌ من صور استغلال الدين استغلالًا سيئًا، وقد ذكرها الله رب العالمين للتحذيرِ منها ومن الوقوع فِي شِبْهِهَا.

وأيضًا يَقُول النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ الخوارج: «يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»، كما فِي «الصحيحين».

فهذا أَيْضًا من استغلال الدين فِي إراقة الدماء، وما فوق ذَلِكَ وما دونَهُ من تكفير المسلمين، ومِنْ سلب أموالهم وانتهاكِ حرماتهم.

فعندنا فِي كتاب ربنا وسنة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما يحذر؛ بل ما فِيه من التحذير لا تجد مثله من استغلال الدين استغلالًا سيئًا.

فالآخرون يَقُولون: إنَّ الدين قد اسْتُغِلَّ استغلالًا سيئًا، ووقع ما وقع من الحروب والمآسي بِسَبَبِه.

فيقال لهم: إن المنهج الْعِلْمِيَّ يفرض عليكم أن تبحثوا فِي كل دينٍ، فإذا ما نظرتم فِي الدين الإسلامي مثلًا؛ وجدتم الكتاب والسُّنة يحذران من استغلال الدين استغلالًا سيئًا على نحو ما مَرَّ فِي النصين الكريمين.

ثم على افتراض أن المعتقدات الدينية هي التي أدت إِلَى تلك الحروب؛ فهل توقفت الحروب بعد أن حلت الْعَلْمَانِيَّة فِي الغرب محل الدولة الدينية؟!!

هم أزاحوا الدين، وأحلوا الْعَلْمَانِيَّة مَحَلَّ الدينِ، ووقعت الحروب الكبرى التي لم يَشْهَد العالَمُ مِنْ قَبْلُ لها مَثِيلًا مع غِيَابِ الدينِ، ومع وُجُودِ الْعَلْمَانِيَّة.

إنَّ القتلَ والْقَرْحَ والأذى والتدميرَ والإفسادَ الَّذِي حدث بِسَبَبِ الْحَرْبَيْنِ العَالَمِيَّتَيْنِ لم يَكُنْ له مَثِيلٌ فِي تاريخِ البشريةِ كلِّها؛ فهل كَانَ هذا بِسَبَبِ الدينِ؟!!

الحروبُ التي شَنَّتْهَا الدولُ الغربيةُ الرأسِمَالِيَّةُ والشيوعيةُ على الشعوب الضعيفة لاستعمارها وسَرِقَةِ خيراتها؛ هل كَانَت حروبًا دينية؟!!

الحروب التي حدثت فِي السنوات الأخيرة فِي العراقِ وإيرانَ والصُّومالِ واليمنِ وغيرِها؛ هل كَانَت بِسَبَب معتقداتٍ دينية؟! أم بِسَبَب اسْتِلَابِ الثَّرَوَاتِ وإِذْلَالِ الشُّعُوبِ؟!!

فإذا كَانَت الحروبُ وَالْمَآسِي التي حَدَثَتْ بِاسْمِ الدينِ سَبَبًا فِي النُّفُورِ مِن الأديانِ كلِّها، وعدمِ الثقةِ بها؛ فَلْتَكُنْ هذه الحروبُ والمآسي سَبَبًا أقوى للنفور من الْعَلْمَانِيَّة وعدم الثقة بها، على حسب قياسهم، وإلا؛ فإنهم يتناقضون.

يجب إِذَن؛ إِذَا أردنا أن نكون منصفين فِي تقويمنا للدين؛ أن نضع كل هذه الأمور فِي اعتبارنا؛ وإلا كَانَ رَفْضُنا للدينِ وَنُفُورُنَا منه أمرًا عاطفيًا يقوم على الهوى؛ لَكِنه يتزيى بِزِيِّ الْعِلْمِ والعقلِ.

***مِن الأَسْبَابِ التي أَدَّتْ إِلَى الْإِلْحَاد:** أنَّ الْمُلْحِدِينَ اتبعوا طريقةً خَدَّاعَةً، هي: أن يضعوا الدين فِي مقابل الْعِلْم الطبيعي، ثم يتكلموا عَنْ المزايا التي يمتاز بها منهجه الْعِلْمي، وعن الثمار التي جناها الناس من المخترعات التي قامت على أساسه، وعن توسيعه لدائرة معارف الناس بالكون، وقضائه بذَلِكَ على كثير من الخرافات المتعلقة بطبيعة الكون أو طبيعة الأَسْبَاب الفاعلة فِيه، إِلَى غير ذَلِكَ.

ثم يَقُولون: أَنَّهُ لهذا كلِّه ينبغي أن يكون الاعتماد على الْعِلْم الطبيعي إِلَى الدين فِي معرفة الْحَقائق.

وهذه الحجة كَانَت تصلح لو أن الدين والْعِلْمَ الطبيعي كَانَا أَمْرَيْنِ متناقِضَيْنِ لا يمكن للعاقِلِ أن يَجْمَعَ بينهما.

وربما كَانَت تَصْلُحُ هذه الحجةُ لو أَنَّهُ كَانَ مِن الممكنِ أنْ يُسْتَعْمَلَ منهجُ الْعِلْمِ الطبيعيِّ فِي كل المجالات التي يحتاج إِلَيْها الناس، بما فِي ذَلِكَ –مثلًا-: الهدفُ من حياتهم على هذا الكوكب الْأَرْضي؛ فهل يستطيع الْعِلْم المادي أن يبين لنا هذا الهدف؟!

وكذَلِكَ ما يصير إِلَيْهِ الناس بعد هذه الحياة.

وكذَلِكَ القِيَمُ التي يَسْتَهْدُونَ بها فِي حياتهم؛ لَكِنَّ الْعِلْمَ الطبيعي بطبيعة منهجه، وكذَلِكَ باعتراف أساطينه لا يستطيع أن يَفْصِلَ لنا فِي هذه الأمور.

فالذي يَقُول للناس -والحالُ هذه-: خذوا الْعِلْم الطبيعي واتركوا الدين؛ هو كَإنسانٍ يَقُول لك: إن الناس يتفقون على ما يشاهدون بحواسهم أكثرَ من اتفاقهم على ما يستنتجون بعقولهم.

فإذا ما وافقته على ذَلِكَ؛ مَضَى لِيقول: إذًا؛ فِيجب أن نعتمد على الحواس ونترك العقل جانبا!!

فالقياس واحد.

وأنه لا تناقض بين الاعتماد على الحس فِي معرفة ما مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعْرَفَ بها -أي: بالحواسّ-، والاعتمادِ على العقلِ فِي معرفة ما لا يُعْرَفُ إلا به.

إنه لا تَقَابُل بين الْعِلْم الطبيعي والدين؛ بل إن الدين الْحَق يعترف بالمنهج الْعِلْمي الطبيعي وسيلةً إِلَى المعرفة؛ بل إن المنهج التجريبي وَضَعَهُ علماؤنا المسلمون، فأوَّلُ مَنْ وَضَعَ المنهجَ التجريبي هو «شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-»، وسُرِقَ منه، ثم رُوِّجَ فِي الغرب على أَنَّهُ من ابتكار فلان وفلان فِي البحث الْعِلْمي!! ولَكِن الثابت الَّذِي لا يقبل المجادلة ولا النقض: أن أولَ من وضع أسس المنهج التجريبي هو «شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ -رحمه الله تعالى-».

إذًا؛ فالدين ليس مقابلًا للعلم الطبيعي؛ ولَكِنه يَقُول -أي الدينُ الْحَقُّ الَّذِي يَعْتَرِفُ بالْعِلْمِ الطبيعي-: أَنَّهُ ليس وسيلةً -يعني: الْعِلْمَ الطبيعي- إِلَى كل المعارف؛ فأنت لا تستطيع بالْعِلْم الطبيعي أنْ تَصِلَ إِلَى كل المعارف؛ بل هُنَاكَ معارف لا تدرك إلا بالرواية، إلا بالخبر، كما مر ذَلِكَ فِي كلام شيخ الإسلام وغيره عَنْد النظر فِي رسالة العلامة السعدي رحمه الله.

بل هُنَالِكَ أَيْضًا معارف لا تُدرك إلا بالاستنتاج العقلي.

فهذه كلها من وسائل المعرفة ومن طرقها: العقل والحِس، وكَذَلِكَ الرواية والخبر.

وأيضا هُنَالِكَ ما لا يمكن معرفته إلا من طريق الرسل، وهو بالخبر الصادق، فالعاقل هو الَّذِي يستفيد من كل هذه الوسائل بحسب نوع المعرفة التي يريدها، ومَن لا عَقْلَ له يَحْصُرُ نفسَه فِي بعضِها، ويُنْكِرُ غيرَه؛ لِذَلِكَ فإن الناس لشدة حاجتهم إِلَى تلك المعارف التي لا يُوصِلُهُمُ الْعِلْمُ الطبيعيُّ إِلَيْهِا؛ يفضلون التعلق بأي دين؛ ولو رأوا فِيه بعض الأباطيل؛ لِأَنَّهُ يلبي شيئا من حاجتهم إِلَى هذه المعارف؛ لأن الناس فِيهم جوعٌ فطري إِلَى التعبد للإله الْحَق، وهم يتطلعون إِلَى شيء باطل.

الْعِلْم الطبيعي لا يمكن أن يُشْبِعَ هذه الحاجات، ولا أنْ يَسُدَّ تلك الجَوعات، وحينئذ يتعلق الناس بأي دين يأتي لهم ولو بالخرافات؛ ولَكِن يتكلم عَنْ أمثال هذه المعاناة الباطنة التي يجدها الكائن الإنساني فِي نفسه.

كذَلِكَ من المقالات الْمُفْتَعِلَةُ؛ بل هي مضحكةٌ فِي حد ذاتها: ما قَالَه الفيلسوف «بُوبَرْ» الَّذِي اسْتَشْهَدَ به «وَايِنْبِيرْج»:

«إنه من البديهي جدًا أنَّ اللاعقلانية، لا العقلانية، هي المسؤولة عَنْ كل الحروب والعداوات القومية قبل الحروب الصليبية وبعدها؛ ولَكِنني لا أعرف حربا أُشْعِلَتْ لغايةٍ علمية، أو بإِيعَازٍ من الْعِلْماء».

هذا ما قَالَه ذَلِكَ الفيلسوف!!

فيقال له: كذَلِكَ لم تقم حروب بِسَبَب الاختلافات الأدبية والأذواق الفنية؛ لَكِنَّ المتحاربين –متدينين كَانَوا أو غير متدينين– يستفيدون مما يعرفون من علمٍ بالدنيا فِي حروبهم؛ فلئن لم تقم الحروب باسم هذا الْعِلْم –فقد كَانَ خادما مسخَّرًا فِيها-؛ فأيُّ فضلٍ له على الدين فِي ذَلِكَ؟!!

ويقال له: إنَّهُ قد قامت حروب بِسَبَب الاختلافات اللَّوْنية والانتماءات العنصرية؛ فهل يتخلى الناس عَنْ ألوانهم وأجناسهم؟!!

ويقال أَيْضًا: إنَّ الحرب شرٌّ، ما فِي ذَلِكَ شك؛ ولِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للمؤمنين: «أَيُّهَا النَّاسُ؛ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسألوا اللَّهَ العَافِيَةَ». كما فِي «الصحيحين».

لَكِنَّ هذا الشَّرَّ قد يكون عملًا صالحًا إِذَا كَانَ وسيلة وحيدة للدفاع عَنِ الْحَقّ، أو لدرءِ شر أكبر.

***كان أَيْضًا من أَسْبَاب الْإِلْحَاد:** دعاوى ادعاها وما يزال يدعيها الْمُلْحِدُونَ عَنِ التناقض بين الإيمان وحقائق الْعِلْم الطبيعي.

سَلَّمَ بها كثير من المفكرين فِي الغرب، وبدأت تتكررُ مُسْتَشْرِيَةً مِنْ جِيلٍ إِلَى جيل، وتُنْقَلُ مِنْ كتابٍ بَعْدَ كتابٍ؛ مع أَنَّهَا لا تَدُلّ على شيء مما أراد لها مُدَّعُوها.

مِنْ أمثال ذَلِكَ: تَوَهُّمُهم أن الإيمان بوجود الخَالِق مرتبط بتصوراتٍ مُعَيَّنَةٍ للدنيا كَانَت شائعة عَنْدَ الناس فِي أُورُوبَّا، وأن الْعِلْم أثبت عدم صحة تلك التَّصَوُّرَات، فأزال بذَلِكَ الأساسَ الَّذِي كَانَ يقوم عليه ذَلِكَ الإيمانُ.

هذا مع أَنَّهُ لا علاقة بالضرورة بين الإيمان وتلك التَّصَوُّرَات.

مِن أكثر ما يذكرونه فِي هذا المجال: اعتقاد الناس فِيما مضى بأن الْأَرْض هي مركز الكون، وأنَّ «كُوبَرْ نِيكُوسْ» جاء فأثبت أن الْأَرْض إنْ هي إلا كوكب من كواكب عدة، وأنه لا ميزة لها على سائر الكواكب والنجوم.

ينسى أصحاب هذا القول أن الْعِلْم الطبيعي كذَلِكَ ارتبط فِي أذهان كثير من أهله بتصورات للكون ما لبث الْعِلْم نفسه أن أبطلها.

ألم يكن كثير من الْعلماء الطَّبِيعِيِّينَ يتصورون أن الكون أزلي لا بداية له ولا نهاية؟!!

بل يَعُدُّ هذا أمرًا لازمًا للنظرة الْعِلْمية حتى جاءت نظرية الانفجار الْعَظِيم --وهي مما يتمسك به كثير منهم- فَسَبَّبَتْ لهم حَرَجًا عظيمًا.

فإذا كَانَ الدينُ سَيَرْفُضُ الناسُ التمسكَ به؛ لأن بعض التَّصَوُّرَات قد ارتبطت عَنْد بعض الناس به، وهي ليست بلازمة، لا عقلًا ولا نقلًا؛ فَلْيَرْفُضْ الناسُ الْعِلْمَ الطبيعيَّ أَيْضًا؛ لِارْتِبَاطِهِ فِي أذهانِ بعضِ أهلِه بتصوراتٍ تُبَيِّنُ البُطْلَانَ، وقد تَبَيَّنَ واضحًا فِيها.

فأمثال هذه الحُجج إنما أتت على حَسَبِ البيئة التي نشأ الْإِلْحَاد المعاصر فِيها؛ لِأَنَّهُم -كما مَرَّ- إنما بدأوا فِي الْإِلْحَاد وتطليق الدين والتحلل منه لما وجدوا المصادمة قائمة بين ما تقرره الْكِنيسة الغربية، وتدَّعي أَنَّهُ هو الإيمان الْحَقّ، وأنَّ ما عداه هرطقة وكفر؛ وبَيْنَ ما أثبته الْعِلْم من الْحَقائق الثابتة التي لا يمكن أن يجادَلَ فِيها ولا أن يُمَارَي، فَكَفَرُوا بالدين الَّذِي دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ، وتمسكوا بالْعِلْم، وقالوا: إن هذا الدين غير صالح لشيء، وإنما يصل المرء إِلَى ما يصل إِلَيْهِ؛ بل العالم كله؛ بل الجنس الإنساني يصل إِلَى ما يصل إِلَيْهِ من الرُّقِيِّ بهجر الدين وتطليقه، والْبُعْدِ عَنْه، والكفرِ بالإله الخَالِق !!

هذا لم يكن عَنْدنا !!

هذا كَانَ عَنْدهم !!

وأما نحن؛ فديننا يدعو إِلَى الْعِلْم، ويحض عليه، ويدعو الناس إِلَى الاغتراف من مَعِينِه، و إِلَى الإكثار من طلبه، إِلَى غير ذَلِكَ مما هو معلوم.

زعم «وَاينْ بِيرْ» -وهو فِيزيائي مشهور- فِي كتابٍ له:

«أنَّ الْمُتَدَيِّنِينَ كَانَوا يظنون أنَّ الْأَجْرَام السَّمَاوِيَّة ذات طبيعة سامية مختلفة عَنْ طبيعة الْأَجْرَام الْأَرْضيَّة؛ لِذَلِكَ كَانوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُا هي التي تَدُلُّ على وُجُود الخَالِق؛ لَكِنَّ الشَّمْسَ وسائرَ النُّجُوم فَقَدَتْ مَكَانَتَهَا المتميزة، فنحن نعلم أَنَّهُا كُرَاتٌ مِنْ غازٍ ملتَهِبٍ مُتَمَاسِكٍ بِفِعْلِ الجاذبيةِ، وممنوعةٍ من التَّقَوُّضِ بِضَغْطٍ يَظَلُّ مُسْتَمِرًّا بِسَبَبِ الْحَرَارَةِ الناشئةِ عَنِ الْمُفَاعِلَاتِ الْحَرَارِيَّةِ النوويةِ الموجودةِ فِي قَلْبِ النُّجُومِ، إن النُّجُوم لا تُنْبِئُنا عَنْ عظمة الخَالِق -هذا كلامه!!- بأقل ولا أكثر مما تُنبئنا به الحجارة الموجودة على الْأَرْض حولنا».

فَيَسْتَدِلُّ بهذا الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ إِلَى الْكُفْرِ بالخَالِقِ الْعَظِيمِ، ويقول: أُولَئِكَ الْمُتَدَيِّنُونَ كَانوا يَعْتَقِدُونَ أن الْأَجْرَامَ السَّمَاوِيَّةَ لها مَنْزِلَةٌ سامية، وأَنَّهُا هي التي تَدُلُّ على وُجُودِ الخَالِقِ، وما دام هذا الاعتقادُ قد ثَبَتَ بُطْلَانُهُ؛ إِذَن؛ فلا خَالِقَ هُنَاكَ!!

وتَعْجَبُ مِنْ كثيرٍ مِنْ أُولَئِكَ عَنْدما تَعْمَلُ عقولُهم بِهِمَّةٍ كاملةٍ ونشاطٍ تامٍّ فِيما يَتَعَرَّضُونَ له مما يُزَاوِلُونَهُ مِنَ العُلُومِ الماديةِ، فإذا جَاؤُوا إِلَى أمثالِ هذه المسائلِ اليسيرةِ الواضحةِ؛ ضَلُّوا فِيها وتَخَبَّطُوا فِي الوقتِ الَّذِي يَهْتَدِي الطِّفْلُ الغَرِيرُ إِلَى وَجْهِ الْحَقِّ فِيها!!

ما وجهُ التَّلَازُمِ بين هذا وهذا؟!!

وهل جاء الدين بإثبات أن هذه النُّجُوم هي وحدها التي تَدُلّ على وُجُود الخَالِق؛ لأننا لا نعرف طبيعتها؟!!

وإنما تَدُلُّنا على حَسَبِ ما وَصَلَ إِلَيْهِ العِلْمُ المادي على وُجُود الخَالِق، وعلى عظمته أَيْضًا؛ لِأَنَّهُا وإن كَانَت لا تَعْدُو أَنْ تكونَ مِن الكُرَاتِ الناريةِ الملتهبةِ من الغازات المتماسكةِ بِفِعْلِ الجاذبيةِ.... إِلَى آخرِ ما يَقُولُ الْعِلْمُ المادي؛ فمَن الَّذِي جَعَلَهَا كذَلِكَ؟!!

ومَن الَّذِي وَضَعَ لها سُنَّتَهَا التي تَسِيرُ عليها؟!! وهي سنةٌ إلهيةٌ.

ومَن الَّذِي جَعَلَ دَوَرَانَهَا وَحَرَكَتَهَا وَإِشْعَاعَهَا وَحَرَارَتَهَا وَمَرْكَزَهَا وَمَوْقِعَهَا عَلَى هَذَا؟!!

ومِنْ أين أَتَتْ؟!!

لِأَنَّهُا إنما تَفْقِدُ الْحَرَارَةَ مع الوقت؛ ولو كَانَ الفَقْدُ يسيرًا حتى تَصِلَ إِلَى الْهُمُود.

فإذن؛ مَن الَّذِي أعطاها الحركةَ مِنْ قَبْلُ؟!!

إِلَى غير ذَلِكَ من الأمور العقلية التي تَدُلُّنا على أننا نَسْتَخْدِمُ هذا فِي الدلالةِ على وُجُود الخَالِق.

فهذه مِن المخلوقات، وهي دالةٌ على وُجودِ مَنْ خَلَقَهَا وَسَوَّاهَا.

ويُقال لهذا الرجلِ وأمثالِهِ أَيْضًا: على فَرْضِ أنَّ بعضَ الْمُتَدَيِّنِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أن الْأَجْرَامَ السَّمَاوِيَّةَ ذاتُ طبيعةٍ مختلفةٍ عَن المخلوقاتِ الْأَرْضيَّةِ؛ فَمَن الَّذِي قَالَ: إنَّ كل المؤمنين بوجود الخَالِق كَانُوا يَعْتَقِدُونَ هذا الاعتقاد؟!!

وعلى فَرْضِ أَنَّهُم كَانُوا يَعْتَقِدُونه جميعًا؛ فَمَن الَّذِي قَالَ: إنَّ إيمانَهم بوجود الخَالِق كَانَ مُتَوَقِّفًا على مِثْلِ هذا التصورِ للأجرامِ السَّمَاوِيَّةِ؟!!

ما أَكْثَرَ ما يَتَصَوَّرُ الإنسانُ الشيءَ، ثم يَجِدُه على غَيْرِ ما تَصَوَّرَ، فلا يُؤَثِّرُ ذَلِكَ فِي إيمانِه، ولا فِي ثِقَتِهِ بربه؛ بل يَعْزُو ذَلِكَ إِلَى جَهْلِهِ، ويَسُرُّهُ أَنَّ اللهَ هَدَاهُ إِلَى التصورِ الصحيحِ.

إنَّ كُلَّ إنسانٍ يَمُرُّ عليه زمانٌ وهو طفلٌ؛ يَتَصَوَّرُ السماءَ والشمسَ والنجومَ والقمرَ على غَيْرِ حقيقَتِها، ثم يَشِبُّ وَيَعْلَمُ أنَّ هذه القُبَّةَ الزرقاءَ التي تَرَاهَا بالنهار وَكَذَلِكَ بالليلِ، ليستْ بِأَحْجَامِهَا الباديةِ لِلْعَيْنِ؛ بل هي أكبرُ مِنْ ذَلِكَ بكثير، فلا يَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ مِن الإيمانِ إِلَى الْكُفْرِ؛ فلماذا إِذَن يكونُ خطؤُهُ فِي تَصَوُّرِهِ لِطَبِيعَةِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ داعيًا لِمِثْلِ هذا التَّحَوُّلِ؟!!

إنَّ الملحِدَ لا يَتَحَدَّثُ هنا عَنْ واقعٍ مُشَاهَدٍ، ولا عَنْ لازمٍ عقليٍّ؛ بل يُعَبِّرُ عَنْ وَهْمٍ تَوَهَّمَهُ، وإلا لو كَانَ الأمرُ كما زَعَمَ؛ لَمَا بَقِيَ على ظَهْرِ الْأَرْضِ مؤمنٌ، ولَمَا كَانَ الناسُ مُحْتَاجِينَ إِلَى الْعِلْمِ الطبيعيِّ الْحَدِيثِ لِيَنْتَقِلُوا مِن الإيمانِ إِلَى الْكُفْرِ؛ لأَنَّهم كَانُوا يَكْتَشِفون مِثْلَ هذه الأخطاءِ فِي تصوراتِهِم؛ حتى قَبْلَ مَجِيءِ هذا الْعِلْمِ؛ كما مَرَّ فِي تطورِ الإنسانِ مِنَ الطُّفُولةِ إِلَى الْيُفُوعَةِ، إِلَى الشبابِ، إِلَى الكُهُولَةِ؛ فإنَّ الإنسانَ تَنْمُو مَدَارِكُه، وتَزْدَادُ مَعَارِفُهُ، وَيَعْرِفُ مِن الكونِ ما لم يكنْ قَبْلُ يَعْرِفُهُ؛ فهل معنى ذَلِكَ: أَنَّهُ كلما عَرَفَ شيئًا جديدًا؛ ذَهَبَ به وَهَمٌ سابقٌ تَوَهَّمَهُ، أَنَّهُ حينئذٍ يَتْرُكُ الإيمانَ ويَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ؟!!

وهل الإيمانُ يَتَوَقَّفُ على أمثالِ هذه التَّوَهُّمَاتِ؟!!

لو كَانَ اكتشافُ الإنسانِ أن الْأَجْرَام السَّمَاوِيَّة هي غازات ملتهبة، لو كَانَ هذا الاكتشافُ داعيًا لِأَنْ يَقُولَ: إنَّ اللهَ لم يَخْلُقْهَا؛ لَكَانَ يَكْفِيهِ أَيْضًا للوصولِ إِلَى مِثْلِ هذه النتيجةِ أنْ يَعْلَمَ -مَثَلًا- أنَّ الإنسانَ بِرَغْمِ عَقْلِهِ وَمَوَاهِبِهِ وَعَوَاطِفِهِ وإِنجازاتِهِ؛ تُمَثِّلُ كَمِّيَّةُ الماءِ ستينَ بالمائةِ ٦٠٪ مِنْ جِسْمِهِ.

فالماءُ يُمَثِّلُ ستين بالمائة ٦٠٪ مِنْ جِسْمِكَ بِكُلِّ مَوَاهِبِكَ، وبكلِّ عقْلِكَ، وبكل ما تَصِلُ إليه مِنْ الإنجازات، وهذه حقيقةٌ تَعْلَمُها الآن؛ فهل يَدْعُو هذا إِلَى تركِ الإيمان؟!!

لم أَكُنْ أَعْلَمُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ الماءَ يُمَثِّلُ ستينَ بالمائةِ ٦٠٪ مِنْ جِسْمِي، فإذا ما عرفتُ؛ يَتْرُكُ الإنسانُ الإيمانَ، ويَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُ جَدَّ له أمرٌ لم يكن مِن قَبْلُ يَعْرِفُهُ، وما كَانَ يتصورُه؟!!

هل كان يَعْتَقِدُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ هذه الحقيقةَ أَنَّ جسمَه يبلغُ الماءُ فيه سِتِّينَ بالمائةِ منه؟!!

ما كان يَعْرِفُ ذلك، ولا كان يتصورُه، فلما عَرَفَهُ كان ماذا!!

لا شيء.

يقول: سبحانَ اللهِ الخالِقِ العظِيمِ الذي جَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ.

مِن الأمورِ أَيْضًا أَوْ مِن الأمثلةِ: ما تَوَهَّمُوهُ مِنْ وُجُودِ التناقضِ بين فكرةِ الخلقِ وفكرةِ الأَسْبَابِ.

أي: أَنَّهُ لكي يكونَ الشيءُ مخلوقًا لله؛ فلا ينبغي أنْ تَكُونَ لِحُدُوثِهِ أَسْبَابٌ طبيعيةٌ، فإِذَا اكْتَشَفْنَا أَسْبَابَ حُدُوثِهِ الطبيعيةَ؛ كَانَ هذا دليلًا على أَنَّهُ لم يَحْدُثْ بقدرةِ الخَالِقِ!!

وهذه فكرةٌ غالِطَةٌ رَغْمَ انتشارِها بين الناس، مؤمِنِهم وكافِرِهم، فِي الشرق والغرب، وعلى مَدَى تاريخٍ طويلٍ.

ولا بُدَّ أنْ يَأْخُذَ الناسُ بما قرره علماءُ أهلِ السُّنةِ مِنْ أَنَّهُ لا تَنَاقُضَ بَيْنَ كَوْنِ الشيءِ مخلوقًا، وأنَّ لِحُدُوثِهِ أَسْبَابًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى مِنْ سُنَّتِهِ وَعَادَتِهِ: أَنْ يَخْلُقَ بالأَسْبَابِ، ولأنه هو سبحانه خالقُ تلك الأَسْبَابِ، وجَاعِلُها أَسْبَابًا؛ فإِنَّ اللهَ جَعَلَ الإنسانَ سَبَبًا مباشرًا ظاهرًا فِي وُجُودِ وَلَدِهِ؛ فهل معنى ذَلِكَ أَنَّهُ هو الَّذِي خَلَقَه؟!!

هو الذي أَوْجَدَهُ مِن العَدَمِ؟!!

فالله -عز وجل- خَلَقَنَا بهذا السببِ الَّذِي هو مخلوقٌ له جل وعلا، فَخَلَقَ اللهُ آباءَنا، ثم جَعَلَ آباءنا سَبَبًا فِي وُجُودِنا؛ فاللهُ خالِقُنا وخالقُ السببِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي وُجُودنا، واللهُ خالقُ كُلِّ شيء.

الغفلة عَنْ هذه الْحَقيقة التي قررها أهل السنة قديمًا هي التي جعلت الْمُلْحِدِينَ يَسْتَطِيلُونَ على بعض المؤمنين، ويَتَحَدُّونهم كلما اكتشفوا لِبعضِ الأحداث أَسْبَابًا لم تكن معروفةً مِنْ قَبْلُ.

من ذَلِكَ: ما يَقُوله صاحبُ ذَلِكَ الكتاب فِي الفصل الَّذِي خصصه «للعَلاقةِ بين الْعِلْم ووجودِ الخَالِق»، يَقُول:

«بل إِنَّهُ حتى القرنِ التاسعَ عَشَرَ كَانَ تصميمُ النباتاتِ والحيواناتِ يُعَدُّ دليلًا بَيِّنًا على وُجُودِ الخَالِقِ، ما تزالُ فِي الطبيعةِ أشياءُ لا حَصْرَ لها لا نستطيعُ تفسيرَها؛ لَكِننا نَرى أننا نَعْرِفُ المَبَادِئَ التي تَحْكُمُ الطريقةَ التي تَعْمَلُ بها،

إِنَّ عَلَى مَنْ يريدُ السِّرَّ الغامضَ الْحَقيقيَّ اليومَ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ فِي مجالِ عِلْمِ الفَلَكِ، أو عِلْمِ الجزئياتِ الصغيرةِ».

فيَكْفُرُ باللهِ هذا الْكُفْرَ الأصلعَ!!

يقول: كان الناسُ يتأملون في تصميمِ -أي في خَلْقِ- الحيواناتِ والنباتات، ويجعلون هذا الإحكامَ الظاهرَ سببًا لِتَقْوِيَةِ إيمانِ المؤمنِ، ودليلًا على وجودِ الخالِقِ عندَ الملحِدِ.

يقولون: انظر إِلَى تَنَوُّعِ الخلقِ فِي هذه الحيواناتِ، وفي هذه النباتاتِ.

فهو يَقُولُ مثلًا: إننا إِذَا نظرنا إِلَى النباتِ فِي أصله؛ فإننا نستطيع أن نُرجِعَ المسألةَ إِلَى وِحْدَةٍ واحدةٍ، وهي الْخَلِيَّةُ النباتيةُ، وكذَلِكَ الحيواناتُ، نُرْجِعُها إِلَى وِحْدَةٍ واحدةٍ، وهي الخلية الحيوانية؛ فَقَدْ اكْتَشَفْنَا السِّرَّ!!

أَيُّ سِرٍّ؟!!

هذه الخليةُ الحيوانيةُ، لماذا تَتَنَوَّعُ هذا التنوعَ؟!

ولماذا تختلف حتى فِي الكائن الْحَيَوَانِيِّ الواحدِ هذا الاختلافَ الْعَظِيمَ؟!

إنَّ الإنسانَ –مثلًا– تَخْتَلِفُ خَلَايَاهُ؛ بل إنَّ الْغُدَدَ التي جَعَلَها اللهُ -تبارك وتعالى- فِيه –وهي مُنْضَوِيَةٌ تحتَ عُنْوَانٍ واحِدٍ-؛ كالغُدَدِ العَرَقِيَّةِ، هي مختلفةٌ بالنسبةِ لِمَوْضِعِهَا فِي الجسدِ البشريِّ، فالْغُدَدُ العَرَقِيَّةُ فِيما بين الفَخِذَيْنِ والعَانَةِ مختلفةٌ عَنْ الغُدَدِ العَرَقِيَّةِ الموجودةِ تحتَ الإِبِطَيْنِ، مختلفةٌ عَن الغُدَدِ العَرَقِيَّةِ الموجودةِ على سطح الجسم، وهي كلُّها غُدَدٌ عَرَقِيَّةٌ، وتركيبُها واحدٌ، وإفرازُها هو العَرَقُ؛ ولَكِنَّهُ يَخْتَلِفُ اختلافًا مَّا على حَسَبِ مَوْقِعِ الغُدَّةِ فِي الجسدِ الإنساني.

فهذه غدةٌ واحدة؛ ولكنها يختلف إفرازها هذا الاختلافَ العظيمَ على حَسَبِ وجودِها في الجسد الواحد؛ فكيف بوجودها فِي أجساد متنوعة من الحيوانات؟!!

يريد أن يَقُول لنا هذا الملحد -كما قَالَ مئاتُ الْفَلَاسِفَةِ والعلماءِ الغربيينَ قبله-: إنَّ السِّرَّ الَّذِي يَعْتَمِدُ عليه الإيمانُ يُكْشَفُ ويَزُولُ، فَتَزُولُ بِزَوَالِهِ الحاجةُ إِلَى وُجُود الخَالِق؛ حتى نستطيعَ تفسيرَ حدوثِ الأشياءِ تفسيرًا طبيعيًا، وأنه لم يَبْقَ هُنَالِكَ اليومَ مِنْ سِرٍّ، أيْ: شيءٍ مَا زالَ الْعِلْمُ عاجزًا عَنْ تفسيره، إلا في الْمَجَالَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا، فَهُمَا وحدَهما اليومَ مَلَاذُ مَنْ يَبْحَثُ عَنْ سِرٍّ يُرْسِي عليه إيمانَه، يعني: عِلْمَ الفَلَكِ وَعِلْمَ الجزئياتِ الصغيرةِ.

هذا كلُّه وَهَمٌ، وَهَمُ وَاهِمٍ، لأنَّ الفِصَامَ النَّكِدَ الَّذِي وَقَعَ بين الْعِلْمِ والدينِ فِي أُورُوبَّا لَمَّا رَكِبَت الكنيسةُ الغربيةُ رَأْسَهَا، وَأَبَتْ إلا أنْ تُصَادِمَ الحَقَائقَ الْعِلْمية على حَسَبِ أَسَاطِيرِهَا وَأَوْهَامِهَا؛ هذا الفِصَامُ النَّكِدُ جَعَلَ الناسَ يَلِجُّونَ فِي طُغْيانِهِم، ويجتهدون فِي السيرِ فِي طريقِهِمُ الَّذِي اخْتَطُّوهُ لأنفسِهِم، فكلما أَمْعَنُوا فِيه؛ زَادَ كُفْرُهُمْ وزَادَ إِلْحَادُهُم، وإلا فإنه لا تَنَاقُضَ بينَ كونِ الشيءِ مخلوقًا لله، وأنْ يكونَ لِحُدُوثِهِ تفسيرًا طبيعيًا؛ لَكِنَّ غايةَ ما يَبْلُغُهُ الْعِلْمُ هو أنْ يُفَسِّرَ لنا الحدوثَ بأسبابٍ ثَانَوِيَّةٍ، أيْ: أسبابٍ هي نفسُها بحاجةٍ إِلَى أَسْبَابٍ، ونحن مُحْتَاجُونَ بلا شكٍّ إِلَى معرفةِ مِثْلِ هذه الأَسْبَابِ فِي حياتِنا اليوميةِ؛ لَكِنَّها ليست الأَسْبَابَ التي تُفَسِّرُ لنا وُجُودَ الأشياءِ تفسيرًا نهائيًا.

ثُمَّ: إنَّ الكُشُوفَ الْعِلْمِيةَ الهائلةَ التي ساعدت الناسَ على فهمِ كثيرٍ مِن الظواهرِ الكونيةِ، والتي بُنِيَتْ عليها تِقْنِيَةٌ يَسَّرَتْ للناسِ مَعَاشَهُم؛ مِنْ أكلٍ وشُرْبٍ ولُبْسٍ وعِلَاجٍ وعِمَارَةٍ واتصالٍ وغيرِ ذَلِكَ، هذه فَتَنَتْ كثيرًا من الناس، فجَعَلَتْهُم يَعْتَقِدُونَ أنَّ الْعِلْمَ التجريبيَّ سَيُغْنِيهِمْ عَن الدينِ؛ بل سَيَنْجَحُ حيثُ أَخْفَقَ الدينُ؛ فكان مَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كما قَالَ ربُّنا -جَلَّ وَعَلَا-:﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾.

وكما قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾.

قال مُؤَرِّخُ العلومِ: إنه لم يُخَفِّفْ مِنْ غُلَوَاءِ هذا الغرورِ إلا الحربُ العالميةُ الأُولى، ثم الثانيةُ.

لَمَّا صُدِمَ الإنسانُ المعاصرُ فِي نتيجةِ ما وَصَلَ إِلَيْهِ مِن العلومِ والأبحاث؛ لأنَّ الَّذِي وَقَعَ مِن الدَّمَارِ، والذي وَقَعَ مِن الخَرَابِ والتَّقْتِيلِ والتَّشْرِيدِ؛ إنما كَانَ بِسَبَب ما وَصَلُوا إِلَيْهِ مِن العلومِ الماديةِ الْحَدِيثةِ فِي مجالاتِ صناعةِ الأسلحةِ أسلحةِ الدمارِ الشاملِ.

وهذا إنما أُسِّسَ على ما اكتشفوه مِنْ قوانينِ المادةِ فِيما يتعلق بالفيزياءِ والكيمياءِ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَتَوَصَّلُوا إِلَى صناعةِ ما صَنَعُوهُ مِنْ تلك الأسلحةِ، ثم اسْتُخْدِمَتْ بغيرِ هُدَى وَلَا وَعْيٍ، حتى أَدَّى استعمالُها إِلَى النتائجِ الكَارِثِيَّةِ التي تَمَخَّضَتْ عَنْها الحربُ الأولى، ثم تَمَخَّضَتْ عَنْ أَقْسَى منها الحربُ الثانيةُ، والعالَمُ يَنْتَظِرُ على مِثْلِ الْجَمْرِ الحربَ الثالثةَ، وما دامتْ مقاليدُ القُوَى البشريةِ فِي الأرضِ في أَيْدِي أُولَئِكَ الشياطينِ؛ فلا تَسْتَبْعِدْ شيئًا.

نَجَحَ «الْعَلْمانيون» فِي إيهامِ كثيرٍ مِن الناس بأنَّ الْحَقائقَ الْعِلْمية تُبْطِلُ الدَّعَاوَى الدينيةَ، وتُؤَيِّدُ النظرياتِ الْإِلْحَادية؛ بل نَجَحُوا فِي إيهامِهِمْ بِأَنَّ النظرةَ الْإِلْحَادية إِلَى الوجودِ هي وَحْدَهَا النظرةُ الْعِلْميةُ، فصارت الْعَلْمَانِيَّةُ أو الْإِلْحَادُ جزءًا مِنْ مفهومِ الْعِلْمِ نفسِه، وقد ظَفِروا بهذا الَّذِي أَرَادُوهُ بِوَسَائِلَ عِدَّةٍ، أَهَمُّها:

*تفسيرُ الْحَقائق الْعِلْمية بنظرياتٍ إِلْحادية: ثم تصويرُ هذه النظرياتِ على أَنَّهُا وَحْدَها القادرة على تفسيرِ تلك الْحَقائقِ، واستبعادُ كُلِّ نظريةٍ يُمْكِنُ أَنْ يُشَمَّ منها رائحةُ تَأْيِيدٍ للدينِ، ثم نَشْرُ هذه النظرياتِ الْإِلْحاديةِ، والدفاعُ عَنْها، وتَدْرِيسُها للطلابِ؛ حتى يَنْشَئوا على اعتقادِ أَنَّهُا جزءٌ مِن الحقائقِ الْعِلْميةِ، لا نظرياتٌ قد تَصْدُقُ وقد تَكْذِبُ؛ بل هي حقائقُ وليست بنظريات!!

ثم التعصبُ لهذه النظرياتِ تَعَصُّبًا يَجْعَلُهُمْ يُغْفِلُونَ الْحَقائقَ التي تُكَذِّبُها أو تُضْعِفُ مِنْ قُوَّتِها، وسَتَجِدُ مِنَ الأمثلةِ على هذا التعصبِ الَّذِي يَتَجَاهَلُ الْحَقَائِقَ.

ستجد التعصبَ للنظريةِ الدَّارْوِينِيَّةِ فِي التطورِ؛ فإنَّ المؤمنينَ بهذه النظريةِ -وَهُم الآنَ مُعْظَمُ الأسماءِ الكبيرةِ فِي مجالِ علمِ الإحياءِ-، ما زالوا مِنَ المؤمنينَ بنظريةِ دَارْوِنْ فِي التطورِ، وهُمْ يَضِيقُونَ ذَرْعًا بكُلِّ مَنْ يَتفَضَّلُ فَيُبَيِّنُ للناسِ ضَعْفَ بعضِ الْمُرْتَكَزَاتِ التي تَقُومُ عليها النظريةُ الدَّارْوِينِيَّةُ، ويتهمونه إِمَّا بالجهلِ، أو بالتعصبِ الدينيِّ، أو بغيرِ ذَلِكَ مِنَ الأوصافِ التي لا تَلِيقُ بِرَجُلِ الْعِلْمِ.

حَدَثَ هذا -مثلًا- لِصَاحِبِ كتابِ «حقائقِ الحياةِ» الَّذِي نُشِرَ فِي بِرِيطَانْيَا سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَتِسْعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ «١٩٩٢»، ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَارَ مِنْ أَعْظَمِ الكُتُبِ بَيْعًا.

***مما زاد من حِدَّةِ البغضاء للدين، وتَحَوُّلِ الناسِ إِلَى الْعَلْمَانِيَّةِ والإِلْحاد:**

أنْ رَأَوا الأمةَ التي حَبَاهَا اللهُ بالهدايةِ إِلَى الدينِ الْحَقِّ الَّذِي ليس فِيه شيءٌ مِنْ تلك الْمَآخِذِ التي أَخَذَها الغَرْبِيُّونَ على الدينِ الَّذِي عَرَفُوه، وَجَدَ الناسُ هذه الأمةَ المرحومةَ واقعةً فِي مُعْظَمِها تحتَ تأثيرِهِمْ، ورَأَوْهَا حتى بَعْدَ أَنْ يَسَّرَ لها الْخَلَاصَ مِن الاستعمارِ تَنْهَجُ فِي مُعْظَمِ دُوَلِهَا نَهْجَ مُسْتَعْمِرِيها، فِي سياستِها واقتصادِها، وفي كثيرٍ مِنْ تصوُّرَاتِهَا، ورَأَوْهَا أمةً ضعيفةً مُتَخَلِّفَةً عَنْهُمْ فِي العلومَ والتِّكْنُولُوجْيَا، ولم يَرَوْهَا قادرةً على أَنْ تَتَحَدَّاهُم بدينها، أو أَنْ تُرِيَهُم الفَرْقَ بين دينِهم ودينِها؛ فَفُتِنُوا بذَلِكَ إلا مَن رحم اللهُ منهم.

وهذه هي الحالُ الغالبةُ على هذه الأمةِ المرحومةِ التي انْصَرَفَ أكثرُ أبنائِها عَن النظرِ فِي الدينِ، وتقديرِه حَقَّ التقديرِ، فلمَّا نَظَرَ الآخَرُونَ إلينا قالَوا: ما وَصَلْنَا نحن إِلَيْهِ -يعني: مِن الْإِلْحَادِ الَّذِي صاروا إِلَيْهِ مع التقدمِ المادِّيِّ الَّذِي رَبَطُوهُ بالكفرِ بالدينِ-، قالوا: نحن خيرٌ مِنْ أُولَئِكَ، هَؤُلَاءِ لا خَيْرَ عَنْدَهم -يَعْنُونَ أمةَ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فَتَخَلُّفُنَا إِذَن ليس تقصيرًا فِي حقِّ أنفسِنا فحَسْب، وإنما هو فتنةٌ للأمَمِ المتطورةِ ماديًّا، يُغْرِيهَا بالتَّمَادِي فِي كُفْرِها وإِلْحَادِها.

إِنَّ هذا التقصيرَ ظُلْمٌ للإنسانيةِ، يفوت عليها فرصة الاهتداء والسعادة الدنيوية والأخروية:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾.

هذه جملةُ الأَسْبَابِ، وورَاءَهَا أَسْبَابٌ سواها، التي أدت إِلَى ظهور الْإِلْحَاد فِي أُورُوبَّا، وفُشُوِّهِ بعد ذَلِكَ، وانتقالِهِ إِلَى أمريكا، ومن أُورُوبَّا وأمريكا إِلَى سائر بقاع العالم.

والحقيقةُ: أن وُجود الخَالِقِ للكون أمرٌ تَعْرِفُهُ العقولُ بَدَاهَةً؛ لِذَلِكَ لم يكن يُنْكِرُ وُجُودَ الخَالِقِ فِيما مَضَى إلا فئاتٌ قليلةٌ مِن البَشَرِ كما مَرَّ؛ ولِذَلِكَ كَانَت الرسالاتُ السَّمَاوِيَّةُ تَنْبَنِي على إقرارِ الناسِ بوجود الله؛ لأن الرسل لم يَأْتُوا من أجل أن يُقْنِعُوا أقوامَهم بوجود الله، وإنما أتوا من أجل أن يَأْمُرُوا أقوامهم بعبادة الله الَّذِي يؤمنون بوجوده.

إِذَن؛ هذا أمر مقرَّرٌ فِي الطبيعة، وهو ما يَقُول له علماؤنا فِي التوحيد: هو توحيد الربوبية.

فهذا مستقِرٌّ مُرْتَكِزٌ فِي الفطرةِ الإنسانية.

فالرسل جاءوا؛ لا من أجل أن يقرروا توحيد الربوبية، وإنما جاءوا من أجل دعوة الأقوام إلى عبادة الله وحده، فهذا يكون مرتكزًا على إقرار الخلق بوجود الخالق العظيم، وأنه هو خالقُ كُلِّ شيءٍ ومَالِكُهُ، وهو الذي يُدَبِّرُه ويُصَرِّفُه.

فالأنبياء لم يبدئوا من توحيد الربوبية؛ لأن هذا مستقر في الفِطَرِ الإنسانية، وإنما جاءوا يأمرون أقوامهم بعبادة الله الَّذِي خلقهم، وهو يَرْزُقُهم ويُحْيِيهم ويُمِيتُهم، ثم لِيَزِيدَهُم الأنبياء عِلْمًا بالله -تبارك وتعالى- وبأسمائه وصفاته، ويَدْعونهم إِلَى عبادتِهِ وحدَه دونَ سواه مما يَعْلَمُون أنه لم يَخْلُقْ، أيْ الأقوامُ يَعْلَمُون أَنَّ هذا الذي يعبدونه لم يَخْلُقْ منهم أحدًا، ولا يَرْزُقُهم شيئًا، ولا يُحْيِي ولا يُمِيتُ، ولا يَتَّصِفُ بشيءٍ مِن صفاتِ الخَالِقِ.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾.

إِذًا؛ هو لم يَقُلْ لهم: تعالوا من أجل أن أُثْبِتَ لكم أن الله موجود!!

هذا مقرَّرٌ عَنْدهم؛ ولَكِنْ قال لهم: انظروا إلى آلهتكم التي تعبدون من دون الله تبارك وتعالى، واعلموا –بل أنتم تعلمون– أن الذي يرزقكم في الحقيقة هو الله، هو الذي خلقكم، وهو الذي يملك أمركم ويدبره.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾.

فبَدَأَ بدعوتِهم بأَمْرِهم بعبادتِه وحده، وهذا هو توحيد الألوهية ،وأَنْهَى كذَلِكَ الآيةَ الثانيةَ بهذا الأمر: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، وهذا هو مَحْضُ توحيدِ الألوهية، وجَعَلَ بين هَذَيْنِ الأمْرَيْنِ بَدْءًا ومُنْتَهَى ما يتعلق بتوحيدِ الربوبية: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

هُمْ لا يُمَارُون فِي ذَلِكَ، وهذا كلُّه من توحيد الربوبية، فجَعَلَهُ سُلَّمًا لِإِلْزَامِهم بتوحيدِ الألوهية، فلمَّا أقروا بتوحيد الربوبية؛ ألزمهم بتوحيد الألوهية؛ لِأَنَّهُ ما دُمْتُم تُقِرُّونَ أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذِي خَلَقَ، وهو تعالى الَّذِي يَمْلِكُ، وهو الَّذِي يُدَبِّرُ الأمرَ، وهو الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ؛ فهو المستحقُّ للعبادةِ وحدَه.

فالأنبياء جاءوا يَدُلُّونَ الأقوامَ على هذا؛ حتى الَّذِينَ أنكروا وُجُود الخَالِق.

والذين يُسَمَّوْنَ فِي عصرنا بالْمُلْحِدِينَ لا يُنْكِرُ مُعْظَمُهُمْ وُجُودَ الخَالِقِ أيَّ خالقٍ، وإنما ينكرون وُجُود الخَالِقِ الْحَقِّ الَّذِي دَعَتْهُمْ إِلَى الإيمانِ به رسالاتُ السماء.

فهذا الَّذِي به يكفرون، والذي كَانَ يُؤْمِنُ بربوبيتِهِ مَنْ يُشْرِكُ معه غيرَه فِي عبادته.

انظر إِلَى حال الْمُلْحِدِينَ فِي عصرنا.

تراهم إِذْ أَنْكَروا وُجُودَ الخَالِقِ الْحَقِّ؛ يَعْزُونَ حُدُوثَ الأشياءِ إِلَى أشياءَ أُخَرَ، وَهُمْ وإِنْ لم يُسَمُّوها بالخَالِقة؛ إلا أَنَّها لا بد أن تقوم عَنْدهم مَقَامَ الخَالِقِ سبحانه؛ بل ويُطْفُونَ عليها بعضَ صفاتِ الخَالِقِ الْعَظِيم.

خُذِ الْمُلْحِدِينَ الماديين فِي عصرنا مثلًا:

لقد كَانَ عُمْدَتَهُم فِي إِلْحَادِهم: قولُهم بأن المادة أَزَلِيَّةٌ لا تُسْتَحْدَثُ ولا تَفْنَى، وكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أنَّ هذا شيءٌ أَثْبَتَهُ الْعِلْمُ؛ فلا مجالَ للخلافِ فِيه!! لَكِنَّ المادةَ التي يتحدثون عَنْها، ويَصِفُونَها بهذا الوصف، ليست هي المادةَ التي نَعْرِفُها ونتعاملُ معها فِي حياتِنا اليومية، وفِي مَعَامِلِنَا الْعِلْمِيةِ.

إن المادة التي نعرفها هي مادةٌ فِي صورةٍ مِنْ أجسامٍ سماويةٍ، أو أجسامٍ أرضيةٍ، أو مكوناتِ هذه الأجسامِ مِنَ الذَّرَّاتِ، ومكوناتِ الذراتِ والفُوتُونَاتِ، وما أشبهَ ذَلِكَ مما تَتَكَوَّنُ منه تلك المخلوقاتُ؛ لَكِنْ ليس شيءٌ مِنْ هذا أَزَلِيًّا؛ بل إنَّ كل مادة فِي صورةٍ مِنَ الصُّوَرِ تَحْدُثُ وتَزُولُ، وأما المادة التي لا صورةَ لها؛ فإنها كما قَالَ ماركس نفسُه: «وَهْمٌ فِي أذهانِ الْفَلَاسِفَةِ، لا وُجُودَ له فِي الخارجِ».

يعني: هي موجودةٌ وُجُودًا ذِهْنيًا، لا وُجُودًا واقعيًا.

فهذا هو كبير الْمُلْحِدِينَ المعاصرين!!

زعيمُهم وإمامُهم وشيخُهم الَّذِي إِلَيْهِ يَحُجُّون، وبه يؤمنون!!

هو يقول نفسُه: إنَّ المادَّةَ التي لا صُورةَ لها، إنما هي وَهْمٌ فِي أذهانِ الْفَلَاسِفَةِ، لا وُجُودَ له فِي الخارِجِ.

وإذا كَانَت المادةُ قد أُعْطِيَتْ صِفَتَيْنِ مِنْ صفاتِ الخَالِق، هما: الأَزَلِيَّةُ والْأَبَدِيَّةُ؛ إِذِ اللهُ وحده هو الأولُ الَّذِي ليس لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، والْآخِرُ الَّذِي ليس لِآخِرِيَّتِه انْتِهَاءٌ؛ فإنَّ شيئًا اسمه «الطبيعة» قد عُزِيَتْ إِلَيْهِ بعضُ أفعالِ الخَالِق سبحانه.

فأنت كثيرا مَا تَسْمَعُ الْمُلْحِدِينَ ومَنْ يُقَلِّدُهُم -وإن لم يكُنْ مُلْحِدًا مِثْلَهُم- يَقُولون: إنَّ الطبيعةَ فَعَلَتْ كذا وكذا، واختارت الطبيعةُ كذا وكذا!!

لَكِنَّ الطبيعةَ التي نَعْرِفُها ونتعامل معها فِي حياتِنا اليوميةِ والْعِلْميةِ هي: مجموعُ الكائناتِ الحيَّةِ والجامدةِ والسائلةِ، وهذه الموجوداتُ هي التي تَنْفَعِلُ، لا هي التي تَفْعَلُ؛ بل هي التي تَنْفَعِلُ، وهي التي تُوجَدُ وتَتَكَوَّنُ وتَنْمُو وتَفْنَى؛ فأين هي تلك الطبيعةُ التي تَفْعَلُ كُلَّ هذا مِنَ الطبيعةِ هذه التي نَعْرِفُها، التي هي مُنْفَعِلَةٌ وليست بفاعلةٍ؟!!

هُمْ يَقُولون: الطبيعةُ فاعِلَةٌ، وليست بِمُنْفَعِلَةٍ، أو هي فاعلةٌ مُنْفَعِلَةٌ مَعًا.

وأمَّا الطبيعةُ التي يَعْرِفُها الخلقُ أجمعون؛ فهي الطبيعةُ الْمُنْفَعِلَةُ التي تُوجَدُ وتَتَكَوَّنُ وتَنْمُو وتَفْنَى.

أَهُمَا طَبِيعَتَانِ حَقًّا؛ الواحدةُ تَفْعَلُ، والثانيةُ تَنْفَعِلُ؟!

كَلَّا؛ إنما الطبيعةُ الْحَقَّةُ هي هذه الطبيعةُ التي نَشْهَدُها، وأما الأخرى التي تُقَامُ فِي مَقَامِ الخَالِقِ سبحانه؛ فإنما هي وَهْمٌ كبيرٌ فِي رُؤُوسِ الْمُلْحِدِينَ، وهم يُطْفُونَ عليها صِفَتَيْنِ مِنْ صفاتِ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-: الأزليةَ والأبديةَ.

اللهُ هو الأول، ليس قبلَه شيءٌ، والآخِرُ، ليس بعدَه شيءٌ.

ما يقال عَنْ الطبيعةِ يقال أَيْضًا عَنْ التطور.

إن التطورَ فِي مفهومه الْعِلْمي هو: الطريقةُ الْمُتَدَرِّجَةُ التي نَشَأَتْ بها الكثرةُ الحاضرةُ فِي الحياةِ النباتيةِ والحيوانيةِ عَنْ أَقْدَمِ الكائناتِ الْحَيَّةِ، وأَكْثَرِها بِدَائِيَّةً، كما هو مُقَرَّرٌ فِي «القاموسِ الْعِلْميِّ».

فالتطور إِذَن هو: الطريقةُ التي حَدَثَ بها هذا التنوعُ، وليس هو صانِعَ التنوعِ -على حَسَبِ ما يَعْتَقِدُونَ!!-.

فالتطورُ هو الطريقةُ التي حَدَثَ بها التنوعُ، وليس التطورُ بِصَانِعِ التنوعِ،

لَكِنَّ الْمُلْحِدِينَ يتحدثون عَنْ التطورِ كما لو كَانَ هو الفاعلَ.

يقول «دَارْوِنْ» فِي الطبعةِ الثانيةِ مِنْ كتابِه «أَصلُ الأنواع»:

«يُمْكِنُ أنْ يُقَالَ مَجَازًا: إنَّ الانْتِقَاءَ الطبيعيَّ مستمرٌّ فِي تَفَحُّصِهِ فِي كُلِّ يومٍ وكُلِّ ساعةٍ، وفي العالَمِ كلِّه لكلِّ تَغَيُّرٍ وَإِنْ دَقَّ، رافضًا للسَّيِّءِ، حافظًا وجامعًا لكلِّ ما هو جيِّدٌ، عاملًا فِي صَمْتٍ ولُطْفٍ، كلما سَنَحَتْ فُرْصَةٌ لِتَحْسِينِ كُلِّ كائنٍ حَيٍّ بالنسبةِ لِظُروفِ حياتِه الماديةِ وغيرِ الماديةِ، ونحن لا نَرَى شيئًا مِنْ هذه التغيراتِ البَطِيئَةِ وهي تَحْدُثُ، حتى تَضَعَ يدُ الزمان -كما قال!- علامةً على الآمادِ الطويلةِ التي مضت».

قال «اسْتَانْلِي» -وهذا النصُّ منقولٌ عَنْه، أي هذا النصُّ الدَّارْوِينِيُّ-:

«إنَّ دَارْوِنْ لم يُضِفْ كلمة «مَجَازًا» إلا فِي الطبعةِ الثانيةِ مِنْ كتابه». يُفَسِّرُ هذه الإضافةَ بأنه: وقد كَانَ يعيش فِي عصرٍ كَانَ يُدَّعَى فِيه أنَّ للحياة قصدًا إلهيًا، فأراد -فِيما يبدو- أنْ يُبَيِّنَ للقارئ أَنَّهُ لا مكانَ فِي حُجَّتِهِ لِمِثْلِ هذا الكلامِ الديني، وأنَّ مشروعَه آلِيٌّ إِلَى درجةٍ مُفْزِعَةٍ!!

فأنتَ ترى أمثالَ هَؤُلَاءِ يَقُولون: إنَّ التطورَ أو الانتقاءَ يَفْعَلُ كذا وكذا، وَيَضَعُونَهُ بذَلِكَ فِي موضعِ الخَالِقِ سبحانه.

هذا؛ مع أَنَّ وَصْفَ الطريقةَ التي تَحْدُثُ بها الأشياءُ لا يَتَنَافَى مع وُجُودِ خالقٍ لها يُحْدِثُها ويُطَوِّرُها بتلك الطريقةِ.

فنحن يُمْكِنُ أن نَصِفَ الطريقةَ التي يَتَطَوَّرُ بها الإنسانُ منذ كَانَ جنينًا فِي بطن أمِّهِ، إِلَى أنْ يَخْرُجَ طفلًا، فَيَنْمُو شابًّا، حتى يَصِيرَ شيخًا، ولا نَجِدُ فِي هذا ما يَتَعَارَضُ مع إيمانِنَا بهو الَّذِي خَلَقَ هذه الأطوارَ الإنسانيةَ كُلَّها؛ فالله تعالى يَقُولُ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾، ويقولُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)﴾.

فليس هُنَالِكَ مِنْ حيث الْمَبْدَأُ تَنَاقُضٌ فِي ذَلِكَ، وهذا لا يَطْعَنُ فِي إيمانِ المؤمنين، ولا يُشَكِّكُهُمْ فِي دينِهم ولا فِي إيمانِهِمْ.

فلا تَسْتَغْرِبَنَّ بعدُ أنْ يُقَالَ: «إنَّ الْمُلْحِدِينَ مشركون»؛ فالشركُ نَقِيضُ التوحيدِ، وهم مشركون، هُمْ يريدون أنْ يكونوا فِي مرتبةٍ أَرْقَى مِنَ الشركِ؛ لأن الشركَ يُثْبِتُ وُجُودَ اللهِ، ثم يَجْعَلُ له شريكًا، وأما هُمْ؛ فَيُنْكِرُونَ وُجُودَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ ولَكِنْ هُمْ مع ذَلِكَ يُثْبِتُونَ إِلَهًا بصورةٍ من الصور، وأنت تعلم أن التوحيدَ الواجبَ لا يَتِمُّ إلا بأمورٍ ثلاثةٍ:

***أولًا:** أنْ يَعْتَقِدَ الإنسانُ أنَّ اللهَ تعالى هو الربُّ الخَالِقُ البارِئُ الْمُصَوِّرُ... إِلَى آخِرِ صفاتِ الربوبيةِ، إِلَى أَنْ يَعْتَقِدَ أنَّ هُنَالِكَ أفعالًا لا يَفْعَلُها ولا يستطيعُ فِعْلَهَا إلا اللهُ سبحانه.

***وثاني هذه الأمور:** أَنْ يَعْتَقِدَ أنَّ هذا الربَّ سبحانه هو وحدَه الْمُتَّصِفُ بكلِّ صفاتِ الكمالِ، فلا يُضِيفُ إِلَيْهِ صفةَ نَقْصٍ، ولا يَسْلُبُهُ صِفَةَ كمالٍ، ولا يَصِفُ غيرَه بصفةٍ مِنْ هذه الصفاتِ.

فالْأَوَّلُ توحيدُ الربوبيةِ، وهذا هو توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ.

***والثالثُ:** أنْ يَعْتَقِدَ أنَّ هذا الربَّ وحدَه هو الإلهُ الَّذِي يستحِقُّ العبادةَ؛ فلا يَعْبُدُ معه غيرَه، وهذا هو توحيدُ الألوهيةِ.

والأولُ -يعني توحيدَ الربوبيةِ- هو أساسُ توحيدِ الأسماءِ والصفاتِ؛ لأنك لَنْ تُثْبِتَ صِفَةً لِمَعْدُومٍ، وإنما تُثْبِتُ الصفاتِ للموجودِ؛ فلا بُدَّ مِنْ إثباتِ الوجودِ أَوَّلًا.

فهذا الأولُ -يعني توحيدَ الربوبيةِ- هو أساسُ توحيدِ الأسماءِ والصفاتِ، وهو أساسُ توحيدِ الألوهيةِ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يَصِفُ اللهَ بصفاتِ الكمال، ولا يَرَاهُ مُسْتَحِقًّا للعبادةِ؛ إلا إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُتَّصِفُ بصفاتِ الربوبيةِ تلك؛ ولِذَلِكَ تَجِدُ القرآنَ يَجْعَلُ هذه الْحَقيقةَ أساسًا فِي دَعْوَتِهِ للمشركِينَ الَّذِينَ يُسَلِّمُون بها -يعني توحيدَ الربوبيةِ، يعني وُجُودَ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى عبادةِ اللهِ وحدَه، وإِلَى عدمِ وَصْفِهِ بما لا يَلِيقُ، أو وَصْفِ غَيْرِهِ بشيءٍ مِنْ صِفَاتِهِ.

وإذن؛ فالذي يَعْتَقِدُ فِي وُجُودِ خالقٍ غيرَ الله، أوِ الَّذِي يَصِفُ مخلوقًا مِنْ مخلوقاتِ اللهِ ببعضِ صفاتِ اللهِ - كما يَفْعَلُ الْمُلْحِدُونَ، عَنْدما يَصِفُونَ الطبيعةَ بِبَعْضِ صفاتِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ فهذا مشركٌ باللهِ؛ سواءٌ اعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ تعالى هو أَيْضًا خالقٌ، أو لم يَعْتَقِدْ ذَلِكَ؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا وُجودَ الخَالِقِ الحَقِّ -وإنْ كَانُوا قِلَّةً شَاذَّةً-؛ إلا أَنَّ بعضَهم قد يَكُونُ مُؤَثِّرًا فِي الناسِ، فَيُثِيرُ الشُّكُوكَ فِي نُفُوسِهِمْ، حتى بالنسبةِ لهذا الأمرِ الْبَدَهِيِّ الَّذِي فُطِرَ عليه الْخَلْقُ؛ ولِذَلِكَ لم يُهْمِلِ القرآنُ الكريمُ ذِكْرَ هذا الصِّنفِ مِنَ الناسِ، ولم يُهْمِلِ الردَّ على شُبُهَاتِهِمْ؛ رَدَّ على الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لا خالقَ الْبَتَّةَ، كما رَدَّ على الَّذِينَ اتَّخَذُوا خَالِقَيْنِ غيرَ اللهِ الخَالِقِ الحَقِّ، وأَبَانَ لهم أَنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يكونوا خَالِقِينَ حَقًّا، وإنما هم مخلوقون فِي الْحَقيقة.

فهذه كلُّها مقدِّمَةٌ تَتْبَعُهَا أَيْضًا بعضُ المقدماتِ إنْ شَاءَ اللهُ -تبارك وتعالى- بين يَدَيْ ما نُعَالِجُهُ إنْ شاءَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا- وبِحَوْلِهِ وقوتِهِ مِنَ الرَّدِّ على الْمُلْحِدِينَ.

عَسَى اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ هدايةً لِضَالٍّ، أو إِرْشَادًا لِحَائِرٍ، أو تَثْبِيتًا لمؤمنٍ على الإيمانِ الحَقِّ واليقينِ الثابتِ.

واللهُ تعالى مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ، وهو يَهْدِي السبيلَ.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«الْمُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

ففي سياقِ الرد على الملحدين بحولِ وقوةِ رب العالمين، مَرَّ ذِكْرُ بعضِ المقدماتِ بين يَدَي الردِّ الْمُفَصَّلِ، والحقُّ أنَّ هذه المقدماتِ هي مقدماتٌ ونتائجُ في الوقتِ نفسِهِ؛ ولَكِنْ لا بَأْس.

وهذه مقدمةٌ مِنْ هذه المقدماتِ:

في «قصةِ الإيمانِ» بيانٌ لِلْفَرْقِ بين التَّصَوُّرِ والتَّعَقُّلِ:

فالإيجادُ مِنَ العَدَمِ غيرُ مستحيلٍ عقلًا، وإنْ كَانَ الملحدُ يَجِدُهُ مُسْتَحِيلًا، ويَسْتَبْعِدُهُ، وَيَعْجِزُ عَنْ تَصَوُّرِهِ؛ ولَكِنْ عُقُولُنا فِي مَجَالِ الأعدادِ الكبيرةِ تَكِلُّ عَنْ تصورِ حقائقَ واضحةٍ، وهذه الْحَقائقُ الواضحةُ لا تَحْتَاجُ إلا لِتَأَمُّلٍ قليلٍ وحِسَابٍ يسيرٍ مِنْ نَوْعِ الْجَمْعِ مثلًا، ويكونُ كَلَالُ العقولِ حينئذٍ غريبًا جدًا؛ حتى إنَّها تُمَارِي فِي النتيجةِ؛ ولو أَخْبَرَهَا بتلك النتيجةِ أصدقُ الناسِ وَأَعْلَمُهُمْ، وتَبْقَى العقولُ عاجزةً عَنْ تَصَوُّرِ النتيجةِ؛ ولو تَوَصَّلَتْ إِلَيْهَا بنفسِها.

أَلَا تَعْرِفُ أُحْجِيَّةَ الورقةِ الْمُقَطَّعَةِ؟

لو أُعْطِيتَ ورقةً رقيقةً بَالِغَةَ الرِّقَّةِ، سُمْكُهَا جزءٌ مِنْ مائةِ جزءٍ مِنَ الْمِلِّي مِتْرٍ، وطُلِبَ منك أنْ تَقْطَعَهَا نِصْفَيْنِ، ثم تَقْطَعَ النصفينِ ثانيةً لِيُصْبِحَا أربعةً، ثم تَقْطَعَ الأربعةَ لِتُصْبِحَ ثمانيةً، وهكذا إِلَى أَنْ تُكَرِّرَ القَطْعَ والتضعيفَ ثمانِيَ وأربعينَ مَرَّةً.

إذا سُئِلْتَ قبل أنْ تبدأ فِي القطعِ، وقبل أن تَحْسُبَ: كم تتوقعُ أنْ تُصْبِحَ سَمَاكَةُ هذه الأوراقِ الرقيقةِ بعد قَطْعِهَا ثَمانِي وأربعينَ مرةً؟

فإنك مهما بالغتَ فِي التقدير؛ لم تَقُلْ: إنَّ سُمْكَهَا يَزِيدُ على مِتْرٍ واحدٍ، أو مِتْرَيْنِ، أو ثَلَاثَةٍ.

فإذا قيل لك: إنَّ سُمْكَهَا سوف يزيدُ على عَشْرَةِ كيلو متراتٍ؛ لم تُصَدِّقْ.

وأما إِذَا قيل لك: إنك إِذَا كَرَّرْتَ القطعَ إِلَى الْمَرَّةِ الثامنةِ والأربعين، ثم جَعَلْتَ الأوراقَ الْمُقَطَّعَةَ رُكَامًا مَرْصُوصًا صاعدًا إِلَى السماءِ؛ فإنه يَلْمَسُ أو يكادُ يَلْمَسُ القمرَ الَّذِي يَبْعُدُ عَنِ الْأَرْضِ أربعةً وثمانينَ وثلاثَمِائَةِ أَلْفِ كيلو مِتْرٍ؛ إِذَا قيل لك ذَلِكَ نَفَرْتَ، وَحَسِبْتَ القائلَ يَسْخَرُ منك، وبعد أنْ تَتَحَقَّقَ أنتَ بنفسِكَ مِنْ ذَلِكَ بالحسابِ اليسير، لو أَرَدْتَ تَصَوُّرَه؛ فإنك سَتَجِدُ عَقْلَكَ كَلِيلًا عاجزًا عَنْ تصورِه.

خُذْ قَلَمَكَ واحْسُبْ:

ورقةٌ رقيقةٌ بَالِغَةُ الرِّقَّةِ، سُمْكُها جزءٌ مِنْ مائةِ جزءٍ مِنَ الْمِلِّي مِتْر، تَقْطَعُهَا نِصْفَيْنِ، ثم تَقْطَعُ النصفينِ ثانيةً لِيُصْبِحَا أربعةً، ثم تَقْطَعُ الأربعةَ لِتُصْبِحَ ثمانيةً، وهكذا إِلَى أَنْ تُكَرِّرَ القَطْعَ والتضعيفَ ثمانِيَ وأربعينَ مَرَّةً.

إذا جَعَلْتَ ذلك رُكَامًا مَرْصُوصًا صاعدًا إِلَى السماءِ؛ فإنه يَلْمَسُ أو يكادُ يَلْمَسُ القمر، على حسب المسافة التي بينك وبين القمر، وهي: أربعةٌ وثمانونَ وثلاثُمِائَةِ أَلْفِ كيلو مِتْر، وجرب هذا الحساب فِيما بينك وبين نفسك، والله المستعان.

إذا؛ العقل يقر ذَلِكَ ويثبته، ولا يماري فِيه؛ ولَكِن التصور لا يثبته، ويماري فِيه.

إذن؛ هُنَالِكَ فرق بين التعقل والتصور، فالإنسان قد يتعقل الشيء ويعجز فِي الوقت عينه عَنْ تصوره.

سمك هذه الورقة المقطعة يقرب من أربعة وثمانين وثلاثمائة ألف كيلو متر، حتى إنَّهَا لتكاد تلامس القمر كما مر؛ ولَكِن هل تستطيع أنت أن تتصور هذه النتيجة بعد أن صنعتها بيدك؟!

فهذه النتيجة الرياضية التي يقر بها العقل ولا يكذبها أحد لا يمكن أن يقرها التصور؛ فإنك ما تزال تشعر بعد إقرارها عقلا بكلالٍ عقلي عَنْ تصورها؛ فهل تدرك الآن أن عقولنا تكِل أحيانا عَنْ تصور حقائق كثيرة يقوم البرهان العقلي على صحتها؟

وذَلِكَ؛ لأن عقولنا خلقت عاجزة عَنْ تصور كثير من الأشياء؛ ولَكِنها تستطيع أن تحكم بوجودها عَنْ طريق البرهان العقلي القاطع؛ فالتصور غير التعقل.

هذه الشَّمْس التي تراها، العقل يثبت على حسب الحساب الدقيق الَّذِي لا يمارَى فِيه أَنَّهُا تبلغ مليون مرة مثلَ الْأَرْض، ومع ذَلِكَ فأنت تراها فِي السماء على هذا النحو، وعقلك يكل عَنْ تصور أَنَّهُا عَنْد التضعيف تزيد على مليون مرة من هذه الْأَرْض.

فإذًا؛ التصور غير التعقل، قد تستطيع تعقل شيء ولا تستطيع أن تتصوره؛ لأن التعقل يعتمد على بدهيات أولية يأخذ العقل فِي ترتيبها وتركيبها، واستنباط بعضها من بعض، وبناء بعضها على بعض؛ فيصل إِلَى حكم عقلي قاطع قد لا يستطيع العقل نفسه تصوره، وهو الَّذِي وصل إِلَيْهِ.

الْعِلْم الْحَدِيث اليوم يقر هذه الْحَقيقة التي مر ذكرها عن الفرق بين إمكان تصور الشيء وإمكان تعقله.

فلا يبالي الْعِلْم الْحَدِيث بعجز العقل عَنْ التصور، ويعتمد على التعقل وحده؛ لأن الْحَقائق الْعِلْمية أصبحت فِي مجالاتها وكميتها وأعدادها فوق التصور، ولأنهم يحسبونها ويعرفونها ويحكمون عليها عَنْ طريق التعقل، لا عَنْ طريق التصور.

خذ -مثلًا- أمواج النور:

أتحسب أن الْعلماء الَّذِينَ حسَبوا أن الأمواج التي تحدث، فتحدث اللون البنفسجي تكون بسرعة ستين ألف موجة فِي البوصة؛ هم الذين أتوا بذلك الحساب، فقرروا تلك الحقيقة التي لا مجال للامتراء فيها؛ ولكن هل هَؤُلَاءِ الْعلماء الَّذِينَ قرروا تلك الْحَقيقة يستطيعون تصور هذه السرعة لو أضمدوا عيونهم وأرهقوا خيالهم؟!

كلا؛ لأن هذا العدد الهائل فِي هذه المساحة الضئيلة يعجز العقل عَنْ تصوره؛ ولَكِن لا يعجز عَنْ تعقله –أي: عَنْ الحكم بصحته عَنْ طريق العقل-.

وقد تصل الأعداد فِي الأبحاث الذرية الْحَدِيثة إِلَى مرتبة هائلة يكون عجز العقل عَنْ تصورها أظهرَ لك.

خذ مثلًا:

إن الْعلماء يحسُبون لك أن سرعة ذبذبات الصوت قد تصل إِلَى نصف مليون ذبذبة فِي الثانية الواحدة، وهذا ثابت عَنْدهم ثبوتًا عقليًا علميًا قاطعًا لا ريب فِيه؛ ولَكِن أَتُراهم يستطيعون تصور حصول هذا العدد الهائل من الذبذبات فِي ثانية واحدة؟!

جرب أنت؛ هل تستطيع أن تتصور مهما أجهدت خيالك حصول ألف ذبذبة فِي الثانية؟! فضلًا عَنْ مائة ألف؟! فضلًا عَنْ نصف مليونِ ذبذبة فِي الثانية؟!

ولَكِنَّ هذا الشيء الَّذِي تعجز أنت والْعلماء عَنْ تصوره هو أمر واقع لا ريب فِيه؛ فبأي شيء عرفوه؟

إنهم عرفوه عَنْ طريق التعقل بالحساب.

فالآن نفهم أن التصور غير التعقل، وأن العبرة لقدرة العقل على التعقل، ولا عبرة لعجز العقل عَن التصور، وهذا معنى قول الْعلماء: إن الخلق من العدم يمكن تعقله؛ ولو كَانَ الإنسان يستبعده أو يَكِلَّ أو يعجز عَنْ تصوره.

فهذا هو المراد من أحجية الورقة المقطعة وما تلاها من هذه الأمثلة؛ من أجل أن يصل الإنسان إِلَى هذه القناعة العقلية، من أَنَّهُ يفرق بين التصور والتعقل؛ لنصل فِي النهاية إِلَى أن الخلق من العدم يمكن تعقله، ولَكِنْ العقل الإنساني مع إثباته عقلًا؛ فإنه يكل أو يعجز عَنْ تصوره؛ فلا عبرة لكلال العقل عن التصور، والعبرة بماذا؟

العبرة بإثبات ذلك بالطريقة العقلية.

فالعبرة بالتعقل، لا بالتصور.

إذن؛ الَّذِينَ يَقُولون: إننا يمكن أن نثبت عقلًا -والعقل لا ينفي ذَلِكَ- أن هذا الكون وجد من العدم.

يقولون: هذا يمكن عقلًا؛ ولَكِننا لا نتصوره.

نقول: لا عبرة لنا بتصوركم هذا.

لا نعتبره، ولا نلتفت إِلَيْهِ؛ للحقيقة التي مر ذكرها من أن العقل يثبت كثيرًا من الأمور يتعقلها، ويكل ويعجز فِي الوقت نفسه عَنْ تصورها.

هذه مقدمة من المقدمات، وتليها هذه المقدمة بحول رب الأرض والسماوات، وهي في أقسام المعلوم:

فالمباحث التي يَقُول عَنْها الْعلماء: الإلهيات، والنبوات، والسمعيات: تتضمن أحكامًا كثيرة فِيما يتعلق بالوجود والجواز والاستحالة؛ كقولنا مثلًا بأن وُجُود الله واجب، وأن وُجُود شريك له أمر مستحيل، وكقولنا بجواز فعله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكل ممكن وتركه، وكحكمنا على الأنبياء باستحالة وقوع الكبائر منهم، وجواز المرض والموت فِي حقهم.

فمن الضروري إِذَا ما تعرضنا لهذه المسألة التي نحن بصدد التعرض بحول الله وقوته لها أن نعرف هذه الأحكام، وهي: الوجوب، والجواز، والاستحالة؛ لنعرف ما هو الواجب لذاته؟

وما هو الممكن؟

وما هو المستحيل؟

الأمور المعلومة تنقسم إِلَى مستحيل وواجب وممكن.

فهذه أقسام المعلوم.

فأقسام المعلوم ثلاثة: المستحيل، والواجب، والممكن.

فجميع الأمور التي نعلمها أو يمكن أن يتعلق بها علمنا تنقسم من حيث النظرُ إِلَى وُجُودها إِلَى ثلاثة أقسام:

الأول: مستحيل الوجود لذاته.

الثاني: واجب الوجود لذاته.

الثالث: ممكن الوجود لذاته.

وأما تعريف المستحيل لذاته ومثاله:

فالمستحيل لذاته هو: ما كَانَ عدمه لذاته من حيث هي.

أي: ما تقتضي ذاته العدم دائمًا بحيث لا تقبل الثبوت أصلًا، وذَلِكَ إِذَا نظرنا إِلَيْها دون اعتبار أمر خارجي عَنْها.

ومثال ذَلِكَ: اجتماع النقيضين؛ كالوجود والعدم، والحركة والسكون فِي شيء واحد، بأن يكون الشيء موجودًا معدومًا فِي آن واحد، أو متحركًا ساكنًا فِي آن واحد، فهذا مستحيل.

فاجتماع النقيضين مستحيل لذاته، فالشيء لا يمكن أن يكون موجودًا معدومًا، أو متحركًا ساكنًا فِي وقت واحد.

وكذلك من أمثلة المستحيل لذاته: وُجُود شريك لله -جَلَّ وَعَلَا-.

فهذا مستحيل.

فكل هذه الأمور يحكم العقل باستحالة وُجُودها بداهة أو عَنْ طريق الدليل إِذَا نظر إِلَيْهِا فِي حد ذاتها.

فهذا تعريف المستحيل لذاته، وهذا مثاله.

وأما الواجب لذاته ومثاله:

فالواجب لذاته هو: ما كَانَ وُجُوده لذاته من حيث هي.

المستحيل لذاته: ما كَانَ عدمه لذاته من حيث هي.

الواجب لذاته: ما كَانَ وُجُوده لذاته من حيث هي.

أي: ما تقتضي ذاته الوجود دائمًا بحيث لا تقبل العدم أصلًا، وذَلِكَ إِذَا نظرنا إِلَيْهِا دون أمر خارجي عَنْها نعتبره.

مثال ذَلِكَ: وُجُود الله تعالى، ومنه: أخذ الجسم قدرًا من الفراغ.

أخذ الجسم قدرًا من الفراغ؛ هذا واجب لذاته.

فلا بد للجسم أن يشغل قدرًا من الفراغ.

وكذَلِكَ ثبوت الزوجية للعدد «أربعة»(٤) مثلًا: فإننا نحكم بضرورة احتلال أي جسم من لأجسام قدرًا من الفراغ مهما صغر، يتحقق فِيه وُجُوده، وإلا لما كَانَ جسمًا موجودًا، وكذَلِكَ نحكم بضرورة كون العدد (٤) عددًا زوجيًا، لا فرديًا بمجرد تصوره؛ وإلا لما كَانَ هو نفس ذَلِكَ العدد؛ بل كَانَ إما ثلاثةً أو خمسةً أو غيرَهما من الأعداد الفردية؛ ولَكِن لا بد من إثبات الزوجية له.

من أمثلة الواجب لذاته: تقدم الأب على ابنه فِي الوجود، وكون الكل أكبرَ من الجزء؛ فإن هذه أمور يحكم العقل بوجودها وبوجوبها بداهة، أو عَنْ طريق الدليل بمجرد النظر إِلَيْهِا فِي ذاتها.

وأما الممكن لذاته ومثاله:

فالممكن لذاته هو: ما لا وُجُود ولا عدم لذاته من حيث هي.

أي: ما لا تقتضي ذاته الوجود أو العدم.

وذَلِكَ إِذَا نظرنا إِلَيْهِا دون اعتبار أمر خارجي عَنْها، فإذا وجد؛ فلأن غيره أعطاه الوجود؛ لأن وُجُوده ليس من ذاته، وهو يستوي فِي حقه الوجود والعدم، فما دام يستوي فِي حقه الوجود والعدم؛ فإذا وجد؛ فلا بد من موجد له، وإذا وجد ثم عدم؛ فلا بد أن يكون هُنَالِكَ من أعدمه.

إذا عدم أَيْضًا؛ فلعدم سبب وُجُوده، وإذا وجد؛ فلأن غيره أعطاه الوجود.

مثال ذَلِكَ: جميع الكائنات التي نراها أمامنا من الحيوانات والنباتات والجمادات، وكذَلِكَ جميع أحوالها؛ كنزول الأمطار، وهبوب الرياح، إِلَى غير ذَلِكَ من هذه الأمور التي تقع فِي هذا العالم.

فكلها ممكنة تحتاج إِلَى موجد لها؛ لِأَنَّها يستوي فِي حقها الوجود والعدم، توجد بعد عدم، ثم يلحقها العدم بعد الوجود، فوجودها إِذَن ليس ضروريًا كوجود الواجب؛ وإلا لما عدمت؛ لأن الواجب لا يعدم، وعدمها ليس ضروريًا كعدم المستحيل، وإلا لما وجدت؛ لأن المستحيل لا يوجد؛ بل كل واحد من الوجود والعدم جائزان فِي حقها من حيث النظر ل........«كلمة غير واضحة»، وهذا هو معنى إمكانها.

هذه المقدمة مهمة جدًا، وستجدها إن شاء الله تبارك وتعالى في شرح العلامة ابن عثيمين على «السَّفَّارينية»، في آخر شرحه على «السَّفَّارينية»، فأتى بهذه الأقسام – وهي أقسام المعلوم -، وميز بين الواجب لذاته والواجب لغيره، والمستحيل لذاته والمستحيل لغيره، كما مر ذكر ذلك في شرح العلامة ابن عثيمين على «السَّفَّارينية».

قد يصير الممكن لذاته واجبًا لغيره، وذَلِكَ إِذَا اقتضى ذَلِكَ الغير وُجُوده بالضرورة؛ كما إِذَا أراد الله وُجُود إنسان، فإن وُجُوده يكون واجبًا لذاته، لا يكون حينئذ واجبًا لذاته؛ بل واجبًا لغيره، وهو تعلق إرادة الله به؛ لِأَنَّهُ مادام أراد وُجُوده؛ فلا بد أن يوجد؛ ولَكِن هو ممكن فِي الْحَقيقة؛ لِأَنَّهُ استوى فِي حقه الوجود والعدم، كان معدومًا فأراد الله وجوده، فلما أراد الله وُجُود ذَلِكَ الإنسان؛ صار وُجُوده واجبًا، لا لذته؛ لِأَنَّهُ كَانَ معدومًا، والواجب لذاته لا يكون معدومًا، وإنما يكون حينئذ وُجُوده واجبًا لغيره، وهو تعلق إرادة الله تعالى به.

لِذَلِكَ مر فِي تعريف الواجب: أن وُجُوده لذاته حتى لا يعد منه؛ ما يكون واجبًا لغيره؛ لأن الواجب لغيره - كما مر فِي المثال – من الممكنات.

كذَلِكَ قد يصير الممكن مستحيلًا؛ لَكِن لا لذاته، بل يصير مستحيلًا لغيره إِذَا اقتضى ذَلِكَ الغير عدم وُجُوده بالضرورة؛ كما إِذَا أراد الله عدم إنسان ما فِي وقت معين؛ فإن وُجُوده يكون مستحيلًا، لا لذاته؛ لأَنَّهُ هو نفسه معدوم، ولَكِن لغيره، وهو تعلق إرادة الله تبارك وتعالى بعدمه، فيكون مستحيلًا لغيره، لا مستحيلًا لذاته؛ لأن هذا تعلقت إرادة الله عز وجل بعدمه، فإذا أراد الله عز وجل إيجاده؛ وُجِدَ.

إذًا هو يقبل الوجود والعدم، فلا يمكن أن يكون مستحيلًا؛ لأن المستحيل لا يقبل الوجود أصلًا، كما أن الواجب لذاته لا يقبل العدم أصلًا.

لِذَلِكَ مر فِي تعريف المستحيل أن عدمه لذاته؛ حتى لا يعد منه ما يكون مستحيلًا لغيره؛ لأن المستحيل لغيره من الممكنات.

إذا كنا قد اعتبرنا المستحيل من قبيل الأمور المعلومة؛ لأننا بدأنا بذكر أقسام المعلوم، فقلنا: الواجب لذاته، والممكن لذاته، والمستحيل لذاته؛ بل إن أقسام المعلوم – كما مر – بدأ ذكر المستحيل لذاته في أولها.

إذا كنا قد اعتبرنا المستحيل من قبيل الأمور المعلومة؛ فليس ذَلِكَ على سبيل الْحَقيقة، وإنما على سبيل المجاز، فكل صورة ذهنية لا بد وأن تكون صورة مطابقة لأمر موجود فِي الخارج، ولما كَانَ المستحيل لا يوجد أبدًا؛ فإنه لا يمكن أن تكون له صورة ذهنية، ولا أن يعد من الأمر المعلومة حقيقة، وإنما المراد باعتباره من الأمور المعلومة، وأنه من أقسام المعلوم: أن العقل فرض له مثالًا؛ ليتوصل بذَلِكَ الفَرْض إِلَى الحكم عليه بالاستحالة؛ لأنك لا يمكن أن تتصور فِي الأمور المعلومة أن الشيء يكون موجودًا معدومًا فِي آن، أو أن يكون متحركًا ساكنًا فِي آن، هذا ليس له وُجُود، ولا يمكن أن تفرض له صورة معلومة فِي الذهن؛ أن يكون موجودًا معدومًا في آن واحد، وأن يكون متحركًا ساكنًا في آن واحد؛ فلماذا قلنا: إنَّهُ من أقسام المعلوم؟

لأن العقل فرض له مثالًا؛ ليتوصل بذَلِكَ الفرض إِلَى الحكم عليه بالاستحالة.

فالعقل لا يتصور آلة متحركة وساكنة معًا؛ لأن الواقع لا يوجد فيه ذلك، وإنما يفرض اجتماع الحركة والسكون في آلة معينة؛ ليحكم عليه بالاستحالة.

حكم المستحيل: أَنَّهُ لا يقبل الوجود أصلًا، فالمستحيل لا يقبل الوجود أبدًا؛ بل هو معدوم بالضرورة، فاجتماع الحركة والسكون فِي شيء واحد أو فِي وقت واحد لا يوجد أبدًا.

وكذَلِكَ تقدم الابن على أبيه فِي الوجود لا يتحقق أبدًا.

والدليل على ذَلِكَ: أن العدم لازم من لوازم ذاته وماهيته، لا يفارقها؛ لأننا عرفناه - كما مر - بأنه: ما كَانَ عدمه لذاته، أي: ما تقتضي ذاته العدم دائمًا.

إذًا؛ المستحيل لا يقبل الوجود أبدًا.

وإذا كَانَ العدم لازمًا من لوازم المستحيل؛ فإن المستحيل لو فرض وُجُوده؛ للزم من ذَلِكَ مفارقة العدم له، أي: لم يكن المستحيل معدومًا، وذَلِكَ يؤدي إِلَى كونه غير مستحيل بداهة؛ لأن العدم لازم من لوازم ذاته، فإذا وجد؛ فإنه لا يكون مستحيلًا؛ لأن العدم لازم من لوازم المستحيل؛ فإذا وجد؛ فإن ذلك يؤدي إلى كونه غير مستحيل بداهة. كما تقول: إن التفكير لازم من لوازم حقيقة الإنسان، فلو انتفى لازم تلك الْحَقيقة عَنْها بأن لم يكن مفكرًا؛ لما كَانَ ذَلِكَ الإنسان إنسانًا، فلو انتفى لازم المستحيل عَنْه – وهو العدم – فأصبح موجودًا لا معدومًا؛ للزم كونه غير مستحيل، وكون المستحيل غير مستحيل على ذَلِكَ الفرض – وهو معنى سلب الماهية عَنْ نفسها – أمر باطل، فبطل ما أدى إِلَيْهِ، وهو فرض وُجُوده، وثبت أَنَّهُ لا يقبل الوجود؛ سواء أكان فِي الذهن، أو كَانَ فِي الخارج.

ومنه: وُجُود شريك لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فإن هذا مستحيل لذاته، فهو لا يوجد أبدًا.

فحكم المستحيل: أنه لا يقبل الوجود أبدًا؛ بل هو معدوم بالضرورة.

وأما الممكن؛ فله أحكام.

المستحيل له حكم واحد، وهو: أنه لا يقبل الوجود أبدًا؛ بل هو معدوم بالضرورة.

وأما الممكن؛ فله أحكام.

الممكن لذاته – كما مر في تعريفه -: ما لا تقتضي ذاته وجودًا ولا عدمًا؛ بل وجوده وعدمه من غيره؛ ككل ما تراه من هذه المخلوقات السماوية والأرضية، فكل ذلك ممكن، يستوي في حقه الوجود والعدم، ووجوده وعدمه لا من نفسه، وإنما من غيره، لا من ذاته، وإنما من غيره.

فما لا تقتضي ذاته وجودًا ولا عدمًا فهو الممكن.

بناءً على هذا التعريف للممكن؛ ثبتت له الأحكام الآتية:

حاجته إِلَى السبب فِي وُجُوده وعدمه.

الشيء الممكن؛ حيوانًا، أو نباتًا، أو جمادًا يحتاج بالضرورة إِلَى سبب فِي وُجُوده إِذَا وجد، وإِلَى سبب فِي عدمه إذا كان معدومًا أصلًا، أو طرأ عليه العدم بعد الوجود.

الدليل على ذَلِكَ: أن كلًا من وُجُود الممكن وعدمه ليسا لذاته؛ بل لغيره، وأن ذاته لا تستلزم أحدهما بالضرورة دون الآخر؛ بل تارة تكون ذاته موجودة، وتارة تكون معدومة، كما سبق فِي تعريفه.

فالوجود والعدم متساويان بالنسبة لذاته فِي جوازهما عليه – أي: على الممكن -.

هذا مهم جدا؛ لأن الممكن إِذَا كَانَ وُجُوده ليس من ذاته، وكانت هذه الأشياء كلها ممكنة بمعنى أَنَّهَا حادثة، وجدت بعد أن لم تكن، وتصير إِلَى العدم بعد الوجود؛ فيأتي السؤال: فمن الَّذِي أعطاها الوجود؟! لأن وُجُودها ليس من ذاتها؛ فلا بد من أن هُنَالِكَ من أعطاها الوجود.

وهذه المقدمة مهمة جدًا فِي إثبات وُجُود الخَالِق الْعَظِيم سبحانه عَنْد مناظرة الْمُلْحِدِينَ وغيرهم من الشكاكين؛ وإلا فإننا لا نحتاج إِلَى مثل هذا؛ لأن الله جعل الفطرة الإنسانية مقرة بوجود خالقها وباريها ومنشيها؛ ولَكِن هذا كله إنما نأتي به؛ لأننا نرد على الْمُلْحِدِينَ، لأننا نرد على الماديين، على الدهريين، على الشكاكين الَّذِينَ يشككون فِي وُجُود الخَالِق الْعَظِيم.

فنقول لهم: هذه أقسام المعلوم: مستحيل لذاته، واجب لذاته، ممكن لذاته.

والعقل لا يمكن أن يأتي برابع.

ثم يقال لهم: انظروا إِلَى هذا الخلق جميعِه وإِلَى أنفسكم، فأنتم وجدتم بعد أن لم تكونوا موجودين، ثم تصيرون إِلَى العدم بعد الوجود؛ فمن الَّذِي أعطاكم الوجود؟!

وكذلك هذا الخلق.

لو وجد شيء ممكن يستوي فِي حقه الوجود والعدم بلا سبب يرجح وُجُوده على عدمه؛ للزم رجحان أحد المتساويين، وهو الوجود على العدم، فيكون ترجيحًا بلا مرجح.

يعني: إِذَا وجد شيء ممكن كَانَ معدومًا فوجد، فإذا قيل: إِنَّهُ وجد بلا سبب، هكذا وجد بلا سبب؛ فإننا حينئذ نقول: لقد رجحتم أحد المتساويين بلا مرجح، وهذا يرفضه العقل.

لو وجد شيء ممكن بلا سبب يرجح وجوده على عدمه؛ لأن الممكن يستوي في حقه الوجود والعدم، فلو وجد من غير سبب أوجده؛ فإننا حينئذ نكون قد رجحنا أحد المتساويين – وهو الوجود – على العدم – وهو مساوٍ له بالنسبة للممكن- رجحناه بلا مرجح، وذلك باطل؛ لِأَنَّهُ يقتضي كونهما غير متساويين، وأن الوجود أرجح من العدم؛ لِأَنَّهُ وجد بلا سبب!!

بينما فِي التعريف رأينا أن الممكن تساوى الوجودُ والعدمُ بالنسبة لذاته.

وكذَلِكَ تقول: إِذَا عدم شيء ممكن بلا سبب يرجح عدمه على وُجُوده؛ للزم رجحان أحد المتساويين – وهو العدم، فقد رجحناه على مساويه، وهو الوجود بالنسبة للممكن – بلا مرجح، وهذا باطل؛ لِأَنَّهُ يقتضي كونهما – يعني الوجود والعدم – غير متساويين؛ لأننا رجحنا أحدهما على الآخر وهما متساويان!!

فلا يمكن أن يرجح أحد المتساويين على الآخر إلا بمرجح، وهاهنا رجحنا بلا مرجح، وقلنا: هكذا! هو عدم بلا سبب!!

هكذا! وجد بلا سبب!!

فنكون قد رجحنا أحد المتساويين على الآخر، ومعنى ذلك أنهما ليسا بمتساويين؛ مع أنه مر أن الممكن يستوي في حقه الوجود والعدم، فيكون هذا ترجيحًا لأحد المتساويين على الآخر بلا مرجح، وهذا باطل عقلًا.

ويقتضي أن العدم أرجح من الوجود بالنسبة للممكن الَّذِي عدمه من غير سبب، بينما رأينا فِي تعريف الممكن تساوي الوجود والعدم بالنسبة لذاته.

فلو وجد شيء ممكن بلا سبب، أو عدم بلا سبب؛ للزم رجحان أحد المتساويين – وهما: الوجود والعدم – بلا مرجح، ولكانا بذلك غير متساويين كما مر، وفي ذَلِكَ جمع بين النقيضين

- وهما: التساوي وعدم التساوي - فِي شيء واحد، واجتماع النقيضين باطل؛ فلا بد إِذًا من السبب فِي وُجُود الممكن وعدمه.

وهذه المقدمة تكفي وحدها للرد على الْمُلْحِدِينَ، من أن هذا الذي ترونه في كون الله تبارك وتعالى، في هذا الكون الذي لا تعترفون بخالقه؛ هذا كله ليس أصيلًا في الكون؛ فإنه يوجد بعد عدم، ثم يصير إلى العدم من بعد الوجود.

أنتم ترونه.

في كل ما ترونه؛ في السحاب الذي ينشأ، ثم بعد ذلك يفنى بهطول الأمطار، فيصير ماء، إلى غير ذلك من الزروع والحيوانات والنباتات؛ بل هم أنفسهم وجدوا بعد أن لم يكونوا موجودين، ثم يصيرون حتمًا، ولا يمكن أن يدفعوا حتمية الصيرورة إلى الموت؛ فما من إنسان أبدًا إلا وهو يقر بحتمية صيرورته إلى الموت.

هذا لا يماري فيه أحد.

الكل يعلم أنه سيموت يقينًا.

فيقال لهم: من أين؟!

لقد وُجدتم بعد عدم، وتصيرون إلى العدم من بعد الوجود؛ فمن الذي أعطاكم الوجود؟!!

لا يمكن أن يقال حينئذ: هذا كان بلا سبب!!

فإنه يقال حينئذ: تناقضتم؛ لأن وجودكم من بعد العدم، وصيرورتكم إلى العدم من بعد الوجود تجعل الوجود والعدم على التساوي بالنسبة لذواتكم، فإذا رجحتم أحد المتساويين بلا مرجح؛ فمعنى ذلك أنهما ليسا بمتساويين!!

إذًا؛ لقد وقعتم في التناقض العقلي ما دمتم تُعْمِلُون عقولكم، وتنفون وجود الخالق العظيم بهذه العقول التي آتاكم الله تبارك وتعالى إياها، فجعلتموها أحذية في أقدامكم، ولم تجعلوها فيما خلقت له!!

بسط القول فِي إبطال رجحان أحد المتساويين بلا مرجح، وأن ذَلِكَ إنما كَانَ لاستلزامه اجتماع النقيضين كما مر، بسط القول فِي ذَلِكَ؛ لحاجتنا إِلَيْهِ فِي الأحكام الآتية، بحيث يكتفى فِي ذَلِكَ بما مر ذكره هنا عَنْ إعادة القول فِيه فِيما بعد.

إذًا؛ أول أحكام الممكن: حاجة الممكن إلى السبب في وجوده وعدمه.

الحكم الثاني: حدوثه «حدوث الممكن»:

كل شيء من الممكنات الموجودة حادث.

ومعنى كون الممكن حادثًا: أَنَّهُ وجد بعد أن كَانَ معدومًا، فحدوث الشيء: وُجُوده بعد عدمه؛ لأنك ستجد هذا الكلام كثير الدوران على لسان العلماء من سلفنا الصالحين؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وغيرهما من علمائنا المتقدمين.

ستجد كلمة «الحدوث»، وأن هذه المخلوقات حادثة، وأن الحدوث وقع، إِلَى غير ذَلِكَ.

فمعنى كون الممكن حادثًا: أَنَّهُ وجد بعد أن كَانَ معدومًا، فحدوث الشيء هو وُجُوده بعد العدم.

فأنت والكتاب والقلم الَّذِي فِي يدك، والورقة التي تكتب عليها، وكل ما تراه من الأمور؛ كل هذه الأشياء حادثة؛ لِأَنَّهُا وجدت بعد أن لم تكن موجودة.

والدليل على حدوث الممكنات ينبني على مقدمة لا بد من بيانها أولًا.

هذه المقدمة هي: أننا قد مر فِي الحكم السابق تقرير حاجة الممكنات إِلَى السبب فِي وُجُودها وعدمها، فلو وجد أمر ممكن؛ فإما أن يوجد قبل وُجُود سببه.

الممكن لا بد له من سبب في وجوده، وفي عدمه.

لو وجد شيء ممكن قبل وجود سببه؛ فهذا احتمال.

أو أن يوجد مع سببه، فيوجد السبب والممكن معًا، أن يوجد الممكن بعد وُجُود السبب.

فهذه هي الاحتمالات العقلية.

الممكن يحتاج إلى سبب في وجوده – كما مر -.

هذا السبب إما أن يكون متأخرًا عن وجود الممكن الذي هو المسبَّب؛ فيكون السبب قد تأخر عن المسبَّب، وإما أن يوجد السبب والمسبَّب معًا في آنٍ واحد، وإما أن يتأخر المسبَّب – وهو الممكن – عن وجود السبب، فيوجد السبب أولًا، ثم يوجد المسبَّب بعد ذلك.

هذه الثلاثة فروض.

الفرض الأول: وهو وُجُود الشيء الممكن قبل وُجُود سببه.

هذا باطل؛ لأن الممكن محتاج إِلَى السبب فِي وُجُوده، وهذا الفرض يؤدي إِلَى تقدم الشيء المحتاج – وهو الممكن – على المحتاج إِلَيْهِ فِي الوجود – وهو السبب -، وفي ذَلِكَ إبطال لحاجة الممكن إِلَى السبب فِي وُجُوده ما دام قد وجد قبل سببه.

إِذًا؛ هو لا يحتاجه!! فقد وجد من دونه!!

وقد مر أن الممكن يحتاج إِلَى السبب فِي وُجُوده؛ لأن حاجة الممكن إِلَى السبب أمر ثابت بالضرورة كما مر.

فتقَدُّمُ الممكنِ على سببه بالوجود فرض باطل.

الفرض الثاني: وهو وُجُود الممكن مع وُجُود سببه مقارنًا له فِي آن واحد.

وهذا باطل أَيْضًا؛ لماذا؟

لأن وُجُود الممكن مع وُجُود سببه يستلزم تساويَهما فِي رتبة الوجود؛ فقد وجدا معًا، أي: لا يكون لأحدهما على الآخر ميزة فِي وُجُوده ما دام قد وجدا معًا فِي آن واحد، وبذَلِكَ يكون الحكم بأن أحدهما سبب فِي وُجُود الآخر، وعلة مؤثرة فِيه؛ يكون ترجيحًا لأحد المتساويين على الآخر بلا مرجح، وهو باطل كما مر؛ لِأَنَّهُ يستلزم كونهما غير متساويين، وذَلِكَ تناقض.

وإذا كَانَ قد بطل تقدم الممكن على سببه، وبطل مقارنته له فِي الوجود؛ صح الفرض الثالث، وهو: وُجُود الممكن بعد وُجُود سببه؛ فلا بد من تقدم الموجِد على الموجود.

لا بد من تقدم الخَالِق على المخلوق.

فهذا هو ما يراد الوصول إِلَيْهِ.

بناءً على هذه المقدمة – وهي ضرورة وُجُود الممكن بعد وُجُود سببه-؛ يقام الدليل على حدوث الممكن على النحو الآتي:

أن تقدم السبب على الممكن بالوجود يقتضي وُجُود السبب وحده أولًا؛ لأن الممكن يكون معدومًا، فِيوجد سببه أولًا من غيره؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يقارنه فِي الوجود، فيوجد السبب أولًا، يكون السبب موجودًا، والممكن يكون معدومًا لا وُجُود له، ثم يوجد الممكن بعد ذَلِكَ؛ يوجِده السبب فِي وُجُوده، وعند وُجُود السبب وحده، وقبل أن يوجد الممكن؛ يكون معدومًا، أي: أن وُجُود الممكن يكون مسبوقًا بالعدم عَنْد وُجُود السبب وحده؛ فيكون حينئذ حادثًا،

أي: وجد من بعد العدم؛ لأن معنى الشيء الْحَادث - كما مر - هو ما يوجد بعد عدم؛ فكل ممكن حادث؛ فالابن مثلًا يكون معدومًا عَنْد وُجُود أبيه وحده قبل أن ينجبه، ثم إِذَا أنجبه؛ كَانَ وُجُود ذَلِكَ الابن حادثًا؛ لِأَنَّهُ وجد بعد أن لم يكن، وهذا هو معنى الحدوث الثابت فِي كل أمر ممكن.

من أحكام الممكن: عدم حاجة الممكن فِي عدمه إِلَى سبب وُجُودي.

لكل أمر ممكن حالان: حال وُجُوده، وحال عدمه؛ لِأَنَّهُ يستوي فِي حقه الوجود والعدم.

فلكل أمر ممكن حالان: حال وُجُوده، وحال عدمه.

فالممكن الموجود لا بد له فِي وُجُوده من سبب وُجُودي أوجده، أي: لا بد من سبب موجود أوجده، فكل ما تحسه بحواسك من الكائنات الموجودة لا بد وأن يكون سببها موجودًا حتى يعطيها وُجُوده؛ لأن السبب المعدوم لا يكون مصدرًا للوجود، ففاقد الشيء – كما يقال - لا يعطيه، فالذي أعطى هذه الموجودات وُجُودها لا بد أن يكون متصفًا بالوجود.

أيعطيها الوجود وهو معدوم؟!!

فإن الذي أعطى الوجود للموجودات لا بد أن يكون موصوفًا بصفة الوجود.

الممكن المعدوم؛ لا يشترط فِيه أن يكون لعدمه سبب وُجُودي؛ لأن العدم سلب ونفي، والنفي لا يحتاج إِلَى إيجاد؛ بل يكفي فِي عدم الأمر الممكن عدم السبب فِي وُجُوده، وفي حفظ بقائه، أو عدم التأثير فِيه.

مثال ذَلِكَ: أَنَّهُ يكفي فِي ظلام حجرتك – وهو عدم النور فِيها - ألا يوجد فِيها من ينيرها، يكفي في ظلام الحجرة ألا يوجد فيها من يضيء المصباح، أو أن يوجد ولا يقومَ بإضاءتها، فينعدم تأثيره فِي إضاءتها، ولا يبقى التيار الكهربائي الحافظ لبقاء نورها.

فيمكن ألا يوجد فِي الحجرة فتبقى مظلمة، ويمكن أن يوجد وينعدم تأثيره، فلا يؤثر فِي إزالة الظلام منها، فيبقى فِي الظلام، يريد أن ينام، فيكون موجودًا؛ ومع ذَلِكَ فإنه لا يُذْهِبُ هذا الظلام، ولا يوجد النور فِي الحجرة.

عدم نور الحجرة يكفي فِيه عدمُ وُجُود أحد فِيها، أو عدم تأثيره بإضاءتها، أو عدم التيار الكهربائي الحافظ لبقاء نورها.

فالعدم لا يحتاج إلا إِلَى عدم مثله؛ وبذَلِكَ يتحقق ما مَرَّ: أن الممكن لا يحتاج فِي عدمه إِلَى سبب وُجُودي؛ بل يكفي فِيه السبب العدمي.

أو بتعبير آخر: يكفي فِيه عدم وُجُود سببه، أو عدم تأثير ذَلِكَ السبب فِيه، فيكون معدومًا مع وُجُود السبب الَّذِي يمكن أن يوجده؛ ولَكِنه لا يؤثر فِيه بالوجود.

هو يكون معدومًا مع وجود السبب الذي يمكن أن يوجده؛ ولكنه لا يؤثر في هذا المعدوم بالوجود؛ كالظلام الذي يكون في الحجرة، فالنور معدوم فيها.

قد تكون أنت موجودًا في الحجرة؛ ولكنك لا تؤثر فيها بإضاءة المصباح مع قدرتك على ذلك، وقد لا يوجد فيها أحد.

إذًا؛ من أحكام الممكن: عدم حاجته فِي عدمه إِلَى سبب وُجُودي.

من أحكام الممكن: حاجته إِلَى السبب فِي بقائه؛ فكما أن الممكن يحتاج إِلَى السبب فِي ابتداء وُجُوده؛ فهو كذَلِكَ يحتاج إِلَى السبب فِي حفظ بقائه موجودًا.

والدليل على ذَلِكَ: أن الممكن لا تقتضي ذاته الوجود أو العدم، ومن ثم؛ لا يرجح لها – أي لذاته – الوجود على العدم من حيث هي؛ بل لا بد فِي وُجُود الممكن إِذًا وجد من سبب خارجي يرجح وُجُود ذَلِكَ الممكن على عدمه، فحاجة الممكن إِلَى السبب فِي وُجُوده لازم من لوازم حقيقة الإمكان، لا ينفك عَنْها فِي أي حال من الأحوال طالما كَانَ موجودًا؛ سواء كَانَ فِي ابتداء وُجُوده، أو فِي بقائه؛ لِأَنَّهُ يستمد وُجُوده من غيره؛ فلا بد من استمرار سبب وُجُوده، فهو يحتاج إِلَى موجِدٍ فِي ابتداء وُجُوده.

هذا الكون كله كَانَ معدومًا، الله رب العالمين أوجده، وهو الخالق سبحانه وتعالى، فأوجد هذه المخلوقات كلها من العدم.

هذا أمر عقلي يثبته العقل.

العقل يثبت أن الموجود يمكن أن يكون موجودًا من عدم - كما مر -؛ ولَكِن العقل لا يتصوره، وكما مر أننا لا نعتبر التصور عَنْد وُجُود التعقل، فنحن نتعقل الشيء فِي كثير من الأحيان، ولا نستطيع تصوره.

كان معدومًا فأوجده الله، إِذًا؛ السبب فِي وُجُوده الَّذِي أعطاه الوجود هو الله، وهو محتاج – أي هذا الوجود – إِلَى من يمده فِي حال كونه موجودًا بالوجود طالما ظل موجودًا؛ لأن وُجُوده ليس من نفسه، وهذا فِيه رد على الْفَلَاسِفَة الَّذِينَ مر ذكر بعض أقوالهم؛ من أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خلق هذا الخلق، ثم تركه وانشغل بالمثاليات، فيثبتون خالقًا خلق الخلق، ثم أهمله.

فيقال: لا؛ لأن وُجُود هذا الموجود الَّذِي كَانَ معدومًا، يستمد هذا الموجود وُجُوده ممن أوجده، ممن ابتدأ إيجاده، ثم هو بحاجة إِلَيْهِ فِي استمرار وُجُوده.

فحاجة الممكن إِلَى السبب فِي وُجُوده لازم من لوازم حقيقة الإمكان، لا ينفك عَنْها فِي أي حال من أحوال وجوده؛ سواء كَانَ فِي ابتداء وُجُوده، أو فِي بقائه؛ فنحن نصف أي كائن أمامنا بأنه ممكن موجود؛ لِأَنَّهُ أمامنا، إِذًا له وُجُود، فهو ممكن؛ لأنه وجد من بعد أن لم يكن موجودًا، فهو ممكن وحادث أَيْضًا، ثم هو موجود؛ فنصفه ما دام أمامنا بأنه ممكن موجود، فنحكم بحاجته إِلَى السبب عِنْد ابتداء وُجُوده؛ لأن وُجُوده لا لذاته كما مر فِي تعريف الممكن، وجوده ليس من ذاته، وإنما وُجُوده من غيره، ثم نصفه فِي اللحظة الثانية والثالثة والرابعة إِلَى آخر أوقات بقائه بأنه موجود كذَلِكَ.

ومن هنا يجب علينا أن نثبت حاجته إِلَى السبب فِي كونه موجودًا لحظة بعد أخرى - أي فِي بقائه -؛ لما مر ذكره من أن وُجُوده ليس لذاته، بل لغيره باعتباره أمرًا ممكنًا يستوي فِي حقه الوجود والعدم، فوجوده ليس من ذاته، وإنما من غيره، فأعطاه الوجود ابتداء، وهو – أي هذا الموجود – بحاجة إِلَى السبب الَّذِي أوجده فِي استمرار وُجُوده، وهو ما يراد إثباته من حاجة الممكن فِي بقائه موجودًا إِلَى السبب، كحاجته إِلَيْهِ فِي ابتداء وُجُوده.

فالله عز وجل هو الحي، وهو الباقي سبحانه وتعالى، وهو الذي أعطى الوجود وجوده، فهو الخالق سبحانه وتعالى، وهو البارئ الذي برأ هذا الخلق كله وأبدعه، فهو البديع، بديع السماوات والأرض، فأنشأ هذا الكون كله، وخلق هذه المخلوقات كلها من علوية وسفلية؛ لا على مثال سابق، وإنما أبدعها الله رب العالمين وأنشأها وبراها من العدم، فهي تحتاج وجوده سبحانه وتعالى في ابتداء وجودها؛ لأن وجودها منه، هو الذي أوجدها، ثم هي محتاجة إلى وجوده سبحانه وتعالى في استمرار وجودها؛ لأن وجودها منه جل وعلا.

ما هي حقيقة السبب؟

وما الفرق بين السبب والشرط والْمُعِدّ؟

معنى السبب الحْقيقي الَّذِي أثبتنا حاجة الممكن إِلَيْهِ فِي أحكامه السابقة: هو منشأ الإيجاد، ومعطي الوجود.

قد يعبرون عَنْه بالموجد، أو بالعلة الموجدة، أو بالعلة الفاعلة، أو بالفاعل الحْقيقي، إِلَى غير ذَلِكَ من الجمل التي تختلف صيغها، ولا تختلف معانيها.

قد يطلق السبب أحيانًا إطلاقًا مجازيًا على الشرط أو المعد، ومما يتوقف عليه وُجُود الممكن: الشرط أو المعد؛ وإن كَانَ بين هذه الثلاثة فرق فِي الْحَقيقة.

فعندنا الآن ثلاثة مصطلحات: السبب، والشرط، والمعد.

وقبل أن نبين المقارنة بين السبب الحْقيقي من جانب، والشرط والمعد من جانب آخر؛ نسوق لكل من هذين الأخيرين – للشرط وللمعد - مثاله، ونذكر حكمه، بحيث يتضح الفرق بينه وبين غيره.

فمثال الشرط: البَنَّاء فِي بناء البيت، فالبناء لا يعطي الوجود للبيت الَّذِي يبنيه، إذ لا يخلق مواد بنائه؛ ولَكِنه حسب ما أودع الله فِي الكون من سننٍ شرطٌ في بناء البيت، شرط لا بد منه فِي بناء البيت؛ وذَلِكَ بما يرسم فِي عقله لِذَلِكَ البيت من صورة، وما يبذل فِي بنائه من حركات خاصة تتعلق بالبناء، فهو شرط فِي وُجُود هذا البيت؛ ولَكِنه لم يعطه وُجُوده، ومع ذَلِكَ فوجود البيت متوقف على هذا الشرط، فالبيت يحتاج إِلَى البَنَّاء فِي وُجُوده؛ ولَكِنه يستغني عَنْه فِي بقائه، فقد يموت البناء ويبقى البيت بعده.

فالشرط يكون ضروريًا فِي وُجُود المشروط؛ ولَكِنه لا يكون لازمًا لوجوده؛ كالبناء، هو شرط لوجود البناء؛ ولكنه يبني البيت ثم يموت، ويبقى البيت بعده ربما قرونًا، فهو لا يحتاج في وجوده إلى وجود شرطه، وإنما أوجده ثم مات.

وأما المعد؛ فمثاله: الخطوة الأولى، فإنها تعد وتهيأ لوجود الخطوة الثانية، بحيث لا يمكن أن تكون هُنَاكَ خطوة ثانية من باء إِلَى جيم إلا إِذَا سبقتها خطوة أولى من ألف إِلَى باء، وهي

بهذا الاعتبار تسمى معدًا؛ لِأَنَّهَا تعد للخطوة التي تليها، فإذا فرضنا مثلًا ثلاث نقاط: أَلِف «أ»، وباء «ب»، وجيم «ج».

الخطوة من «ب» إِلَى «ج» لا بد أن تكون لاحقة للخطوة من «أ» إِلَى «ب»، فتكون الخطوة الأولى من «أ» إِلَى «ب» معدة للخطوة التي تليها من «ب» إِلَى «ج»، فهي بهذا الاعتبار تسمى معدًا.

إذا كَانَ الشيء الممكن يتوقف فِي وُجُوده على وُجُود الشرط فقط؛ فإنه يتوقف على وُجُود المعد، ثم يتوقف على عدمه، فالمعد يوجَد، ثم يعدم – يعني يفنى -.

الخطوة الثانية تتوقف على وُجُود الخطوة الأولى أولًا، ثم على انتهاء تلك الخطوة الأولى وعدمها؛ ليبدأ السائر فِي الخطوة الثانية؛ وإلا لما وجدت تلك الخطوة الثانية، فإنها لا توجد إلا بعد فناء الأولى.

أما إِذَا ظل فِي الخطوة الأولى؛ فلا يمكن أن يدخل على الخطوة الثانية.

لا بد من انقضاء وانتهاء وعدم الخطوة الأولى – وهي المعد للخطوة الثانية -.

فهذا هو الفرق بين الشرط والمعد.

أما الفرق بين الشرط والمعد من جانب، والسبب الْحَقيقي من جانب آخر:

فالسبب الْحَقيقي: هو الَّذِي يسبق الممكن بالوجود، ثم يعطيه إياه، ويكون ذَلِكَ الممكن مستفيدًا لوجوده من سببه، وذَلِكَ المعنى لا يتحقق فِي الشرط؛ لأن البَنَّاءَ مثلًا ليس هو الَّذِي أوجد مواد البناء، ولا يتحقق أَيْضًا فِي المعد؛ لأن الخطوة الأولى ليست هي التي أوجدت الخطوة الثانية؛ بل أوجدهما معًا غيرُهما، ولأن الخطوة الأولى لو كَانَت هي السبب فِي وُجُود الخطوة الثانية لبقيت معها، بينما رأينا أَنَّهَا لا توجد إلا بعد انتهاء الخطوة الأولى.

فإذا كَانَ الشيء يتوقف فِي وُجُوده على الشرط أو المعد؛ فإنه يستفيد الوجود من سببه، يستمد الوجود من السبب.

وهُنَاكَ فرق بين توقف الشيء على غيره، واستفادته الوجود منه:

فِي السبب: الشيء يستفيد الوجود من غيره، يستمد الوجود من غيره.

وأما الشرط، وأما المعد؛ فإن الشيء يتوقف وُجُوده عليه؛ ولَكِنه لا يستمد الوجود منه.

فهذا فرق.

الفرق الثاني: أن الممكن لا يستغني عَنْ سببه فِي بقائه على أي حال من الأحوال، وذَلِكَ المعنى لا يتحقق فِي الشرط؛ فالبيت يستغني عَن البناء فِي بقائه، إذ يموت البناء ويبقى البناء موجودًا.

ولا يتحقق أَيْضًا هذا فِي المعد؛ بل إن الخطوة الثانية لا تستغني فِي بقاءها عَن الخطوة الأولى فقط؛ بل إنَّهَا لا تتحقق إلا إِذَا انعدمت تلك الخطوة الأولى.

وأما وجه إطلاق السبب على الشرط والمعد إطلاقًا بصورةٍ مَّا مع هذه الفوارق؛ فلأنهما يشبهان السبب فِي توقف الشيء عليهما، وفي سبقهما له بالوجود؛ لأنك ستجد تداخلًا بين هذه الإطلاقات عَنْد كثير من أهل الْعِلْم الَّذِينَ تعرضوا للدهريين، وللفلاسفة، وللمناطقة، ولغير ذَلِكَ من هذه الفئات الضالة والأهواء الجامحة.

مَرَّ معنا الآن فِي هذه المقدمة تعريف أقسام المعلوم الثلاثة؛ وهي: «المستحيل، والواجب، والممكن»، ومر بيان حكمِ كلٍّ مِنْ هذه الأقسام.

والله المستعان.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«المُحاضَرَةُ الرَّابِعَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد مَرَّ بفضل الله تبارك وتعالى ذكرُ أقسام المعلوم، وأنها ثلاثة:

المستحيل لذاته؛ وهو: ما كان عدمه لذاته من حيث هي.

والممكن؛ وهو: ما كان وجوده وعدمه بالنسبة إلى ذاته على التساوي.

فما استوى في حقه الوجود والعدم؛ فهو ممكن لذاته.

وأما الواجب لذاته؛ فما كان وجوده لذاته من حيث هي.

ومَرَّ أحكام كلٍّ مِنْ هذه الأقسام الثلاثة، والآن ننظر في إثبات وجود الباري جل وعلا بالدليل العقلي؛ لِيُدْفَعَ بذلك في وجوه الملحدين.

وأما من كان ذا فطرة سوية؛ فإنه لا يحتاج إلى إثبات وجود ربه تبارك وتعالى؛ لأن الله جعل ذلك مستقرًا في قلبه وضميره.

«وجود الله جل وعلا»

الكائنات ممكنة، فنحن نرى في الكون أمامنا أشياء توجد وتعدم، أناس يولدون، وآخرون يموتون، ونباتات وحيوانات توجد، وأخرى تعدم، إِلَى آخر ذَلِكَ.

هذه الكائنات إما أن تكون من قسم المستحيل، أو من قسم الواجب، أو من قسم الممكن؛ لِأَنَّهُ لا قسم وراء هذه الأقسام الثلاثة.

لا يصح أن تكون هذه الكائنات من قسم المستحيل؛ لأن المستحيل: ما عدمه لذاته، ولا يقبل الوجود أبدًا، وهذه الكائنات نراها توجد بعد أن لم تكن موجودة.

وكذَلِكَ لا يصح أن تكون هذه الكائنات من قسم الواجب؛ لأن الواجب: ما وُجُوده لذاته، ولا يقبل العدم أصلًا، وهذه الكائنات يلحقها العدم، إما قبل وُجُودها، أو بعد وُجُودها تصير إِلَى العدم.

إذا لم يصح أن تكون هذه الكائنات من قسم المستحيل أو من قسم الواجب؛ وجب أن تكون من قسم الممكن؛ إذ ليس هُنَالِكَ قسم آخر سواه، فهذه الكائنات إِذًا ممكنة؛ لِأَنَّهَا تقبل الوجود تارة، وتقبل العدم تارة أخرى، فهذا مما يدل عليه العقل ضرورة.

وهذا الممكن – أعني هذه الكائنات – موجود قطعًا، فإذا كَانَت هذه الكائنات ممكنة، ونحن نحس بوجودها ثم عدمِها إحساسًا ظاهرًا؛ كَانَ حكمنا عليها بأنها موجودة حكمًا بديهيًا لا يحتاج إِلَى استدلال، بل يكفي فِيه مجرد توجيه الإحساس إِلَى الكون من حولنا، بل إِلَى أنفسنا ذاتها.

إذًا؛ هذه الكائنات - كما مر – من قسم الممكن، وهذه الكائنات الممكنة موجودة، لا يماري فِي ذَلِكَ أح؛ بل لا نحتاج إِلَى دليل عقلي لإثبات وُجُود هذه الممكنات – أي: هذه الكائنات -، بل يكفي أن نوجه الإحساس إِلَى الكون من حولنا؛ بل إِلَى أنفسنا ذاتها لنثبت أن هذه الكائنات أو هذه الممكنات موجودة قطعًا.

فالممكن موجود قطعًا.

وجود الممكن يقتضي بالضرورة وُجُودَ الواجب؛ فجملة الكائنات الموجودة ممكنة قطعًا، وكل ممكن موجود محتاج إِلَى سبب موجود يعطيه الوجود، وذَلِكَ السبب هو واجب الوجود.

ما الدليل على ذَلِكَ؟

الدليل الأول على ذَلِكَ: أن كل ممكن وُجُوده من غيره؛ فجملة الكائنات الممكنة إِذًا محتاجة إِلَى سبب موجود يوجدها، وذَلِكَ السبب إما أن يكون عين هذه الكائنات، أو جزءَها، أو غيرها؛ لأنك تجد الْمُلْحِدِينَ لا يمارون فِي أن هذه الممكنات احتاجت إِلَى سبب؛ ولكنهم يَقُولون: وجدت بالصدفة! أوجدتها الطبيعة! أوجدت نفسها! إِلَى غير ذَلِكَ من هذه الأمور التي هي مردودة عقلًا.

فإذًا؛ جملة الكائنات الممكنة تحتاج إِلَى سبب موجود يوجدها.

ذَلِكَ السبب إما أن يكون عين هذه الكائنات، أو جزءَها، أو غيرها.

لا يجوز أن تكون هذه الممكنات سببَ وُجُودها، إذ يلزم على ذَلِكَ تقدم الشيء على نفسه بالوجود، أي أن تكون هذه الكائنات موجودة باعتبارها سَبَبًا؛ لأن السبب لا بد أن يكون

سابقًا للمسبَّب -كما مر-؛ فإن الَّذِي أوجد الممكن لا بد أن يكون سابقًا على وُجُود هذا الممكن، وقد مر إثبات ذَلِكَ بالطريقة العقلية.

فكذَلِكَ هنا؛ لا يجوز أن تكون هذه الممكنات؛ أن يكون هذه الوجود سببَ وُجُود نفسه؛ أي أن هذا الكون هو الَّذِي أعطى نفسه الوجود؛ لأن هذا يلزم عليه تقدم الشيء على نفسه بالوجود؛ أي أن تكون هذه الكائنات موجودة باعتبارها سَبَبًا قبل أن توجد باعتبارها مسببة، وفي هذا اجتماع للنقيضين فِي شيء واحد وحالة واحدة، وهما: الوجود والعدم، والتقدم والتأخر؛ فبطل هذا.

ولا يصح كذَلِكَ أن يكون جزء هذه الممكنات؛ أن يكون جزء هذا الوجود السبب فِي وُجُوده؛ لأن ذَلِكَ الجزء إن فرض أَنَّهُ أول جزء وجد من هذه الكائنات؛ فإنه يكون سَبَبًا فِي وُجُود نفسه باعتباره جزءا من هذه الكائنات التي هو سبب فِي وُجُودها جميعًا، وكون الشيء سَبَبًا فِي وُجُود نفسه محال كما مر.

كذَلِكَ إِذَا فرض أن ذَلِكَ الجزء ليس هو الجزء الأول، بأن كَانَ الجزء العاشر أو العشرين مثلًا، أي الَّذِي لم يوجد فِي أول زمن وجدت فِيه هذه الممكنات، بل وجد فِي زمن متأخر؛ لا يصح أن يكون هو السبب فِي وُجُود جملة الكائنات؛ إذ يترتب على ذَلِكَ كونه علة لنفسه، ولما سبقه من الأجزاء، وقد مر بطلان كون الشيء علة فِي نفسه.

وأما بطلان كونه علة لما سبقه؛ فلأن سبب الشيء – كما مر – لا بد وأن يكون موجودًا قبله؛ حتى يعطيه الوجود، فلا يوجد بعده أبدًا، وإلا فإن الشيء لو وجد قبل وُجُود سببه؛ لما كَانَ محتاجًا إِلَى ذَلِكَ السبب، وعدم حاجة الشيء إِلَى سببه باطل كما مر.

وإذا ثبت أن هذه الكائنات أو جزءها ليست سَبَبًا فِي وُجُودها؛ تعين أن يكون سببها غيرَها، وذَلِكَ الغير إما مستحيل، أو واجب، المستحيل معدوم، والعدم لا يكون مصدرًا للوجود؛ فتعين أن يكون سبب هذه الموجدات واجبَ الوجود.

فهذه الكائنات الموجودة إذًا لها موجد واجب الوجود، هو الله تبارك وتعالى.

هذا برهان عقلي، وهذا هو الدليل الأول.

الدليل الثاني: هذه الممكنات الموجودة؛ سواء كَانَت متناهية فِي العدد أو غير متناهيةٍ؛ قائمةٌ بوجود، أي أن تحققها فِي الخارج إنما كَانَ لما ثبت لها من معنى الوجود، وإلا لما وجدت.

فوجود هذه الكائنات فِي الخارج إنما كَانَ لما ثبت لها من معنى الوجود. ذَلِكَ الوجود إما أن يكون سببه: معنى الإمكان القائم بالممكنات – وهو تساوي وُجُودها وعدمها -، وماهيات تلك الممكنات وحقائقها باعتبارها أمورًا يجوز عليها الوجود والعدم، وهذا باطل؛ لما سبق فِي أحكام الممكن من أَنَّهُ لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود اقتضاء ضروريًا بحيث يجب وُجُوده، وإلا لما كَانَ ممكنًا؛ لأن الممكن: ما استوى فِي حقه الوجود والعدم؛ فتعين أن يكون مصدر الوجود فِي تلك الممكنات سواها، وهو واجب الوجود ضرورة؛ لِأَنَّهُ لن يَقُول قائل: نعم، سبب ومصدر هذه الممكنات سواها؛ ولَكِنه المستحيل.

فيقال: إن المستحيل معدوم، وعدمه لذاته؛ فكيف يعطي الوجود لهذه الموجودات؟!!

إذًا؛ تعين أن يكون موجدها واجب الوجود ضرورة، يعني وُجُوده ليس من غيره، بل وُجُوده لذاته من حيث هي، وهذا الواجب –كما يَقُولون – له أحكام؛ لِأَنَّهُ قد مر تعريفه بأنه: ما كَانَ وُجُوده لذاته، أي ما تقتضي ذاته الوجود دائمًا بحيث لا يقبل العدم أصلًا، فهذا هو الواجب.

بناء على هذا تعريفه؛ ثبتت له هذه الأحكام:

«الأولية»:

فمن أحكام الواجب: أَنَّهُ أول أزلي.

والأول الأزلي هو: الَّذِي لا أول لوجوده، ولم يسبق وُجُوده بالعدم؛ لِأَنَّهُ لو سبق وُجُوده بالعدم لكان ممكنًا، فيكون محتاجًا إِلَى من يعطيه الوجود، ويكون هُنَالِكَ من أوجده بعد العدم.

إذًا؛ من أحكام الواجب: أَنَّهُ أول أزلي.

والأول الأزلي هو: الَّذِي لا أول لوجوده، ولم يسبق وُجُوده بالعدم.

يقابل الأولَ الحادثُ، وهو: الَّذِي لوجوده أولٌ يكون مسبوقًا فِيه بالعدم.

فهذا حادث.

وأما الأول؛ فلا أول لوجوده.

الدليل على أن واجب الوجود أول: أَنَّهُ لو لم يكن أولًا؛ لكان حادثًا، وفي كلام العلماء استخدام للقديم بَدَلَ «الأول»، فيقولون: والدليل على أن واجب الوجود قديم: أَنَّهُ لو لم يكن قديمًا؛ لكان حادثًا.

ولَكِن هو الأول الَّذِي ليس قبله شيء، وقد مر أن استعمال القديم وإن كَانَ فاشيًا على ألسنة بعض من كتب فِي العقيدة كالسَّفَّارِينِيّ وغيرِه؛ إلا أَنَّهُ انْتُقِدَ عليه؛ لِأَنَّهُ ما من قديم إلا وهو حادث بالنسبة لما هو أقدم منه، أو لمن هو أقدم منه، فالعرجون القديم هو قديم بالنسبة للعرجون الحَادث؛ ولكن هذا العرجون القديم هو حادث بالنسبة للعرجون الَّذِي هو أقدم منه، فاستعمال «القديم» استعمال حادث، يعني لم يستعمله لا القرآن، ولا السنة، ولا السلف المتقدمون، وإنما دخل على العقيدة عَنْدما ظهر علم الكلام، فاستخدمه بعض علماء أهل السنة؛ حتى فِي تقرير العقائد، كما مر ذكر ذَلِكَ فِيما يتعلق بالسفاريني رحمه الله.

ولكنْ من أحكام الواجب: أَنَّهُ أول أزلي.

والأول الأزلي: الَّذِي لا أول لوجوده، ولم يسبق وُجُوده بالعدم.

ويقابله «الحادث»، وهو: الذي لوجوده أولٌ، ويكون مسبوقًا فيه بالعدم.

الدليل على أن واجب الوجود أول: أَنَّهُ لو لم يكن أولًا لكان حادثًا، و الْحادث هو: ما سبق وُجُوده بالعدم.

فلو لم يكن الواجب أولًا؛ لكان وُجُوده مسبوقًا بالعدم، وذَلِكَ مستحيل على الواجب؛ لأن الواجب: ما كَانَ وُجُوده لذاته من حيث هي، بمعنى أن ذاته تقتضي الوجود دائمًا بحيث لا تقبل العدم أصلًا، فإذا قلنا: إنَّهُ كَانَ معدومًا ثم وجد؛ فكيف يكون واجبًا؟!

فلو لم يكن الواجب أولًا؛ لكان وُجُوده مسبوقًا بالعدم، وذَلِكَ مستحيل على الواجب؛ لأن كل ما سبق وُجُوده بالعدم يحتاج إِلَى علة تعطيه الوجود؛ وإلا لزم رجحان المرجوح - وهو الوجود – على العدم بلا سبب، وهو محال.

فلو لم يكن الواجب أولًا؛ لكان محتاجًا فِي وُجُوده إِلَى غيره، وقد سبق أن الواجب: ما كَانَ وُجُوده لذاته، فلا يكون الواجب واجبًا على ذَلِكَ الفرض، وهذا تناقض محال.

إذًا؛ هو الأول الَّذِي ليس قبله شيء.

ويمكن أن يختصر هذا الدليل هكذا:

إنَّهُ لو لم يكن أولًا؛ لكان حادثًا مسبوقًا فِي وُجُوده بالعدم، وذَلِكَ باطل؛ لأن العدم مستحيل فِي حق الواجب، فذاته تقتضي الوجوب دائمًا ولا تقبل العدم أصلًا، وبذَلِكَ يجب أن يكون أولًا.

فهذا من أحكام الواجب.

الذي أوجد الوجود وأعطاه وجوده؛ إذا كان وجوده من غيره؛ فإن هذا يكون حينئذ مما لا يقبله العقل؛ لأنه إذا كان وجوده من غيره؛ فهو لا يستطيع ووجودُه متوقف على من يعطيه الوجود أن يعطي الوجود، وأن ينشئ ويوجد شيئًا من العدم؛ لأنه هو نفسه يحتاج إلى من يعطيه وجوده، فأعطاه الوجود بدءًا، وهو في حاجة إلى هذا الذي أوجده في استمرار وجوده – كما مر في أحكام الممكن -، فلا يكون واجبًا؛ بل يكون ممكنًا محتاجًا إلى من يوجده.

إذًا؛ بطل أن يكون من أعطى الوجود وجوده كالوجود في أحكامه؛ بل يكون وجوده لذاته كما مر، ولا يكون لأوله بدء؛ بل هو أول لا بدء له، كما مر في أول أحكام الواجب: «الأولية».

وكذلك «البقاء»:

فمن أحكام الواجب: «البقاء».

ومعناه: أَنَّهُ لا آخر لوجود الخَالِق الْعَظِيم، ولا يلحقه عدم؛ لِأَنَّهُ لو لحقه العدم من بعد الوجود؛ لكان ممكنًا، والممكن: ما يستوي فِي حقه الوجود والعدم، وقد مر أن الواجب: ما كَانَ وُجُوده لذاته من حيث هي، أي أن ذاته تقتضي الوجود دائمًا، بحيث لا تقبل العدم أصلًا، فإذا ما صار هذا الواجب إِلَى العدم؛ فمعنى ذَلِكَ أَنَّهُ لا يكون واجبًا.

إذًا؛ من أحكام الواجب: «الأولية»، وكذَلِكَ «البقاء»، بمعنى: أنه لا آخر لوجوده، ولا يلحقه عدم.

والدليل على ذلك: أَنَّهُ لو لم باقيًا بلا آخرَ لوجوده؛ للحقه العدم، والعدم مستحيل فِي حق الواجب كما مر؛ لأن الوجود لازم من لوازم ماهية الواجب، لا يفارقها، فلو عدم الواجب؛ لسلب لازم الماهية عَنْها، أي لم يكن الواجب موجودًا، والواجب إِذَا لم يكن موجودًا؛ لا

يكون واجبًا، فيكون ذَلِكَ تناقضا، فلو لم يكن الواجب باقيًا؛ لما كَانَ واجبًا، وذَلِكَ محال، فثبت للواجبِ البقاءُ.

فلا بد أن يكون لا أول له، ولا آخر له؛ لأن وُجُوده لذاته من حيث هي، ليس من غيره.

الذي وُجُوده من غيره هو الممكن.

المستحيل لا وُجُود له.

العدم من لوازم ذاته.

وأما الممكن؛ فهو الَّذِي يوجد بعد العدم، فوجوده من غيره، ثم يصير إِلَى العدم من بعد الوجود، فإذا شاء من أوجده أن يفنيه؛ فني؛ لِأَنَّهُ متوقف فِي وُجُوده على من يعطيه الوجود، وهو الواجب الَّذِي يكون وُجُوده لذاته، بحيث لا تقبل ذاته العدم أصلًا.

فثبت إِذًا لله عز وجل؛ حتى بالدليل العقلي، وأنت لا ترى هنا نصًا؛ لا من الكتاب، ولا من السنة؛ لأنك عَنْدما تواجه الْمُلْحِدِينَ؛ هم أصلًا ينكرون وُجُود الله تبارك وتعالى، وينكرون الرسالة، وينكرون الوحي، وينكرون البعث، وينكرون القيامة، ويقولون: نحن نعتمد على الحس، أو نعتمد على العقل، فإذا ما أتيت لهم بالنقل؛ فإنهم لا يقبلون؛ مع أن النقل أثبت هذا الَّذِي نحن فِيه بطريقة أخرى هي أوضح وأجلى وأدق وأحسن وأسمى من هذه الطريقة العقلية المجردة؛ لأن الله تعالى يَقُول مخاطبًا أُولَئِكَ القوم: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُون»، فهذا هو ما نحن فِيه؛ ولَكن هم لا يقبلون النص القرآني؛ لِأَنَّهُم ينكرون وُجُود الله الَّذِي تكلم به جل وعلا، وينكرون الرسول والرسالة، وينكرون البعث والقيامة.

أنت إِذًا قلت مثلًا: لو لم يكن الإنسان مفكرًا؛ لما كَانَ إنسانًا، فالتفكير من لوازم ذاته، أي من لوازم ماهية الإنسان، فلو سلب عَن الذات هذا اللازم؛ لما كَانَ الإنسان إنسانًا.

هذه هي الطريقة العقلية التي يسلكها علماؤنا رحمة الله عليهم أحيانًا فِيما يتعلق بالرد على الماديين، أو الدهريين، أو الْمُلْحِدِينَ، كما هو الشأن فِي هذا العصر، وهي نافعة جدًا بفضل الله تبارك وتعالى فِي إلزامهم الحجة؛ لأنهم ينكرون وجود الخالق.

عندنا الآن أمر مهم:

إِذَا سألك سائل عَنْ هذه الأشياء المشاهَدة فِي هذا العالم - كما فِي «قصة الإيمان» -: كيف تكونت وتركبت وصنعت؟

وما هي الفروض التي يمكن أن نتصورها ونفرضها؟

إذا سألك عَنْ هذا؛ فإنما سألك كما سأل القرآن عما فِي ملكوت السماوات والأرض من أشياء مركبة ومتنوعة؛ كيف يفرض أن تكون خلقت وتكونت بهذا التنوع؟

هذه الصور والأشكال من التنوعات المركبة؛ ولاسيما الحية منها - أي من هذه المخلوقات -؛ كالنباتات والحيوانات والإنسان خاصة، لا العقل يَقُول بأنها قديمة بمعنى أَنَّهَا لا أول لها؛ لِأَنَّهُ يستحيل وهي مركبة ومتغيرة أن تكون قديمة؛ لأن القديم عَنْدهم لا يكون متغيرًا، ولا يكون مركبًا؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ مركبًا؛ لاحتاج بعض أجزائه إِلَى بعض، فيكون حينئذ محتاجًا، ويقولون: القديم لا يكون محتاجًا.

إذًا؛ هذه المخلوقات؛ لاسيما الحية منها؛ كالنباتات والحيوانات والإنسان؛ العقل لا يَقُول: إِنَّهَا لا أول لها، لا يقول: إنها قديمة؛ لِأَنَّهُ يستحيل وهي مركبة ومتغيرة أن تكون قديمة، ولا الْعِلْمُ المادي يَقُول إنها قديمة، لِأَنَّهُ اكتشف فِي طبقات الْأَرْض أَنَّهَا حادثة، ومعنى كونها حادثة: أَنَّهَا مركبة ومصنوعة بعد أن لم تكن - كما مر -، كانت معدومة ثم وجدت، فكل ممكن حادث؛ فكيف تفرض أن تكون صنعت وتكونت؟

هُنَالِكَ ثلاثة فروض لا رابع لها أبدًا:

الأول: أن تكون من صنع اللهِ هذه الأشياءُ الحادثةُ؛ لاسيما الحية منها؛ لِأَنَّهَا هي التي يمكن أن يذهب الذهن فِيها إِلَى أمور؛ لِأَنَّهَا أعطيت الحياة.

فهذه الأشياء كلها؛ من الذي أوجدها؟

وكيف أوجدها؟

وكيف وجدت؟

وكيف صنعت؟

عندنا فروض:

الأول: أن تكون من صنع الله.

الثاني: أن تكون من صنع ذرات المادة وأجزائها وعناصرها عَنْ إرادة وقصد وغاية، أي أن عَناْصر المادة الأصلية فكرت ودبرت واتفقت على صنع تنوعات هذا العالم بهذه الأشكال والصور التي تراها!!

الثالث من الفروض: أن تكون هذه التنوعات قد تكونت بطريق المصادفة، أي أن الذرات تلاقت وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق المصادفة، فتكونت العناصر الأصلية، ثم تلاقت العناصر، وتجمعت، وتمازجت بالمصادفة، على نسب صالحة بالمصادفة، فِي مدد كافية بالمصادفة، وأجواء ملائمة بالمصادفة، فتكونت هذه التنوعات، وخلقت الحياة من هذه المصادفات!!

هذا هو الفرض الثالث، ولا يوجد فرض رابع يمكن تصوره.

أما الفرض الأول – وهو أَنَّهُا من صنع الله -؛ فهذا ما يَقُول به المؤمنون بالله؛ سواء كَانَ إيمانهم عَنْ هداية دينية، أو عَنْ هداية عقلية؛ كالملحد الَّذِي تأتي له بالدليل العقلي على وُجُود الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فيقر بوجوده، ويهتدي هداية عقلية.

فهذه هداية عقلية.

وجملة المؤمنين هدايتهم هداية قلبية؛ لأن الله جعل مركوزًا فِي الفطرة الإنسانية الإقرارَ بوجوده جَلَّ وَعَلَا.

فالمؤمنون يَقُولون بالفرض الأول؛ أن هذه التنوعات وهذا الكون من صنع الله رب العالمين.

الفرض الثاني: أن تكون هذه التنوعات كلها من صنع ذرات المادة وأجزائها وعناصرها عَنْ إرادة وقصد وغاية، أي أن عَناْصر المادة الأصلية فكرت ودبرت واتفقت على صنع تنوعات هذا العالم بهذه الأشكال والصور التي نراها، فقالت: نجعل السماء سماء!! والأرض أرضًا!! والبحار بحارًا!! والأناسيَّ والحشراتِ والطيورَ والحيواناتِ...!!

هذا الفرض الثاني لا يَقُول به أحد مطلقًا، لا المؤمنون ولا الماديون؛ بل إن هَؤُلَاءِ الماديين لَيُنكرون إنكارًا قاطعًا أن يكون لعناصر المادة إرادة وقصد وغاية.

إذًا؛ أصبحنا أمام فرضين لا ثالث لهما، فإما أن تكون تنوعات العالم من خلق الله وصنعه، وإما أن تكون نتيجة للمصادفة، فإذا بطل أَنَّهُا وجدت مصادفة؛ لم يبق إلا الفرض الأول، وهو أن تكون من صنع الله جَلَّ وَعَلَا؛ ولَكِن:

هل المصادفة أمر مستحيل عقلًا؛ أم هي أمر فِي حدود الإمكان؟

تستطيع أن تجيب بالنفي وبالإيجاب فِي آن واحد؛ فالمصادفة تكون أحيانًا ممكنة، وتكون أحيانًا فِي حكم المستحيلة عقلًا؛ فعليك إذًا أن تصوغ هذا السؤال هكذا؛ تقول:

ما هي قيمة المصادفة فِي ميزان العقل السليم؟

«أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»؟!!

هكذا مصادفة!!

فإبطال هذا الفرض كيف؟

هكذا.

ما هي قيمة المصادفة فِي ميزان العقل السليم؟

جاء الآن دور الإبر:

خذ لوحًا من خشب، واغرز فِيه إبرة، وضع فِي ثقبها إبرة ثانية أخرى.

إذا رأى إنسان عاقل هاتين الإبرتين وسأل: كيف أدخلت الثانية فِي ثقب الأولى؟

فأخبره إنسان معروف بالصدق أن الَّذِي أدخلها رجل ماهر قذف بها من بعد عشرة أمتار، فاستطاع أن يدخلها فِي ثقب الإبرة الأولى، ثم أخبره إنسان آخر معروف بالصدق أَيْضًا أن الَّذِي ألقاها صبي صغير ولد من بطن أمه أعمى، فلما قذفها هذا الصبي الأكمه؛ وقعت الإبرة فِي الثقب بطريق المصادفة؛ أي الخبرين يصدِّق؟

لا ريب أَنَّهُ يميل إِلَى تصديق الخبر الأول؛ ولَكِنه أمام صدق المخبرَيْنِ يرى أن المصادفة ممكنة، فلا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر. يَقُول: يمكن، هذا رجل صادق مصدق عَنْدي، وقال: إن هذا الصبي الأكمه الَّذِي ولد أعمى ألقى الإبرة، فوقعت فِي ثقب التي غرزت فِي لوح من خشب، فيقول: هذا ممكن؛ ولَكِنه يميل إِلَى تصديق من؟

إلى تصديق الأول، ولا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر؛ لَكِن:

إذا رأى هذا الرجل إبرة ثالثة مغروزة فِي ثقب الثانية أَيْضًا؛ فهل يبقى عدم الترجيح على حاله؟ يعني أخبره الأول بأن الذي صنع ذلك إنما هو رجل حاذق، فوضع هذه في هذه، وأخبره الثاني – وهو مصدق عنده – بأن الذي صنع ذلك هو الصبي الأعمى نفسه؛ هل يبقى الترجيح على حاله؟!

كلا؛ بل يتقوى ترجيح القصد على المصادفة؛ لأن هذا الصبي إنما يأتي ما يأتي منه على سبيل المصادفة؛ هو لا يرى شيئًا، فيقع منه على سبيل المصادفة.

وأما الأول؛ فيأتي ما يأتي منه على سبيل القصد، فحينئذ أنت ترجح القصد على المصادفة؛ ولَـٰكِن يبقى على كل حال ترجيحًا ضعيفًا.

إذا رأى الرجل أن هُنَالِكَ عشر إبر؛ كل واحدة منها مغروزة فِي ثقب الأخرى التي تليها؛ فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على ضعفه؟

كلا؛ بل يتقوى عَنْده ترجيح القصد؛ حتى تكاد فكرة المصادفة أن تتلاشى.

لو جاءه إنسان من أُولَئِكَ الَّذِينَ يصدق فِيهم قول القرآن: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا»، وأخذ يجادله فِي معنى الاستحالة العقلية والاستحالة العادية، ويبرهن له على أن المصادفة هاهنا ليست مستحيلة، لا عقلًا ولا عادة؛ ولَـٰكِنها تكون أحيانًا مستبعدة؛ فصاحبنا العاقل لا بد أن يذعن لكلامه، فهو كلام عقلي؛ وإن كَانَ التصور هاهنا يتخلف عَنْه، كما مر أن الإنسان يمكن أن يتعقل ولا يتصور، وأن كثيرًا من الأمور نتعقلها؛ ولَـٰكِن العقل يكل عَنْ تصورها، ففرق بين التعقل والتصور، ومع ذلك فهو يذعن هاهنا، العقل يذعن؛ لَـٰكِن القلب يميل إِلَى ترجيح القصد، ويقول: أما هذه المصادفة التي تقول من هذا الصبي الَّذِي ولد أعمى؛ فهذه مع أَنَّهَا غير مستحيلة عقلًا ولا عادة؛ إلا أنني أستبعدها، فيستبعدها ويميل إِلَى ترجيح القصد؛ ولَـٰكِن فلنترقى فِي تعقيد الأحجية - أي اللغز -، كما مر فِي أحجية الورقة المقطعة، وكيف أنك لو أخذت تقسمها وهي من المائة من المللي متر في سمكها، فهي رقيقة جدًا، ولـٰكن تجعلها ثنتين، وتجعل الثنتين أربعة، وتجعل الأربعة ثمانية، وهكذا إلى ثمان وأربعين مرة، فلو قال لك قائل: إنها لو جعلتها ركامًا بعضها فوق بعض؛ فإنها تبلغ مترًا؛ فإنك تستبعد ذلك؛ فكيف لو كان كيلو متر؟!!

فإنك تستبعد ذلك أكثر.

فكيف إذا كان ذلك مُؤَدِّيًا إلى أن تكون ملامسة لسطح القمر؟!!

وقد مَرَّ أنك سَتَسْهَرُ هذه الليلةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُجَرِّبَ هذا بطريقة الحساب، وستجد ذلك كما قال.

فهذا لا يمكن أن يتخلف.

هذا بالحساب؛ ولكن العقل لا يتصوره؛ وإن كان يتعقله، فكذلك في هذه الأحجية.

الإبر العشر مرقمة بخطوط، لكل واحدة منها رقم، من الواحدة إِلَى العشرة، وقيل لنا فِي الخبر: إن الصبي الأعمى أعطي كيسًا فِيه هذه الإبر العشر مخلوطة مشوشة، وكان يضع يده فِي الكيس يستخرج الإبر تباعًا على ترتيب أرقامها من واحد إِلَى عشرة بطريق المصادفة، ويلقيها، فتقع الأولى فِي ثقب المغروزة فِي اللوح، وتقع الثانية فِي الأولى، والثالثة فِي الثانية، والرابعة فِي الثالثة، وهكذا حتى تم إدخال الإبر العشر فِي بعضٍ على ترتيب أرقامها وهي مشوشة في كيسه وهو أعمى!! وأن ذَلِكَ قد حصل كله بطريق المصادفة، وجاء ذَلِكَ الإنسان المجادل يحاول أن يبرهن على أن إمكان المصادفة لم يزل موجودًا وغير مستحيل عقلًا؛ فماذا يكون موقف صاحبنا العاقل مع هذا المجادل؟

لا ريب فِي أَنَّهُ لا يصدقه؛ لأن المصادفة بهذا التتابع والتعاقب بعيدة جدًا جدًا إن لم تكن مستحيلة؛ بل إنها فِي مجال الأعداد الكبرى تصبح مستحيلة بداهة.

هذه البداهة تعتمد فِي أعماق العقل الباطن على قانون عقلي رياضي لا يمكن الخروج عَنْه، فقانون المصادفة يَقُول: إن حظ المصادفة من الاعتبار يزيد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة.

هذا قانون المصادفة.

فالمصادفة لها قانون.

قانون المصادفة يَقُول: إن حظ المصادفة من الاعتبار يزيد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة.

فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة؛ ازداد حظ المصادفة من النجاح، وكلما كثر عددها؛ قل حظ المصادفة.

فإذا كَانَ التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين؛ يكون حظ المصادفة بنسبة واحد «١» ضد اثنين «٢»، وإذا كَانَ التزاحم بين عشرة «١٠»؛ يكون حظ المصادفة بنسبة واحد «١» ضد عشرة «١٠»؛ لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعًا، وإِلَى هنا يكون الحظ فِي النجاح قريبا من المتزاحمين؛ حتى لو كَانُوا مائة أو ألفًا؛ ولَـكِن متى تضخمت النسبة العددية تضخمًا هائلًا؛ يصبح حظ المصادفة فِي حكم العدم؛ بل المستحيل؛ وذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا اتفق للصبي الأعمى أن سحب أول مرة الرقم «١»؛ قلنا: إن حظ المصادفة للرقم «١» تغلب على الأعداد الأخرى المتزاحمة معه بنسبة واحد إِلَى عشرة «١-١٠»، وأما إذا اتفق له أَنْ سَحَبَ العددين «١»، ثم «٢» بالتتابع؛ قلنا: إن حظ المصادفة للعدد الثاني هو بنسبة واحد ضد مائة «١-١٠٠»؛ لأن كلًا من العشرة يزاحم للرتبة الثانية ضد عشرة، فيصبح التزاحم بين مائة، وإذا اتفق أن سحب الصبي الأعمى الإبر الثلاث «واحد واثنان وثلاثة»«١،٢،٣» على التوالي؛ قلنا: إن حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف«١-١٠٠٠»؛ لأن كلًا من العشرة يزاحم ضد مائة، وهكذا.

فإذا افترضنا أن الصبي سحب الإبر العشر على ترتيب أرقامها من واحد إِلَى عشرة«١-١٠»؛ فإن حظ المصادفة يصبح بنسبة واحد ضد عشرة مليارات «١-١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠».

هذه أحجية حسابية، وهي مثل أحجية الورقة الرقيقة التي تقطع ثماني وأربعين مرة، فيصل سمكها إِلَى القمر.

جرب هذا أَيْضًا فِي هذه الإبر، واضرب كل مرة حاصل الضرب بعشرة، وستجد أن حظ المصادفة يصبح بنسبة واحد ضد عشرة مليارات «١-١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠».

ولَـكِنْ على وُجُود هذه النسبة البعيدة التفاوت؛ ربما يتصور متصور أن المصادفة فِي سحب هذه الإبر العشر على ترتيب أرقامها ممكنة وغير مستحيلة، فلننتقل إِلَى ترتيب آخر فِي شكل آخر وأعداد أكثر:

لو فرض أنك تملك مطبعة فِيها نصف مليون حرف مفرقة فِي صناديقها، من المطابع اليدوية القديمة، كَانَت الحروف تكون فِي صندوقها.

فالآن أنت تملك مطبعة فِيها نصف مليون حرف مفرقة فِي صناديقها، فجاءت هزة أرضية «زلزال»، فقلبت صناديق الحروف على بعضها، وتبعثرت تلك الحروف واختلطت، ثم جاءك مُنَضِّدُ الحروف ليخبرك أَنَّهُ قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني؛ هل كنت تصدق؟

قد تقول: نعم، أصدق.

فلو قَالَ لك: إن الكلمات العشرة تؤلف جملة كاملة مفيدة؛ هل كنت تصدق؟

ستستبعد ذَلِكَ جدًا كما استبعدته فِي مثال الإبر العشر؛ ولَكِن لن تراه مستحيلًا.

لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها كونت عَنْد اختلاطها بالمصادفة كتابًا كاملًا من خمس مائة صفحة، ينطوي على قصيدة واحدة، تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها ومغازيها؛ فهل كنت تصدق ذَلِكَ؟!!

أبدًا لا تصدقه.

فلماذا لا تصدقه؟

لأنك ترى الاستحالة هاهنا بديهية؛ لماذا؟

لأنك عَنْدما تتصور أن الإبر العشر ألقيت على ترتيب أرقامها بالمصادفة؛ لا تجد وجه الاستحالة واضحًا وبديهيًا كما تجده فِي مثال الكتاب فِي هذه الحروف المبعثرة.

ما السبب فِي ذَلِكَ؟

السبب يرتكز على قانون المصادفة نفسه.

فالتزاحم بين الإبر المرقمة يجري بين عشر إبر على عشرة ترتيبات، فيجعل حظ المصادفة بنسبة واحد إِلَى عشرة مليارات «١-١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠»، وهذه النسبة على تفاوتها الكبير ليست من العظم بحيث تحدث لك فِي عقلك تلك البداهة فِي إدراك الاستحالة؛ ولَكِن التزاحم بين حروف الكتاب يجري بين خمسمائة ألف «٥٠٠٠٠٠» حرف على تكوين خمسة وعشرين ومائة ألف «١٢٥٠٠٠» كلمة تقريبًا، بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبدًا، وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عدد هائل جدًا جدًا لو قلت عَنْه: أَنَّهُ مليار مليار مليار؛ لكان قليلًا، ويكفيك لكي تدرك ضخامة العدد أن تعلم أن الإبر لو كَانَت اثنتي عشرة «١٢»

إبرة؛ لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار «١-١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠»، ولو كانت إحدى وعشرين «٢١» إبرة؛ لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار مليار؛ فتصور ماذا تكون النسبة إِذَا كَانَ التزاحم يجري بين خمسمائة ألف كلمة بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى!!

هذا فِي كتاب المطبعة وكلماته المحدودة المعدودة؛ فما قولك فِي كتاب الله الأعظم؟! فِي خلق الله عز وجل التي يَقُول عَنْها ربنا تبارك وتعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)».

«وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ».

وتأمل فِي كل ذرة من مياه البحار وأشجار الْأَرْض.

وَتَأَمَّلْ فِي كُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ ذَرَّاتٍ وَعَنَاصِرَ، وَنُظُمٍ وَقَوَانِينَ وَنَوَامِيسَ، وَنِسَبٍ وَرَوَابِطِ وَعَلَائِقَ، وَأَقْدَارٍ وَأَحْجَامٍ وَأَوْزَانٍ، وَمُدَدٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَزْمَانٍ، وَصُوَرٍ وَأَشْكَالٍ وَأَلْوَانٍ، وَحَرَكَاتٍ وَسَكَنَاتٍ وَأَوْضَاعٍ، وَأَجْنَاسٍ وَأَصْنَافٍ وَأَنْوَاعٍ.

وَتَعَالَ تَتَصَوَّرُ عَدَدَ مَا فِي الْعَالِمِ -عَالِمِ الْخَلْقِ- مِنْ شَيْءٍ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الذَّرَّةِ إِلَى الْمجَرَّةِ، وَتَصَوَّرْ عَدَدَ مَا يَرْبِطُ بَيْنَهَا فِي عَالِمِ الْأَمْرِ مِنْ رَوَابِطَ وَعَلَائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ النَّوَامِيسِ وَالْأَقْدَارِ وَالْمُدَدِ، وَالْأَشْكَالِ وَالْحَرَكَاتِ وَالْأَوْضَاعِ، ثُمَّ تَعَالَ نَدْرُسْ فِي ضَوْءِ الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ بَعْضَ مَا فِي هَذَا الْعَالِمِ مِنْ تَقْدِيرٍ وَاتِّزَانٍ، وَتَنْظِيمٍ وَتَرْتِيبٍ وَإِحْكَامٍ وَإِتْقَانٍ؛ لنعرف ما هو حظ المصادفة فِي تكوينه!!

مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)».

«وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)».

«وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)».

«وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩)».

«وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)».

«وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ».

«صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ».

«الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ».

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ».

«مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ».

«قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

«وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥»).

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

هَذَا بَعْضُ كَلَامِ اللهِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، سَلِيلِ الْقَبِيلَةِ الْأُمِّيَّةِ، وَرَبِيبِ الْبِيئَةِ الْأُمِّيَّةِ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا مِنَ الزَّمَانِ.

فتعال فانظر - كما أمر الله عز وجل – بعض ما فِي السماوات والأرض فِي ضوء الْعِلْم؛ لترى: هل فِي خلقه ذَلِكَ التقديرُ والاتزان والإتقان والإحسان والتقويم الَّذِي ذكره الله رب العالمين فِي القرآن كما فِي الآيات التي مرت؛ ليبرهن على الخلق المقصود ضد المصادفة؟ ولترى كم هو عدد الأشياء المتزاحمة التي ستخضع - كما مر - لقانون المصادفة عَنْد القول بالمصادفة، فهذه الأشياء المتزاحمة: ذرات وعناصر وأشكال ومقاييس وأوزان وخواص وطبائع ونواميس وأوضاع وظروف ومدد وأزمان وأجواء؛ كلها فِي تكوين هذا العالم.

ثم تساءل: هل يعقل أن يكون هذا قد كتب له الفوز بهذا الترتيب الشامل الكامل الدقيق المقدر المتزن المتقن الجميل بمجرد المصادفة ضد عدد هائل من الممكنات الأخرى المتزاحمة؟!!

ماذا يَقُول الْعِلْم عما فِي هذا العالم من تقدير وترتيب واتزان وإتقان وإحسان، وعما فيه من قوانين ونواميس؟!!

فبطل هذا الفرض؛ وهو القول بالمصادفة، ولم يبق إلا الفرض الأول، وهو أن يكون هذا الكون كله من صنع الله وخلقه، وهو المطلوب إثباته.

بماذا؟

بقانون الْعِلْم نفسه، وبما دل الْعِلْم المادي نفسه، وليس بالوحي؛ وإن كَانَ الوحي أجلى من هذا كله وأظهر؛ ولَكِن عَنْد المنصف الَّذِي يقبله، الَّذِي ينظر فِي الآيات، ويتأمل فِي الأحاديث، وينظر فِي خلق الله رب العالمين، وفي آياته التي بثها فِي تضاعيف هذا الكون المخلوق له، ثم

حينئذ يذعن لما دل عليه العقل بعد النظر فِي الآيات المتلوة والآيات المنظورة؛ لَكِن أين الإنصاف من الملحد؟!

وأين العدل منه؟!!

فإذا كَانَ يخضع لقانون العقل؛ فهذا قانون العقل كما مر!!

فإذا كَانَ يخضع لقانون الْعِلْم المادي؛ فهذا قانون الْعِلْم المادي كما مر أَيْضًا!!

وإذا كَانَ يكابر؛ فإنه لا حيلة فِي المكابر!!

نسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«المُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

ففي معرض الرد على الملحدين مر ذكر بعض المقدمات، وهي مقدمات ونتائج في الوقت عينه، ولا بد من التعريض مع التعريج على صنم العصر الحديث، الذي يعبده الماديون الملحدون، وهو «الطبيعة»، ولَكِن هذه المدنية الْحَدِيثة التي غرت كثيرًا من الناس حتى جعلتهم يتشككون فِي الأديان؛ بل ويشكون فِي وُجود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ بل وصل الأمر بهم إِلَى حد إنكار وُجوده جَلَّ وَعَلَا؛ هذه المدنية الْحَدِيثة؛ يظن كثير من الخلق أَنَّهَا غاية عليا ونظام كامل، وليس كذَلِكَ.

قال الغبراوي رحمه الله:

قد يسبق إِلَى النفس أن المدنية الْحَدِيثة غاية عليا ونظام كامل نشأ من عدة عوامل، أحدها: الدين.

قال: ونحن نحاول أن نحدد الصلة بين المدنية القائمة وبين الإسلام، أو بالأحرى تحديد ما هُنَالِكَ من توافق وتفاوت بين المدنية الواقعة، كما نراها اليوم، ويبصرها الناس ويعرفونها، والمدنية الغائبة كما جاء بها الإسلام، وفي الْحَقّ أن هذه المدنية الْحَدِيثة بعيدة جدًا عَنْ أن تكون مثلًا أعلى للمدنيات التي تحقق وُجودها على مر الزمان؛ فإن المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها فِي الواقع جزءًا من الفطرة التي فطر الله عليها الكون.

وآية ذَلِكَ: أن يكون فِيها ما فِي سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك والاتزان والهدوء، وهذا لا يتحقق لأي مدنية من المدنيات؛ إلا إِذَا قامت على الْحَقّ فِي جميع نواحيها، وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التي فطر الله عليها الناس؛ أفرادًا وجماعات.

وشيوع الخلل والاضطراب فِي النواحي الاجتماعية من هذه المدنية هو دليل شيوع الباطل فِي هذه النواحي، ودليل بعد هذه النواحي عَن الفطرة.

وحسن جدًا أَنَّهُ يتكلم عَن المدنية، ولا يتكلم عَنْ الحضارة؛ لأن كثيرًا من الناس يخلط بين الأمرين، مع أن الغرب فرق بينهما، كما فعل «شْبِنْجِلَرْ»، الَّذِي يقال له: فيلسوف الحضارة، فإنه فرق بين المدنية والحضارة.

الحضارة: مجموعة القيم والمثل التي ترقي الروح، وتأخذ بها إِلَى مدارج الكمال.

وأما المدنية؛ فما يتعلق بالتقدم المادي فِي جوانب الحياة بلون من ألوان التبسيط؛ لَكِن إِذَا كَانَ الباطل قد شاع فِي أكثر نواحي هذه المدنية؛ فإن هُنَاكَ ناحية واحدة قد عَزَّتْ على الباطل أن يكون له فِيها مقام، -يعني فِي هذه المدنية الحاضرة الْحَدِيثة -، ودانت للحق، فهو فِيها الحاكم المطاع، تلك هي الناحية الْعِلْمية التي أثمرت للمدنية هذه القوى المادية التي فتن بها الناس، فظنوا هذه المدنية المعاصرة أفضل المدنيات حين قدرت على ما لم يقدر عليه المدنيات قبلها؛ من طيران فِي الهواء، وغوص فِي الماء، وتسخير للبخار والكهرباء، وغفلوا عَنْ أن تفاضل المدنيات ليس أساسه القوة، ولَكِن إحسانَ استعمال القوة فِي سبيل الْحَقّ.

فهذا ما تتفاضل به المدنيات؛ إحسانَ استعمال القوة فِي سبيل الْحَقّ، في سبيل الله؛ وإلا انقلبت تلك القوى على المدنية المغترة، فزلزلتها وصيرتها إِلَى ما يصير إِلَيْهِ الباطل من الزوال.

هذه الناحية الْعِلْمية التي عز على الباطل أن يخترقها فِي هذه المدنية المعاصرة؛ هذه الناحية الْعِلْمية هي فخر هذه المدنية الْحَدِيثة، بها ستذكر فِي المدنيات إِذَا ذكرت المدنيات بأنبل ما فِيها، وأفضله وأصدقه، بعد أن تصبح كما أصبحت المدنيات قبلها أحاديث، ثم هي الناحية الوحيدة التي اتحدت فِيها هذه المدنية الْحَدِيثة بالفطرة، وإذ كَانَ الإسلام دين الفطرة؛ فهي الناحية الوحيدة التي تم فِيها الاتصال بين المدنية الْحَدِيثة وبين الإسلام.

أما أن الإسلام يؤيد الْعِلْم، ويحرص عليه، ويكبر منه؛ فأمر يعرفه كل من له إلمام؛ ولو ببعض الآيات والأحاديث الواردة فِي الْعِلْم، فالذي يقرأ في الحديث الصحيح الذي أخرجه ابن ماجه، وصححه الألباني، يقرأ مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: طلب العلم فريضة على كل مسلم. ويقرأ قوله صلى الله عليه وسلم: إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع. أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والترمذي، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

والذي يعرف ما فعله الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – بعد غزوة بدر، من جعله فداء بعض فقراء الأسرى من المشركين تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة؛ الذي يعرف ذلك؛ يعرف من غير شك أن الإسلام هو دين العلم والتعلم، فإذا تلا من كتاب الله مع ذلك مثل قوله تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»، ومثل قوله تعالى: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)»، والآياتِ الكثيرةَ التي جعل الله سبحانه الْعِلْم فِيها حكمًا بين النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ومجادليه؛ كقوله تعالى على لسان نبيه: «ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤)».

إن تدبر الإنسان هذه الآيات الكريمة وأمثالها بعد تلك الأحاديث؛ أدرك أن الْعِلْم على إطلاقه لم يُكْبَرْ فِي دين من الأديان كما أكبر فِي الإسلام، وأن دينًا لم يلزم أهله بالْعِلْم والتعلم كما ألزم الإسلام المسلمين.

هذا التأييد التام للعلم على إطلاقه يشمل - طبعًا - التأييدَ التام للْعِلْم بمعناه الخاص، معناه الطبيعي المستعملِ فِيه اللفظ اليوم؛ لَكِن ليس هُنَاكَ من حاجة إِلَى مثل هذه الحجة على قوتها فِي إثبات أن الْعِلْم بمعناه الْحَدِيث مطلوب، ومأمور به فِي الإسلام؛ فإن الآيات القرآنية الكثيرة الواردة فِي الحض على تطلب آيات الله فِي الكون، وتعرف أسرار الخلق؛ هي فِي الواقع توجيه للعقل إِلَى مجالات الْعِلْم الَّذِي يسميه الناس اليوم: «الْعِلْم الطبيعي»؛ بل هي أوامر من الله بطلبه؛ لأن آيات الله فِي الكون التي ندبت تلك الآياتُ القرآنيةُ الكريمة إِلَى طلبها ليست بأكثر ولا أقل من أسرار الفطرة التي هي مطمع الْعِلْم ومرماه.

فأنت إِذَا قرأت مثل قوله جَلَّ وَعَلَا: «وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)»، وقوله تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)»، وقرأت قوله تعالى : «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ»، وقوله تعالى: «قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، إِذَا قرأت هذا وأمثاله فِي القرآن؛ لم تشك فِي أن الْعِلْم الْحَدِيث قرآني فِي موضوعه، يعني: هو يسير على القواعد القرآنية، أراد أم أبى؛ لأن القرآن الْعَظِيم وضع أسس المنهج الْعِلْمي الَّذِي يسير عليه أُولَئِكَ القوم، صادفوه بقدر الله رب العالمين من غير أن يعرفوه، أو عرفوه.

فهذه العلوم الطبيعية إنما تبحث عَنْ أسرار هذه الظواهر الكونية التي نبه إِلَيْهِا، وأمر بالبحث فِيها القرآنُ الكريم، فإذا أنت استقريت الآيات القرآنية الكونية لترى؛ هل ورد فِي بعضها مادة «العين، واللام، والميم» اللغويةُ؛ وجدت أن هُنَاكَ أكثر من آية وردت فِيها هذه الآية إن لم تكن فِي صيغة المصدر «عِلْم»، ففي صيغة مشتقاته؛ كقوله تعالى فِي سورة الأنعام: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)»، تعالى فِي سورة الروم: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢)»، وكذَلِكَ من سورة فاطر: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)».

فواضح من السياق أن المراد بالْعِلْماء هنا: هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيما أشارت إِلَيْهِ هذه الآيات الكونية، هَؤُلَاءِ الْعِلْماء إِذَا كَانُوا مؤمنين؛ حملهم علمهم بأسرار الفطرة على خشية الله فاطر الفطرة؛ لِأَنَّهُم يكونون بعلمهم أبصر بعظمة الله سبحانه، وجلالِه وقدرتِه المتجلية فِي آيات صنعه.

وهذا فِي الواقع هو الحكمة الكبرى التي من أجلها أمر الله الإنسان فِي كثير من آيات القرآن بالنظر فِيما خلق الله فِي السماوات والأرض من خلق، وهُنَاكَ طبعًا إِلَى هذه الحكمة الكبرى حكم أخرى، هي: ما يتبع طلب هذه العلوم الكونية من منافع مادية، آتية من استخدام حقائق الْعِلْم فِي شؤون الإنسان؛ كالانتفاع – مثلًا – بخواص الكهرباء والبخار والحديد فِي هذه القطارات والسفن التجارية البخارية، وهذه المركبات والمصابيح الكهربائية، والحكم كلها مرادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حين أمر الإنسان بالنظر فِي ملكوت السماوات والأرض، إلا أن الحكمة الأولى – وهي حكمة خشية الله التي أشار إِلَيْهِا فِي قوله: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعِلْمَاءُ» – هذه الحكمة هي الحكمة الكبرى؛ إذ عبادة الله وخشيته هي الغاية الأولى والأخيرة من وُجُود الإنسان.

وفي الْحَقّ أن الإنسان ليأخذه العجب من كثرة ما لقيت هذه الناحية من التوكيد فِي القرآن، ثم من تراخي المسلمين فِي الوقت عينه برغم ذَلِكَ فِي طلب هذا الْعِلْم، ولو للانتفاع به فِي تفسير ذَلِكَ الجزء من القرآن.

إن الآياتِ الواردةَ لِتَلْفِتَ الإنسانَ إِلَى أسرار الفطرة، وتَحُثَّهُ على تفقهها، لا تكاد تقل عَنْ سُبُع آيات القرآن، فسبع آيات القرآن فِيما يتعلق بالآيات التي وردت لتلفت الإنسان إِلَى أسرار الفطرة، ولتحث الناس على تفقهها، هذه لا تكاد تقل عَنْ سبع آيات القرآن، ولم تلق ناحية من نواحي المدنية مثل هذا التوكيد فِي الإسلام؛ إلا ناحية الأخذ بالعدل والإحسان فِي المعاملة. فكأن المدنية فِي الإسلام شطران: شطر يقوم على الْعِلْم، وشطر يقوم على العدل، ومن وراء ذَلِكَ كله مخافة الله ومحبته.

لا غنى لأهل المدنية عَنْ هذين إن أرادوا لها البقاء.

وعلى كل حال؛ فإن حث الإنسان فِي نحو سبع القرآن على دراسة الفطرة أريد به على الأخص: حثه على عبادة الله عَنْ طريق تلك الدراسة، وعن طريق شكره سبحانه على ما ستثمر تلك الدراسات عَنْه من ثمرات، وهذا لا يقلل شيئًا من شأن الْعِلْم فِي الإسلام؛ بل يزيده، ثم هو أبلغ فِي الدلالة على أن الْعِلْم فِي الإسلام جزء من الدين، على أن أمر التوافق بين الْعِلْم والإسلام قد جاوز الإجمال إِلَى التفصيل، جاوز قرآنية الموضوع والاسم إِلَى قرآنية الروح

والطريقة، فروح الْعِلْم وطريقته منطبقة تمامًا على ما جاء به القرآن؛ فإن روح الْعِلْم التي هي فِي صميمها: التجرد للحق، والصدق فِيه، والاستمساك به، والتعاون عليه؛ هي من روح الإسلام من غير شيء؛ إذ الإسلام كله ليس إلا أمرًا بالحق، وتجردًا له، وجهادًا من أجله.

وما لقيه الْحَقّ من الإكبار فِي الْعِلْم لا يزيد شيئًا عما لقيه الْحَقّ من الإكبار فِي القرآن، وإذا كَانَ هُنَاكَ فرق بين الاثنين؛ فهو لا يتعلق بذاتهما؛ ولَكِن بامتداد سلطانهما، فروح الْعِلْم مقصورة طبعًا على الميادين التجريبية التي قصر الْعِلْم عليها نفسه؛ لَكِن روح الإسلام تشمل بسلطانها كل ميادين حياة الإنسان، الْعِلْميّ منها والاجتماعي، ما يمكن إخضاعه للتجارب الْعِلْمية منها، وما لا يمكن.

إذًا؛ الْعِلْم قرآني بطريقته.

العلم قرآني بطبعه.

أما أن طريقة الْعِلْم فِي طلب أسرار الفطرة هي نفس الطريقة التي أمر بها القرآن؛ فيتبين من الآتي:

أن الْعِلْم لا يَقُول عَنْ شيء أَنَّهُ حق؛ إلا إِذَا قام عليه البرهان اليقيني القاطع.

فهذا من قوانين الْعِلْم المادي؛ أنه لا يَقُول عَنْ شيء أَنَّهُ حق؛ إلا إِذَا قام عليه البرهان اليقيني القاطع.

القرآن الكريم يأمر كذَلِكَ بألا يقبل الإنسان شيئًا على أَنَّهُ حق إلا إِذَا قام عليه البرهان.

يتمثل ذَلِكَ فِي مثل قوله تعالى: «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١»).

«سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨»).

والْعِلْم المقصود هنا: هو الْعِلْم اليقيني الثابت بالحجة القاطعة؛ بدليل عيبه عليهم إنزالهم الظن والتخمين منزلة الحجة واليقين فِي قوله: «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ».

فكما ترى؛ هذا القانون، هذه الركيزة، هذا الأساس من قوانين، من ركائز، من أسس الْعِلْم الَّذِي يبحث فِي الفطرة، يبحث في أسرار المادة هو قرآني بطبعه؛ أَنَّهُ لا يقبل شيئًا على أَنَّهُ حق إلا إِذَا قام عليه البرهان اليقيني القاطع، فهذا دل عليه القرآن؛ بل أمر به، وهو بعينه ما يرتكز عليه الْعِلْم أول ما يرتكز عَنْد بحثه عَنْ أسرار الفطرة.

ومما يتبين به أن طريقة الْعِلْم فِي طلب أسرار الفطرة هي طريقة القرآن المجيد:

أن الْعِلْم يحاذر كل المحاذرة أن يجعل يقينًا ما ليس بيقيني، وأن ينزل الظن منزلة اليقين، أو أن ينزل الفرض والتخمين منزلة الظن والترجيح، فهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الْحَقّ بمقدار مكانة الحجة التي تشهد له، فإذا كَانَت الحجة قاطعة؛ فالقضية حق، وإذا كَانَت غير قاطعة؛ فالقضية ظن، ويسميها الْعِلْم فِي هذه الحال «نظريةً» إِذَا كَانَت أرجحيتها كبيرة؛ إذ الواضح أن هُنَاكَ فِي الرجحان مراتب، بعضها أرقى من بعض.

أما إِذَا تساوى ما يشهد للقضية وما يشهد عليها؛ فتلك هي القضية المجهولة التي وقعت موقعًا وسطًا بين الْحَقّ والباطل؛ لا يدرى إِلَى أيهما هي أقرب؟

وأمثال هذه القضية وما قبلها من القضايا الواقعة فِي منطقة الرجحان؛ قل حظها منه أو كثر، هي موضع النظر الْعِلْمي والبحث، لا يزال الْعِلْم يبحث عَنْها، ويمحصها، حتى ينتهي فِيها إِلَى حكم بادية، وحكم قاض قاطع، فيلحقها؛ إما بالحق اليقيني، وإما بالباطل اليقيني.

هذا التفريق من الْعِلْم فِي المنزلة بين ما هو حق وما هو دون الراجح؛ يتفق تمامًا مع روح القرآن الكريم فِي النظر، ومع طريقته المتجلية فِي آياته كلها؛ خصوصًا تلك الآيات التي من قبيل ما ذكر قبل، وكقوله تعالى فِي سورة النجم: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)»، وكقوله تعالى فِي سورة الجاثية: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)»، وكقوله تعالى: «وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)».

فهذا التفريق القرآني هو ما وصل إِلَيْهِ الباحثون فِي أسرار المادة، الَّذِينَ يتعاملون مع الفطرة.

الفطرة هاهنا يراد بها: ما خلقه الله رب العالمين فِي هذا الكون من المادة بأسرارها وذخائرها.

فكما ترى؛ الأدلة قاطعة على أن الْعِلْم قرآني بطبيعته، على أن البحث العلمي، وأن المنهج العلمي المنضبط هو قرآني بطبيعته، قرآني بطريقته.

ومما يتبين به أن طريقة الْعِلْم فِي طلب أسرار الفطرة هي طريقة القرآن – وهو ملتحق بالأصلين السابقين -:

أن الْعِلْم يمنع التقليد فِي النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به. والْعِلْم الحَدِيث يخالف الْعِلْم القديم فِي هذا؛ لأن الْعِلْماء قديمًا – خصوصًا فِي القرون الوسطى – كَانُوا كثيرًا ما يقنعون فِي الاستدلال على الصحة أو البطلان بإثبات أن القضية توافق أو تخالف رأي فلان أو رأي علان من المشاهير، فكان ما يثبت عَنْ أَرِسْطُو – مثلًا - يتخذ حجة قاطعة فِي موضعه من غير أن ينظر فِي رأي أَرِسْطُو هذا فِي ذاته، ومن غير أن يسأل: ما هو دليله؟!

هذا كَانَ عليه الْعِلْم القديم، وكان هذا منبع شر كبير، ولعله كَانَ سَبَبًا كثير من الشبه الكلامية التي قامت بين علماء المسلمين بعد أن ترجمت كتب اليونان فِي العصر العباسي، فِيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة، وبين ما كَانُوا يسمونه: «الحكمة»، يريدون بالحكمة غالبًا: ما أخذوه عَنْ حكماء اليونان؛ مثلَ أَفْلَاطُونْ وَأَرِسْطُو وأَضْرَابِهِمَا، حتى جاء أمثال الغزالي من المسلمين عَنْدَ البحث فِي أمثال هذه الأمور، فأرجعوا الأمر إِلَى نصابه، وحملوا على الفلسفة، وسفهوا كثيرًا من الْفَلَاسِفَة فِي أقوالهم ومذاهبهم.

الْعِلْم فِي منعه التقليدَ الأعمى يتفق تمام الاتفاق مع القرآن الكريم الَّذِي شدد النكير على أناس كَانُوا يستمسكون بالرأي، لا لِأَنَّهُم عقلوه وفهموه؛ ولَكِن لأن آباءهم فعلوه!!

ترى ذَلِكَ فِي مثل قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)».

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)»، إِلَى غير ذَلِكَ من الآيات التي سفهت أحلام

هَؤُلَاءِ وطريقتهم؛ لِأَنَّهُم كانوا فِيها مقلدين هذا التقليد الأعمى، من غير ما نظر فِي دليل قَالَه قائل، أو رأيٍ ارْتَآهُ إنسان.

فالتقليد الأعمى، أي: الأخذ بالرأي من غير دليل أو رغم الدليل، فيأخذ بالرأي؛ ولو قام الدليل على ضده.

هذا كله هو التقليد الأعمى.

يتابع زيدًا أو بكرًا من الناس؛ هذا محرم على أهل النظر فِي حكم الْعِلْم وفي حكم القرآن.

فالمنهج العلمي يرد هذا التقليد.

وهذا هو المنهج القرآني الَّذِي أسسته الآيات، وعمل عليه الْعلماء رحمهم الله تعالى فِي صدر هذه الأمة.

أيضًا مما يتبين به أن طريقة الْعِلْم فِي طلب أسرار الفطرة هي طريقة القرآن :

أن الْعِلْم فِي تطبيقه قوانين التفكير المجموعةَ فِي علم المنطق القياسي يتخذ أصلين اثنين يبني عليهما:

الأول: أَنَّهُ لا تناقض مطلقًا بين الْحَقائق، فليس من الممكن أن ينقض حق حقًّا، فما ينقض حقًّا إِذًا فهو باطل، وهذا يصح أن يسمى ب «أصل توافق الْحَقائق».

فالْعِلْم يرسي هذا الأساس؛ بل يصدر عَنْه؛ بل ما تقدم الْعِلْم إلا لما أخذ بهذه القاعدة وأمثالها، وهي «أصل توافق الْحَقائق»؛ أَنَّهُ لا تناقض مطلقًا بين الْحَقائق.

الأصل الثاني: هو أصل اضطراد الفطرة واستقلالها، فما ثبت أَنَّهُ حق فِي وقت؛ سيكون دائمًا حقًّا، أو بعبارة أخرى: أن الْحَقّ مستقل عَنْ الزمان والمكان.

وهذا أصل عظيم.

وليس عَنْد الْعِلْم برهان على هذين الأصلين إلا تجاربه الماضية، فإنه لم يشاهد مطلقًا أن قضية حقيقية نقضت أخرى حقيقية، أي لم يشاهد مطلقًا تناقضًا بين حقائق الْعِلْم؛ سواء اكتشفت تلك الْحَقائق فِي الماضي أم فِي الحاضر، فِي الْأَرْض أم فِي كوكب آخر؛ بل كثير من حقائق إنما استنتج بناء على هذين الأصلين: أصل توافق الْحَقائق، أو امتناع التناقض بين الْحَقائق، وأصل اضطراد الفطرة، وكانت التجربة دائمًا تؤيد الاستنتاج؛ بل من الواضح أن

الْعِلْم يصبح مستحيل الوجود ومستحيل النمو لو انهار أحد هذين الأصلين أو كلاهما، وهذا سبب آخر يجعل الْعِلْم يستمسك بهذين الأصلين محافظة على وُجُوده نفسه؛ وإن عجز الْعِلْم عَنْ إقامة الدليل على صحة هذين الأصلين فِيما يتعلق بالمستقبل.

هذان الأصلان اللذان يستمسك الْعِلْم بهما هذا الاستمساك هما أصلان قرآنيان، أكدهما الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِي تكلم بهذا القرآن المجيد سبحانه، أكدهما كل التأكيد، وهو أعلم بما خلق.

فأصل اضطراد الفطرة ثابت قرآنيًا، كما فِي قوله تعالى: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)»، وكذَلِكَ فِي قوله: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)»، وكذَلِكَ فِي قوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»

فهذه آيات صريحة فِي اضطراد الفطرة، وبقاء سنن الله فِيها على الزمان كله، من غير تحويل ولا تبديل.

والفطرة وسننها هنا تشمل كل ما وجد فِي ملكوت الله؛ سواء فِي ذَلِكَ ما يتعلق بغير الإنسان من جماد ونبات وحيوان، أو ما تعلق بالإنسان من ناحية النفس والروح فِي الفرد والجماعة، مما لم يرتق الْعِلْم إِلَيْهِ إِلَى الآن.

فهذا أصل قرآني، وهو «أصل اضطراد الفطرة»؛ فإن الْحَقيقة ثابتة على الزمان والمكان؛ ما كَانَ حقًا فهو حق دائمًا فِي الحاضر والمستقبل، ولا يمكن أن يصير الْحَق باطلًا.

فهذا أصل اضطراد الفطرة.

وأما أصل توافق الْحَقائق، أو استحالة تناقض الْحَقائق؛ فهذا أَيْضًا ثابت قرآنيًا، كما فِي الآيات السابقة؛ لأن تناقض الْحَقائق يستلزم تناقض الفطرة، ويزداد ثبوتًا بقوله تعالى فِي سورة الملك: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ»، فإن التناقض هو أكبر من التفاوت، فإذا انتفى التفاوت فِي خلق الله؛ لزم أن ينتفي التناقض فِي خلق الله أَيْضًا من باب أولى.

وكذَلِكَ أعلن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ استقلال الفطرة عَن الإنسان، وذَلِكَ يوم وفاة ابنه إبراهيم، وحدوث كسوف الشَّمْس، فتحدث الناس أَنَّهُا كسفت لموت إبراهيم، فخاطبهم

النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ كما فِي الصحيحين بألفاظ متفاوتة: «إِنَّ الشَّمْس وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لاَ يَنخسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ؛ فَادْعُوا اللَّهَ، وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا».

فبين أن الفطرة - يعني ما أودعه الله رب العالمين من هذه السنن الإلهية فِي الكون -؛ هذا مستقل عَن الإنسان.

الشمس والقمر آيتان من آيات الله جل وعلا، لاَ يَنخسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ.

فكما ترى؛ هذا الَّذِي وصل إِلَيْهِ الْعِلْم فِي هاتين القضيتين الْعَظِيمتين، وبهما بقاء الْعِلْم وثباته، هو يستمسك بهما فِي الحاضر كما استمسك بهما فِي الماضي؛ مع أَنَّهُ لا يدري ما يكون فِيما يأتي به المستقبل؛ هذان الأصلان؛ هاتان القضيتان وردتا فِي كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كما مر فِي آيات ربنا جَلَّ وَعَلَا.

ومما يتبين به أن طريقة الْعِلْم فِي طلب أسرار الفطرة هي طريقة القرآن المجيد:

«أصل المشاهدة»؛ فقد عرفنا أن الْعِلْم فِي بحثه عَن الْحَقيقة يسلك سبيل العقل، فلا يعتبر حقًا إلا ما قام البرهان على أَنَّهُ حق، كَذَلِكَ الْعِلْم الَّذِي يبحث فِي الفطرة - أي فِي أسرار المادة – لا يعتبر حقًا إلا ما قام البرهان على أَنَّهُ حق، فالْعِلْم دائم البحث إِذَا عَنْ البراهين التي تثبت حقائق الأشياء.

هذه البراهين؛ عرفنا من أنواعها: النوع القياسي، أي الَّذِي يتوصل إِلَيْهِ بالقياس الصحيح، وإنما يؤدي إِلَى نتيجة صحيحة إِذَا صحت المقدمتان كلتاهما.

وأما إِذَا كَانَت إحدى المقدمتين باطلة أو مشكوكًا فِيها؛ فإن النتيجة يصيبها من البطلان أو من الشك على قدر ذَلِكَ؛ وإن صحت طريقة الاستنتاج.

وبعبارة أخرى: يلزم لصحة النتائج شرطان: صحة المقدمات كلها، وصحة طريقة الاستنتاج التي هي نفس القياس.

أما صحة الاستنتاج؛ فقد تكفل بها المنطق القياسي؛ لَكِنَّ المقدمات ما شأنها؟ وما طريق التثبت من صحتها؟

كثير من المقدمات ناتج عَنْ طريق القياس من مقدمات أولية بديهية الصحة، لا يختلف فِي صحتها العقلاء، ويصلون إِلَيْهِا مستقلًا بعضهم عَنْ بعض.

علم الهندسة النظرية - على تعقد نظرياته – مستنتج كله من أمثال هذه البديهيات؛ لَكِنْ ليس كل المقدمات يمكن رده إِلَى بديهيات كهذه عَنْد إثبات صحته؛ ولا بد إِذًا فِي إثبات هذا النوع الثاني عَنْ طريق آخر غير طريق الاستنتاج من البديهيات.

هذا الطريق الآخر هو طريق المشاهدة الصحيحة، وهو الطريق الَّذِي سلكه – إِلَى حدٍّ مَّا – الْعِلْمُ قديمًا، ويسلكه دائمًا الْعِلْمُ حديثًا؛ حتى صار طابعه الَّذِي طبع عليه، وميزته التي امتاز بها: «طريق المشاهدة الصحيحة».

هذه المشاهدة الْعِلْمية تستعمل فِيها الحواس، خصوصًا السمع والبصر؛ ولَكِن بشرط ترتيبها وتدريبها وتربيتها من ناحية، وبشرط إعانتها على دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة من ناحية أخرى.

هذه الآلات هي فِي الواقع وسائل هدى الله إِلَيْهِا الإنسان؛ ليزيد فِي مدى حسه، فيزيد فِي مدى إبصاره مثلًا بالمجاهر - أي: الْمَيِكْرُسْكُوبَات – التي يستطيع أن يرى الإنسان بها من الأجسام ما صغر حتى دق عَنْ أن تبصره العين المجردة؛ كالجراثيم وكرات الدم وخلايا الأجسام الحية، أو يزيد فِي مدى إبصاره بالْمَرَاقِبِ – وهي: التِّلِسْكُوبَات، فالمجاهر هي الْمَيِكْرُسْكُوبَات، وأما المراقب؛ فهي التِّلِسْكُوبَات –، وهذه تقرب للإنسان الأجسام البعيدة، يستعملها الَّذِينَ ينظرون فِي الْأَجْرَام السَّمَاوِيَّة، فيرى منها ما لم يكن يراه من قبل.

فأما المجاهر؛ فتستعمل كثيرًا فِي المعامل.

وأما المراقب؛ فتستعمل غالبًا فِي المراصد.

هذا الأصل - أصل المشاهدة الصحيحة – هو إِذًا الطريق الثاني الَّذِي يسلكه الْعِلْم الطبيعي للوصول إِلَى مقدمات صحيحة، ولولاه ما اتسعت العلوم الطبيعية هذا الاتساع، ولا نمت هذا النمو، ولا كشفت ما كشفت من أسرار الخلق؛ فالمشاهدة أصل علمي عظيم.

وهي أَيْضًا أصل قرآني عظيم؛ فالآيات التي تأمر بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر والعقل كثيرة جدًا فِي القرآن المجيد، منها:

استعمال البصر مع العقل؛ «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ».

«أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ».

«أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨»).

ومنها: ما ورد فِي استعمال السمع مع العقل؛ «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ إِذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا».

وأيضًا ورد استعمال السمع والبصر مع العقل؛ «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ إِذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩»).

وقال تعالى : «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨»).

«وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦»).

وكذَلِكَ ورد استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل؛ «أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ».

فهذه الآيات القرآنية الكريمة تحض الإنسان على استعمال العقل والسمع والبصر وما إِلَيْهَا من طرق المشاهدة الصحيحة بجميع أساليب الحض، ثم هي مع ذَلِكَ تأدبه من حيث استعمال هذه المواهب على وجهها الصحيح؛ ففي آية الإسراء: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ». تنهاه الآية من ناحية أن يجري مع الوَهَم والظن، وتدله من ناحية أخرى على طريق الوصول إِلَى ما ليس بوَهَم ولا ظن، أي إِلَى اليقين والحق عَنْ طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل؛ «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦»).

وفي قوله تعالى: «كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦»): ليس فقط أمر شديد بإحسان استعمال البصر والسمع والعقل، وعدم إهمالها؛ بل فِيه أَيْضًا أمر بالاستمساك بما يهتدي إِلَيْهِ الإنسان من الْحَقّ عَنْ طريقها. ففي الآية وحدها ثلاثة أصول، هي جماع أصول النظر الْعِلْمي المادي فِي منهج البحث الْعِلْمي:

الأصل الأول: ألا يتبع الإنسان إلا الْحَقّ المعلوم يقينًا: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ».

الأصل الثاني: أن طرق الوصول إِلَى الْحَقّ هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح.

الأصل الثالث: أن على الإنسان أن يستمسك بما يصل إِلَيْهِ من الْحَقّ عَنْ طريق المشاهدة والتفكير: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦»).

على أن علم الإنسان كله مصدره: العقل والمشاهدة الصحيحة؛ بل إن العقل لا يقوى ولا ينمو إلا عَنْ طريق التجارب والمشاهدات، فلو أخذ طفل، وحبس عَنْ الْعِلْم إلا فِيما يكفي لحياته من طعام أو شراب؛ فإنه وإن نما جسمه حتى يبلغ جسم الرجال؛ لا ينمو عقله عَنْ عقل الطفولة، بهذا يَقُول علماء التربية، و إِلَى هذا تشير آية النحل: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨»)، فهذه الآيات الكريمة تكاد تكون صريحة فِي أن ما يحصله الإنسان من علم بعد أن يولد؛ إنما يكسبه عَنْ طريق السمع والبصر وبقية الحواس، بدليل جمع الأبصار، وكَذَلِكَ عَنْ طريق العقل.

فكما ترى؛ الْعِلْم قرآني بطريقته، لا جديد !!

لو أن المسلمين التفتوا إِلَى ذَلِكَ؛ لسبقوا أُولَئِكَ الَّذِينَ سبقوهم فِي مجالات الْعِلْم المادي، وسبقوهم أَيْضًا فِي مجالات الروح التي تسيطر على مقاليد القوى من معرفة أسرار ذَلِكَ الْعِلْم المادي؛ ولَكِن أين النظر فِي القرآن على الوجه الصحيح؟!

لذلك تجد سبع القرآن بآياته فيما يتعلق بالآيات الكونية، فتعجب من كون الآيات على هذا النحو من الكثرة، مع الدعوة والحث على النظر في آفاق السماوات والأرض، وفي الأنفس، وفي المادة؛ لاستنباط أسرارها، والاطلاع على حكم الله فيها؛ تعجب من هذا في الوقت الذي ترى فيه المسلمين في غاية التقصير في الأخذ بهذا الأمر الكريم!!

فلنعقد مقارنة بين الْعِلْم القديم والْعِلْم الْحَدِيث:

قال رحمه الله:

أصل المشاهدة الصحيحة هذا هو من أهم الفروض بين الْعِلْم الْحَدِيث والْعِلْم القديم؛ فإن القدماء كَانوا فِي جملتهم يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ من الممكن أن يصل الإنسان إِلَى ما يشاء عَنْ طريق العقل وحده، أيْ لم يكونوا يَقُولون بضرورة المشاهدة لتحصيل الْعِلْم؛ بل منهم من كَانَ يرى

أن المشاهدة تضلل العقل؛ لأن الحواس غير مأمونة، ففي أثنائها يرى الشيء صغيرًا كالنجم مثلًا وهو كبير.

قَالَوا: إِذًا الحواس تضلل العقل؛ فالعقل يقضي بأن الَّذِي نراه من هذه النُّجُوم هو كبير جدًا، ومع ذَلِكَ العين تراه بهذه الدقة والصغر؛ لِذَلِكَ كَانوا كثيرًا ما يكتفون فِي طلب الْعِلْم وأسرار الفطرة بالجلوس والتفكير، فكَانُوا يصلون إِلَى قضايا كلية يزعمون أَنَّهُا حقائق ولم يقم عليها دليل، وإنما كَانَ دليلهم فروضًا افترضوها، يرونها حقًا، ويركنون إِلَيْهِا فِي الإثبات، فَفِيثَاغُورْث مثلًا يَقُول عَنْ الكون: إنَّهُ منفرد كامل كروي؛ لأن الكرة أكمل الأشياء.

ويقول: إن الكون حي عاقل؛ لأن ما هو حي وعاقل خير مما ليس بحي ولا عاقل!!

هذه قضية كلية؛ ولَكِن ما الدليل على صدقها هاهنا فِيما نزاوله، أو فِيما ينزلها عليه؟!!

فمثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالي غير المرتكز على حقائق يقينية ينكره الْعِلْم الحَدِيث كما ينكره القرآن، ومن هنا وقع قدماء الْفَلَاسِفَة من اليونان فِي أغلاط كثيرة من حيث لا يشعرون؛ كقولهم: إن للأجرام السَّمَاوِيَّة فِي أفلاكها نغماتٍ يطرب لها من يسمعها، وأن لهذه الْأَجْرَام أثرًا كبيرًا فِيما يصيب الإنسان من نحس وسُعُود!!

فربطوا مصير الإنسان بتلك الْأَجْرَام.

وقد سقط كثير من المسلمين فِي هذه الأغلاط نفسها حين أخذوا علم اليونان كله على أَنَّهُ حق من غير أن يطيعوا الله فِيه ليمحصوه، ومن غير أن يردوه إِلَى القرآن المجيد؛ بل بلغ بهم الأمر أَنَّهُم كَانوا يردون القرآن إِلَيْهِ؛ كقول إخوان الصفا: إن إدريس عليه السلام هو هُرْمُز الثالثُ أو الْمُثَلَّث بالحكمة، صفت نفسه بالرياضة والعبادة، فصعدت نفسه إِلَى السماء، وطافت مع بعض الْأَجْرَام ثلاثين عامًا، وشاهدت من العجائب ما لا يشاهده إلا من يطوف ذَلِكَ الطواف!!

قال إخوان الصفا: هذا – كما زعموا – ما يشير إِلَيْهِ القرآن فِي قوله: «ورفعناه مكانًا عليًا»!!

هذا نوع من فهم القرآن لا يجيزه القرآن كما مر، ولا يجيزه العقل، ولعلنا لو بحثنا فِي تاريخ الفلسفة الإسلامية، وما كَانَ بين علماء المسلمين من خلافات كلامية؛ لوجدناه راجعًا إِلَى قضايا فلسفية أخذها المسلمون عَنْ أكثر هذه الخلافات إن لم يكن كلِّها، عَنْ اليونان

أخذوها من غير تمحيص، فنقلوا إلينا خلافاتهم على النحو الَّذِي وقع من أُولَئِكَ الضُّلَّال فِيما يتعلق بالعقيدة؛ بل بصفات الرب؛ بل بذاته جَلَّ وَعَلَا.

كان قدماء الْفَلَاسِفَة إِذَا يرون العقل مصدرًا للحقائق، مستغنيًا بذاته عَنْ المشاهدة.

أما مُحْدَثُوهم؛ فيرون العقل وسيلة.

أما الْحَقائق نفسها عَنْد الْعِلْم الْحَدِيث؛ فهي فِي الكون خارجَ النفس وخارجَ العقل.

كان القدماء لا يرون امتحان الأشياء نفسها ضروريًا، لا يرون امتحان الأشياء ضروريًا لطلب الْحَقيقة.

أما الْمُحْدَثُون؛ فلا يرون سبيلًا للوصول إِلَى الْحَقيقة إلا امتحان الأشياء تحت إشراف العقل.

الْعِلْم الْحَدِيث باختراعاته واكتشافاته قد ولد حين ترك الإنسان مذهب الأقدمين فِي طلب الْعِلْم عَنْ طريق التفكير البحت، وبدأ هو يطلب الْعِلْم عَنْ طريق المشاهدة مع التفكير، وهذا منهج قرآني؛ بل الَّذِي دل عليه هو علماء المسلمين، ومما وضع أسسه: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى؛ لِذَلِكَ كَانَ الدور الأول من أدوار نشوء الْعِلْم الْحَدِيث هو دور مشاهدة تكاد تكون بحته، ليس للتفكير فِيها إلا بقدر ما يضمن صحتها.

فهذه مقارنة بين الْعِلْم القديم والْعِلْم الْحَدِيث.

وأما أدوار النظر الْعِلْمي:

فالدور الأول: هو دور جمع الْحَقائق، دور التجربة والمشاهدة.

ولا بد فِيه من الاستيثاق من صحة الوقائع؛ لأن هذه الوقائع سينبني عليها الْعِلْم بناءه، وسيبني بناءه عليها؛ فلا بد من التأكد من متانة الأساس قبل إقامة البناء.

وصحة الوقائع يستوثق منها عَنْ طريق تكرار المشاهدة فِي الظروف نفسها، فيثبت الظروف التي تحيط وتشمل التجربة، ثم يكررها مرة ومرة ومرة، فإذا حصل على النتائج نفسها؛ فحينئذ يعتمدها، وإذا اختلفت مع تثبيت الظروف المحيطة بالتجربة؛ فهُنَالِكَ خللٌ مَّا.

هذا التكرار؛ إما أن يكون على يد المشاهد الأول الَّذِي شهد الواقعة لأول مرة، يكرر التجربة والمشاهدة ليتأكد هو من صحة الواقعة قبل أن يذيعها على الناس، وإما أن يكون التكرار على يد غير المشاهد الأول من الْعلماء؛ للتثبت من صحة الواقعة إِذَا خامرهم ما

يدعو إِلَى الشك فِيها، أو للبناء عليها فِي أبحاثهم، فكل واقعة من الوقائع الْعِلْمية لا بد أن تثبت من تجارب متعددة فِي ظروف محدودة واضحة.

هذا الدور فِي الْعِلْم يشبه فِي علوم الدين دور جمع الأحاديث من طرق متعددة؛ للاستيثاق من صحتها، ولترتيبها فِي مراتبها.

فالْمُحَدِّثُ يريد أن يستوثق من صحة الْحَدِيث إِلَى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ سيبني على الأحاديث فِي دينه.

العالم الطبيعي يريد أن يستوثق من صحة الواقعة المنسوبة إِلَى الفطرة؛ لِأَنَّهُ سيبني عليها فِي علمه، فهذا أَيْضًا عَنْدنا.

لا جديد!!

اتفاق الروح والطريقة عَنْد علماء الدين الأولين، والْعلماء الطَّبِيعِيِّينَ الْمُحْدَثِينَ مع اختلاف الزمن واستقلال كُلٍّ عَنْ كُلٍّ؛ دليلٌ عملي على أن الطريقة الْعِلْمية هي طريقة قرآنية، ينبغي أن يأنس إِلَيْهِا ويقبل نتائجها رجلُ الدين، وأن الطريقة القرآنية فِي النظر هي الطريقة الْعِلْمية، وينبغي أن يأنس إِلَيْهِا ويقبل نتائجها رجل الْعِلْم.

فهذا هو الدور الأول من أدوار النظر الْعِلْمي، هو: دور جمع الْحَقائق، دور التجربة والمشاهدة.

الدور الثاني: هو فِي دور المشاهدة -كما مر- تجمع الوقائع؛ لَكِن هذه الوقائع إن كَانَت من باب واحد؛ لا بد أن تكون ناشئة عَنْ قانون طبيعي واحد، أو إِذَا شئت: عَنْ سنة من سنن الله واحدة، كما ينبغي أن يَقُول المسلمون.

الْعِلْم يرمي من وراء مشاهداته إِلَى الوصول إِلَى تلك القوانين، كما يسميها الْعِلْم المادي، أو إِلَى السنن التي جعلها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كونه، كما يَقُول المسلمون، فالوقائع المجموعة وإن كَانَت مهمة فِي ذاتها؛ لِأَنَّهَا حقائق جزئية تزداد أهميتها كثيرًا؛ لِأَنَّهَا السُّلَّم الَّذِي يوصل إِلَى القوانين الفطرية، أو الْحَقائق الكلية التي كَانَ من آثارها: تلك الوقائع الفردية، أو إِذَا شئت: التي من صورها: تلك الْحَقائق الجزئية.

فهذه أدوار النظر الْعِلْمي، وهي قرآنية كما تري؛ بل مارسها علماؤنا على نحوٍ من أنحاء الممارسة.

وأما طريق اكتشاف قوانين الفطرة – كما يَقُول الْعلماء الطَّبِيعِيُّونَ -، أو طريق اكتشاف سنن الله فِي الكون – كما ينبغي أن تسمى -؛ فالطريق الوحيد المفتوح أمام الْعلماء لاكتشاف قوانين الفطرة أو سنن الله فِي الكون – كما ينبغي أن نسميها – هو الاجتهاد فِي انتزاع كل قانون من مجموعة الوقائع الصادرة عَنْه.

بعبارة أخرى: من الوقائع التي هي من باب واحد، وذَلِكَ بالاستقراء

إذا كَانَ عدد الوقائع كبيرًا، وكان القانون فِي ذاته بسيطًا، وإما بالتلمس إِذَا كَانَ عدد الوقائع قليلًا، أو كَانَ القانون خفيًا، أو كَانَ أكثر تعقيدًا.

وأمثلة اكتشاف قوانين الفطرة عَنْ طريق الاستقراء هي فِي الْعِلْم كثيرة جدًا؛ خذ منها مثالًا واحدًا:

أن الكِيماوِيِّين حَضَّرُوا مركبات نقية كثيرة، فوجدوا فِي كل حالة أن المركب - مثل ملح الطعام – مهما اختلف مصدره، أو اختلفت طريقة تحضيره؛ فإنه يتركب من نفس العناصر متحدة مع بعضها بنفس النسب فِي الوزن، فاستنتجوا أن هذا قانون طبيعي للمركبات، وسموه: «قانون التركيب الثابت».

ونصه: كل مركب كيماوي يحتوي دائمًا على نفس العناصر بنفس النسب وزنًا.

فهذه الطريقة – وهي طريقة الاستقراء – فِي أمثال هذه المركبات أدت إِلَى وضع هذا القانون.

كل مركب كيماوي يحتوي دائمًا على نفس العناصر بنفس النسب وزنًا.

وصلوا إلى هذا القانون بالاستقراء، أي بالتتبع في النظائر والحالات.

أما طريق التلمس؛ فهو أصعب من هذا كثيرًا، ويراد بهذا الاصطلاح: الاجتهاد فِي الإتيان بتفسير لوقائع القبيل الواحد، بحيث لا تَجِدُّ فِي بابه واقعةٌ، فإذا وفق الْعلماء فِي اجتهادهم هذا، ووصلوا إِلَى تعليل أو تفسير واحد لتلك الوقائع يثبت على الزمن رغم تكاثرها بالبحث والتنقيب؛ حكموا أن ذَلِكَ التعليل أو التفسير قريب من الْحَقيقة الكلية، أو القانون الكلي المنشود؛ إلا أَنَّهُم لا يسمون ذَلِكَ التعليل أو التفسير «قانونًا فطريًا»، إلا إِذَا بلغت الوقائع المفسرة به من الكثرة الكاثرة مبلغًا لا يدع مجالًا للشك فِي عمومية ذَلِكَ التفسير، فينتقل من هذا الاجتهاد إِلَى الاستقرار الَّذِي دل عليه الاستقراء كما فِي الطريقة الأولى؛ لِأَنَّهُ إِذَا انطبق

هذا التعليل، إذا انطبق هذا الاجتهاد على كثير من الوقائع؛ فهذا هو الاستقراء، فإنك بتتبع ذَلِكَ فِي جميع نظائره أو فِي أكثرها تصل حينئذ إِلَى القطع بأنه قانون فطري.

الطريقة العملية التي يسلكها الْعِلْم فِي تلمس قوانين الفطرة من الوقائع المشاهدة تتلخص فِيما يلي:

أولًا: يؤتى بفرض مفصل مقدر على وقائع القبيل الواحد، بحيث يفسرها جميعًا.

ثانيًا: يختبر هذا الفرض عمليًا؛ لينظر: أصحيح هو أم غير صحيح؟

هذا الاختبار ضروري؛ لأن الوقائع تكون فِي الأول قليلة، يجوز تفسيرها بأكثر من فرض واحد، كما يجوز – بل يغلب – ألا يقع الإنسان فِي أولى محاولاته على التفسير الصحيح، والاختبار يكون بجعل هذا الفرض الجديد مقدمة تضم إِلَى حقيقة أخرى معروفة مناسبة، ويركب منهما قياس يؤدي إِلَى نتيجة جديدة بالطبع، فتختبر هذه النتيجة بإجراء تجارب عملية يعرف بها ما إِذَا كَانَت تلك النتيجة منطبقة على الواقع أو غير منطبقة؟

فإذا وجد أَنَّهَا منطبقة؛ ازداد عدد الوقائع المفسرة بالفرض واقعة، وازداد الفرض بذَلِكَ رجحانًا، ولا يزال الفرض يختبر عَنْ هذا الطريق؛ حتى تبلغ الوقائع المفسرة به من الكثرة مبلغًا يجعلنا نرجح كثيرًا صحة هذا الفرض، فنسميه «نظرية».

فتبدأ النظرية بالفرض، ثم يمر بهذه المراحل، فإذا ما رجح ترجيحًا كثيرًا، ورجح رجحانًا كثيرًا؛ سمي «نظرية»، ونستمر فِي امتحان النظرية بنفس الطريقة؛ حتى تبلغ الوقائعُ المفسرة بالنظرية من كثرةٍ مبلغًا يجعلنا نوقن بأنها قانون عام.

فيبدأ بفرض، ثم يصل إِلَى النظرية، ثم يصل بعد ذَلِكَ إِلَى القانون العام.

أما إِذَا لم تؤيد التجربة النتيجة المستنتجة من ذَلِكَ القياس الجديد؛ فإن ذَلِكَ يكون دليلًا على أن الفرض الجديد ليس صحيحًا فِي صورته التي هو عليها.

وعندئذ يحاول الْعِلْم أن يوفق بين النتيجة الجديدة التجريبية وبين الفرض؛ لإدخال تعديل على الفرض، بجعل هذا الفرض يشمل هذه النتيجة الجديدة، فَيُحَوَّرُ ويُعَدَّلُ، فإذا لم يمكن هذا؛ نبذ الفرض، أو نبذت النظرية، وجيء بفرض آخر أو بنظرية أخرى، تختبر بالطريقة نفسها.

واضحٌ أن أي فرض يؤتى به يجب أن يكون قابلًا لهذا التمحيص الْعِلْمي؛ إذ هو الطريق الوحيد للتأكد من صحة الفرض، كما أن من الواضح أن الفرض إِذَا كَانَ قابلًا للتمحيص العملي؛ سينفع نفعه؛ ولو بتأديته إِلَى اكتشاف الْحَقيقة الجديدة التي تكون سَبَبَهَا فِي نبذه.

فمع أننا سنطرحه؛ إلا أَنَّهُ قد أفادنا فِي الوصول إِلَى حقيقة جديدة.

أما الفرض الَّذِي لا يقبل أن يمحص عمليًا عَنْ هذا الطريق؛ فإن الْعِلْم لا يأبه به، ولا ينظر فِيه، وخذ مثالًا توضيحيًا:

«نظريةُ الْفُلُوجِسْتُونْ للاحتراق».

جاء على الْعلماء وقت أساؤوا فِيه تعليل ظاهرة الاحتراق، فظنوها راجعة إِلَى خروج جوهر من الأجسام المحترقة سموه بالْفُلُوجِسْتُونْ، أو بِرُوح النار، قَالَوا: إن الجسم المحترق يخرج منه رُوحُ النار، أو الْفُلُوجِسْتُونْ، فكان كل جسم قابل للاحتراق عَنْدهم عبارة عَنْ ناتج الاحتراق، زائدًا روح النار تلك أو الْفُلُوجِسْتُونْ، حتى العناصر - كالرصاص والحديد - كَانَت فِي رأيهم مركبة من رمادها عَنْد الاحتراق والْفُلُوجِسْتُونْ الَّذِي هو روح النار، فإن لم يكن للاحتراق فِي رأي أعينهم ناتج؛ فالجسم فُلُوجِسْتُونْ صرف؛ كالغازات مثلًا التي لا يتخلف عَنْها رماد ولا هشيم، فيقولون: هذا الجسم فُلُوجِسْتُونْ صرف، روح النار صرفًا.

ورأيهم ذَلِكَ معروف فِي تاريخ الكيمياء بنظرية الْفُلُوجِسْتُونْ.

سادت هذه النظرية عالم الكيمياء حقبة طويلة، وتغلبت فِي الأول على كل صعوبة، أي أمكن الْعلماء فِي الأول أن يفسروا كل ظاهرة طبقًا لهذه النظرية، ففسروا – مثلًا – عدم احتراق الأجسام المعزولة عَن الهواء فِي أوان مغلقة؛ بأن حبسها فِي تلك الأواني حبس للفلوجستون، فلا يجد إِلَى الهواء مخرجًا، فيظل روحًا حائرةً لا تجد للهواء مخرجًا، ولا بد فِي رأيهم للفلوجستون من مخرج إِلَى الهواء قبل أن تتكون بمخرجه النار.

خدمت هذه النظرية الْعِلْم بربطها بين كثير من الْحَقائق المتفرقة، وتنبئها بحقائق لم تكن معروفة من قبل؛ كتنبئها مثلًا بأن رماد بعض المعادن – الَّذِي كَانوا يسمونه فِي ذَلِكَ الوقت «كَلْسًا» –، إِذَا سُخِّنَ مع الفحم أو الخشب؛ عاد معدنًا كما كَانَ؛ «رماد الرصاص»، أو كما قالوا عَنْه: «كَلْسُ الرصاص»، يعود إِلَى رصاص، ورماد النحاس يعود إِلَى نحاس، وهلم جرا.

نحن نعرف الآن أن هذا راجع إِلَى انتزاع الفحم أو الخشب الأكسجين من أكسيد المعدن، فيتحول الأكسيد إِلَى المعدن، ويتحول بعض الفحم أو الخشب إِلَى أكسيد الكربون؛ لَكِنهم كَانوا يفسرون ذَلِكَ بأن الكَلْسَ يسترد من الفحم أو الخشب ما فقده من الْفُلُوجِسْتُونْ أثناء احتراق المعدن، أو بالأحرى: بأن الكلس يسترد من الفحم أو الخشب ما فقده من الْفُلُوجِسْتُونْ أثناء احتراق المعدن، أي أثناء تَكْلِيسِهِ، فيعود رصاصًا أو نحاسًا... إِلَى آخره كما كَانَ.

ظلت هذه النظرية سائدة حتى انتبه الْعلماء إِلَى وجوب استعمال الميزان فِي دراسة الظواهر الكيماوية، وحتى اكتشف الأكسجين فِي عصرِ «لَافْوَازْيَي»، وأثبت لَافْوَازْيَي أن نواتج الاحتراق أثقل دائمًا منها قبل الاحتراق، فِي حينَ أن نظرية الفلوجستون تقضي بأن تكون النواتج أخف من الجسم ما دام الجسم يفقد جوهر الفلوجستون أثناء الاحتراق، فكانت على الضد من النظرية التي كَانَت سائدة.

إِلَى هذا الرجل ترجع تجربة الشمعة الشهيرة، التي أثبت بها أن الشمعة ونواتج احتراق ما احترق منها أثقل من الشمعة كلها قبل أن يحترق منها شيء، وذَلِكَ بأن عادَلَ بين كفتي ميزان، فِي إحدى الكفتين الشمعة، معلقًا فوقها شبكة معدنية تحتوي على قطع من الصودا الكاوية التي من خواصها: أن تمسك ما يمر عليها من بخار الماء وثاني أكسيد الكربون الناتجين من احتراق الشمعة، فلما أشعل الشمعة؛ رجحت كفتها بعد فترة، وشَالَتْ كِفَّةُ الصِّنْجَات، وكان مقتضى فناء الشمعة كلها أو أكثرها - كما يبدو للعين – أن يحدث العكس، أي أن يشيل كفة الشمعة لفقدها روح النار، أو لفقدها الفلوجستون، وترجح كفة الصِّنَج بعد الاشتعال.

فلما أثبت هذا، وأثبت بتجارب أخرى أن الزيادة فِي وزن الجسم أثناء الاحتراق يقابلها نقص فِي وزن أكسجين الهواء، يساوي تلك الزيادة بالضبط، فلما أثبت ذَلِكَ؛ عرف يقينًا أن الاحتراق ليس راجعًا إِلَى فقدان الفلوجستون، ولَكِن إِلَى الاتحاد بالأكسجين، فسقطت نظرية الفلوجستون، رحلت، وحلت محلها الْحَقيقة؛ ولَكِنها ككل نظرية مهمة لم تسقط حتى خدمت الْعِلْم، ومكنته من التقدم فِي طريقه خطوات.

وبعد؛ فإن طريقة الْعِلْم فِي تعرف أسرار الفطرة، والاهتداء إِلَى سنن الله فِي الكون تضمن الوصول إِلَى الْحَقّ فِي القريب أو البعيد، وإن استعانت على ذَلِكَ بفرض الفروض؛ لَكِن لا

خوف قط على الْحَقيقة من هذه الفروض ما دام الْعِلْم يطبق فروضه على الواقع، ويمحصها بالتجربة والاختبار، فهذه الطريقة فِي الواقع هي طريقة الْعِلْم فِي الاجتهاد، وبينها وبين طريقة اجتهاد المجتهدين فِي الدين يَسْتَوْحُون الْحَقيقة من كلام الله وحديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ.

فبين عمل المجتهدين بالنظر فِي الآيات والأحاديث، وطرق الاستنباط، وما وصل إِلَيْهِ الْعِلْم الْحَدِيث؛ بينهما صلة واضحة، فكل فِي الْحَقيقة مرجعه إِلَى الله، وإن لم يصل رجال الْعِلْم بعد إِلَى الله؛ ولَكِن رجال الدين – أعني العلماء – هؤلاء هم الَّذِينَ يعرفون الله، وأما علماء الطبيعة الَّذِينَ يبحثون فِي أسرار المادة؛ فأكثرهم لا يعرف الله عز وجل.

كل فِي حكم الدين نفسه مرجعه إِلَى الله؛ إذ إن هذه الْحَقائق الطبيعية التي يكشف عَنْها الْعِلْم ببحوثه، إن هي إلا نوع من كلمات الله، هي أسرار المادة التي أودعها الله فِيها، التي أودعها الله رب العالمين فِي المادة، فالْعلماء يتعاملون مع ذَلِكَ، هي الكلمات النافذة الواقعة كما أن آيات القرآن هي كلمات الله الصادقة المنزلة.

فمن هذا كله ترى أن الَّذِي وصل إِلَيْهِ الناس فِي الْعِلْم المادي هو قرآني بطبيعته، هو مما أسسه القرآن ووضع أصوله؛ بل وسار عليه كثير من علماءنا الَّذِينَ بحثوا فِي مسائل المادة، وتعاملوا مع قوانينها حتى اختُطِفوا من الطريق من أوله، لا من منتصفه، بكيد الكائدين ومكر الماكرين، وما وقع بين الأمة من الخلاف العقدي والخلاف المذهبي حتى صارت شيعًا، يقتل بعضها بعضًا، ويسبي بعضها بعضًا، كما أخبر عَنْ ذَلِكَ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: "وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا؛ حتى يكون بعضها يقتل بعضًا، وحتى يسبي بعضها بعضًا "، فصُرِفوا عن هذا، وتقدم الآخرون، وحازوا ما حازوه تأسيسًا على وضعنا أصوله وأسسه، ثم فِي المنتهى أوصلهم هذا الَّذِي وصلوا إِلَيْهِ، لا لِأَنَّهُ يوصل إِلَى ذَلِكَ، ولَكِن لِأَنَّهُم أساؤوا استعماله، ولم يتعاملوا معه كما ينبغي أن يتعامل معه، فأوصلهم إِلَى إنكار وُجُود الخَالِق الْعَظِيم!!

وأما الْعلماء من المسلمين؛ فإنهم مهما وصلوا إِلَى شيء من أسرار المادة؛ فإن ذَلِكَ يزيدهم خشية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إنما يخشى اللهَ من عباده الْعلماءُ».

«العقيدة فِي الله» فيها مبحث عَنْ أن المخلوق لا بد له من خالق:

يحتجّ القرآن على المكذّبين المنكرين بحجة لا بدّ للعقول من الإقرار بها، ولا يجوز فِي منطق العقل السليم رفضها؛ قال تعالى: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)» [الطور: ٣٥-٣٦].

يقول لهم: أنتم موجودون، هذه حقيقة لا تنكرونها، وكذَلِكَ السماوات والأرض موجودتان بلا شك.

تقرر فِي العقول أنّ الموجود لا بدّ من سبب لوجوده، فهذا يدركه راعي الإبل فِي الصحراء، يقول: " البعرة تَدُلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير، سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا يدُلّ ذلك كله على العليم الخبير؟!! ".

فهذا يعرفه راعي الإبل، من أكلة الشيح والقيصوم، من الذين يبولون على أعقابهم!!

ويدركه كبار الْعلماء الباحثين فِي الحياة والأحياء.

وهذا الَّذِي أشارت إِلَيْهِ الآية هو الَّذِي يعرف عَنْد الْعلماء باسم: (قانون السببية).

هذا القانون يَقُول: إن شيئًا من الممكنات لا يحدث بنفسه من غير شيء؛ لِأَنَّهُ لا يحمل فِي طبيعته السبب الكافي لوجوده، ولا يستقل بإحداث شيء، فلا يحدث هو بنفسه من غير شيء، ولا يستقل هو بإحداث شيء؛ لِأَنَّهُ لا يستطيع أن يمنح غيره شيئًا لا يملكه هو.

وخذ هذا المثال لتوضيح ذلك القانون:

منذ سنوات تكشفت الرّمال فِي صحراء الربع الخالي إثر عواصف هبت على المنطقة عَنْ بقايا مدينة كَانَت مطموسة تحت الرمال، فأخذ الْعلماء يبحثون عَنْ محتوياتها، ويحاولون أن يحققوا العصر الَّذِي بنيت فِيه تلك المدينة، ولم يتبادر إِلَى ذهن شخص واحد من العلماء أو من غيرهم أن هذه المدينة وجدت بفعل العوامل الطبيعية التي أحاطت بها من الرياح والأمطار والحرارة والبرودة، لا بفعل الإنسان.

لو قَالَ بذَلِكَ واحد، وقال: إنما وجدت بفعل العوامل الطبيعية من الرياح والأمطار والحرارة والبرودة، لا بفعل الإنسان؛ لعده الناس مخرّفًا يستحقّ الشفقة والرحمة؛ فكيف لو قَالَ شخص ما: إنّ هذه المدينة تكونت فِي الهواء من لا شيء فِي الأزمنة البعيدة، ثم رست على الْأَرْض؟

هذا القول لا يقلّ غرابة عَنْ سابقه؛ بل يفوقه.

لماذا؟

لأنّ العدم لا يوجد شيئًا.

هذا أمر مقرر فِي بداهة العقول، ولأن الشيء لا يستطيع أن يوجد نفسه.

المدينة على النحو الَّذِي نعرفه لا بد لها من موجد، والفعل يَشِي ويعرف بصانعه، يشي بصاحبه ويُعَرِّفُ به؛ فلا بدّ أن تكون المدينة صناعة قوم عقلاء، يحسنون البناء ويجيدون التنسيق.

ولو رأينا إنسانًا انتقل من أسفل بناية إِلَى أعلاها؛ فإننا لا نستنكر ذَلِكَ.

لو وجدنا إنسانًا في ساحة المسجد، ثم بعد ذلك رأيناه فوق سطح المسجد؛ فإننا لا نستنكر ذَلِكَ؛ لأنّ الإنسان لديه القدرة على ذَلِكَ، لأن الإنسان له القدرة على أن يصعد إلى أعلى المسجد، فهذا مما يستطيعه.

لكن لو رأينا حجرًا كَانَ فِي ساحة المسجد، ثم رأيناه قد انتقل أو نقل إِلَى أعلاه؛ فإنّنا نجزم بأنّ هذا الحجر لم ينتقل بنفسه، لا بدّ من شخص رفعه ونقله؛ لأنّ الحجر ليس لديه خاصة الحركة والصعود، فلا يمكن أن يصعد بنفسه، فلا بد من أن أحدًا رفعه وصعد به.

والغريب أنّ الناس يجزمون بأنّ المدينة لا يمكن أن توجَد من غير موجد، ولا يمكن أن تبني نفسها، الغريب أن الناس يجزمون بأنّه لا بدّ للحجر من شخص صعد به إِلَى أعلى البناية؛ ولَكِن يوجد فِيهم مع ذلك من يجيز أن يصنع الكون كله من غير صانع، وأن يوجد الكون كله من غير موجد!! مع أنّ بناء الكون أشدّ تعقيدًا وأعظم خلقة؛ «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ» [غافر: ٥٧].

لَكِن المنكرين عَنْدما يواجهون بذَلِكَ المنطق العلمي الذي يخاطب العقل، ويستحوذ على طاقاته، حتى ينفذ إلى القلب؛ فإنهم لا يستطيعون إلا أن يقروا إلا إذا كابروا.

لا يملكون إلا الإقرار، إلا مع المكابرة؛ فإنه ينكر ويَلِجُّ في إنكاره!!

هذا الدليل الذي مر – وهو مما سماه الْعلماء بقانون السببية - كَانَ علماء الإسلام وما يزالون يواجهون به – أي بهذا القانون - الجاحدين؛ فهذا أحد الْعلماء - قَالَ العلامة ابن عثيمين رحمه الله تعالى: أَظنُهُ أبا حنيفة، وكان من أذكى الْعِلْماء (كذا قَالَ)، وهو أبو حنيفة رحمه الله -،

قال له بعض الزنادقة المنكرين للخالق: إنه لا يؤمن بوجود خالق للكون – وكان قد وعده موعدًا ليلقاه فِيه مع مجموع من أُولَئِكَ المنكرين من السُّمَّنِيَّةِ، وهم قوم ينكرون وُجُود الخَالِق الْعَظِيم على نحلة من نحل الهنود، فاتعدوا على اللقاء فِي موضع فِي وقت عينوه، فتأخر أبو حنيفة، فلما جاء قَالوا: أهكذا يفعل علماء المسلمين؟! أبهذا يأمرهم الدين؟! يعني: لقد أخلفت الموعد وتأخرتَ؛ قليلًا أو كثيرًا، فقال: وما أصنع؟! إني عندما أردت أن آتيَ رأيتُ سفينةً مشحونةً بالأحمال، مملوءة من الأنفال، قد احتوشتها فِي لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهي بين تلك الرياح والأمواج تجري مستوية، ليس لها ملاح يُجريها، ولا متعهد يدفعها، فتأخرتُ لذلك.

قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل!

مجنون أنت؟!!

سفينة تجري في البحر بغير ملاح ولا رُبَّان؟!

فقال: سبحان الله، إذًا لم يجز فِي العقل سفينة تجري فِي البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر؛ فكيف يجوز قيام هذه الدّنيا على اختلاف أحوالها، وتغيّر أعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع ولا حافظ؟!

فأقروا وسلَّموا.

هذا القانون – وهو قانون السببية - سلمت به العقول وانقادت له، وهو الَّذِي أشارت إِلَيْهِ الآية الكريمة: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)»[الطور: ٣٥]، وهو دليل يُرغم العلماء على التسليم بأنّ هُنَاكَ خالقًا معبودًا، إلا أن الآية صاغته صياغة بليغة مؤثرة، فلا تكاد الآية تلامس السمع حتى تزلزل النفس وتهز القلب.

روى البخاري فِي صحيحه بسنده عَنْ جبير بن مطعم قَالَ: " سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ فِي المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)»[الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير".

قال البيهقي:

قَالَ أبو سليمان الخطابي: " إنما كَانَ انزعاجه عَنْد سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، فاستدركها بلطيف طبعه، واستشف معناها بزكي فهمه... ".

لأنه لم يكن قد أسلم بعد، فهذا هو ما سمعه أول ما دخل المدينة؛ لكي يكلم النبي صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر، وكانت قريش قد أرسلته رسولًا يفاوض الرسول صلى الله عليه وسلم.

اختار الخطابي فِي معنى: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»:

" وجدوا من غير خالق، وذَلِكَ ما لا يجوز أن يكون؛ لأنّ تعلق الخلق بالخَالِق من ضرورة الأمر، فلا بدّ له من خالق، فإذا أنكروا الإله الخَالِق؛ لم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم، أفهم الخَالِقون لأنفسهم؟!! وذَلِكَ فِي الفساد أكثر، وفي الباطل أشد؛ لأنّ ما لا وُجُود له؛ كيف يجوز أن يكون موصوفًا بالقدرة؟!

وكيف يخلق؟!

وكيف يتأتى منه الفعل؟!

وإذا بطل الوجهان معًا؛ قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا؛ فليؤمنوا به.

ثم قَالَ: «أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)»، وذَلِكَ شيء لا يمكنهم أن يدّعوه بوجه، فهم منقطعون، والحجة قائمة عليهم".

وهذا الَّذِي قرر الخطابي رحمه الله أن الكفار لا يمكن أن يدعوه؛ فائدة ذكره والسؤال عَنْه: قطع اللَّجاج والخصام؛ إذ قد يوجد جاحد معاند مكابر يَقُول: "أنا خلقت نفسي"، كما زعم مثيلٌ له من قبل بأنه يحي ويميت؛ «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ». [البقرة: ٢٥٨].

فماذا كَانَ الجواب؟

سؤال آخر أبان عجزه، وأَكْذَبَهُ فِي زعمه الأول؛ «قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ»، فكانت النتيجة: «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)». [البقرة: ٢٥٨].

هَبْ شخصًا قَالَ: " أنا خلقت نفسي "؛ كمثل هذا الذي قال: «أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ»!!

فيأتي بذلك مكابرة وعنادًا.

فيقال له حينئذ: أخلقتَ السماوات والأرض؟!

فهل يستطيع أن يزعم أنه خلق السماوات والأرض؟!

فإذا كَانَ العدم لا يُوجِد سماءً ولا أرضًا، وإذا كَانَت السماء والأرض لم تُوجِدَا نَفْسَيْهِمَا، وإذا كَانَ هَؤُلَاءِ لا يستطيعون الادِّعَاءَ بأنّهم أوجدوا ذَلِكَ كله؛ فإنّه لا بدّ له من موجد، وهذا الموجد هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

طاقة البشر وطبيعة المخلوق أعجز من أن تحصي مراحل الأَسْبَاب مرحلةً مرحلةً، وأن تتابع سلسلتها حلقةً حلقةً، حتى تشهد بداية العالم، لِذَلِكَ يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء، وأعلنت عدولها عَن هذه المحاولة، وكان قُصَارَاها أن تخطو خطواتٍ معدودةً إِلَى الوراء، تاركةً ما بعد ذَلِكَ إِلَى ساحة الغيب التي يستوي فِي الوقوف دونها الْعلماءُ والجهلاءُ.

فلا بدّ للعقل من الاعتراف؛ لَكِنَّ هذا اليأسَ الإنساني من معرفة أطوار الكائنات تفصيلًا فِي ماضيها ومستقبلها، يقابله يقين إجمالي ينطوي كُلُّ عقل على الاعتراف به؛ طوعًا أو كرهًا، وهو أَنَّهُ مهما طالت الأَسْبَاب الممكنة التي قَالَ عَنْها الْفَلَاسِفَة المتقدمون: «العلل»، يَقُولون: حتى نصل إِلَى علة العلل، أو سبب الأَسْبَاب!!

فمهما طالت الأَسْبَاب الممكنة، وسواء أَفُرِضَت متناهية أو غير متناهية؛ فلا بدّ لتفسيرها وفهمها ومعقولية وُجُودها من إثبات شيء آخر يحمل فِي نفسه سبب وُجُوده وبقائه، بحيث يكون هو الأول الْحَقيقي الَّذِي ليس قبله شيء، وإلا لبقيت كلّ هذه الممكنات فِي طيّ الكتمان إن لم يكن لها مبدأ ذو وُجُود مستقل، كما مر عَنْد ذكر أحكام الممكن؛ لأنه يستوي فِي حقه الوجود والعدم، فمن قَالَ: إنَّهُ وجد بغير موجد؛ فقد رجح أحد المتساويين بلا مرجح، وهذا غير مقبول.

إذًا؛ فإذا وجد هذا الممكن الَّذِي يستوي فِي حقه الوجود والعدم؛ فمن الَّذِي أعطاه الوجود؟

من الذي أوجده؟

لا بد أن وُجُوده من غيره.

يستحيل عقلًا أن يكون غيره مثله؛ لِأَنَّهُ يكون حينئذ محتاجًا لمن يعطيه وُجُوده أَيْضًا، وهو فاقد للوجود الْحَقيقي؛ فكيف يعطيه غيره؟!

فلا بد أن نصل فِي النهاية إِلَى موجِد؛ وُجُوده لذاته من حيث هي، والعدم مستحيل عليه، فذاته يستحيل عليها العدم، فوجوده لذاته من حيث هي.

الله عز وجل هو الَّذِي أوجد الموجودات، خلق المخلوقات؛ «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥»).

خُلِقُوا مصادفةً؟!!

وقد مر أن المصادفة لها قانون، والمصادفة بقانونها بالنسبة للخلق مستحيلة الوقوع، كما مر ذكر ذَلِكَ بالدليل الرياضي.

إذًا؛ خلقوا أنفسهم؟!!

هذا لا يقبله العقل.

فبقي الفرض الثالث، هو: أَنَّهُ خلقهم غيرهم؛ ممن وُجُوده لذاته من حيث هي.

فنسأل الله تبارك وتعالى أن يحفظ علينا يقيننا، وأن يزيدنا يقينًا وعلمًا، إنه تعالى على كل شيء قدير.

وننظر بعد ذَلِكَ إن شاء الله جَلَّ وَعَلَا فِي أدلة وُجُود الله تعالى، وقد مر أن وجود الله تبارك وتعالى أظهر من أن يحتاج إلى دليل؛ ولكنْ هذه المجالس إنما هي لقطع شبهات الملحدين الذين ينكرون وجود رب العالمين، فلذلك يسوغ أن نأتي بتلك الأدلة؛ من أجل التعامل مع أمثال هؤلاء.

نسأل الله تبارك وتعالى ألا يُزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يثبتنا على الحق الذي هدانا إليه.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«المُحَاضَرَةُ السَّادِسَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الْعلماء ذكروا طرقًا كثيرة، وأثبتوا بأدلة عديدة وُجُود الله تبارك وتعالى، والحق أن الفطرة وحدها تكفي لإثبات وُجُود الله رب العالمين؛ ولَكِن الفطرة قد تنحرف، وقد يصيبها من الغبش ما يصيبها، مما تَلَقَّاه المرء من شياطين الإنس والجن، من بيئته، من قراءاته، من نظره على حسب ما يدله عقله وحسه، إِلَى غير ذَلِكَ؛ فهذا كله قد يحرفه عَنْ الْحَقّ وعن الصراط المستقيم.

ولقد دل على وُجُود الله تعالى أمور؛ هي: الفطرة.

وكل مخلوق قد فُطِرَ على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عَنْ مقتضى هذه الفطرة إلاَّ من طرأ على قلبه ما يصرفه عَنْها؛ لقول النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ في

الصحيحين من رواية أبي هريرة رضي الله عنه: (ما من مولود إلا يولدُ على الفطرة، فأبواهُ يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه).

فالفطرة أول الأدلة على وجود الله جل وعلا.

والعقل:

ودلالة العقل على وُجُود الله تعالى؛ لأن هذه المخلوقات سابقها ولاحقها، لابد لها من خالق أوجدها، إذ لا يمكن أن توجد بنفسها من نفسها؛ ولا يمكن أن توجد صدفة.

فلا يمكن أن توجد نفسها بنفسها؛ لأن الشيء لا يخلقُ نفسه؛ لِأَنَّهُ قبل وُجُوده معدوم؛ فكيف يكون خالقًا؟!

ولا يمكن أن توجد صدفة؛ لأن كل حادث لابد له من محدث، ولأن وُجُودها على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط المتلاحم بين الأَسْبَاب ومسبباتها، وبين الكائنات بعضها مع بعض؛ يمنعُ منعًا باتًّا أن يكون وُجُودها صدفة، إذ الموجود صدفة ليس على نظام فِي أصل وُجُوده؛ فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره؟!

وإذا لم يمكن أن توجد هذه المخلوقات من نفسها، بمعنى أن توجد نفسها، ولا أن توجد صدفة؛ فقد تعيَّن أن يكون لها موجد، وهو الله رب العالمين.

قد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي، والبرهان القطعي في سورة الطور، فقال جل وعلا: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ) [سورة الطور: ٣٥].

يعني: أَنَّهُم لم يُخْلَقُوا من غير خالق، ولا هم الَّذِينَ خلقوا أنفسهم؛ فتعين أن يكون خالقهم هو الله جل وعلا؛ ولهذا لما سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يقرأ في صلاة المغرب سورة الطور، فبلغ هذه الآيات: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ)؛ قَالَ: (كاد قلبي أن يطير، وذَلِكَ أول ما وقر الإيمان فِي قلبي).

والحديث أخرجه البخاري في «الصحيح».

وهذا مثال يوضح ما مر:

لو حدَّثك شخص عَنْ قصرٍ مشيَّد، أحاطتْ به الحدائق، وجرت بينها الأنهار، ومُلئ بالفرش والأسِرَّة، وزُيِّن بأنواع الزينة من مقوماته ومكملاته، وقال لك: إنَّ هذا القصر وما فِيه من

كمال قد أوْجد نفسه، أو وُجِد هكذا صدفة بغير مُوجد؛ لبادرت إِلَى إنكار ذَلِكَ وتكذيبه، وعددت حديثهُ سفهًا من القول؛ أفيجوز بعد ذَلِكَ أن يكون هذا الكون الواسع: بأرضه، وسمائه، وأفلاكه، وأحواله، ونظامه البديع الباهر، قد أوجَدَ نفسه، أو وُجد صدفة بغير موجد؟! إن الَّذِينَ أنكروا وُجُود الله تبارك وتعالى؛ أنكر الله عليهم أن يكونوا خلقوا بلا خالق؛ «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ»؛ لضرورة أن الأثر يحتاج فِي حدوثه إِلَى مؤثر، كما شهد بذَلِكَ العقل والفطرة والحس، فأنكر أن يكونوا خالقين لأنفسهم لما يلزمه من التناقض، وأنكر أن يكونوا خالقين للسماوات والأرض؛ لشهادة تاريخ وُجُود الأمم والكونيات الأخرى بأن خلق السماوات والأرض قد كَانَ قبل خلق ما بينهما من الإنس والجن ونحوهم، فالسماوات والأرض وجدت قبل الإنسان؛ فكيف يكون خالقًا لها وقد وجد بعدها؟!

وكيف يخلق المتأخر فِي الوجود شيئًا قد سبقه وتقدم عليه؟!

قال الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله فِي «مذكرة التوحيد»:

وقد أخذ جماعة من الْعلماء هذا الدليل الخبري العقلي، وأدخلوا عليه شيئًا من التكلف والصناعة الكلامية، فقالوا: إن نسبة الممكن إِلَى طرفيه: «الوجود والعدم» على السواء، فلو وجد بدون سبب خارج عَنْ ذاته وحقيقته؛ لزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح، ولو أوجد نفسه؛ لزم مع ذَلِكَ أن يكون متقدمًا على نفسه باعتباره خالقًا لها، متأخرًا عَنْها باعتباره مخلوقًا لها، وتقدم الشيء على نفسه وتأخره عَنْها باطل بالضرورة؛ لما فِيه من التناقض الواضح، فثبت أن العالم لا بدّ له من مُوجد غيرِ ذاته وحقيقته، ولا بد أَيْضًا أن يكون واجب الوجود لذاته مختلفًا عَنْ العالم فِي خواصه وصفاته؛ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»؛ ذَلِكَ ليصح أن يستند إِلَيْهِ العالم فِي وُجُوده بدءًا ودوامًا؛ إذ لو كَانَ مستحيلًا لَمَا صح أن يكون منه خلق أو تقدير؛ لأن المستحيل عدم محض، وفاقد الشيء لا يعطيه، ولو كَانَ ممكنًا؛ لافتقر إِلَى من يرجح وُجُوده على عدمه كما سبق بيانه، فإن استمرت الحاجة، فاستند كلٌّ فِي حدوثه إِلَى نظير له من الممكنات؛ لزم إما الدور القَبْلِي، وإما التسلسل فِي المؤثرات، وكلاهما باطل باتفاق العقلاء.

وإذا انتفى عَنْه الإمكان والاستحالة؛ ثبت له وجوب الوجود لذاته؛ لضرورة أن أقسام الحكم العقلي ثلاثة: «الوجوب، والإمكان، والاستحالة»، وقد انتفى اثنان، فتعين الثالث، وهو وجوب الوجود، قَالَ تعالى: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، وفي الْحَدِيث: «اللَّهُمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء».

الحديث أخرجه مسلم فِي «الصحيح».

ذكر العلامة عبد الرزاق عفيفي رحمه الله فِي موضع آخر:

من الحكمة من إرسال الرسل: أن توحيد الإلهية، وصرف الهمة إِلَى بيان تفاصيله، وإجمال القول فِي توحيد الربوبية، والاستدلال عليه اكتفاء بشهادة الفطرة وإقرار العباد به، وعلمه بالضرورة؛ ذَلِكَ هو طريقة القرآن ومنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام.

قَالَ رحمه الله:

قال تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا»، إن كَانَ المعنى المراد: لا تخذوا سبيلًا إِلَى عبادته، والقيام بواجب حقه رجاء رحمته وخوف عقابه؛ فالآية فِي توحيد الإلهية؛ كقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا».

وقد استخلص بعض الْعلماء من ذَلِكَ دليلًا سموه «دليل التمانع»، وجعلوا جل همهم: إثبات توحيد الربوبية به، قَالوا: لو جاز أن يكون للعالم ربان يخلقان ويدبران أمر العالم؛ لأمكن أن يختلفا، بأن يريد أحدهما وُجُود شيء، ويريد الآخر عدمه، أو يريد أحدهما حركة شيء، ويريد الآخر سكونه.

عند ذَلِكَ إما أن ينفذ مرادهما، وذَلِكَ محال؛ لما يلزمه من الجمع بين الضدين، وإما أن لا ينفذ مراد كل منهما، وذَلِكَ محال؛ لما يلزمه من رفع النقيضين وعجز كل منهما، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، فيكون الَّذِي نفذ مراده هو الرب دون الآخر لعجزه، والعاجز لا يصلح أن يكون ربًا.

ولو أن هَؤُلَاءِ عنوا بتوحيد الإلهية، وصرفوا همتهم إِلَى بيان تفاصيله، وأجملوا القول فِي توحيد الربوبية، والاستدلال عليه اكتفاء بشهادة الفطرة وإقرار العبادة به، وعلمه بالضرورة، وجعلوا

البحث فِيه وسيلة إِلَى توحيد العبادة ودليلًا عليه؛ لو فعلوا ذلك لكَانُوا بذَلِكَ قد سلكوا طريقة القرآن ومنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فهذا الدليل الَّذِي يَقُولون عَنْه: «دليل التمانع» على هذا النحو الَّذِي مر ذكره، ويستخدمه بعض أهل الْعِلْم فِي إثبات وُجُود الخَالِق ووحدانيته.

مر أن أدلة وُجُود الله تبارك وتعالى: الفطرة، وكذَلِكَ العقل، والنقل؛

فالكتب السَّمَاوِيَّة كُلّها تنطقُ بوجوده تعالى، وما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق؛ دليل على أَنَّهُا من رب حكيم عليم بمصالح خلقه، وما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها؛ دليل على أَنَّهُا من رب قادر على إيجاد ما أخبر به.

فيشهد على وجود الله تبارك وتعالى الفطرةُ، والعقل، والنقل، والحس.

وأدلة الحس على وُجُود الله تعالى من وجهين:

أحدهما: أننا نسمعُ ونشاهدُ من إجابة الداعين، وغوث المكروبين، ما يدلُ دلالة قاطعة على وُجُوده تعالى؛ «وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ» [سورة الأنبياء: ٧٦].

«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ» [سورة الأنفال: ٩].

وعَنْ أنس بن مالك رضي الله عنه فيما أخرج الشيخان؛ قَالَ: أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ الناسَ عَلَى المِنْبَرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ؛ إذ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَلَكَ المَالُ، وَجَاعَ العِيَالُ؛ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ ودعا، فَثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الجِبَالِ، فلَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، وفي الجُمُعَةِ الثانية قَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ أَوْ غَيْرُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ تَهَدَّمَ البِنَاءُ، وَغَرِقَ المَالُ؛ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا»، فَمَا يُشِيرُ إِلَى نَاحِيَةٍ إِلَّا انفَرَجَتْ».

وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا إِلَى يومنا هذا؛ لمن صدق في الدعاء، وأتى بشرائط الإجابة.

فهذا وجه من وَجْهَيْ دلالة الحس على وجود الباري جل وعلا.

الوجه الثاني: أنَّ آيات الأنبياء التي تسمَّى المعجزات، ويشاهدها الناس، أو يسمعون بها؛ هي برهان قاطع على وُجُود مرسلهم، وهو الله جل وعلا؛ لِأَنَّهُا أمور خارجة عَنْ نطاق البشر، يجريها الله تعالى؛ تأييدًا لرسله، ونصرًا لهم.

مثال ذَلِكَ: آية موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه؛ فانفلَق اثنى عشر طريقًا يابسًا، والماء بين الطرق كالجبال؛ قَالَ تعالى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) [سورة الشعراء: ٦٣].

مثال ثانٍ: آية عيسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث كَانَ يحيي الموتى، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله؛ قَالَ تعالى عَنْه: (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ) [سورة آل عمران: ٤٩]، وقال: (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي) [سورة المائدة: ١١٠].

مثال ثالث: لنبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، حين طلبت منه قريش آية، فأشار إِلَى القمر، فانفلق فرقتين، فرآه الناس، وفي ذَلِكَ يقول الله تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) [سورة القمر: ١-٢].

فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله، ونصرًا لهم، تَدُلّ دلالة قطعية على وُجُوده تعالى.

فالإيمان بالله تبارك وتعالى يتضمن أربعة أمور:

الإيمان بوجوده؛ فهذا أول شيء.

والإيمان بربوبيته.

والإيمان بألوهيته.

والإيمان بأسمائه وصفاته.

الإيمان بوجود الله تبارك وتعالى دل عليه الفطرة، والعقل، والنقل، والحس.

وقد نقلت ذلك بمعظمه في «شرح مذكرة التوحيد» من كتاب «رسائل في العقيدة» للعلامة ابن عثيمين رحمه الله تعالى.

فالدليل الأول على وجود الله تبارك وتعالى هو: دليل الفطرة.

في كتاب «العقيدة في الله»:

لم يطل القرآن فِي الاستدلال على وُجُود الله تعالى؛ لأنّ القرآن يقرّر أنّ الفطر السليمة، والنفوس التي لم تتقذر بأقذار الشرك، تُقرّ بوجوده من غير دليل.

ليس كذَلِكَ فقط؛ بل إنّ توحيده سبحانه أمر فطري بدهي؛ «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» [الروم: ٣٠].

هذه الفطرة هي التي تفسر الظاهرة التي لاحظها الباحثون فِي تاريخ الأديان، وهي أنّ الأمم جميعًا - التي درسوا تاريخها - اتخذت معبودات تتجه إِلَيْها وتقدّسها؛ حتى الشيوعيون الَّذِينَ أرادوا أن يتحرروا من عبادة الآلهة بزعمهم؛ عبدوا مؤسس المذهب، فكانوا يمرون أمام جثته الْمُحَنَّطَةِ فِي الميدان الأحمر، فِي ذكرى يوم وفاته، خاضعين حانين رؤوسهم؛ فقد جعلوه إلهًا!!

وبدلًا من أن يعبدوا خالق البشر؛ عبدوا ميتًا من البشر؛ فبعدًا لهم.

ثم هدم القائمون على المذهب الشيوعي مذهبهم، وألقوا جثث قادة المذهب، كما ألقوا عقائدهم وأفكارهم.

فالانسان مفطور على الإقرار بوجود الله تبارك وتعالى؛ حتى إن ذَلِكَ الملحد الَّذِي أُتِي به فِي التلفاز المصري، فِي بعض البرامج مناظرًا، يناظر عَنْ إلْحاده، والذي كَانَ يناظره مقدِّمُ بَرَامِجَ، وهو نصراني مَارُونِيٌّ، من لبنان - فِيما أحسب -.

المهم؛ أن هذا الملحد عَنْدما احتد فِي الكلام، واحتدم النقاش قَالَ: واللهِ!! ـ وأقسم بالله!! ـ، وهو ملحد!!

فأقسم بالله تبارك وتعالى!!

قد يُسْأَلُ هنا: لو كَانَ التوجه إِلَى الله أمرًا فطريًا؛ لَمَا عبد النّاس فِي مختلف العصور آلهة شتى.

فالجواب: أنّ الفطرة تدعو المرء إِلَى الاتجاه إِلَى الخَالِق؛ لَكِن الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف حينما يتجه إِلَى المعبود الحَقّ.

من ذلك: ما يغرسه الآباء فِي نفوس الأبناء، وما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون فِي أفكار الناشئة؛ فإن ذلك يبدّل هذه الفطرة ويُقَذِّرُها، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إِلَى الْحَقيقة.

وأكثر الإِلْحاد فِي هذا العصر بهذا السبب؛ فأكثرهم تلقوا تلك الأفكار الإِلْحادية من البيئة المحيطة بها، وأكثرهم نظر فِي بعض الكتب التي كتبها أهل الضلال، فشَكَّكَتْهُ فِي عقيدته،

فانحرف عَنْ النهج السوي، وصار بعد حين من الْمُلْحِدِينَ، أو على الأقل هو من الشُّكَّاك، لا يستطيع أن يثبت، ولا يستطيع أن ينفي، وهَؤُلَاءِ الشُّكَّاك كُثُر.

كثير من الناس وقع فِي الشك فِي وُجُود الخَالِق تبارك وتعالى؛ لغلبة المدنية الْحَدِيثة بماديتها ولذاتها، وبُعْدِها عما يتعلق بالروح؛ حتى إن رجلًا من مقدَّميهم ذكر أن الإنسان لما دخل المعامل، وخضع للتجارب، يعني فِي كثير من وجوهه، فِيما يتعلق بدمه، وأعصابه، وفضلاته، وإفرازاته، وغير ذَلِكَ؛ فيقرر أننا قد عرفنا كل شيء تقريبًا عَن الإنسان من حيث هو مادة؛ ولَكِننا نجهل كل شيء عَن الإنسان من حيث هو روح.

هذا فِيه كثير من الْحَقّ بالنسبة لما وصلوا إِلَيْهِ، وما هم عليه.

وأما عَنْدنا نحن ـ المسلمين ـ؛ فإن الأمر ليس كذَلِكَ؛ لأن دين الإسلام الْعَظِيم يوازن بين الجسد والروح، يوازن بين طلب الدنيا وطلب الآخرة، كما هو معلوم فِي تعاليم دين الاسلام الْعَظِيم.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ كما مر في الحديث الذي أخرجه الشيخان من رواية أبي هريرة رضي الله عَنْه قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ».

لم يقل: «يُسْلِمَانِه» أي: يجعلانِهِ مسلمًا؛ لأنّه ولد على ذلك، ولد على الفطرة، فالفطرة الإسلام؛ ولكنْ أبواه يحرفانه عن الفطرة التي هي الإسلام، «يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»؛ فالإسلام مُوافِقٌ للفطرة؛ بل الإسلام هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

قد يقال: إِذَا تركنا الطفل من غير أن نُؤثّر فِي فطرته؛ هل يخرج موحدًا عارفًا بربّه؟

فالجواب: إِذَا تَرَكَ شياطينُ الإنسِ البَشَرَ، ولم يدّنسوا فِطَرَهُم؛ فإنّ شياطين الجنّ لن يتركوهم؛ فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بني آدم؛ «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)»[ص: ٨٢-٨٣].

وأُعْطِيَ الشيطانُ القدرةَ على أن يصل إِلَى قلب الإنسان، كما فِي الْحَدِيث الذي أخرجه مسلم في «صحيحه»: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا»، أَوْ قَالَ «شَيْئًا».

والقرآن وصف الشيطان المطلوبَ الاستعاذةُ منه بأنّه «يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ» [الناس: ٥]، وقد صح أَيْضًا أنّ لكل إنسان قرينًا من الجنّ يأمره بالشرّ ويحثه عليه، وفي القرآن العظيم: «قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) [ق: ٢٧].

ولا يتخلص المرء من هذا إلا بالالتجاء إِلَى الله جل وعلا؛ «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦»)[الناس: ١-٦].

وشياطين الجنّ يقومون بدور كبير فِي إفساد الفطرة وتدنيسها، وعند مسلم في «الصحيح» من رواية عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ، فكان مما جاء فِي خُطْبَتِهِ: " أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عبادي حَلَالٌ – و"نَحَلْتُهُ" أي: منحتُه -، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا".

فشياطين الجن يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتقذيرها، كما أن شياطين الإنس يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتدنيسها؛ ولكنْ تنكشف الْحُجُبُ عَنْ الفطرة عندما تُدْرِكُ المرءَ المصائبُ، فتصفي حينئذ جوهر فطرته، فتزول عَنْ فطرته الغشاوة التي رانت عليها عَنْدما يصاب المرء بمصاب أليم، أو يقعُ فِي مأزِقٍ لا يجد فِيه من البشر عونًا، ويفقد أَسْبَاب النجاة.

كم من ملحد عرف ربّه وآب إِلَيْهِ عَنْدما أحيط به؟!!

وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرّ نزل به؟!!

«حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢») [يونس: ٢٢].

فكم من مشرك أخلص العبادة لله والتوحيدَ لوجهه الكريم عَنْد نزول المصيبة به؟!!

وكم من ملحد لما أحيط به؛ أقر واعترف بوجود خالقه وإلهه؟!!

وإنك لتسمع؛ كيف آب ركاب طائرة مثلًا إِلَى ربّهم جل وعلا عَنْدما أصاب طائرتهم خلل، فأخذت تهتز وتميل، وتتأرجح فِي الفضاء، الطيار لا يملك من أمره شيئًا؛ فضلًا عَنْ ركاب الطائرة؛ فهُنَالكَ يختفي الإِلْحَاد، وتضجّ الألسنة بالدّعاء، وترغب القلوب إِلَى ربها بالصدق والإخلاص، ولم يبق للشرك والإِلْحَاد حينئذ وُجُود فِي مثل هذا الموقف العصيب.

العرب الَّذِينَ دعاهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ كانوا مقرّين بوجود الله، وأنّه الخَالِق وحده للكون، كما كانوا يقرّون بأنّه وحده الرازق المحيي المميت؛ ولَكِنهم كانوا يبعدون غيره معه، ولا يخلصون دينهم لله وحده، فلم يكونوا ملحدين، وإنما كانوا وَثَنِيِّين، يعبدون مع الله تبارك وتعالى غيره، أو يعبدون غير الله تبارك وتعالى؛ ولَكِنهم يثبتون خالقًا للكون، ورازقًا للخلق، ومدبرًا للأمر.

وأما الملحد؛ فإنه ينكر ذَلِكَ كلّه، ينكر أن يكون للخلق خالقًا، وللوجود موجدًا، وللصنعة صانعًا.

فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ لم يجادلهم فِي وُجُود تبارك وتعالى؛ لِأَنَّهُم كانوا مقرين به، والقرآن كذَلِكَ، لم يصرف كثيرًا من الوجوه القرآنية فِي إثبات ذَلِكَ لِأَنَّهُم ينكرونه، فهم كانوا يقرون به؛ وإنما اتخذ إقرارَهم بوجود الله تبارك وتعالى وسيلةً لِجَعْلِهِمْ يقرون بتوحيد الألوهية لله رب العالمين.

فوجود الله تبارك وتعالى تقره الفطرة السليمة.

ولِذَلِكَ كما قَالَ ابن أبي العز رحمه الله تعالى فِي «شرح الطحاوية»:

التَّوْحِيدُ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ؛ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ: «شِهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، لَا النَّظَرُ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَى النَّظَرِ، وَلَا الشَّكُّ، كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لِأَرْبَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ.

الذين قَالوا: إن أول واجب هو النظر هم الأشاعرة، كما ذكر ذَلِكَ الباقلانيُّ فِي «الإنصاف».

الذين قَالوا: إنهُ القصد إِلَى النظر هُمْ: الجويني ومَنْ أَخَذَ بقوله، كما ذُكِرَ فِي «الإرشاد».

وأما القول بأنه الشك؛ فهذا مذهب المعتزلة، كما قرره القاضي عبد الجبار فِي «الأصول الخمسة».

أَرْبَابُ الْكَلَامِ الْمَذْمُوم ذهبوا إِلَى أن معرفة الله تعالى كَسْبِيَّةٌ نظرية، فأوجبوا النظر، أو القصد إِلَى النظر، أو الشك؛ على اختلاف فرقهم كما مر.

وهذا كله مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف؛ من أن أول واجب على العبيد: عبادة الله، وأن معرفة الله تعالى حاصلة ضرورة فِي كل إنسان بفطرته التي فطره الله عليها، كما قَالَ شيخ الإسلام رحمه الله فِي «درء تعارض العقل والنقل»؛ فإن الخلق كلهم؛ مؤمنهم وكافرهم يلجؤون إِلَى الله تعالى حالة الشدة والكرب، وذَلِكَ يدل على أن الخلق كلهم على اختلاف أديانهم مفطورون على معرفة الله سبحانه، والإقرار به؛ ولَكِنْ قد يصيب الفطرةَ ما يحرفها عَنْ الصراط المستقيم، فتحتاج حينئذ إِلَى النظر؛ لأن الأصل أن معرفة الله يقينية ضرورية، ليست بكسبية ولا نظرية، يعني لا يحصلها العقل، وإنما يقر بها القلب، جعلها الله رب العالمين فطرية ضرورية، ليست بكسبية ولا نظرية؛ ولكن قد يشك الإنسان فِي هذه الْحَقيقة الكبرى؛ بل حقيقةِ الْحَقائق، فيحتاج حينئذ إِلَى النظر.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «مجموع الرسائل الكبرى»:

الصحيح أَنَّهُا فطرية ـ يعني: معرفة الله تعالى ـ ؛ ولَكِن قد يعرض للفطرة ما يُفسِدها، فتحتاج حينئذ إلى النظر؛ فهي فِي الأصل ضرورية، وقد تكون نظرية.

وهذا ما نحن فِيه، نحن لا نحاول إثبات ما هو ثابت؛ فإن المؤمن يقر بفطرته بوجود الله تبارك وتعالى، لا يحتاج إلى دليل فوق فطرته؛ ولَكِن قد تتلوث الفطرة، وقد تنحرف، فيحتاج حينئذ إِلَى النظر، يعني إِلَى الدليل، سواء كَانَ دليلًا عقليًا، أو كَانَ دليلًا يُنَبَّهُ عليه الحسُّ، أو يُلْفَتُ إِلَيْهِ بما عليه الإنسانُ فِي فطرته الأصلية، إِلَى غير ذَلِكَ؛ كما يحدث إِذَا ما أصاب الإنسانَ كربٌ؛ فإنه حينئذ يعود إِلَى فطرته، يعود إلى ما هو مركوز فِي فطرته من المعرفة اليقينية الضرورية بوجود الله رب العالمين.

فقد يحتاج الإنسان إلى التنبيه إلى ذلك عندما تفسَدُ فطرته، كما هو الواقع عند كثير من الناس في هذا الزمان الذي تكالبت فيه على المسلمين وغيرِهم شياطينُ الإنس والجن، تزيِّنُ لهم الإلحاد والشك في وجود الله تبارك وتعالى، فيحتاجون إلى أمثال هذه الأدلة العقلية؛ من

أجل تثبيت الإيمان عند المؤمن؛ حتى لا يدركه شك، ومن أجل إقامة الحجة على الملحد الذي قد نَفَى وجود الله تبارك وتعالى.

ذهب عامة السلف إِلَى أن معرفة الله تعالى فطرية ضرورية، وذهب جمهور المتكلمين من المعتزلة ومَنْ تَبِعَهُم من الشيعة الإمامية والزيدية والأشاعرة والماتريدية إِلَى أن معرفة الله جَلَّ وَعَلَا كسبية نظرية.

وقد حكى الإجماعَ على أَنَّهَا فطريةٌ ضروريةٌ ابنُ أبي العز فِي «شرح الطحاوية» فقال:

أَئِمَّةُ السَّلَفِ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْعَبْدُ: «الشَّهَادَتَانِ».

لأنه مركوز في فطرة العبد أن الله عز وجل موجود، فهو لا يحتاج إلى إقامة دليل على ذلك، لا يحتاج إلى النظر، ولا إلى قصد النظر؛ فضلًا عن أن يحتاج إلى الشك في وجود الله تبارك وتعالى، ثم بعد ذَلِكَ يُثْبِتُ وُجُودَ الله بالدليل العقلي حتى لا يكون مقلدًا؛ لِأَنَّهُم قَالَوا: لو أن الإنسان نشأ فِي بيئة نظيفة، فِي وسط قومٍ مسلمينَ مُوَحِّدِينَ برب العالمين، فخرج موحدًا؛ يَقُولون: هذا مقلد، وإيمان المقلد لا يصح!! وهذا من أعجب العجب؛ فماذا تريدون؟!!

يَقُولون: لكي يصح إيمانه؛ ينبغي عليه أن يشك فِي وُجُود الله أولًا، ثم عليه أن يجتهد بعد ذَلِكَ فِي إثبات وُجُود الله بالطريقة الكسبية النظرية!!

وهذا على الضد مما عليه الفطرة الإنسانية.

فالحمد لله الَّذِي هدانا من هذه المضائق كلها، ونسأل الله أن يديم علينا فضله، إِنَّهُ على كل شيء قدير، وأن يزيدنا منه.

في كتاب «الوجود الحَقّ» بحثٌ عَنْ السببية.

في هذا البحث: أَنَّهُ منذ امتياز هذا الإنسان بالإدراك، وإشراق أشعة عقله على الوجود تساءل ولا يزال عن مبدئه ومنتهاه، فهو يتساءل: من أين أتى؟

وإلى أين يصير؟

وهو إذ ينصرف فكره إِلَى أن وروده المباشر إِلَى هذا العالم، إنما كَانَ من رَحِمِ أمه، أو من نطفة أبيه؛ لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة دون النظر إِلَى المبدأ الأول، والبحث عَنْ السبب الأساسي التي ترجع إِلَيْهِ جميع الأَسْبَاب.

لهذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية، والذي ولد معها، وما زال يلازمها؛ كَانَ الجواب عَنْ هذا السؤال شُغُلَ المحققين الشاغل، فنشأت أحكام مختلفة ونظريات متباينة، وكان منهم مخطىء ومصيب، غير أننا إِذَا نظرنا إِلَى ما بين أيدينا من السماء والأرض؛ نرى أن المطر ينهمر من سحاب، وأن الثمر يحصل من شجر، وأن الشجر ينبت من الماء والتراب، وأن الماء ينشأ من عُنْصُرَيْ «الْأُكْسُجِينْ وَالْهَيْدُرُوجِين»، ولم يشاهد الإنسانُ منذ فَتَحَ عينيه على الوجود أن حادثًا حَدَثَ من غير سبب، أو أن شيئًا وجد من غير مُوجِد، حتى أضحى هذا المعنى بحكم الواقع القاهر لا يَتَصَوَّرُ العقلُ خلافَه، ولا يطمئن إِلَى غيره، ولا يأبى الإقرارَ به إلا عقلٌ مريضٌ شأنَ المعتوهين، أو عقلٌ قاصرٌ شأنَ الطفل الَّذِي يَكْسِرُ الإناء ثم يَقُول: إِنَّهُ انكسر بنفسه؛ لِأَنَّهُ يخشى العقاب، فإذا قيل له: من كسر هذا؟ يَقُول: هو الَّذِي انكسر!! كسر نفسه!!

ولِذَلِكَ وجدنا ذَلِكَ العربي قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية، فنادى نداءه المشهور: البعرة تَدُلّ على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج؛ أفلا تَدُلّ على الصانع الخبير؟!!

بهذا الواقع الصريح، والإدراك القاهر، وجَرَيَانِ الحوادث أبدًا على هذا القانون ـ يعني: قانون السببية ـ؛ أضحى هذا المبدأ مُسَلَّمًا به؛ حتى فِي كتب الفلسفة، وسمي بمبدأ السببية، وهو أول مبادىء العقل المديرة للمعرفة؛ لِأَنَّهُ أساس الأحكام العقلية والمحاكمات المنطقية، ولو الْتَفَتَّ إِلَى كلماتك التي تخاطب بها الناس صباح مساء، والأحكام التي تنظم بها شؤون حياتك، لو التفتَّ إِلَى ذَلِكَ؛ لوجدته كله لا يخلو فِي أي مرحلة من المراحل من الاستناد إِلَى مبدأ السببية.

إذًا فقولنا: «لا بد لكل حادثٍ مِنْ مُحْدِث» أمرٌ يقينيٌّ مُسَلَّمٌ به، ولا يقبل العقل غيره، وبالتالي مُحَالٌ على حادث أن يحدث نفسه، أو أن يحدث بذاته، وعلى شيء أن يوجَدَ بغير موجد، وإِلَيْهِ الإشارة فِي القرآن الكريم بقوله تعالى: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)».

فبناءً على هذه القاعدة تقول: إن عالمنا هذا مِنْ أرض وجبال، وشجر ودواب، وكواكب وشموس؛ لا بد له من محدث، وأن هذه الحوادث الفرعية الكثيرة مندفعة عَنْ أَسْبَاب - أي ناتجةٌ عَنْها -، وهذه الأَسْبَاب مندفعة عَنْ أَسْبَاب أخرى أقلَّ من الأولى، ولا بد أن نصل بالنتيجة إِلَى سبب لجميع هذه المسبَّبَات، ومُحْدِثٍ لجميع هذه الحَادثات؛ لأننا كلما رجعنا إِلَى

الأصل الَّذِي انْدَفَعَتْ عَنْه المسبَّبَاتُ؛ قَلَّت العواملُ الدافعة، حتى نصل أخيرًا إِلَى مسبِّبٍ واحد؛ كنظرك إِلَى أغصان الشجرة المتعددة المتشابكة، فكلما ذهبت تبحث عَنْ أَسْبَابها؛ ذهبت إِلَى قليل من كثير، حتى تنتهي إِلَى ساق واحدة، وإنك تجد لهذه أمثلة كثيرة هي من الظهور بمكانٍ لا تحتاج معه إِلَى الوقوف الطويل وضرب الأمثال.

إذًا؛ فإنكار محدث للحوادث وموجِدٍ للوجود، تناقضٌ مع العقل، وإقامة على الخطأ، ولعله لهذا الإلزام المنطقي الَّذِي لا مناص منه سمي ب «الواجب الوجود»، حفاظًا على حرمة العقل من أن يوصم بالتخليط والتناقض، أو بالبلاهة والتبلد، إذ يستحيل أن ينبثق الوجود من العدم.

هذا؛ وإن قدم المبدأ، أو قولَ كثيرين به، أو ظهورَه بِمَظْهَرِ البديهية؛ لا يقضي عليه، يعني لا يقال حينئذ: إِنَّهُ من الرجعية!!

هذا مبدأ قديم!!

أو قَالَ به المتقدمون!!

إِلَى غير ذَلِكَ مما يأخذ به كثير من الزائغين، فيقولون: إنما نرده لِأَنَّهُ من كلام القدماء!!

ولَكِن هذا لا يخرجه من الْحَقّ إِلَى الباطل ما دام العقل يمليه، وما دام الواقع يؤيده، إلا إِذَا كَانَ الداعى إِلَى الإنكار استكبارًا على كل قديم، أو عقوقًا للمنطق السليم، أو جَرْيًا مع كل هوى سقيم، شأنَ الحمقى والمرضى والمغرورين.

وقد يَقُول قائل: إن الْمُحْدِثَ لِجَمِيعِ الحوادث هو الطبيعةُ!!

وسيأتي الكلام عَنْها إن شاء الله فِي مبحث مستقل.

أو يَقُول: إِذَا أقررنا بوجود الخَالِق؛ فمن الَّذِي أوجد الخَالِق؟!

ولَكِنَّ الَّذِي نريد أن نخلص إِلَيْهِ الآن واضحًا مجزومًا به: «لا بد لكل حادث من محدث».

إذًا؛ فلا بد لهذا العالم من خالق، ونسمي هذا المبدأ: «القاعدةَ الأولى».

هنا قد يثير بعض النقاد قضية قِدَمِ العالم وحدوثه، فيقول: إن هذه القاعدة تستقيم إِذَا سَلَّمْنَا بحدوث العالم، ولم نَقُلْ بِقِدَمِه.

فهُنَالكَ من يَقُول بقدم العالم، أي أَنَّهُ لا أول له، فيُعْطُون العالَمَ الأوليةَ! وهذه الأولية المطلقة لله رب العالمين وحده، فهو الأول الَّذِي قبله شيء.

فلأنهم يفرون من الحدوث الَّذِي لا بد أن يقروا به، فإذا أقروا به أقروا بوجود الخَالِق المحدث؛ من أجل أن يفروا من إثبات وُجُود الخَالِق تبعًا لِخَلْقِ الخلقِ وحدوث العالم؛ قَالوا: هو قديم!!

فيثيرون هذه القضيةَ قضيةَ قِدَمِ العالَمِ وحدوثِهِ، فيقولون: إن هذه القاعدة تستقيم ـ يعني أن لكل حادث محدثًا ـ، تستقيم إِذَا سلَّمْنا بحدوث العالم، ولم نقل بقدمه.

والبرهان ملزم بالقول بحدوث العالم ونفي قدمه؛ فقد قيل بناءً على ملاحظة الحركةِ والسكون: إن دورة من الفلك، إما أن تكون شفعا أو وترًا، فإن كَانَت شفعًا؛ فقد أتمت عددًا فرديًا، وإن كَانَت وترًا؛ فقد أتمت عددًا زوجيًا.

إذًا؛ فالعدد السابق على كِلَا الحالين محدود، ولما كَانَ محدودًا فهو حادث قطعًا.

يعني: الآن الفلكُ يدور، فأنت تقول: هذه الدورة، إما أن تكون عددًا فرديًا مع ما قبلها، أو عددًا زوجيًا، وفي الحالات كلها؛ سواءٌ كَانَ عددًا فرديًا أم كَانَ عددًا زوجيًا، فالعدد مُتَنَاهٍ؛ إِذَا فلا بد أن يكون له بدء.

فَعَلَى كلا الحالين؛ فهذا محدود، ولما كَانَ محدودًا فهو حادث قطعًا، يعني وُجِدَ بعد أن لم يكن موجودًا، فهذه الدورات نهائية، وليست بلا نهائية، مهما بلغ عدده، فما دامت نهائيةً؛ فإذًا لم تكن قَبْلُ؛ فمن الَّذِي أوجدها؟

ومن الَّذِي أعطى هذه الْأَجْرَامَ حركتها؟

فهذا كله يدل على وُجُود الخَالِق.

لو استمر الناقد فقال: إن أصل العالم «هَيُولَاهُو القَدِيم»، هذه نظريةٌ عَنْدهم «نَظَرِيَّةُ الْهَيُولَا»، يَقُولون: والحركة طارئة.

فيقال لهم: من أين طرأت الحركة؟!!

فهذا إذًا إقرار منهم صريحٌ بوجود مرجِّحٍ آخَرَ أَثَّرَ على العالَمِ بإيجاد الحركة؛ بل هو استعجالٌ فاصلٌ للإقرار بوجود خالقٍ للعالم، فالناقد بين أمرين: إما أن يرجع إِلَى القول بالحدوث؛ وحينئذ لا بد عليه أن يعترف بالخَالِق، أو أن يقر بوجود المرجح، وهو اعتراف أَيْضًا بالخَالِق.

إذًا؛ فنقد الناقدِ وَاهٍ، لم يصل إِلَى القرارة، ولم يثبت على النقد.

والقول بقدم العالم باطل، لا يسنده برهان؛ بل الَّذِي يسنده البرهان كما مَرَّ هو القول بحدوث العالم، لا القول بقدمه، وهكذا تنهار المادية الجدلية التي أتى بها ماركس، والتي أُسِّسَتْ عليها الشيوعيةُ فِي الدِّيَالِكْتِيكْ وما أشبه، فِيما يتعلق بالمادية الجدلية.

هذا كله باطل كما ترى بأقل حجة عقلية، فالمذهب كله ينهار، ولا يثبت على النقد بهذه الحجة العقلية اليسيرة؛ فتنهار المادية الجدلية التي تقول بِقِدَمِ العالم هربًا من الإقرار بوجود الخَالِق الْعَظِيم، ويَتَفَلَّتُون بقولهم بِقِدَمِ العالَمِ من البرهانِ الْمُلْزِمِ والدليلِ القطعي.

قد يَسْتَغْرِبُ بعض الناس القول بأنها تنهار بهذه السرعة، وبمثل هذا البرهان الَّذِي يُظَنُّ فِيه أَنَّهُ ليس بشيء؛ ولَكِنْ إنَّ عِقْدًا فِي نظام - أَيْ فِي سِلْك -، عقد بحباته فِي سلك، لو بلغ ألف حبة؛ لانفرط كله بحل العقدة الأولى، وإن لم تُرِدْ ذَلِكَ فاحذف من المادية الجدلية قولها بِقِدَمِ العالم، حيث ثبت أن ذَلِكَ باطل، فأول حكم تهدمه من أحكامها الأساسية هو إِلْحَادها فِي الخَالِق، وعند الإقرار بخالق الوجود تنشأ أحكام أخرى.

فهذا هو الأساس الَّذِي أسسوا عليه المادة فِيما يتعلق بالشيوعية جملة، فإذا انهار هذا الأساس انهارت كلها، فتُهْدَمُ أحكامُها الفرعيةُ دون أن يكون النقد موجهًا إِلَى الفروع مباشرة؛ لأنك هدمت الأصل فانهارت الفروع تبعًا، كما أن الشجرة تتهاوى فروعُها كُلُّها إِذَا ما حَطَّمْتَ جِذْعَهَا، فإنه إِذَا ما انهار ذَلِكَ الجذع تهاوت الفروعُ كلُّها بصفةٍ عَفْوية؛ كالبناء الشامخ يَتَدَاعَى جملةً واحدةً بِنَقْضِ أساسِه، ولقد صَوَّرَتِ الآيةُ الكريمةُ التاليةُ هذا المعنى بتلك الصورةِ المحسوسةِ الرائعةِ: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)».

إذًا فهذا العالم حادث غير قديم قطعًا، وما قَالَ بقِدَمِهِ مَنْ قَالَ إلا فرضًا للرأي بغير برهان! هكذا!! ومجانبةً للحق دون تبيان، ولما كَانَ حادثًا فلا بد له من محدث كما مر فِي القاعدة الأولى، فهذه هي السببية؛ فهذا العالم حادث، وما دام العالم حادثًا فلا بد له من محدث.

قال القاسمي فِي «دلائل التوحيد»:

العالَم إما أَنَّهُ أحدث ذاته، أو حدث بغير أن يحدثه غيره وبغير أن يحدث هو نفسه، أو يكون أحدثه غيره، فإن كَانَ هو أحدث ذاته؛ كَانَ علة لنفسه متقدمًا عليها، فلزم كونه قبل أن

يكون، وهو محال، وأيضا فإنه يوجب أن يكون الشيء غير ذاته، وهذا محالٌ باطلٌ بالمشاهدة والحس، وإن كَانَ خرج عَن العدم إِلَى الوجود بغير أن يخرج هو ذاته أو يخرجه غيره فهذا أَيْضًا محال؛ لِأَنَّهُ لا حال أولى بخروجه إِلَى الوجود من حال أخرى، ولا حال هُنَاكَ أصلًا؛ فإذًا لا سبيل إِلَى خروجِهِ وخُرُوجُهُ مشاهَدٌ مُتيَقَّنٌ، وإذا بطل أن يخرج العالم بنفسه، وبطل أن يخرج دون أن يخرجه غيره؛ فقد ثبت الوجه الثالث ضرورةً؛ إذ لم يبق غيره الْبَتَّةَ؛ فلا بد من صحته، وهو: أن العالم أخرجه غيره من العدم إِلَى الوجود، وهو بالضرورةِ الخَالِقُ جَلَّ وَعَلَا.

أشار إِلَى ذَلِكَ ابن حزم فِي الفِصَل – كما قال القاسمي -.

وثَمَّةَ فِي باب الانحصار الملزِمِ طريقةً أخرى أشار لها بعض المحققين؛ قَالَ:

إن وُجُود الأشياء إما بالاتفاق والصدفة، وإما بالضرورة، وإما بالقصد والإرادة، وكلٌّ من الأول والثاني باطل - أي بالاتفاق والصدفة، هذا باطل -، وكذَلِكَ بالضرورة، هذا باطل، وإما بالقصد والإرادة، فهذا هو الَّذِي يثبت لا محالة.

لا يمكن أن يثبت العالم بمحض الاتفاق والصدفة؛ لِأَنَّهُ يقتضي وُجُود معلول بلا علة، ولا يمكن أن يكون بالضرورة؛ لِأَنَّهُ يقتضي أن الأشياء على ما هي عليه الآن، كَانَت كذَلِكَ منذ الأزلِ، والواقعُ على خلاف ذَلِكَ، وحينئذ؛ كيف توزعت عَنْاصر العالم على نسبها المعلومة؟ إذًا؛ كَانَ الذهب أقل من الحديد، وكان الحديد أقل من الصلصال. وكيف اسْتَنْسَبَتِ الكرةُ الأصليةُ فِي خَوَاصِّ مَوَادِّها وصِفَاتِها ومَقَادِيرِها، وتوزعت على مقتضى حاجة الأحياء وانتشارها ونموها؟ وكيف نشأت الحياة من الجماد؟

ما ذَلِكَ إلا لأن كل حي قائم بعناية خالقٍ ضابطٍ للكل؛ فالعالم مخلوق، فثبت الخَالِقُ الأزلي.

وهذه الطريقة من الأدلة الْعِلْمية، والْعِلْمُ الحَقّ دليلٌ على الإله الحَقّ، كما قَالَ القاسمي غفر الله له.

دلالة العقل من الأدلة الْعِلْمية، ودلالة العقل على أن الممكن محتاج إِلَى موجد ومؤثر، وهي دلالته على وُجُود الخَالِق، فنقول: هل وُجُود هذه الكائنات بنفسها أو وجدت صدفة؟

فإن قلتَ: وجدت بنفسها؛ فمستحيل عقلًا، ما دامت هي معدومة؛ كيف تكون موجودة وهي معدومة؟!!

المعدوم ليس بشيءٍ حتى يوجَد وحتى يوجِد!!

إذًا لا يمكن أن توجِدَ نفسَها بنفسِها.

وإن قلتَ: وجدت صدفة؛ فهذا مستحيل أَيْضًا، ويقال: أنت أيها الجاحد؛ هل ما أُنْتِجَ من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها؛ هل وُجِدَ هذا صدفةً؟!!

فيقول: لا يمكن أن يكون.

فكذَلِكَ هذه الأطيار والجبال، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والرمال والبحار وغيرُ ذَلِكَ، لا يمكن أن توجد صدفة أبدًا، كما مر فِي قصة أبي حنيفة مع السمنية، وهم من أهل الهند الَّذِينَ ناظروه فِي إثبات الخَالِق الْعَظِيم سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير رحمه الله:

قوله تعالى: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ»، أَيْ: أَوُجِدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ؟!

أَمْ هُمْ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ؟!

أَيْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا؛ بَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا.

إذًا؛ الفطرة تقر بوجود الخَالِق الْعَظِيم، وهذا يقين فِي الفطر السليمة المستقيمة؛ ولَكِنها قد تنحرف، فتحتاج حينئذ إِلَى إقامة الأدلة النظرية العقلية على إثبات وُجُود الباري جَلَّ وَعَلَا كما مر فِي تقرير قانون السببية؛ فإن هذا لا يمكن أن يدفع، وهو مُفْضٍ لا مَحَالَةَ إِلَى إثبات وُجُود الباري جَلَّ وَعَلَا.

فِي كتاب «الفيزياء ووجود الخَالِق»:

قال بعض الْمُلْحِدِينَ: إنَّهُ ليس هُنَاكَ من خالق؛ لِأَنَّهُ لا دليل على ذَلِكَ من عقل ولا حس، ويقول بعض المؤمنين من المسلمين وغير المسلمين: بلى؛ إن للكون خالقًا؛ لَكِنهم يوافقون الْمُلْحِدِينَ فِي أَنَّهُ لا دليل عقليَّ على وُجُوده، وأن التصديق بوجوده أمر يعتمد على الإيمان القلبي فَحَسْب، لا الدليلِ العقلي، أو هو أمر يعتمد فَحَسْب على تصديق الرسل فِيما أتوا به.

أما كون الإقرار بوجود الخَالِق أمرًا إيمانيًا قلبيًا؛ فلا شك فِي ذَلِكَ، وأما كونه أمرًا تُعَزِّزُهُ رسالاتُ الله؛ فهذا لا شك فِيه أَيْضًا؛ ولَكِن مَنْ قَالَ: إن الإيمانَ والْعِلْمَ لا يجتمعان؟!

ومن قَالَ: إن القلب يطمئن إِلَى ما لا يدل عليه عقل؟!

من قَالَ هذا؟!

ليس فِي لغة العرب ولا استعمالات القرآن هذا التقابل الشائع بين القلب والعقل؛ بل إن ما يسمى فِي الاصطلاح الشائع «عقلًا» هو الذي يسمى فِي القرآن الكريم ولغة العرب «قلبًا».

وأما العقل؛ فإنما هو فِي لغة العرب والاستعمال القرآني: فِعْلُ القلب، فالقلب هو المحل، والعقل هو ما يَحْدُثُ فِي ذَلِكَ المحل؛ لِذَلِكَ لم تأت كلمة «العقل» فِي القرآن الكريم إلا فعلًا، ولم تأت اسمًا قط.

لم يأت العقل هكذا اسمًا في القرآن قط، حتى حين تُسْتَعْمَلُ فِي غير القرآن الكريم اسمًا؛ فإنما المقصود به: المصدر، فتقول: عَقَلَ عَقْلًا، كما تقول: قَرَأَ قِرَاءَةً، وقد يقال: «العقل» ويرادُ به «القلب» من باب تسمية الشيء بمحله كما مَرَّ، وقد يكون العكس أَيْضًا.

إذًا؛ فبالقلب يفكر الإنسان، وبه يتأمل ويَسْتَنْتِجُ، وبه يُحِبُّ ويَكْرَهُ، وغَنِيٌّ عَنْ القولِ أن المقصود بالقلب هنا ليس هو مجردَ ذَلِكَ العضوِ الحسي، وإنما المقصود به أساسًا: الروح التي بها تكون كل أنواع الوعي البشري.

وأما الجسم - قلبًا أَسْمَيْنَاهُ أم دِمَاغًا -؛ فليس مصدرًا ولا محلًا للوعي؛ لَكِنَّ له به تَعَلُّقًا لِتَعَلُّقِهِ هو بالرُّوح.

إذًا مَنْ قَالَ: إن القلب يطمئن إِلَى ما لا يدل عليه العقل؟!!

إن الإيمانَ الصحيحَ المُعْتَبَرَ هو الإيمانُ القائمُ على الْعِلْم، وإلا لم يكن هُنَالِكَ مِنْ فَرْقٍ بينَ مَنْ يُؤْمِنُ بوجودِ خالقٍ ومَنْ يُؤْمِنُ بوجودِ خالِقَيْنِ ومَن لا يؤمن بخالقٍ أصلًا؛ لأن كلًا منهم يمكن أن يَقُولَ: إن اعتقاده أمر قلبي لا يخضع للمناقشة العقلية، ولم يَعُدْ مِنْ حَقِّ أحدٍ منهم أن يَقُول للآخر: إنك مُخْطِأٌ فِي اعتقادك!!

فَمَنْ قَالَ: إن القلب يطمئن إِلَى ما لا يدل عليه العقل؟!!

لو كَانَ الأمر كذَلِكَ راجعًا إِلَى القلب وحده لكان لكلٍّ حجة، فالذي يعتقد بوجود إله يَقُول: دلني القلب!!

والذي يعتقد بوجود إلهين أو ثلاثة يَقُول: القلب دلني أَيْضًا، ولا مَدْخَلَ للعقل ههنا؛ فلا يَقْبَلُ حجةً من أحد!!

وكذَلِكَ الَّذِي ينكر وُجُود الإله أصلًا فيقول: دلني على إنكارِهِ القلبُ!!

فحينئذ لا يكون للحجة العقلية معه مجال!!

وهذا من أعجب ما يمكن أن يقرره مقرر؛ لأن القرآن سلك مسلكًا عقليًا فِي إثبات وُجُود الرب تبارك وتعالى فِي كثير من الآيات؛ « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ (٣٥») هذا مسلك عقلي يَلْفِتُ الإنسان إِلَى قانون السببية - كما مر -، مِنْ أَنَّهُ لا بد لكل موجود من موجد، ولا بد لكل صنعة من صانع، ولكل مخلوق من خالق، وهذا مقرر ثابت، كما مر ذكر بعض الأمثلة عليه مِنْ أن الإنسان إِذَا وُجِدَ فِي ساحة المسجد، ثم وُجِدَ بعد ذَلِكَ فوق سطح المسجد؛ فإننا لا نستغرب منه ذَلِكَ؛ ولكن لو وُجِدَ حَجَرٌ فِي ساحة المسجد، ثم وجدناه فوق سطح المسجد؛ فإننا نقول: مَن الَّذِي صعد بهذا الحجر إِلَى هذا المكان؟ لِأَنَّهُ لا بد لِمَا لا حَرَكَةَ له مِنْ مُحَرِّكٍ، وكذَلِكَ لا بد لكل موجود من مُوجِدٍ، ولا بد لكل مخلوق من خالق، ولا بد لكل صنعة من صانع.

نسأل الله تعالى أن يحفظ علينا إيماننا ويقيننا، وأن يزيدنا إيمانًا ويقينًا.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«المُحَاضَرَةُ السَّابِعَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد مر بحول الله وقوته ذكر بعض المقدمات في الرد على الملحدين، وهذه المقدمات – كما مر – هي مقدمات ونتائج في الوقت عينه؛ فإنها تحمل الأدلة التي تقطع الشبهات وتزيحها؛ بل وتنسفها بفضل الله جل وعلا.

وقد سلك العلماء – رحمهم الله - من المتقدمين مسالك في إثبات وجود الخالق العظيم، والْحَقُّ أن وجود الله تبارك وتعالى لا يحتاج إلى إثبات؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل اليقين على وجوده جل وعلا مركوزًا في نفس كل إنسان، فهذا أمر لا يحتاج إلى برهان وبيان؛ ولكنَّ الفطرة أحيانًا يصيبها ما يصيبها من الالتواء والغموض والغبش، فتحتاج حينئذ إلى الدليل، وهذا ما سلكه العلماء المتقدمون، فذكروا أدلة وجود الله تبارك وتعالى.

وقد مَرَّ أن أكبر الأدلة على وجود الله تبارك وتعالى: هو دليل الفطرة؛ فإن الله تبارك وتعالى فطر الخلق على إثبات وجوده جل وعلا؛ بل وعلى إثبات كثير من صفاته التي هي له وحده جل وعلا؛ كصفة علو الذات وما يتعلق بذلك من صفات الكمال لله جل وعلا.

وقد ذكرنا بفضل الله تبارك وتعالى بعض ما يتعلق بدليل الفطرة على وجود الرب تبارك وتعالى، وكذلك ما يتعلق بقانون السببية الذي لا يمكن لأحد ممن ينكر وجود الله تبارك وتعالى أن يتوقف فيه؛ فضلًا عن أن يرده؛ إلا إذا كان معاندًا مكابرًا.

يقول بعض الْمُلْحِدِينَ – كما ذَكَرَ صاحبُ كتاب «الفيزياءُ ووجودُ الخَالِقِ» -، يقول بعض الْمُلْحِدِينَ: إنَّهُ ليس هُنَالكَ من خالق؛ لِأَنَّهُ لا دليلَ على ذَلِكَ من عقلٍ ولا حِسٍّ، ويقول بعضُ المؤمنين من المسلمين وغير المسلمين: بلى؛ إن للكون خالقًا، ويريد بقوله: «يقول بعض المؤمنين»: يعني ممن يؤمنون بوجود الخالق تبارك وتعالى؛ لذا جاز له أن يجمع المسلمين مع غيرهم في قوله: «مِنَ المسلمين وغير المسلمين»، يقولون: بلى؛ إن للكون خالقًا؛ ولَكِنهم يوافقون الْمُلْحِدِينَ فِي أَنَّهُ لا دليلَ عقليَّ على وُجُوده، وأن تصديق الإنسان بوجود الله تبارك وتعالى أمر يعتمد على الإيمان القلبي فحَسْب، لا على الدليل العقلي، أو هو أمر يعتمد فحَسْبُ

على تصديق الرسل فِيما أَتَوْا به، وأما العقل؛ فبمبعدة عن ذلك، ولا يستطيع العقل – كما يقول هؤلاء!! – أن يثبت وجود الرب جل وعلا.

أما كون الإقرار بوجود الخَالِق أمرًا إيمانيًا قلبيًا؛ فلا شك فِي ذَلِكَ، وأما كونه أمرًا تُعَزِّزُهُ رسالاتُ الله تبارك وتعالى؛ فلا شك فِي ذلك أَيْضًا؛ ولَكِن مَنْ قَالَ: إن الإيمانَ والْعِلْمَ لا يجتمعان؟!

ومن قَالَ: إن القلب يطمئن إِلَى ما لا يدل عليه عقل؟!

وليس فِي لغة العرب ولا استعمالاتِ القرآنِ الكريم هذا التقابلُ الشائعُ بين القلب والعقل؛ بل إن ما يسمى فِي الاصطلاح الشائع «عقلًا» هو الذي يسمى فِي القرآن الكريم ولغة العرب «قلبًا».

وأما العقل؛ فإنما هو فِي لغة العرب والاستعمالِ القرآني: فِعْلُ القلب، فالقلب هو المحل، والعقل هو ما يَحْدُثُ فِي ذَلِكَ المحل – أَيْ في القلب -؛ ولِذَلِكَ لم تأت كلمة «العقل» فِي القرآن الكريم إلا فعلًا، ولم تأت اسمًا قط فِي القرآن الكريم، حتى حين تُسْتَعْمَلُ فِي غير القرآن الكريم اسمًا؛ فإنما المقصود به: المصدر، فتقول: عَقَلَ عَقْلًا، كما تقول: قَرَأَ قِرَاءَةً، وقد يقال: «العقل» ويرادُ به «القلب» من باب تسمية الشيء بمحله، وقد يكون العكس أَيْضًا.

وإذًا؛ فبالقلب يفكر الإنسان، وبه يتأمل ويَسْتَنْتِجُ، وبه يُحِبُّ ويَكْرَهُ، وبه يعقل.

وغَنِيٌّ عَنْ القولِ أن المقصود بالقلب هنا ليس هو مجردَ ذَلِكَ العضوِ الحسي الصُّنُوبَرِيِّ الذي يوجد في الجهة اليسرى من الصدر، وإنما المقصود به أساسًا: الروح التي بها تكون كل أنواع الوعي البشري.

وأما الجسم - قلبًا أَسْمَيْنَاهُ أم دِمَاغًا -؛ فليس مصدرًا ولا محلًا للوعي؛ لَكِنَّ له به تَعَلُّقًا لِتَعَلُّقِهِ هو بالرُّوح.

فمَنْ قَالَ: إن القلب يطمئن إِلَى ما لا يدل عليه العقل؟!!

إن الإيمانَ الصحيحَ المُعْتَبَرَ هو الإيمانُ القائمُ على الْعِلْم، وإلا لم يكن هُنَالِكَ مِنْ فَرْقٍ بينَ مَنْ يُؤْمِنُ بوجودِ خالقٍ ومَنْ يُؤْمِنُ بوجودِ خالِقَيْنِ ومَن لا يؤمن بخالقٍ أصلًا؛ لأن كلًا منهم يمكن أن يَقُول: إن اعتقاده أمرٌ قلبي لا يخضع للمناقشة العقلية، وحينئذ لا يقوم لك عليه

برهان ولا سلطان؛ لأنه يُرْجِعُ ذلك إلى القلب وحده، فيقول: هذا ما أوقن به بقلبي، هذا ما هداني قلبي إليه، فلا يُخْضِعُ هذا اليقين القلبي للمناقشة العقلية، وحينئذ لا يعود مِنْ حَقِّ واحدٍ منهم أن يَقُول للآخر: إنك مُخْطِأٌ فِي اعتقادك!! فيقبل كل اعتقاد كل بهذا التسليم المرفوض عقلا وفطرة وحسا ولو كَانَ الأمر كذَلِكَ لكان من حق من شاء أن يؤمن بما شاء من غير تثريب عليه واذا كَانَ بعض الْمُتَدَيِّنِينَ من غير المسلمين يلجؤون إِلَى مثل هذه الأقوال المتهافتة ليستروا بها عيب اعتقاداتهم الفاسدة لِأَنَّهُا ـ أي: هذه الاعتقاداتُ الفاسدة ـ لا يقوم عليها برهان عقلي فِي الأصل فما هكذا ينبغي أن يكون موقف المؤمن المسلم وهو يقرأ فِي كتاب ربه: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ».

«وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ».

فالعِلْم أولًا ثم الايمان المترتب على هذا الْعِلْم ترتبا تعبر عَنْه فاء السببية «فَيُؤْمِنُوا بِهِ»، ثم يأتي الاخبات المترتب على الايمان: «فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ»، ويقرأ المؤمن المسلم فِي عشرات من ايات القران المجيد تشديد النكير على الَّذِينَ يتبعون الظنون والاهواء ويتكلمون بغير علم ويدعون فِي مجال أصول الدين دعاوى لا تسندها الأدلة والبراهين ويعدهم من الجاهلين بل من غير العاقلين ويتوعدهم بأشد أنواع الوعيد؛ «تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

«أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ».

«إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣»).

«هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ».

إذا قلت هذا قَالَ بعضهم: نحن لا ننكر أن يكون على وُجُود الصانع تعالى دليلٌ أيُّ دليلٍ، وإنما نقول: إنَّهُ لا يوجد عليه دليل من النوع الَّذِي يسمى ب«الدليل الْعِلْمي» بالمصطلح الْحَدِيث، أو «الدليل المنطقي البرهاني»؛ لَكِن هذا ليس بالكلام الدقيق؛ إلا إِذَا فُهِمَ هذان الدليلان ـ يعني «الدليل الْعِلْمي» بالمصطلح الْحَدِيث، وكذَلِكَ «الدليل المنطقي البرهاني» ـ إلا إِذَا فُهِمَا فهمًا ضيقًا يجعلهما خاصين ببعض العلوم، وإلا فما معنى الدليل الْعِلْمي؟!

وما الأدلة التي يقبلها الْعلماء الطَّبِيعِيُّونَ من فِيزيائيين وكميائيين وأحيائيين وغيرهم؟!

إنهم يقبلون الدليل الحسي المباشر، فكل ما شَهِدَ الحِسُّ بوجوده شهادةً مباشرةً فهو موجودٌ لا شك فِي وُجُوده، وهذا دليل مقبول عَنْد العقلاء كافة، وله فِي الدين مكانة كبيرة، كما مَرَّ أن المنهج الْعِلْمي الْحَدِيث فِيما يتعلق بالبحث الْعِلْمي فِي أمور المادة وأسرارها فِي هذا العصر هو منهج قرآني بطبيعته، وقد مر التدليل على ذَلِكَ من آيات ربنا وسنة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ.

فهذا الَّذِي يذهبون إِلَيْهِ فِي أمر المشاهَدة المباشِرَةِ؛ هذا أمر مقبول عَنْد العقلاء كافة، وله فِي دين الإسلام مكانةٌ كبيرةٌ؛ لَكِن الأدلة الْعِلْمية ليست محصورة فِي هذا الدليل، فما كل ما يُصَدِّقُ الْعلماءُ الطَّبِيعِيُّونَ أو عامةُ العقلاءِ بوجوده هو مما شوهد مشاهدة مباشرة بالحواس المجردة والآلات المساعِدة؛ بل إن الإصرار على عدم قبول دليلٍ سوى الدليل الحسي المباشر؛ هو نفسه من علامات عدم العقلانية، ولو أن الْعلماء الطَّبِيعِيِّينَ وسائر العقلاء لم يقبلوا دليلًا غير هذا الدليل؛ لَمَا تقدم عِلْمٌ من العلوم؛ بل ولا قامت لعلم قائمة؛ ولهذا فإن القرآن الكريم حين يستنكر حصر الأدلة فِي هذا الدليل، وينعى على المطالبين به فِي غير موضعه؛ إنما يقرر حقيقةً يُسَلِّمُ بها كل العقلاء من بني البشر؛ «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ»، فهم يريدون أمرًا مشاهدًا محسوسًا، فلا يؤمنون إلا بذَلِكَ، «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ»، وكذَلِكَ فِي قول ربنا تبارك وتعالى: « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)»، فهم يُرْجِعُون الأدلة كلها إِلَى هذا الدليل الحسي الَّذِي يرونه مباشرةً ويَخْضَعُ للحس، فَنَعَى عليهم القرآنُ الْعَظِيم هذا الَّذِي قَالَوه، وقد قَالَوه من قبل، فإن الْمُلْحِدِينَ المعاصرين الَّذِينَ ينكرون وُجُود الرب تبارك وتعالى لم يأتوا بدليل.

النوع الثاني من الأدلة التي يقبلها العقلاء وسائر الْعلماء على وُجُود الأشياء؛ هو: الاستدلال على الغائب غير المشاهد بالواقع المشاهد، وهذا الاستدلال أنواع ترجع كلها بصورة أو أخرى إِلَى الاستنباط المنطقي المعروف؛ لَكِن نتائج الاستنباط تصدق أو تكذب، وتقوى أو تضعف بحسب صدق المقدمات، ومدى الثقة بهذا الصدق.

والأدلة على وُجود الخَالِق كثيرةٌ؛ لَكِن المتعلق منها بدلالة الكون المشهود على خالقه ثلاثة أدلة؛ هي: «البرهان الكوني، ودلالة الآيات، ودليل العناية، ويلحق به الدليل الخُلُقِي».

وهذه البراهين تُجْعَلُ عَنْد الإتيان بها أساسًا لمناقشة الْمُلْحِدِينَ الْفَلَاسِفَةِ الفيزيائيين الغربيين وغيرهم؛ لأن هَؤُلَاءِ إنما يصدرون من قواعد علمية.

وأما الَّذِينَ يلحدون إِلْحَاد بطن وفرج، أو الَّذِينَ يسيرون كالأنعام السائمة خلف من يضلهم من الناس؛ فهَؤُلَاءِ لا يُحَكِّمُون عقلًا ولا يطلبون دليلًا؛ وإنما هم يتبعون كل ناعق فِي كل واد!!

وبما أن معظم الَّذِينَ تعرضوا لمسألة وُجود الخَالِق منهم – أي من هَؤُلَاءِ الفيزيائيين والْفَلَاسِفَة الغربيين من الْمُلْحِدِينَ - لم يركزوا إلا على البرهان الكوني.

إذًا فليكن جُلُّ الْهَمِّ مصروفًا إِلَى البرهان الكوني.

البرهان فِي اللغة: هو ما يدل على حقيقة، فإذا قلت لإنسان: فِي المكان الفلاني شجرة؛ فسألك: ما برهانك على ذَلِكَ؟

قلت: إني أرى خُضْرَةَ ألوانِها، وأسمعُ حَفِيفَ أوراقها، أو أَشُمُّ شَذَى أزهارِها، فتعال هنا فانظر إِلَيْها.

أو قد تقول: إنني لم أرها؛ لَكِن فلانًا وهو عَنْدي وعندك ثقة قد أخبرني بوجودها، أو غيرَ ذَلِكَ مما يعده الناس فِي حياتهم اليومية أدلةً، فهذا برهان.

فالبرهان فِي اللغة: هو ما يدل على حقيقة.

وأما فِي الاستعمال الاصطلاحي المنطقي؛ فإن البرهان هو أَيْضًا: ما يدلك على حقيقة؛ لَكِن دلالته محصورة فِي نوع معين تخرج عَنْه دلالةُ الحواسِّ ودلالةُ الأخبارِ وغيرِها.

فإذا قلت لطالب: ما برهانك على أن مجموع زوايا المثلث مائة وثمانون درجة؟

فلا يُعَدُّ برهانًا قوله: لقد قستُ كل ما وجد من مثلثات فوجدتها كذَلِكَ، ولن يُجْدِيَ قوله: إن أستاذ الرياضة أنبأنا بذَلِكَ.

البرهان بالمعنى الاصطلاحي هو: أن تستخلص أو تستنتج الْحَقيقة المرادَ برهانُها من حقيقة أو حقائق أخرى هي مقدمات البرهان، بحيث يلزم كل مَنْ يُسَلِّمُ بها - أي بالمقدمات - أن يسلم بالنتيجة التي تؤدي إِلَيْها، وإلا ناقض نفسه؛ لِأَنَّهُ سَلَّمَ بالمقدمات التي تؤدي إِلَى نتيجة حتمية،

ثم لما جاءت النتيجة؛ رفض النتيجة؛ فإنَّهُ حينئذ يكون متناقضًا؛ لِأَنَّهُ سَلَّمَ بالمقدمات التي أدت إِلَى النتيجة.

فإذا سلم الإنسان مثلًا بأن كل ما يُسْكِرُ فهو خمر مُحَرَّمٌ شُرْبُهُ، وسلم بأن الشراب الفلاني مسكر؛ فيلزمه القول بأنه خمر محرم؛ لأن المقدمتين قد أَدَّيَتَا إِلَى هذه النتيجة التي لا يمكن أن يردها؛ فإنه يقال له: ما تقول فِي هذه المقدمة: كل ما يسكر فهو خمر محرم شربه؟

يقول: أنا أقر بذَلِكَ.

فيقال له: وما تقول فِي هذه المقدمة: هذا الشراب مسكر؟

فيقول: نعم، أنا أقر بذَلِكَ.

فيقال له حينئذ: هذا الشراب خمر محرم.

فهذا ما أدى إِلَيْهِ استعمال النتيجتين، وهو قد أقرهما.

فإذا قَالَ: لا أقر بذَلِكَ؛ وقع فِي التناقض.

فأنت ترى إذًا أن البرهان المنطقي لا بد أن يستند إِلَى حقائق لا تأتي عَنْ طريق المنطق، وذَلِكَ بدهي؛ لِأَنَّ مجال المنطق هو القضايا، أي: هو أن يستنتج المرء قضية أو قضايا من قضية أو قضايا أخرى، وليس مجاله الدلالة على الواقع الوجودي، فهذا مجال الحواس؛ ظاهرةً كَانَت أم باطنة.

فَبَعْدَ أن تقول: هذه الحواس أو غيرُها من الأدلةِ الدالةِ على الواقعِ كلمتَها؛ يأتي البرهان أو المنطق ليقول: إِذَا كَانَت القضية الفلانية والقضية الفلانية قضايا صحيحة؛ فإنه يلزم عَنْهُمْا قضيةٌ ثالثة هي كذا وكذا.

لَكِن هذه الْحَقيقة التي دلنا عليها البرهان المنطقي، قد تكون مما يمكن إدراكه إدراكًا مباشرًا بالحواس.

وكم من حقيقة استنتج الْعلماء النظريون بالمنطق العقلي الرياضي ضرورةَ وُجُودها، ثم جاء الْعلماء التجريبيون فأكدوا بالآلات الحسية وُجُودها بعد أن أثبتت بالمنطق العقلي، وأنها ضرورة واقعة، ثم يأتي بعد ذَلِكَ التجريبيون من الْعلماء ليأكدوا بالآلات الحسية وُجُود تلك الْحَقيقة التي أقرها العقل بعملياته المنطقية من قبل.

البرهان الكوني هو برهان منطقي بالمعنى الاصطلاحي، أي أَنَّهُ يلزم كل من يسلم بمقدماته أن يسلم بنتيجته، وهي: أن للكون خالقًا؛ وإلا ناقض نفسه.

ليس هذا فحسب؛ بل إن المقدمات التي تقود إِلَى تلك النتيجة هي مقدمات لا يسع العاقلَ إلا التصديقُ بها؛ لِأَنَّهَا إما من الْحَقائق الحسية أو من البدائه العقلية.

فإذًا؛ التدليل على وُجُود الخَالِق بهذه الطريقة المنطقية لا يعني أَنَّهُ لا يمكن أن يُعْرَفَ بغيرها؛ فقد مر دليل الفطرة، وهو غير خاضع لهذا كله؛ فإن الإنسان بفطرته يؤمن بوجود ربه، فهذا لا مرية فِيه؛ ولِذَلِكَ لم يَشْغَل القرآنُ فِي كثير من الآيات الناسَ بجدالهم فِي وُجُود الخَالِق الْعَظِيم؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل ذَلِكَ مركوزًا فِي فِطَرِ الخلق؛ وإنما استعمل ما يقرون به من توحيد الربوبية وإثبات الخَالِق الْعَظِيم؛ استعمله كمقدمة لإلزامهم بصرف العبادة لله رب العالمين وحده؛ لأنهم إذا كانوا يقرون أن الله هو خالق الخلق، وهو رازقهم، وهو مالكهم، وهو مدبر الأمر، وهو الذي يحيي ويميت؛ إذًا فهو الذي يستحق العبادة وحده؛ لأن غيره مما يَعْبُدُونَ وَمِمَّنْ يَعْبُدُونَ لا يَمْلِكُ مِنْ ذلك شيئًا.

إذًا؛ فهو يَقُودُهُم بتوحيد الربوبية عندما يقرون به – وهم يقرون به -؛ لذلك لم يقع فيه الجدال ولا النقاش، والأنبياء لم يُرْسَلُوا إلى أممهم من أجل أن يُثْبِتُوا لهم أن الله هو خالق الخلق ورازقهم ومالكهم ومدبر أمورهم؛ لأنهم يقرون بذلك أصلًا كما بَيَّنَ القرآن العظيم، فإنه بَيَّنَ لنا أننا لو سَأَلْنا الكافرين من أبي جهل إلى مَن دونَه؛ من الذي خلقك؟ سيقول: الله.

من الذي خلق السماوات والأرض؟

سيقول: الله.

بل مَن الذي خلق الآلهة التي تَعْبُدُونَ من دون الله؟

فسيقول ويقولون: الله.

إذًا هذا لا خلاف عليه؛ ولكنْ هم يَصْرِفُون العبادة لله ولغير الله، فيأتي هاهنا استعمالُ ما أقروا به من توحيد الربوبية، فيقال لهم: ما دمتم تقرون أن الله هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين، وهو الذي يملك الأمر ويدبره، وهو الذي يحيي ويميت؛ فلماذا تصرفون العبادة لمن دونه؟!!

فهذا ما استعمله القرآن، وكذا الأنبياءُ قَبْلَ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم.

إذًا؛ التدليل على وجود الخالق بالطريقة المنطقية؛ لأننا نتعامل مع الملحدين، هؤلاء قوم ينكرون وجود الله تبارك وتعالى، وأكثرهم - كما مر - يقولون: نحن لا نؤمن إلا بما دلت عليه الحواس، وينكرون ما وراء ذلك!!

وكثير منهم أيضًا يقول: إنما نؤمن بالعقل، ولا نخضع إلا لبرهان العقل!!

فهؤلاء عندما يُرَادُ جدالُهم؛ فلا بد من الإتيان بأمثال هذه الحجج؛ لأنهم لا يستطيعون لها دفعًا لو كانوا منصفين، وأما المكابر المعاند؛ فهذا لا تنفع معه حجة.

فهذه الطريقة المنطقية عَنْد الإتيان بها للتدليل على وُجُود الخَالِق الْعَظِيم؛ فهذا لا يعني أَنَّهُ لا يمكن أن يُعْرَفَ تعالى بغيرها، أو لا يمكن أن يعرف معرفة مباشرة؛ كَأَنَ يكون الإيمان به أمرًا فطريًا كما مر؛ بل ضُرِبَ المثالُ على ذَلِكَ بأُولَئِكَ القوم الَّذِي كَانوا فِي القديم يركبون البحر، فإذا هاجت الأمواج وعلت، وأتى من أمر العواصف ما يهدد حياتهم وسفينتهم بالغرق؛ فإنهم حينئذ يخلصون العبادة لله تبارك وتعالى، ويدعون الله مخلصين له الدين.

وكذَلِكَ مَرَّ المثال فِي العصر المعاصر: لو أن قومًا كَانوا فِي طائرة، وكَانُوا جميعًا من الْمُلْحِدِينَ، فوقع بها خلل، فاضطرب أمرها ومِيزَانُهَا، ولم يستطع طَيَّارُها أن يتحكم فِيها؛ فإنهم حينئذ يتخلون تمامًا عَنْ إِلْحَادهم، ويلجئون إِلَى فاطر السماوات والأرض، ويعودون إِلَى ربهم داعينه أن يُنَجِّيَهُمْ مما حَلَّ بهم من الكرب الْعَظِيم.

فهذا الأمر أمر فطري؛ بل مَرَّ ما هو أعجب من ذَلِكَ: ذلك الملحد الذي جيء به إلى التلفاز المصري في إحدى قنواته ليناظر عن إلحاده ويدافع عنه، في غمرة النقاش أو في حدته قال: واللّهِ!!

فيقال له: أنت لا تؤمن بالله، لا تؤمن بوجوده، يعني هو لا يشرك بالله؛ هو لا يؤمن بوجود الله، ومع ذلك يقسم به!!

فهَؤُلَاءِ فِي الجملة ربما كَانوا من المرضى النفسيين الَّذِينَ يحتاجون إِلَى العلاج وراء أسوار البِيمَارِسْتَان، لا أن تُدْفَعَ لهم الحجةُ بعد الحجةِ؛ سواء بحجج الفطرة، أو بحجج الخلق، أو بحجج العناية، أو الهداية، أو دليل الإرادة، أوِ غير ذَلِكَ من الأدلة الدالة على وُجُود الرب جَلَّ وَعَلَا.

ولَكِن هُنَالِكَ مَنْ أَفْسَدَهُ مَنْ حَوْلَهُ ممن يلقون له الشبه، سواء قرأها فِي كتاب، أو سمعها فِي محاضرة، أو أَدْخَلَ نَفْسَهُ فِي موقعٍ من مواقع الْإِلْحَاديين على الشبكة العنكبوتية فاستقرت الشبهة فِي قلبه، فهذا يحتاج إِلَى المناظرة على هذا النحو الَّذِي نستعين الله عليه.

الإنسان قد يمر بتجربة تَنْزِعُ عَنْه حجاب الْإِلْحَاد والشك، فإذا الْحَقيقةُ مَاثِلَةٌ بين عَيْنَيْ بَصِيرَتِهِ يَسْتَيْقِنُهَا عَقْلُهُ كما يَسْتَيْقِنُ الْحَقائقَ الحسيةَ الشاخصةَ أمامَ عينيه، حتى الَّذِي يستنتج قضية وُجُود الباري من وُجُود الْحَقائق الكونية؛ لا يلزمه أن يسير بهذه الخطوات الطويلة التي تتطلبها صناعة المنطق؛ بل قد يختصرها كلَّها فِي لحظة من لحظات الصفاء العقلي، يقر بوجود الرب الكريم جَلَّ وَعَلَا.

فلئن كَانَ ما يُقَرَّرُ هَاهنا برهانًا على وُجُود الخَالِق تعالى؛ فما هو بالبرهان الوحيد، وما هو بالخطوة النهائية فِي طريق الباحث عَن الله، فإنَّ مُهِمَّتَنَا هنا هي أنْ نُدَلِّلَ أن قضية وُجُود الخَالِق قضيةٌ يمكن الاستدلال على صدقها بالبرهان المنطقي، وأن كل ما ذكره بعض المفكرين - مَنْ آمَنَ منهم بوجود الخَالِق ومن كفر - مِنْ حُجَجٍ يُدْلُونَ بها على أن ذَلِكَ غير ممكن؛ هي حجج باطلة لا تقوم لها عَنْد النظر الصحيح قائمةٌ.

لهذا البرهان عدةُ صِيَغٍ، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو غالط، ومنها ما هو فِي شكل الدليل المنطقي الاستنباطي، ومنها ما هو فِي شكل الدليل الجزئي المباشر.

فلنبدأ بالدليل فِي شكله المنطقي الصحيح الَّذِي اهتم به أكثر علماء أصول الدين من المسلمين، ومن اللَّاهُوتِيِّينَ والفلاسفةِ الغربيين أَيْضًا؛ لَكِنه يصاغ هنا صياغة مفصلة، نرجو أن تساعِدَ على إيضاحه.

يسير البرهان على مراحل، لكلٍّ منها مقدماتٌ تؤدي إِلَى نتيجة، ثم تلك النتيجة تؤدي مع مقدمات أخرى إِلَى نتيجة ثانية، وهكذا حتى نصل إِلَى ما نبتغي بحول الله وقوته.

فِي هذا الكون حوادث، والْحَادث كما مر هو: ما وُجِدَ بعد ما كَانَ معدومًا، وهو أَيْضًا: الممكن؛ فكل ممكن حادث.

فالممكن: ما يستوي فِي حقه الوجود والعدم، فإذا وجد فهذا حادث، يعني هو يحتاج إِلَى من يعطيه وُجُوده: غيث ينزل، زهر يتفتح، طفل يولد، إنسان ينمو ويكبُر، آخر يمرض ثم يهلك، أجسام تبنى وتتركب، وأخرى تفنى وتتحلل.

اللبنات كُوِّنَ منها الأولياتُ ثم الذراتُ، ومن الذرات تتكون الْجُزَيْئَاتُ، ومنها تتكون العناصر، ثم المركبات، ثم الأجسام المادية المشاهدة.

قالوا: الأوليات؛ لِأَنَّهُم توصلوا بالحساب الدقيق وبالتجارب الْمَعْمَلِيَّةِ وغيرها إِلَى أنَّ هُنَالِكَ ما هو أَدَقُّ من الذرات، فقالوا: هذه الأوليات هي التي تُكَوِّنُ الذرات، الذراتُ تتحد فِي جزيئات، الْجُزَيْئَاتُ تُكَوِّنُ العناصرَ، هذه العناصرُ إِذَا ما اتحدت كونت المركبات، ثم تأتي هذه الأجسام المادية المشاهدة.

من الغازات الأولية تتكون مجراتٌ تتكون منها نجوم، ومن المجرات مجموعاتُ مَجَرَّاتٍ، ولكلٍّ من هذه الكائنات ساعةُ ميلادٍ ويومُ هلاكٍ، فمَن الَّذِي أوجدها؟

ومن الَّذِي يُفْنِيها؟

هل جاءت من العدم؟!!

وقد مر أن ذلك لا يقبله العقل، فهذا مستحيل عقلًا؛ لِأَنَّهَا وجدت، فهل يمكن أن تكون قد أوجدت نفسها؟!!

كَانَت معدومة، ثم أوجدت نفسها؟!!

هي لم تكن موجودة أصلًا؛ فكيف توجِدُ نفسها؟!!

ومعنى ذَلِكَ: أَنَّهَا تكون سابقة عَلَى وُجُودها!!

لا بد لها إذًا مِنْ سببٍ أحدثها؛ لَكِنَّ هذا السبب لا يمكن أن يكون الشيءَ الْمُحْدِثَ نفسَه؛ إذ كيف يسوغ عقلًا أن يكون الْحَادث المعين سَبَبًا فِي إحداث نفسه؟!!

قد مر هذا بفضل الله فِي المقدمات.

لا بد إذًا أن يكون سببه شيئًا غيرَه؛ لَكِن إِذَا كَانَ هذا السبب الخارجي هو نفسه حادثًا كالأَسْبَاب الطبيعية التي نشاهدها؛ فإنه سيحتاج كالْحَادث الأول إِلَى سبب، يعني: الَّذِي كَانَ

قبله سيحتاج إِلَى سبب، وسيحتاج سببه إِذَا كَانَ حادثًا إِلَى سبب، وهكذا؛ لَكِن هذا التسلسل فِي العلل والمؤثرات مستحيل عقلًا.

لا بد إذًا من أن يكون السبب الحَقيقي للحوادث سَبَبًا غير حادث، وهو ما سماه المتقدمون من علمائنا ب«واجب الوجود»، أي: لا بد أن يكون شيئًا أزليًا ليس لوجوده ابتداء، أي: هو الأول الَّذِي ليس قبله شيء.

فالأول الَّذِي ليس قبله شيء لا يكون حادثًا، وأما الأول الَّذِي قبله شيء؛ فلا شك أَنَّهُ يكون حادثًا، بمعنى أَنَّهُ لم يكن ثم كَانَ، كَانَ معدومًا ثم وجد؛ فمَن الَّذِي أعطاه وُجُوده؟

يمتنع أن يكون هو أعطى نفسه الوجود كما مر.

إذًا لا بد مِنْ مُوجِدٍ له.

التسلسل والدَّوْرُ، هذا باطل كما هو معلوم؛ إذًا لا بد أن يكون هذا السبب الأزلي ليس لوجوده ابتداء، ولا يمكن أن يكون هذا السبب الأزلي شيئًا سوى الله.

فَلْنُرَكِّزْ على هذا البرهان، فَلْنَتَبَيَّن أن علم الفيزياء لم يبطل شيئًا من مقدمات هذا البرهان؛ بل زادها رسوخًا، وهذه المقدمات تقود لا محالة إِلَى النتيجة التي هي وُجُود خالق للكون.

فللنظر في برهان الآيات:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى مبينًا الفرق بين برهان الآيات والبرهان الاستنباطي:

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْآيَاتِ وَبَيْنَ الْقِيَاسِ - يعني به «الاستنباط المنطقي» -: أَنَّ " الْآيَةَ " هِيَ الْعَلَامَةُ وَهِيَ الدَّلِيلُ الَّذِي يَسْتَلْزِمُ عَيْنَ الْمَدْلُولِ،

لَا يَكُونُ مَدْلُولُهُ أَمْرًا كُلِّيًّا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْمَطْلُوبِ وَغَيْرِهِ؛ بَلْ نَفْسُ الْعِلْمِ بِهِ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِعَيْنِ الْمَدْلُولِ، كَمَا أَنَّ الشَّمْس آيَةُ النَّهَارِ؛ قَالَ تعالى: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً»، فالشمس آية النهار، فَنَفْسُ الْعِلْمِ بِطُلُوعِ الشَّمْس يُوجِبُ الْعِلْمَ بِوُجُودِ النَّهَارِ.

فهذا برهان الآيات.

وهنالك فرق بين برهان الآية والبرهان الاستنباطي المنطقي:

آيَاتُ الرَّبِّ تَعَالَى نَفْسُ الْعِلْمِ بِهَا يُوجِبُ الْعِلْمَ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ تَعَالَى، لَا يُوجِبُ عِلْمًا كُلِّيًّا مُشْتَرِكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَالْعِلْمُ يَكُونُ بِهَذَا مُسْتَلْزِمًا لِجِهَةِ الدَّلِيلِ؛ لأنه يكون مستلزمًا لهذا بجهة الدليل نفسها، فَكُلُّ دَلِيلٍ فِي الْوُجُودِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَلْزِمًا لِلْمَدْلُولِ، وَالْعِلْمُ بِاسْتِلْزَامِ الْمُعَيَّنِ لِلْمُعَيَّنِ الْمَطْلُوبِ أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ مِنَ الْعِلْمِ بِأَنَّ كُلَّ مُعَيَّنٍ مِنْ مُعَيَّنَاتِ الْقَضِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ يَسْتَلْزِمُ النَّتِيجَةَ، وَالْقَضَايَا الْكُلِّيَّةُ هَذَا شَأْنُهَا. انتهى كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

برهان الآيات هذا هو البرهان الَّذِي يستعمله القرآن الكريم؛ ليدل الناس على وُجُود الخَالِق وصفاته، فَيَستخدم برهان الآيات كما فِي قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقون (٥٩)»؟!!

فهذا برهان الآية، هذه آية، وهي تَدُلّ كما ترى على المدلول دلالةً مباشرة.

«أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)»؟!!

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)».

برهان الآيات هذا لا يعتمد على قضية كلية.

تقول: إن كل حادث لا بد له من محدث؛ بل يعتمد على ما هو أقوى بداهة من العقل، وهو الْعِلْم بأمثال هذه الحَقائق الجزئية المعينة، فَعِلْمُ الإنسان مثلًا بأنه مفتقر إِلَى من يوجده ويحدثه؛ أسبقُ عَنْده وأقوى بداهةً من أن يستدل عليه بقضية كليه.

تقول له: إنك حادث، وكل حادث لا بد له من محدث؛ فأنت لا بد لك من محدث.

هذا هو الاستدلال الاستنباطي المنطقي.

وأما دليل الآية فَفَوْقَ ذَلِكَ وأرفعُ منه.

قَالَ شيخ الاسلام رحمه الله:

فليس الْعِلْم بِحُكْمِ الْمُعَيَّنِ فِي الْعَقْلِ قَبْلَ الْعِلْم بِالْحُكْمِ الْكُلِّيِّ الْعَامِّ، كَمَا أَنَّ الْعِلْم بِأَنَّ الْعَشَرَةَ ضِعْفُ الْخَمْسَةِ لَيْسَ مَوْقُوفًا عَلَى الْعِلْم بِأَنَّ كُلَّ عَدَدٍ لَهُ نِصْفِيَّةٌ، فَهُوَ ضِعْفُ نِصْفِيْهِ.

هذه قضية منطقية؛ ولَكِنَّ معرفتَك أنت بأن العشرة ضعف الخمسة سابقة على هذا، فهذا أمر كَأنَه فُطِرَ عليه الخلق.

فملخص ما يَقُوله شيخ الإسلام رحمه الله: هو أن النتيجة التي يؤدي إِلَيْهِا البرهان المنطقي هي: أَنَّهُ لا بد أَنَّهُ للكون من خالق أو محدث أو مسبِّبٍ؛ لَكِنه لا يدلك على عين هذا الخَالِق، وإنما يأتي لك بقضية كلية قد يختلف الناس فِيها، أي أَنَّهُ لا يدلك على أن هذا الخَالِق هو الله تعالى؛ ولِذَلِكَ لما أثبتوا بهذا البرهان الاستدلالي المنطقي وُجُود الخَالِق قَالوا: القوة العظمى التي تؤثر فِي الكون!!

القوى الفاعلة!!

الإرادة الجازمة!!

وضلوا فِي هذا ضلالًا مبينًا.

وأما دلالة وبرهان الآيات؛ فهو يدلك على وُجُود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مباشرة، لا يدلك على قضية كلية يضل فِيها العقل ويزل فِيها الفهم.

فشيخ الإسلام رحمه الله لا يَقُول: إن الطريقة المنطقية ليست صحيحة؛ بل يصرح فِي كثير من كتاباته بأنها صحيحة؛ لَكِنه يرى أَنَّهُا لا تُوصِلُكَ إِلَى الْعِلْم بالذات الإلهية؛ بل إِلَى علمٍ بخالق أو محدث؛ هكذا بطريقة كلية.

وأما طريقة الآيات؛ فتدلك على عين الخَالِق سبحانه؛ كما يدلك صوت إنسان تعرفه على عينه، وكما يدلك شعاع الشَّمْس على عينها.

قد تقول للشيخ رحمه الله تعالى: إنني عرفت الشَّمْس أولًا، وعرفت أن لها شعاعًا، ثم لما رأيتُ الشعاعَ علمتُ بوجود الشَّمْس، وكذَلِكَ الأمر بالنسبة للصوت، فأنا عرفت الشخص أولًا، وعرفت تميزه بهذا الصوت الَّذِي هو صوته، ثم لما سمعتُ الصوتَ عرفتُ أَنَّهُ صوتُه.

وشيخ الإسلام يوافقك على هذا ولا ينكره.

يقول رحمه الله :

ثُمَّ الْفِطَرُ تَعْرِفُ الخَالِقَ بِدُونِ هَذِهِ الْآيَاتِ؛ فَإِنَّهَا قَدْ فُطِرَتْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ بِدُونِ هَذِهِ الْآيَاتِ؛ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَهُ.

وإنما هي تعرفه بالفطرة قبل أن تأتي الآية، فلما جاءت الآية دلت عليه؛ لأنها أنشأت عند الإنسان معرفةً بأن هنالك خالقًا هو الذي خلقه.

هو يعلم ذلك فطرةً قبل أن تتلوث فطرته كما مَرّ، وهو إجماع أهل السنة من علمائنا عليهم الرحمة؛ أن معرفة الله تبارك وتعالى ضرورية فطرية، وليست بكسبية عقلية، معرفةُ الله تبارك وتعالى ضرورية، فإذا جاءت الآيةُ دَلَّتْكَ على ذلك، فأنت إذا اعْتَرَضْتَ عليه وقلتَ: أنت تضرب المثل بالشمس إذا ما رأيتُ ضوءها فقلت: أنا أستدل بهذا الضوء على الشمس؛ فيأتي من يقول: فلا بد من معرفة الشمس أولًا، وكذلك معرفة صاحب الصوت، فإذا ما سمعتُ صوته؛ استدللتُ بالصوت عليه.

فيقال: نعم، ولا ننكر ذَلِكَ، وأنت أَيْضًا تعرف الله قبل أن تأتي الآيةُ؛ لِأَنَّهُ مغروز فِي فطرتك أن الله عز وجل هو خالقُك وخالقُ الكون، وأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى موجود.

رحمه الله رحمةً واسعة.

ما كان أَثْقَبَ فِكْرَهُ وَأَدَقَّ نَظَرَهُ!!

ما كان أَشَدَّ تَوْفِيقَهُ!!

رحمه الله رحمةً واسعة.

يقول رحمه الله:

ثُمَّ الْفِطَرُ تَعْرِفُ الخَالِقَ بِدُونِ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَإِنَّهَا قَدْ فُطِرَتْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ بِدُونِ هَذِهِ الْآيَاتِ؛ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَهُ؛ فَإِنَّ كَوْنَهَا آيَةً لَهُ وَدَلَالَةً عَلَيْهِ يَقْتَضِي تَصَوُّرَ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ، وَتَصَوُّرَ أَنَّ ذَلِكَ الدَّلِيلَ مُسْتَلْزِمٌ لَهُ؛ فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَدْلُولِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْمَدْلُولُ مُتَصَوَّرًا؛ لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَيْهِ، فَمَعْرِفَةُ الْإِضَافَةِ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى تَصَوُّرِ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ لَكِنْ قَدْ لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَالِمًا بِالْإِضَافَةِ وَلَا كَوْنِهِ دَلِيلًا، فَإِذَا تَصَوَّرَهُ عَرَفَ الْمَدْلُولَ إِذَا عَرَفَ أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لَهُ.

وقد مر في كلامه أيضًا رحمه الله أن الفِطَرَ يصيبها أحيانًا بعضُ الالتواء، يصيبها أحيانًا بعض الانحراف، فتحتاج حينئذ إلى النظر وإقامة الدليل.

فَيُفْهَمُ من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن الناس نوعان:

نوعٌ سليمُ الفطرةِ، يعرف الله عز وجل ويؤمن به، فمعرفته وإيمانه سابقان لمعرفته بالآيات؛ لَكِنه إِذَا رأى المخلوقاتِ عَرَفَ أَنَّهَا آياتٌ له، فمعرفته بالآيات تؤيد وتؤكد إيمانه ولا تنشأه، تؤكد الإيمان ولا تنشأه، يعني إِذَا جاءتك الآية من آيات الله رب العالمين فِي خلقه؛ فهذا لا يُنْشِأُ عَنْدك أن لهذا الكون خالقًا؛ لأنك تعرفه قبل ذَلِكَ، فإذا جاءت الآيةُ أَكَّدَتْ إيمانَك ولم تُنْشِأْه؛ لِأَنَّهُ كَانَ موجودًا قَبْلُ.

فهذا نوعٌ مِنْ نَوْعَي الناس: سليمُ الفطرةِ، يَعْرِفُ اللهَ عز وجل ويُؤْمِنُ به.

نوعٌ آخَرُ حَدَثَ فِي فطرته خلل، فلم يَعُدْ يؤمن بوجود الخَالِق؛ لَكِنه إِذَا تأمل الآياتِ وَجَدَها دالةً عليه، فآمَنَ بالله عَنْ طريق الآيات؛ لَكِن حتى هذا ما كَانَ لِيُؤْمِنَ لو لا أَنَّهُ كَانَ متصورًا للخالق قبل رؤيته للآيات، فلما رأى الآيات؛ رأى المناسبةَ بينها وبين ذَلِكَ الَّذِي تصوره، رأى دلالتها على وُجود الخَالِق الَّذِي كَانَ قبل ذَلِكَ يتصوره ولا يؤمن به، يتصور وُجُوده ولا يؤمن به.

فحتى هذا الَّذِي يَقُول: إِنَّهُ ملحد؛ هو متصور لوجود الخَالِق، فإذا جاءته الآية؛ أزاحت الانحرافَ والغَبَشَ مِنْ أجل أن يصل إِلَى حقيقة فطرته.

قال شيخ الاسلام رحمه الله:

إِنَّ الْإِقْرَارَ بِالخَالِقِ وَكَمَالِهِ يَكُونُ فِطْرِيًّا ضَرُورِيًّا فِي حَقِّ مَنْ سَلِمَتْ فِطْرَتُهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ تَقُومُ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الْكَثِيرَةُ - أي على وجود الله تبارك وتعالى -، وَقَدْ يَحْتَاجُ إِلَى الْأَدِلَّةِ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ عَنْدَ تَغَيُّرِ الْفِطْرَةِ وَأَحْوَالٍ تَعْرِضُ لَهَا.

فهذا هو الواقع فِي هذا العصر الَّذِي عَمَّتْ فِيه الشبهاتُ وطَمَّتْ، وصار أهل الْإِلْحَاد والزيغ والتشكيك يَنْثُرُونَ ما عَنْدهم فِي كثير من وسائل الإعلام، يتلقفها كثير من الناس من غير وعي ولا فهم، فيقع لون من التشكيك؛ إن لم يقع الْإِلْحَاد بالإنكار والجحود، نسأل الله السلامة والعافية.

فكأن الآيات هي فِي حقيقتها تذكيرٌ للإنسان بأمر مستقر فِي فطرته، وهو مع ذَلِكَ لسببٍ من الأَسْبَاب يجحده؛ لَكِن مثل هذا لا يَبْدَهُهُ ما فِي الآيات من دلالةٍ على وُجُود الخَالِق؛ بل لا بد من أن يُبَيِّنَ له كونها آياتٍ، وهذا ما نجده فِي بعض آيات القرآن الكريم، كما فِي قوله تعالى: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)».

إن خلق الإنسان آية دالة على وُجُود خالقه، فالقرآن الكريم يدعو المنكر لوجود الخَالِق أن يفكر فِي هذه الحْقيقة التي يعرفها أكثرَ من معرفته لغيرها من الحْقائق.

فهذا الدليل القرآني على وُجُود الخَالِق لا يتحدث عَنْ حوادث كثيرة، ولا يتحدث عَنْ العالم كله، كما هو الشأن فِي مقدمات القياس المنطقي؛ بل يتحدث عَنْ هذا الحْادث الواحد الَّذِي يعلمه كلُّ مخاطَبٍ أكثرَ من علمه بأي حادث آخر؛ لكي يَدُلَّهُ على أن خلقه هذا آيةٌ دالةٌ على وُجُود خالقه، فإنه يدعوه للتفكير فِيه، ويُعِينُهُ على ذَلِكَ بأسئلة عَنْ نفسِه يَعْرِفُ كيف يجيب عَنْها؛ لَكِنه إِذَا أجاب عَنْها الإجابة الصحيحة؛ قَادَتْه إجابَتُهُ إِلَى رؤية ما فِي نفسه من دلالةٍ على وُجُود خالقه؛ لِأَنَّهُ إِذَا قيل له: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»؟!

يَقُول: لا يمكن أن يُخْلَقُوا من غير شيء.

فأجاب.

«أم هم الخَالِقون»؟!

يَقُول: لا يمكن أن يكونوا هم خالِقين لأنفسهم.

فيقال له: فمن الَّذِي خلقهم؟

فحينئذ يُقِرُّ.

فتأخذه هذه الأسئلة إِلَى هذه الإجابة المطمئنة التي تستقر فِي النفس، ولا يمكن أن تدفعها النفسُ أو أن يُنْكِرَها العقل؛ فإن هذه الأسئلة كما ترى حتى فِي صِيغَتِها البلاغيةِ أسئلةٌ اسْتِنكَارِيَّةٌ؛ لأن الإجابة عَنْها بديهية فطرت عليها العقول، فما ينبغي لأحد أن يجهلها؛ «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»؟!

هذا استفهام استنكاري، الغرض منه: «النفي»، يعني: لم يُخْلَقُوا من غير شيء.

وكذَلِكَ: «أم هم الخَالِقون»؟! هذا أَيْضًا استفهام استنكاري، والغرض البلاغي منه: النفي أَيْضًا.

فكأن القرآن الكريم يَقُول لهذا المنكر: إِذَا لم يكن الله هو الَّذِي خلقك، وخلق هذا الكون مِنْ حَوْلِكَ؛ فهل خُلِقْتَ من غير شيءٍ خَلَقَكَ؟!! أي: هل جئت من العدم المحض؟!

سيقول كلُّ عاقل فِي نفسه: كلا؛ فإن هذا مستحيل.

أو أنك أنت الَّذِي خلقت نفسك؟!!

سيقول: كلا؛ فإن هذا يبدو أكثرَ استحالَةً.

هل كنت أنت الَّذِي خلق هذه السماوات والأرض؟!!

سيقول: كلا؛ فالقول بغير ذَلِكَ مكابرة.

فهذه حجة فطرية يدركها الناس بعقولهم، وهذه طريقة القرآن، قرر القرآن مقدماتها فِي شكل أسئلة استنكارية.

فهذه طريقته فِي تقرير كل حقيقة معروفة بالبدهيات العقلية؛ يقرر بسؤال استنكاري ليدل على أن منكرها ينكر البدائه؛ بل إِنَّهُ ينتزع منه الإجابة الصحيحة، فيقال له: أَجِبْ، فيأتي هذا السؤال من أجل أن ينتزع منه الإقرار بلسان نفسه.

«أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»؟!!

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)»؟!!

«أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦)»؟!!

إِنَّهَا لَحُجَّةٌ فطرية؛ لِذَلِكَ أثرت تأثيرًا بالغًا فِي بعض مَنْ سَمِعَها ممن كَانَ كافرًا فِي زمان النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم، ثم هداه الله تعالى، كما مر فِي حديث البخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنه؛ لَمَّا سمع آيات سورة الطور يتلوها الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاة المغرب، قال: "فذلك – أي حين سمعها – كاد قلبي أن يطير، وذلك أولَ ما وقر الإيمان في قلبي"؛ لأن العاقل لا يمكن أن يكابر في هذا، والفطرة السوية لا بد أن تذعن لهذا البرهان الفطري.

هذه الحجة الفطرية القرآنية - التي هي دليل الآيات - يمكن وضعها هي الأخرى فِي صيغة من الصيغ المنطقية العقلية المعروفة، وذَلِكَ أن الحجج المنطقية ليست محصورة فِي الاستنباط، أو ما كَانَ يسميه الْعلماء من علمائنا المتقدمين ب«قياس الشمول»؛ بل هُنَالِكَ حجج أخرى منطقية عقلية صحيحة يستعملها الناس فِي علومهم؛ بل فِي حياتهم اليومية، وإن لم يصوغوها الصياغات المنطقية.

من هذه الحجج: ما يسمى ب«القياس الاستثنائي».

الحجة القرآنية هذه يمكن وضعها فِي هذا الشكل المنطقي؛ كَأَنَ نقول مخاطِبِينَ الملحدَ: أنت تعلم من نفسك أنك حادثٌ وُجِدْتَ بعد أن لم تكن، فإما أن تكون قد أَوْجَدْتَ نفسك، أو

وُجِدْتَ من العدم، ومن المستحيل أن توجِد نفسك، ومن المستحيل أن توجَدَ من العدم؛ إذًا فقد أَوْجَدَكَ شيءٌ، هذا الموجدُ إما أن يكون أنت نفسَك، أو يكونَ غيرَك.

من المستحيل أن تكون أنت الَّذِي أوجدت نفسك؛ إذًا لا بد أن يكون شيء سواك هو الَّذِي أوجدك، إما أن يكون هذا الَّذِي أوجدك أن يكون مثلك فِي حاجته إِلَى من يوجده أو لا يكون، لا يمكن أن يكون مثلك؛ إذ ما قيل عَنْك سيقال عَنْه أَيْضًا؛ إذًا لا بد أن يكون خالقًا غنيًا بنفسه غيرَ مفتقرٍ إِلَى مَنْ يُوجِدُهُ، وهذا هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فهذا قَطْعٌ لِحُجَجِ أُولَئِكَ الجاحدينَ المنكرينَ لوجود رب العالمين، والأمر يسيرٌ كما ترى.

فهذا دليل الخلق ودليل الآيات.

دليل الخلق سماه علماؤنا أَيْضًا: «دليلَ الإبداع»، أو «دليلَ الاختراع».

ودليل الحدوث هو: العالَمُ متغيِّرٌ، وكل متغيرٍ حادثٌ، وكل حادث لا بد له من محدث، ولا بد أن يقف العقل عَنْد مُحْدِثٍ غيرَ حادثٍ، وإلا لزم الدَّوْرُ والتسلسل، وهما مُحَالَان.

هذا دليل الحدوث.

ذَلِكَ المحدث هو الله، وهو دليل الإمكان؛ أن الموجودات إما أن تكون واجبة الوجود جميعًا، وإما أن تكون ممكنة الوجود جميعًا.

إما أن تكون هذه الموجودات ممكنة، وإما أن تكون واجبة.

الواجب: ما كَانَ وُجوده لذاته من حيث هي، بمعنى أَنَّهَا تكون - أي هذه الموجودات - غير حادثة، لم يسبقها فناء ولا عدم، وذَلِكَ مرفوض عقلًا؛ لِأَنَّهَا متغيرة، وكل متغير حادث، وهذا الحادث لا بد له من محدث، فلا يمكن أن تكون هذه الموجودات واجبةً بمعنى أنها ليست بمسبوقة بعدم، وأن وجودها ليس من غيرها، هذا مرفوض عقلًا.

لا يمكن أن تكون من القسم الثالث من أقسام المعلوم؛ لِأَنَّهُ لا يُذْكَرُ ههنا - وهو «المستحيل»-؛ لِأَنَّهَا موجودة.

والمستحيل: عدمه لذاته من حيث هي، وهي موجودة؛ إذًا هي إما أن تكون ممكنة، وإما أن تكون واجبة.

قد بطل أن تكون واجبة؛ فلا بد أن تكون هذه الموجوداتُ ممكنةً.

لا يمكن أن تكون لا أول لها!!

لا يمكن أن تكون غير مخلوقة!!

لا يمكن أن هذه الموجوداتُ أَعْطَتِ الوجودَ لنفسها، أو وُجُودُها من ذاتها!!

هذا مرفوض كما مَرَّ.

إذًا؛ هذه الموجودات كلها؛ لأن الَّذِي تعلمه مما هو موجود قسمان:

خالق ومخلوق.

ممكن وواجب.

مُحْدِثٌ وحادث.

مصنوع وصانع.

كل ما هو موجود لا يخرج عَنْ هذين القسمين؛ إما أن يكون ممكنًا، يعني أَنَّهُ لم يكن ثم كَانَ، ويصير إِلَى العدم بعد الوجود.

إذًا هو يحتاج إِلَى موجِدٍ، وهذا الموجد هو الواجب.

هذا هو الاستدلال العقلي المنطقي.

إذًا؛ هذه الموجودات إما أن تكون واجبة الوجود جميعًا، وإما أن تكون ممكنة الوجود جميعًا.

محال أن تكون واجبةَ الوجودِ كلَّها، ومحال أن تكون ممكنة الوجود، فبقي الفرض الثالث، وهو أن يكون بعضُها، يعني جميع الموجودات - بما في ذلك «الواجب» -، وهذا قبل التقسيم، فبعضها يكون ممكنَ الوجود، وهو هذا العالمُ، وواجبَ الوجود، وهو الذي أعطاها الوجود، وهو الله تعالى.

يقولون: هذا دليل الإمكان.

فالأدلة عند علمائنا المتقدمين كثيرة، أغنانا الله تبارك وتعالى بها عند مناقشة الملحدين من أن نَتَقَمَّمَ من هنا وهنالك؛ لكنَّ الذي يجحد ويكابر ويعاند؛ هذا لا تنفع معه حجة.

في كتاب «الله جل جلاله» نَظَرٌ فِي حدوث الكون:

أول ظاهرة تَدُلّنا على الله: هي حدوث هذا الكون الَّذِي يدلنا على أن له محدثًا، وكلما تقدم الْعِلْم أكثر؛ أعطانا الدليل بشكل أدقَّ وأعْمَقَ وأكثرَ إقناعًا على هذه الظاهرة؛ بل ما قَدَّمَهُ الْعِلْم

من أدلةٍ جَعَلَهَا فِي حكم البَدِيهِيَّةِ، إذ وضوحُ الأدلةِ وتَعَاضُضُهَا لم يُبْقِ مجالًا للشك فِيها، فقوانينُ الْحَرَارَةِ وقوانينُ الْإِلِكْتُرُون والطاقةُ الشَّمْسيةُ؛ قَدَّمَ كُلٌّ منها دليلًا واضحًا على هذه القضية، وبِتَضَافُرِ هذه الأدلةِ يَظْهَرُ الأمرُ ظهورًا لا يبقى معه مجالٌ للشك.

هذا سوى الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التي ذكرها الربانيون من الْعلماء فِي كل عصر.

فلْننظرْ في هذا الجانبِ الأول، وهو ما يتعلق بحدوث الكون.

والقوانين الطبيعية التي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا علماء المادة التي أثبتت بطريقة قطعية حدوث هذا الكون، فقوانين الْحَرَارَة مثلًا؛ يَقُول بعض أُولَئِكَ الفيزيائيين - وهو رئيسُ قسمِ الفلسفةِ فِي جامعة السُّرْبُون قديمًا - في كتابٍ له، هو «مصيرُ البشريةِ»، يقول:

إن أحد وجوه النجاح الْعَظِيمة التي حققها الْعِلْم الْحَدِيث: ربط قانون «كَارْنُتْ كُلُوزْيُسْ»، وهو يُدْعَى أَيْضًا بـ«القانونِ الثاني من قوانينِ التِّرْمُودَيْنَمِكْ»، أو «الدِّينَامِيك الْحَرَارِيّ».

قال: الَّذِي يُعْتَبَرُ مِفتاحَ فَهْمِنَا للمادة غيرِ الحية بحساب الاحتمالات، وقد أثبت الفيزيائي «بُولْتِزْمَانْ» أن التطور غيرَ الحيِّ وغيرَ القابلِ للانعكاس الَّذِي يفرضه هذا القانونُ يوافق تطورًا نحو حالاتٍ أكثرَ وأكثر احتمالًا، تتصف بازدياد التناظر وتوازن القدرة، وهكذا فإن الكون يميل نحو التوازن، حيث تزول جميع عدم التناظرات الموجودة فِي الوقت الحاضر، وتقف جميع الحركات، ويسود الظلام التام.

عَبَّرَ «لُوسْكِيلْ» عَنْ هذا القانون، وكيف أَنَّهُ يُثْبِتُ به أن لهذا الكون بدايةً.

هَؤُلَاءِ ماديون طبيعيون فِيزيائيون!!

هؤلاء ليسوا بمسلمين؛ بل منهم من كَانَ ملحدًا؛ ولَكِنه عَنْدَ النظر فِي أمثال هذه القوانين المادية الطبيعية يأتي لنا بهذا الكلام!!

يقول: قد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه، وعلى حينَ يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزليةِ هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوُجُود إِلهٍ أزلي؛ ولَكِنَّ القانونَ الثاني من قوانين الدِّينَامِيكَ الْحَرَارِيّ يثبت خطأ هذا الرأي؛ فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليًا، فهُنَاكَ انتقالٌ حَرَارِيٌّ مستمرٌّ من الأجسام الحارة إِلَى

الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوةٍ ذاتية، ومعنى ذَلِكَ: أن الكون يتجه إِلَى درجة تتساوى فِيها حرارة جميع الأجسام، وَيَنْضُبُ منها مَعِينُ الطاقة، ويومئذ لن يكون هُنَاكَ عملياتٌ كيماويةٌ أو طبيعيةٌ، ولن يكون هُنَالكَ أثرٌ للحياةِ نفسِها فِي هذا الكون؛ لِذَلِكَ فإننا نَسْتَنْتِجُ أنَّ هذا الكونَ لا يمكن أن يكون أزليًا؛ وإلا لَاسْتُهْلِكَتْ طاقتُهُ منذ زمنٍ بعيد، وَتَوَقَّفَ كلُّ نشاط فِي الوجود. وهكذا تَوَصَّلَت العلومُ دون قصدٍ أن لهذا الكون بداية، وهي بذَلِكَ تُثْبِتُ وُجُود الله، وما كَانَ له بدايةٌ لا يمكن أن يكون قد بَدَأَ بنفسِه، ولا بد له من مُبْدِإٍ أو مِنْ مُحَرِّكٍ أول، أو مِنْ خالقٍ، وهو الإله الْعَظِيم، وهو الله.

أيضًا؛ عالمٌ من علماء الطبيعةِ الْبَيُولُوجِيَّةِ يستدل على عدم أزلية هذا الكون بالقانون نفسه، فيقول: كثيرًا ما يقال: إن هذا الكون المادي لا يحتاج إِلَى خالق.

كما يَقُول الْمُلْحِدُونَ من الفيزيائيين والفلاسفة ومَنْ تَبِعَهُمْ مِن الرَّعاع الَّذِينَ لا يفكرون؛ ولَـكِنْ هم مبهورون بما عَنْد القوم!!

فيقولون: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وصلوا فِي العلوم المادية إِلَى ما وصلوا إِلَيْهِ لا يمكن أن يكونوا مخطئين، فإذا أَلْحَدُوا أَلْحَدُوا وَرَاءَهم!!

إذا شَكُّوا شَكُّوا كما شَكُّوا!!

فيقول:

كثيرًا ما يقال: إن هذا الكون المادي لا يحتاج إِلَى خالق؛ ولَكِننا إِذَا سلمنا بأن هذا الكون موجود؛ فكيف وُجُوده ونشأته؟

هُنَاكَ أربعة احتمالات للإجابة عَنْ هذا السؤال:

فإما أن يكون هذا الكون مجرد وَهْمٍ وخيالٍ، وهو ما يتعارض مع القضية التي سَلَّمْنَا بها حول وُجُوده؛ لأننا نبحث عن سبب وجوده، عن مَنْشَئِهِ، فإذا قلنا: هو وَهْمٌ وخيالٌ؛ فقد تَنَاقَضْنَا.

إذا كنا نحن نبحث في وجوده؛ أنقول: هو وهم وخيال؟!!

ولَكِنْ هذا احتمال.

وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم.

وإما أن يكون أبديًا ليس لنشأته بداية.

وإما أن يكون له خالق.

فهذه احتمالات أربعة.

الاحتمال الأول: هو أن هذا الوجود ليس بموجود، وأن ما نحن فيه ونحن أيضًا وَهْمٌ وخيالٌ!!

هذا الاحتمال لا يُقِيمُ أمامَنا مشكلةً سوى مشكلةِ الإحساس والشعور، فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فِيه لا يعدو أن يكون وهمًا من الأوهام، ليس له ظل من الْحَقِيقة!!

فالرأي الذي يدعي أن هذا الكون ليس له وجود فِعْلِيٌّ، وأنه مجرد صورة في أذهاننا، وأننا نعيش في عالم من الأوهام؛ هذا لا يحتاج إلى مناقشة ولا إلى جدال.

الرأي الثاني الذي يقول: إن هذا العالم بما فِيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم!!

قال: فهو لا يَقِلُّ عَنْ سابقه سُخْفًا وحماقةً، ولا يستحق هو أَيْضًا أن يكون موضعًا للنظر أو المناقشة.

القرآن دلنا على ذَلِكَ من قديم، وأسس عليه علماؤنا - عليهم الرحمة - هذه الاحتمالات؛ ولَـكِنْ نحن الآن مع احتمالاتٍ يَقُول بها عالِمُ الطبيعة الْبَيُولُوجِيَّة «فْرَانْكْ آلَنْ».

هذا ليس بمسلم، وليس بعربي، ولم يَتْلُ كتابَ الله تبارك وتعالى؛ ولَـكِنه عَنْدما أَعْمَلَ فطرتَه وعقلَه؛ يتوصل إِلَى هذه الاحتمالات، ثم ينقضُها احتمالًا احتمالًا ليصل إِلَى الصواب من ذَلِكَ.

الرأي الثالث يقول: الَّذِي يذهب إِلَى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية، إنما يشترك مع الرأي الَّذِي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذَلِكَ فِي عَنْصرٍ واحد هو «الأزلية»، كما مر أن الَّذِينَ يَقُولون بأن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الوجود، وهي التي خلقت الخلق!!

فيقال: تقولون عَنْ الطبيعة: «أزليةٌ أبديةٌ»!! فقد أعطيتموها صِفَتَيْنِ من صفاتِ الخَالِقِ الْعَظِيم: «الأولَ والآخِرَ»؛ فقد اتخذتم إلهًا من دون الله!!

وأنتم تزعمون - أعني الأبعدين - أَنَّهُ لا خالق للكون ولا موجد له؛ فقد تناقضوا!!

هم يَقُولون: إِنَّهُم ملحدون، ويُفَاخِرُونَ بذَلِكَ، ومع ذَلِكَ يثبتون للكون خالقًا!!

ولَـكِنهم بَدَلَ أن يرجعوا بالأمر إِلَى أصله، وأن يَقُولوا: هو الله جَلَّ وَعَلَا؛ يَقُولون: «الطبيعة»!!

فَجَعَلُوها إلهًا خالقًا!!

وسيأتي لِذَلِكَ مزيدُ بحثٍ إن شاء الله جَلَّ وَعَلَا.

إذًا؛ الذين يقولون: هذا الكون أبدي؛ يشتركون مع الذين ينادون بوجود خالق لهذا الكون فِي عَنْصر واحد، وهو «الأزلية».

إذًا؛ فنحن إما أن نَنْسُبَ صفة الأزلية إِلَى عالَمٍ ميت، وإما أن ننسبها إِلَى إلهٍ حيٍّ يَخْلُقُ.

ليس هُنَالِكَ صعوبة فكرية فِي الأخذ بأحد الاحتمالَيْنِ أكثرَ مما فِي الآخر؛ ولَكِنَّ قوانينَ الدِّينَامِيكا الحراريةِ تَدُلّ على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًا، وأنها سائرة حتمًا إِلَى يومٍ تصير فِيه الأجسام تحت درجةٍ من الْحَرَارَة بالغةِ الانخفاضِ، هي «الصِّفْرُ الْمُطْلَقُ»، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة.

ولا مَنَاصَ عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عَنْدما تصل درجةُ حرارةِ الأجسامِ إِلَى الصِّفْرِ الْمُطْلَقِ بِمُضِيِّ الوقت.

أما الشَّمْس الْمُسْتَعِرَةُ، والنجومُ الْمُتَوَهِّجَةُ، والأرضُ الغَنِيَّةُ بأنواعِ الحياة، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسَه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة؛ فهو إِذًا حَدَثٌ من الأحداث.

كما قال علماؤنا: هو ممكن، هو حادث.

فهذا يقول: هو حَدَثٌ من الأحداث.

ومعنى ذَلِكَ: أَنَّهُ لابد لأصلِ الكونِ من خالقٍ أزليٍّ ليس له بدايةٌ، عليمٍ محيطٍ بكل شيء، قويٍّ ليس لقدرتِه حدودٌ، ولابد أن يكون هذا الكونُ مِنْ صُنْعِ يديه.

فهذا القانون - وهو «قانونُ الدِّينَامِيكا الْحَرَارِيَّةِ» - يُثْبِتُ وُجُودَ الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ حتى عَنْد المنكرين لوجوده جَلَّ وَعَلَا، ولا يجدون مناصًا من التسليم.

لا بد من أنْ يُسَلِّمُوا كما سمعتَ فِي كلامهم.

فالقانون إذًا يثبت أن الكون ما دام فِيه حرارةٌ؛ فلا يمكن أن يكون أزليًا؛ لأن الْحَرَارَة لا يمكن أن توجَد بنفسها بعد برودته، ولو كَانَ أزليًا لكان باردًا.

أيضًا؛ قوانين الحركةِ الْإِلِكْتُرُونِيَّةِ هذه أَيْضًا تثبت حدوث هذا الكون بالدليل المادي الَّذِي يعرفه أُولَئِكَ.

فالشهادة الأخرى التي تَدُلّ على حدوث الكون نجدها فِي كل ذرة من ذرات الوجود على الإطلاق، وذَلِكَ أن ذرات الكون كلَّها مؤلفةٌ من جزئياتٍ كهربائيةٍ سالبةٍ وموجَبةٍ.

الموجَبَةُ يُطْلَقُ عليها اسمُ «الْبُرُوتُونْ»، والسالبةُ يطلق عليها اسم «الْإِلِكْتُرُونْ»، وبعض الذرات فِيها زيادةٌ على ذَلِكَ شحنةٌ معتدلة تسمى: «النِّيتْرُونْ».

الْبُرُوتُونْ والنِّيتْرُونْ يشكلان نواة الذرة، بينما الإلكترون يشكل كواكبها السيارة التي تدور حولها بسرعة هائلة، بحركة دائرية إِهْلِيلِيجِيَّةٍ - يعني ليست منتظمةً فِي كونها دائرةً، في دائريتها -.

بِسَبَب هذه السرعة الهائلة فِي حركة الإلكترون يبقى الإلكترون متحركًا هذه الحركة؛ إذ لو لا هذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الإلكترون، وهو ما يسمى ب«قوةِ الطَّرْدِ المركزيّ».

وقديمًا ضربوا لها مثالًا:

لو أتيتَ بخيط فجعلتَ مربوطًا فِيه قطعةً من الحجارة أو مَسْطَرَةً مما يُسْتَخْدَمُ فِي الحساب، ثم أخذت تدير الخيط بما ربط فِيه دورانًا سريعًا، لو أنك كففت عَنْ الحركة؛ وقع الحجر أو وقعت المسطرة على يدك، تقع.

وأما الَّذِي يضمن حركتها؛ فهو ما يسمى ب«قوة الطرد المركزية»، فكذَلِكَ الإلكترون؛ شحنة سالبة.

هُنَالِكَ شحنة موجبة فِي النواة، فِي الذرة، لو لم يكن متحركًا فيؤدي الطرد المركزي إِلَى كونه ثابتًا فِي حركته، فِي مداره، لو لم يكن متحركًا لوقع على النواة، وحينئذ لو وقع؛ ما الَّذِي يحدث؟ يحدث العجب العجاب؛ إذ في هذه الحالة يصبح جِرْمٌ كالكرة الْأَرْضيَّة فِي حجم بيضة الدجاجة؛ إذ الفراغ كبير جدًا فِي عالم الذرة، فكتل الجزيئات لا تأخذ إلا حيزًا صغيرًا جدًا من فراغ الذرة الواسع، وذَلِكَ أن البعد بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشَّمْس وكواكبها السيارة نسبيًا، فلو أن هذا البعد بين الإلكترونات، بين الكُهَيْرِبَاتِ السالبة التي تدور فِي مداراتها حول النواة الموجبة؛ لو أن هذا الفراغ بين هذه الكهيربات السالبة والنواة انْمَحَى، فكان فِي كل ذرةٍ الِكْتُرُونَاتُهَا على نواتها فصارت الأنوية مجموعة؛ ما وجد جرم

كالشمس إلا كبيضة الدجاجة، إذا فَقَدَ الفراغاتِ الْبَيْنِيَّةَ التي تكون بين الإلكترونات الدائرة فِي مداراتها حول أنوية الذرات.

إذًا؛ الإلكترون فِي أكثر ذرات الوجود - إن لم يكن فِي كلها - فِي حركة دائمة دائرية إهْلِيلِيجِيَّةٍ.

ليس هُنَاكَ أي دليل فِي الوجود يدل على أَنَّهُ يمكن أن يكون هُنَاكَ وَضْعٌ آخَرُ للإلكترون كَانَ عليه أولًا، ثم انتقل إِلَى هذه الحال؛ إن لم نحكم باستحالة تصورٍ آخَرَ يكون أقدمَ من هذا الوضع، إذ لو كان لاحتجنا إِلَى مؤثر جعل الإلكترونات تتحرك بعد خمود، فيتوسع الكون بعد ضيق.

هذا الكون كله مؤلف من نفس الذرات التي عرفنا خصائصها هنا؛ بل من نفس العناصر، وهذه الحركة التي نجدها فِي الإلكترون نجدها فِي كل جرم فِي الفضاء.

وتَبَعًا: الشيء الدائر لا بد أن تكون له نقطةُ بدايةٍ زمانيةٍ ومكانيةٍ بَدَأَ منها دورته، كما قيل: «الفَلَكُ دائريٌّ، وهو فِي دَوَرَان».

فيقال: حسن، ما دام الفلك فِي دوران؛ فدوراته الآن؛ لِأَنَّهُ يدور، فالدائرة - كما تعلم - يمكن أن نجعل هُنَالِكَ بداية متخيلة على محيطها.

هذا الشيء الَّذِي يدور حركة دائرية؛ تصور أي نقطة على محيط تلك الدائرة، يتحرك جسمٌ حركةً دائريةً فِي محيط تلك الدائرة، فإذا ما تصورتَ ذَلِكَ؛ فإنه يبدأ منه ويعود إِلَيْهِ.

فهذه دورة.

فيقال حينئذ: الدورات التي دارها هذا الشيء الدائر فِي مداره؛ إما أن تكون زوجية، وإما أن تكون فردية.

هل هُنَالِكَ احتمال ثالث؟!

إما أن تكون عدد دوراته فردية أو زوجية، وعلى كلٍّ؛ فسواءٌ كَانَت زوجية أم كَانَت فردية؛ فهي محدودة نهائية مهما بلغ عددها، وحينئذ يكون لها بداية، وما دام لها بداية؛ فمن الَّذِي أعطاه الحركة؟

وهذا ما وصلوا إِلَيْهِ بالبحث فِي هذه المسائل التي مر ذكرها.

الشيء الدائر لا بد أن يكون له نقطةُ بدايةٍ زمانيةٍ ومكانيةٍ بَدَأَ منها دورَتَه.

هذا لا ينكره العقل؛ بل لا يستطيع أن ينكره.

ولما كَانَت الإلكترونات والْأَجْرَامُ أَيْضًا كلُّها فِي حركة دائرية، ولما كَانَت هذه الحركة غير مستأنفة كما يبدوا؛ فإذًا لا بد أن تكون هُنَاكَ بدايةٌ زمانيةٌ ومكانيةٌ لحركةِ الإلكترون فِي مداره حول نواته.

هذه البداية فِي الْحَقيقة هي بداية وُجُود الذرات نفسها، وبهذا نكون قد وصلنا إِلَى أن الكون له بداية ونشأة، وله خالق خَلَقَ من العدم؛ إذ العدمُ لا يَنْتُجُ عَنْه وُجُود.

فهذا أَيْضًا دليلٌ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ علماءُ المادةِ بالنظر فِي تركيب الذرات، لإثبات وُجُود الخَالِق الْعَظِيم.

كذَلِكَ الطاقةُ الشَّمْسية.

فلا بد من كلمة تُوَضِّحُ معنى الأزلية:

لو وضعنا الرقم «١» وأمامَه أَصْفَارٌ ممتدة منه إِلَيْهِ على محيط الكرة الْأَرْضيَّة؛ تصور الآن محيطَ الكرةِ الْأَرْضيَّةِ، فأنت فِي أي نقطة من هذا المحيط؟!

كتبت الرقم «١»، ثم جعلت الأصفار ممتدة منه إِلَيْهِ على محيط الكرة الْأَرْضيَّة، هذا الرقم الكبير من السنين؛ إنما يمثل جزءًا كالصِّفْرِ تقريبًا بالنسبة إِلَى اللَّانِهَايَة أو الأبديةِ.

وضَرَبَ لها الْعلماءُ المتقدمون من علمائنا المسلمين مثلًا آخر، فقالوا: تصور أن الْأَرْض كتلةٌ مُصْمَتَةٌ من الطين، ليس فِيها بحار ولا أَنْهار ولا جبال، وإنما هي مستوية، كرةٌ من الطين، وتصور أن هذه الكتلة من الطين التي هي بحجم الكرة الْأَرْضيَّة؛ أَنَّهَا قد امتلأت بالذر - أي بالنمل الصغير -، ولا فراغات بين تلك النِّمَال، بل نملة تحاذيها مباشرةً نملةٌ أخرى من النمل الصغير - لا من الكبير -، وأن هُنَالكَ طائرًا يأتي كلَّ أَلْفَيْ سنةٍ، فَيَخْطِفُ من هذا النمل نملةً، لو تصورت أن هذا النمل يفنى لَفَنِيَ قبلَ أن يَفْنَى الخلودُ، لَفَنِيَ قَبْلَ أَنْ يَفْنَى اللَّانِهَايَة، لَفَنِيَ قبلَ أن تفنى الأبدية.

لِذَلِكَ يَظْلِمُ نفسَه الكافرُ جدًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا دخل النارَ كَانَ فِي الأبدية، وهذه الأبدية كما ترى: لو أنك كتبت رقم «١» على محيط الأرض، ثم جعلت الأصفار منه إليه؛ فهذه الأصفار كلها لا

تمثل شيئًا من حيث العدد إلا قدرًا يسيرًا جدًا – لا تمثل شيئًا – بالنسبة للأبدية؛ لأن الأبديةَ «لا نهاية».

تصور أنت الآن؛ لا نهاية!!

إذا دخلتَ الجنة فأنت في اللانهاية!! في الأبدية!! نعيم بخلود لا فناء معه، ولا فناء يتبعه!! بل تكون خالدًا فِي الجنة أبدًا!!

وكذَلِكَ الكافر الَّذِي يدخل النار!!

هذا أمر كبير.

فالآن لو نظرنا إِلَى الَّذِينَ يَقُولون بقدم المادة، الَّذِينَ يقولون بقدم المادة يعطون المادة هذا المعنى، فيعطونها الأبدية!!

وهذا الَّذِي تُثْبِتُ الظواهرُ كلُّها استحالَتَهُ وخِلَافَه.

الظاهرة التي يكون الكلام عَنْها هنا تمثل إحدى هذه الظواهر.

من أين تأتي الشَّمْس بطاقتها؟

كيف تحافظ الشَّمْس على حرارتها؟

عندما تقول: «الشَّمْس»؛ فأنت تعني ههنا كل نجوم هذا الكون.

نجوم هذا الكون كلُّها شموسٌ تُرَى صغيرةً لِبُعْدِهَا عَنَّا، وشمسنا هذه نموذج عَنْها.

السؤالان اللذان مَرَّا مهمانِ جدًا.

من أين تأتي الشَّمْس بطاقتها؟

وكيف تحافظ الشمسُ أيُّ شمسٍ، أيُّ نجمٍ من النُّجُومِ المتوهجةِ، كيف يحافظ على حرارته؟

الشمس وكل الشموس فِي حالة إعطاء دائم، فهي تعطي دائمًا إشعاعًا حراريًا يُشَكِّلُ طاقةً، فكل الطاقة الموجودة فِي الْأَرْض جعلها الله مستمَدةً من الشَّمْس.

لقد أُضِيءَ مَعْرَضُ شِيكَاغُو الَّذِي أقيم سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وألف «١٩٣٣» بكامله بواسطة مفتاحٍ ضخم يدار بواسطة شعاع ضئيل، كَانَ قد انبعث من نجمِ السِّمَاكِ الرَّامِحِ منذ أربعين سنة!!

فهذه طاقة عظيمة!!

فهذه الشموسُ شمسنا هذه منها ونموذج عليها، هي فِي حالة إعطاء دائم.

فما سبب هذه الطاقة بهذه الشموس؟

أجيب عَنْ هذا السؤال بأكثر من جواب؛ ولَكِنها لم تكن مقنعة؛ كالشأن فِي الفروض والنظريات، ثم يصل الْعلماء إِلَى الْحقائق، كما مر فِي المنهج الْعِلْمي بخطواته المختلفة.

ذرات هذه الشموس تتحطم فِي قلبها المرتفع الْحَرَارَةِ جدًا، بواسطة هذا التحطم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التي لا مثيل لها.

وكما هو معلوم أن الذرة عَنْدما تتحطم؛ تفقد جزءًا من كتلتها، حيث يتحول هذا الجزء إِلَى طاقة.

إذًا؛ فإن كل يوم يمر على أي شمس معناه: فقدان جزء - ولو يسيرًا - من كتلته، يتحول إِلَى طاقة.

إن الشَّمْس مثلًا تفقد كل يوم كذا كيلو جرام، وكذَلِكَ مثلها بقية النُّجُوم.

لو كَانَت هذه الشموس قديمة أزلية - بمعنى أَنَّهُ لا أول لها -؛ فهل يمكن أن تكون فِي وضعها الحالي، أو أَنَّهُا تكون قد استنفذت جميع كتلتها وانتهى أمرها؟

الأزل كما مر هو الأزل؛ ولَكِنَّ نسبة التحول إِلَى غير التحول تبقى ضئيلةً كنسبة النُّجُوم إِلَى الفضاء.

والكلام ليس ههنا فِي جزء من الكون يفقد ويعوض، فقد يوجد مثل هذا التوازن أحيانًا؛ ولَكِن الكلام فِي الكون كله، إذ ما دام الفضاء عظيمًا؛ فَحَتْمًا سيضيع قسم كبير من هذه الطاقةِ ولا يتحولُ إِلَى مادة، وما دام هُنَاكَ شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكيله المادي بشكلٍ مَّا مِنْ جديد؛ فإن تصور أزلية الكون الحالي مستحيلةٍ.

بهذا يقضي الْعِلْمُ الماديُّ؛ إذ شعاع واحد على مدى الأزل - كما يقولون: الكونُ أزلي!! الكونُ لا بدايةَ له!!-، شعاع واحد على مدى الأزل كافٍ لاستنفاذ طاقة الوجود كله.

أما الكلام بأن الكون كله كَانَ فِي الأصل طاقة، فتحولت الطاقة إِلَى مادة، وهو الآن مادة تتحول إِلَى طاقة، ومِنْ ثَمَّ يكون مادةً وهكذا؛ فالذي يبدو؛ أن المغالطات فِيه واضحة؛ ذَلِكَ أن الطاقة كطاقةٍ إنما تظهر إِذَا وجدت مادةً مَّا تقوم بها، فالطاقة تحتاج إِلَى ذات، وبدون ذات

تكون أشبه بمعدوم، أو بتعبير الْعلماء القدامى: الطاقة عَرَضٌ تحتاج إِلَى جوهر لتظهر فِيه، فإشعاع الشَّمْس عَنْدما يصادف الْأَرْض مثلًا؛ تأخذ ذرات الْأَرْض حرارته، وبهذا تصبح ذرات الْأَرْض مشحونة بالطاقة الحرارية، على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن.

وبهذا يتضح بما لا شك فِيه أن هذا الكون ليس قديمًا؛ بل له بداية، وأنه لا يتصور وُجُوده لو لا أن له خالقًا، هذا الخَالِق ابتدأ خلقه ووجوده بعد إذ لم يكن.

عبر علماء التوحيد القدامي عَنْ قضية حدوث الكون وابتدائه من العدم بقدرة الله تعالى هكذا:

نظروا إِلَى الكون فوجدوا ما فِيه على نوعين:

نوعٍ يقوم بذاته، ونوعٍ لا يقوم بلا ذات.

فمثلًا: الجسم يقوم بذاته؛ ولَكِن المرض، ولَكِن العَرَضَ لا يكون بلا جسم.

الذرة تقوم بذاتها؛ ولَكِن الْحَرَارَة لا تكون بلا ذات، وسموا ما يقوم بذاته: «الجوهر»، وما لا يقوم إلا بالجوهر سَمَّوْهُ: «عَرَضًا».

فالذرة جوهر، وحرارتها عرض، والجسم جوهر، والصحة عرض.

قالو: إن الجواهر لا تنفك عَنْ الأعراض، فما رأينا جوهرًا إلا ويلازمه عرضٌ مَّا؛ كالذات والصفة، لا يمكن أن توجد ذات بلا صفة.

ما من ذات موجودة إلا ولها صفة أو صفات، فكذَلِكَ ما من جوهر ـ وهو الذات ـ إلا وله عرضٌ مَّا، وهو «الصفة».

كل عرض حادثٌ.

الظلام حادث؛ فمنذ فترة كَانَ قبله نهار.

النهار حادث؛ فمنذ فترة كَانَ قبله ليل.

حرارة الذرات مهما كَانَت فان لها بداية وكذَلِكَ برودتها لها بداية وهكذا.

وإذًا؛ فما من عرض إلا وله بداية، واذا كَانَ لا جوهر إلا بعرض؛ فلا جوهر إلا وله بداية أَيْضًا؛ لأنه لا عرض إلا وله بداية، ولا جوهر – أي ولا ذات – إلا ولها عرض، ولما كان العرض له أول؛ فكذلك الذات لا بد لها من أول، ولا بد لها من بداية.

فالكون - جواهرُه وأعراضُه - كلُّه حادثٌ، وليس أزليًا.

فهذا دليل عقلي عَبَّرَ به علماؤنا المتقدمون عَنْ قضية حدوث الكون، وكذَلِكَ الْعِلْم الحَدِيثُ كما مر فِيما يتعلق بالقانون الثاني من قوانين الدِّينَامِيكَا الحَرَارِيَّة، وكذَلِكَ ما يتعلق بالذرات، وكذَلِكَ ما يتعلق بأمثال هذه المسائل الْعِلْمية.

كل ذَلِكَ يدلنا على أن الكون إنما هو مخلوق حادث، لم يَكُنْ فَكَانَ، والله عز وجل هو الَّذِي أوجده، وهو الَّذِي أحدثه، وهو الَّذِي خلقه، وهو الخلاق الْعَظِيم.

نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«المُحَاضَرَةُ الثَّامِنَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن من الأدلة التي استدل بها الْعِلْماءُ على وُجُود الخالق تبارك وتعالى: «دليلُ الحدوثِ»، أو «دليلُ الإبداعِ»، أو «دليلُ الاختراع»، أو «دليلُ الخلق».

والإسلام يمضي على سنن الْعِلْم لا يفارقها؛ بل إِنَّهُ الَّذِي خط تلك السنن التي يسير عليها الْعِلْم.

قال الغمراوي رحمه الله :

إذا اتبعنا طريقة الْعِلْم، وانتفعنا بِيَقِينِيَّاتِهِ فِي الاستدلال على وحدانية الله سبحانه؛ وجدنا الطريق مُعَبَّدًا ميسرًا لا عوج فِيه ولا تَعْقِيد.

إن الْعِلْم دائمًا يستند إِلَى الواقع، والواقعُ قد دل دلالةً يقينية ألّا شيء من هذه الموجودات المحسوسة يمكن أن يكون قد أوجد نفسه، أو أن يكون أَوْجَدَتْهُ المصادفةُ؛ فلا بد له إذًا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهُ بعد أن لم يكن،

فهل موجِدٌ واحدٌ أوجد كلَّ هذه الموجودات؛ أم هل تعدد الموجدون؟

النظر الْعِلْمي يقتضي ابتداءً بأنه ليس هُنَالِكَ سوى موجِدٍ واحدٍ لا غير.

أولًا: لأن هذا أيسر تفسير للوجود، والْعِلْمُ نفسه يأخذ بأيسر التفاسير إن وجد للواقع أكثر من تفسير؛ لأننا إن تعدينا التوحيد إِلَى التعديد من غير قرينة ولا دليل؛ كَانَ ذَلِكَ قولًا اعْتِبَاطِيًّا لا يجيزه الْعِلْم ولا ينظر فِيه.

ثانيًا: إِذَا قيل بالتعديد اعْتِبَاطًا؛ لم يكن هُنَاكَ فِي عدد الْمُوجِدِينَ حَدٌّ يوقف عَنْده، ما دام ليس هُنَاكَ قرينة ولا دليل من الواقع يشهد لهذا أو لذاك؛ فهو اعتباطٌ إِلَى اعتباطٍ فِي القول، وتَخَبُّطٌ إِلَى تَخَبُّطٍ فِي النظر، وهذا يناقض طريقة الْعِلْم، وهي الطريقة التي وَقَتْهُ الاضطرابَ فِي البحث، وهَدَتْهُ إِلَى عجائب أسرار الفطرة التي جعلت الْعِلْمَ الْحَدِيثَ أُعْجُوبَةَ القرونِ.

النظر الْعِلْمي لا يقنع من نفسه بهذا؛ بل يمضي فِي بحثه عَنْ وحدة النظام الَّذِي فِي الكون كنتيجة لازمة لوحدانية خالق الكون، وهو بعمله هذا يزداد تفهمًا للكون الَّذِي هو موضوع دراسة الْعِلْم، ويزيد دليل وحدانية الخَالِق ظهورًا وقوةً كلما كشف مظهرًا من مظاهر وحدة نظام الكون، حتى إِذَا بلغ من ذَلِكَ منتهاه، وأثبت عَنْ طريق يقينيات الْعِلْم أن فطرة الكون

على اختلاف مظاهرها إنما هي فطرة واحدة متماسكة متكاملة؛ فقد جعل وحدانيةَ فاطر الفطرة فوق شك الشاكين.

ميدان النظر يتسع بعد ذَلِكَ أمام الناظر اتساع الكون؛ لَكِنْ لا يُهِمُّ أين يبدأ، فأينما بدأ وجد آثار وحدة نظام الكون، ووجد مظاهرها ودلائلها، بشرط أن يتجنب الوهم والخطأ والهوى، أي: بشرط أن يكون علميًا فِي نظره؛ فإن باطلًا واحدًا يُدْخِلُهُ على نفسه ويَقْبَلُهُ على أَنَّهُ حقٌّ؛ جديرٌ أن يفسد عليه كل شيء، خصوصًا فِيما هو بصدده من تحري معرفة وحدة النظام فِي الكون؛ لأن الباطل هو نقيض الحَقّ، وأن أي تناقض يبدو له فِي الكون ونظامه يضله، ويسد عليه السبيل.

النظرة الإجمالية تكفي فِي الأول، ولعلها أهم النظرات؛ إذ يفهمها كل الناس.

والمحسوساتُ تنقسم فِي أَخْصَرِ تقسيمٍ إِلَى: حياةٍ، ومادةٍ، وطاقةٍ.

الحياةُ فِي مختلف صورها تنتفع بالمادة، والطاقةُ وتتوقف عليهما.

المادة والطاقة متلازمتان، فالمادة لا تنفك عَن الطاقة؛ ظاهرةٍ أو باطنةٍ، والطاقة لا تكاد تنفك عَنْ مادة، فدل ذَلِكَ على أن خالق المادة والطاقة واحدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه هو خالق الحياة.

الطاقة فِي الْأَرْض مصدرها الشَّمْس، فكل نارٍ تُوقَدُ، وكُلُّ طعامٍ يُؤْكَلُ؛ مصدرُ طاقتِهِ: الشَّمْسُ التي يَخْتَزِنُهَا النباتُ كيماويًا؛ ليكون غذاءً ووقودًا للحيوان؛ فضلًا عَنْ ضرورةِ الشَّمْسِ للحياة بالنهار، حتى طاقةُ الفحمِ وزيتُ البترولِ أصلُهما من الشَّمْس؛ لأن الفحم أصله نباتي، وزيت البترول أصله نباتي أو حيواني، ولو كَانَ أصله معدِنيًا؛ لكان مرجعُ طاقته أَيْضًا إِلَى الشَّمْس، حتى حرارةُ جوف الْأَرْض ونارِ البراكين أصلُها الشَّمْس؛ لأن الْأَرْض كَانَت قطعةً من الشَّمْس قبل أن تكون أرضًا.

أثبت ذَلِكَ الْعِلْمُ، ودل عليه القرآنُ.

فخالق الحياة والمادةِ والطاقةِ هو خالقُ الْأَرْضِ والشمس.

القمر مرتبط بالأرض، يدور حولها وينفع أهلها، وكان من قبلُ قطعةً منها كما كَانَت هي قطعة من الشَّمْس، فخالق الشَّمْس والقمر والأرض وما عليها واحدٌ سبحانه.

الأرض إنْ هي إلا سَيَّارٌ من سياراتِ المجموعةِ الشَّمْسية؛ وإن امتازت عَنْ سائرها بالحياة الدافقة.

بقية السيارات وأقمارُها أصلها أَيْضًا الشَّمْسُ، وهي مرتبطة بها كارتباط الْأَرْض وقمرها بها؛ فخالق المجموعة الشَّمْسية وما فِيها واحد سبحانه.

تأمل الآن فِي طريقة الاستدلال على الوحدانية بإثبات وحدة النظام الحاكم للكون، فيدلك ذَلِكَ على أن مصدره واحد، وهو الله جَلَّ وَعَلَا.

الشمس - وإن بدت لنا أعظمَ ما فِي السماء لِقُرْبِها النسبيِّ مِنَّا وبُعْدِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ الأخرى عَنَّا -؛ إنْ هي إلا نجمٌ متوسطُ القدرِ من نجوم السماء، كما أثبت علم الفلك الْحَدِيث.

نجوم السماء إنْ هي إلا شموس متأججة كشمسنا، بعضها أعظم منها وبعضها أصغر، وأكثرها مثلها أو نحوها؛ لَكِنها كلَّها طبيعتها واحدة، وأصلها واحد، خاضعة لنظام واحد، وهو: ما اصطلح على تسميته ب«الجاذبية»، وقانونها هو المتحكم فِي كل جسم فِي الْأَرْض وفي السماء؛ فخالق المجموعة الشَّمْسية وما فِي السماء بعدَها من نجم وكوكب واحدٌ، وهو الله سبحانه.

فِي السماء سوى الشَّمْس والنجوم سَدَائِمُ - جَمْعُ: سَدِيم -، أيْ سُحُبٌ ملتهبة هائلة، هي أصل النُّجُوم ومَجَامِيعِها، أي أن هذه كَانَت فِي الأصل سدائمَ كذَلِكَ، وكلها خاضعة للجاذبيةِ وقانِونها، فخالق الْأَرْض وما عليها، وخالق الشَّمْسِ والكواكبِ والنجومِ والسَّدَائِمِ واحدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإذا ثبت هكذا أن خالق الْأَرْض والسماء إلٰه واحد؛ فماذا بعد هذا يبتغي الناظر دليلًا على الوحدانية؟!!

وإذًا؛ فَقَدْ كَفَت النظرةُ الْعِلْمِيةُ الإجمالية لإظهار وحدة الكون بنظامه، ولإثبات أن لَّيس للكون وما فِيه إلا خالق واحد، هو الله الخَالِق البارىء سبحانه، وثبت بذَلِكَ عرضًا أن النظر الْعِلْمي كَانَ على حق حين رفض ابتداء أن يجيز القول بتعدد الخَالِقين؛ لأن النظر الْعِلْمي يرفض هذا التعددَ، ويُثْبِتُ خالقًا واحدًا للكون وما فِيه، فرفض ابتداءً أن يجيز القول بالتعدد - أي للخالِقِين -، أو أن يُضَيِّعَ الوقتَ بالنظر فِيه كفرضٍ من الفروض التي يفرضها الْعِلْم ثم يمحصها؛ بل رفض إضاعة الوقت فِي فرض كهذا؛ بَلْهَ أن يكون احتمالًا من الاحتمالات،

كما تفعل الفلسفة ويفعل علم الكلام، ومع ذَلِكَ فالْعِلْم فِي طريقه الَّذِي رسمه لنفسه من دراسة فطرة الكائنات بطريقته.

وقد مر أن الفطرة ههنا تعني: السننَ الإلهيةَ التي جعلها الله رب العالمين فِي هذا الكون، فالْعِلْم فِي طريقه الَّذِي رسمه لنفسه من دراسة فطرة الكائنات بطريقته التي أثبت بباهر نتائجِها صحتَها وجَدْوَاهَا؛ هذا الْعِلْم باستمراره فِي طريقه بطريقته لا يزال ولن يزال عاملًا دائبًا على الإثبات بالبرهان بعد البرهان على وحدة نظام الكون من ناحية - وحدة النظام -، وعلى وُجُود الله ووحدانيته من ناحية أخرى؛ فإن برهان الوحدانية هو أَيْضًا أعظم براهين الوجود، وكل التفاصيل التي كشفها الْعِلْم بعلومٍ وبحوثٍ أَجْرَاهَا رجالُه تُقِيمُ البرهانَ تِلْوَ البرهانِ على وُجُود الله سبحانه، وتزيد دليلَ وحدانِيَّتِهِ ظهورًا وتوكيدًا يَذْهَبُ بِشَكِّ الْمُتَشَكِّكِينَ وَتَمَحُّلِ الْمُتَمَحِّلِينَ مِنْ أهلِ الأهواءِ والشهواتِ إنْ هم رجعوا عَنْ أهوائهم إِلَى عقولهم، وإِلَى متابعة الْعِلْم ولو قليلًا.

فالْعِلْم نفسُه – العلمُ المادي - يثبت وحدة النظام الحاكم بقوانينه، بسننه الإلهية، وهذا يدل على الوحدانية، فالْعِلْم أثبت كما مر؛ العلم المادي الَّذِي يَرْتَكِنُ إِلَيْهِ مَنْ يرتكن فِي إنكار وُجُود الخَالِق الْعَظِيم، وفي القول بالإلحاد؛ هذا العلم المادي - كما مر – يثبت وُجُود الخَالِق، ثم هو يثبت وحدانية الخَالِق بكل ما يتوصل إِلَيْهِ حينًا بعد حين؛ لَكِن التفاصيل لا يمكن الإتيانُ بها فِي مجلس أو فِي مجالس؛ فإن مجموعها هو فِي صميمه: كُلُّ العلوم، فليس يحيط بها عالِمٌ أيًّا كَانَ؛ لَكِنَّ الإشارة إِلَيْهَا وضربَ الأمثالِ منها أمر ممكن، وهو يكفي فِي توضيح أن الْعِلْم بمجهوده المتصل يكشف السِّرَّ بعد السِّرِّ عَنْ وحدة النظام الحاكم للكون، ويزيدُ بكل سِرٍّ يَكْشِفُهُ برهانَ وحدانيةِ اللهِ خالقِ الكونِ؛ يزيد البرهانَ توكيدًا ورسوخًا يَدْخُلُ باليقينِ والإيمان بالله على كل نفسٍ، ويغزو بالإقناع حتى نفوسَ الْمُلْحِدِينَ.

دورة الماء بين البر والبحر، دورة العناصر اللازمة؛ كُلٌّ منها لاستمرار الحياة على الْأَرْض؛ كل ذَلِكَ أمر معروف، أو ينبغي أن يكون معروفًا، فالأكسجين والكربون مثلًا اللازمان لِتَنَفُّسِ وتَغَذِّي الأحياء، وللوقودِ فِي حياةِ الإنسان؛ يتحولان تدريجيًا إِلَى ثاني أكسيد الكربون الَّذِي لا ينتفع به، والذي يضر إِذَا زادت نسبته فِي الجو إِلَى نحوِ بِضعةِ أجزاءٍ على العشرةِ آلاف، فلو زاد

عَنْ هذه النسبة أَضَرَّ الأحياءَ، فلو لم يَتَجَدَّدَا بحياة النبات الَّذِي يُحَلِّلُ ثاني أكسيد الكربون بِخُضْرَةِ ورقه وضوء الشَّمْس، فيَتَغَذَّي بالكربون، وينمو ويَنْفُثُ الأكسجينَ، فكذَلِكَ يصنع النبات، فيأخذ ثاني أكسيد الكربون الَّذِي يضر بالإنسان، والذي يتنفسه الإنسان، يأخذه النبات من أجل أن يتغذى على الكربون الَّذِي فِيه، وينفث لنا نحن الأكسجين فِي الهواء للإنسان والحيوان يتنفسانه.

إذًا؛ لو لم يكن ذَلِكَ لنفذ الأكسجين من الهواء، وبَطَلَ الانتفاع بمركبات الكربون فِي الغذاء، وأَيُّ هذين لو حَدَثَ كافٍ لإيقاف الحياةِ على الْأَرْض، ومع ذَلِكَ فهذه الدورة دورةُ الأكسجين وثاني أكسيد الكربون بين الإنسان والحيوان من جانب، والنباتِ من جانب آخر؛ فالإنسان يأخذ من الهواء الأكسجينَ ويتخلص من ثاني أكسيد الكربون، النباتُ يأخذ ثاني أكسيد الكربون مع حرارة الشَّمْس، فيتغذى على الكربون الموجود فِي ثاني أكسيد الكربون، ويخرج لنا الأكسجين، فنأخذه نحن لنخرج ثاني أكسيد الكربون، يأخذه النبات من أجل أن يخرج لنا نحن الأكسجين الَّذِي نتفس ونحيا به.

فهذه الدورة كما ترى بقانون واحد تَدُلّ على قدرة الخَالِق جَلَّ وَعَلَا، لا على وُجُوده فَحَسْب؛ بل على قدرته، وعلى وحدانيته.

خطرٌ آخر يتهدد هذه الحياة بوقف دورة الكربون من ناحية أخرى، ووقف دورة غيره من العناصر الأساسية؛ كالْأَزُتّ والفُسْفُورِ الضروري، كل منهما للحياة، ذَلِكَ أن الأحياء بعد موتها – الأحياء كلها بعد موتها - إن لم تتحلل فِي الْأَرْض بجراثيم التعفن، وتتحولْ إِلَى تراب يبقى فِي الْأَرْض، وغازاتٍ تخرج من تلك الجثث المتحللة، وهذه الغازات منها: الْأَزُتّ وثاني أكسيد الكربون، فتعود إِلَى الهواء، وعليها تقوم حياة النبات الَّذِي يتغذى به الحيوان.

إذًا يتحولَ الكربون والْأَزُتّ وما إِلَيْهِما تدريجيًا إِلَى صورٍ لا ينتفع بها نباتٌ ولا حيوان؛ لأن النبات عاجز عَن التغذي بغير التراب والماء والهواء عجزَ الحيوان عَنْ التغذي بالتراب وثاني أكسيد الكربون.

وإذًا لبطلت بذَلِكَ الحياةُ حياةُ النباتِ والحيوانِ جميعًا.

فهذا أَيْضًا من الدورات التي تجدها فِي هذا الكون.

الأحياء يموتون ونحن منهم، فإذا ما مِتْنَا تحللت أجسادنا وخرج منها غازات، منها: الأزت وثاني أكسيد الكربون، يأخذه النبات ليتغذى عليه، ثم يخرج لنا الأكسجين.

فهذه الدورة دورة كاملة فِي هذا الوجود، وهي ضرورية لبقاء الحياة فِيه؛ بل إن الإنسان يحمل عوامل هلاكه فِي جسده، فَعَلَى مستوى الخلية الجسدية فِي الإنسان الحي يوجد أنزيمات محلِّلة، هذه لا تعمل إلا بعد الوفاة؛ لِأَنَّهُا لو عملت في أثناء الحياة لَتَحَلَّلَ الإنسان حيًا، وهذا ليس بمساعد للحياة ولا بِمُقَوِّمٍ مِنْ مُقَوِّمَاتِها؛ ولَكِنْ تبقى تلك الأنزيمات محصورة فِي خلايا الجسد الحي، حتى إِذَا ما مات الإنسان؛ انطلقت مِنْ مَكَامِنِهَا فَتُحَلِّلُ الخلية، مع ما يحلل الجسدَ أَيْضًا من تلك العوامل المختلفة، فيخرج الْأَزُتّ وثاني أكسيد الكربون من أجل أن تتم الدورة مع النبات والحيوان والإنسان فِي حال حياتهما، فإذا ما مات الأحياء؛ خرج ذَلِكَ الَّذِي يحتاجه النبات، فَيَأْخُذُه ويُخْرِجُ ما يحتاجه الحيوان الحي، وكَذَلِكَ الإنسان، وهكذا....

فهذا قانون يدل على وُجُود صانعه ومبدعه، ويدل على وحدانيته، فانظر إِلَى رحمة الله وحكمته، ومَظْهَرِ قدرتِه ووحدانيته؛ كيف جعل حَلْقَاتِ الحياةِ مترابطةً متكاملةً يتوقَّفُ خَلْقٌ فِي حياته على خَلْقٍ آخَرَ، كُلٌّ يَنْتَفِعُ ويَحْيَا بما يَسْتَضِرُّ به الآخَرُ.

فأنت تستضر بثاني أكسيد الكربون؛ ولَكِنِ النبات يحيا به، فيأخذه ويخرج لك ما يستضر هو به، وهو الأكسجين الَّذِي تحيا أنت به، فهذا يستضر بشيء يكون حياةَ الآخر، وكَذَلِكَ عَنْد الآخر، ويجدد لنا بذَلِكَ ما ننتفع ونحيا به بحول الله وقوته.

لَكِنَّ أمر وحدة نظام الخلق قد جاوز الحيوان والنبات إِلَى الجماد إِلَى المادة والطاقة، ليس من ناحية توقف حياة النبات والحيوان والإنسان عليهما، ولَكِن من ناحيتهما هما بالذات، فالطاقة فِي صورها المختلفة مِنْ حركةٍ وحرارةٍ وضوءٍ وكهربائيةٍ وما إِلَيْها؛ قد أثبت الْعِلْم أَنَّهُا فِي صميمها أصلُها واحد، إذ يمكن تحويل بعضها إِلَى بعض، كما ترى فِي الحياة من تحويل الْحَرَارَة - مثلًا - إِلَى حركة، وكَذَلِكَ من تحويل الحركة إِلَى حرارة، وتحويلِ الكهربائية إِلَى حركة وحرارة وضوء، وتحويلِ الضوء إِلَى كهربائية، وإِلَى طاقة كيماوية مختزَنَةٍ فِي النبات، تتحول بدورها من حرارة وحركة وكهربائية وإِلَيْها، والكهربائية تتحول إِلَى مغناطيسية، والمغناطيسية

تتحول إِلَى كهربائية، إِلَى آخر ما هُنَالِكَ من تحولات، كما فِي المولدات بتحول المغناطيسية إِلَى الكهربائية، وبالعكس.

والعجيب أن هذا التحول ليس كَيْفِيًّا فحَسْب؛ بل كَمِّيٌّ أَيْضًا.

كل مقدار من نوع من الطاقة إِذَا تحول؛ يتحول إِلَى مقدار يكافئه من النوع الَّذِي تحول إِلَيْهِ، ولكل نوع من أنواع الطاقة وَحْدَةٌ أو وحدات تقاس بها عَنْد الْعلماء وفي الحياة الصناعية العملية، وكل وحدة من نوعٍ تكافئ من كل نوع آخر مقدارًا من وحداته، يختلف طبقًا لاختلافاتها؛ لَكِنها كلَّها مقاديرُ مضبوطةٌ حَدَّدَها وقَدَّرَها الْعلماء، وهذا كله واحد؛ سواء أكانت الطاقة متولدة فِي الْأَرْض أو آتية من الشَّمْس – مثلًا - بقدر الله، والمادة هي الأخرى مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية، وبرهان وثيق من براهين الوجود والوحدانية، ليس فقط من حيث خواصها وتحولاتها العجيبة المختلفة التي هي موضوعُ عِلْمَيْ: الفيزياء والكيمياء؛ ولَكِن أَيْضًا من حيث أصلها، فقد ظل الْعِلْم قرونًا يحول العناصر الكيماوية إِلَى مركبات، ويحلل المركبات إِلَى عَنَاصر، ويكشف من ذَلِكَ عَنْ كل عجيب مدهش؛ لَكِنه أثناء ذَلِكَ لم يستطع أن يحول عَنْصرًا إِلَى عَنْصر.

هو يحول العناصر إِلَى مركبات، ويحلل المركبات إِلَى عَنَاصر؛ ولَكِن لم يستطع الْعِلْم أن يحول عَنْصرًا إِلَى عَنْصر؛ حتى اعتقد الْعلماء أن العناصر البسيطة ذراتُها غير قابلة للانقسام ولا للتحول من عنْصريتها إِلَى عَنْصرية أخرى، أيْ مِنْ عَنْصرها إِلَى عَنْصرٍ آخر، حتى شاء الله أن يهدي الإنسان إِلَى العناصر الشَّعَّاعَةِ، فيما يعرف بالإشعاع في العناصر المشعة كالْيُورَانْيُوم والرِّيدْيُوم وما أشبه، فكُشِفَ ذَلِكَ فِي أواخر القرن الثامنَ عشر أو القرنِ التاسعَ عشر، كشف فِي أواخر القرن التاسع عشر عَنْ شَعَاعِيَّةِ اليورانيوم الَّذِي أدى إِلَى الكشف بعد ذَلِكَ بنحو عام عَنْ عَنْصرٍ إشعاع آخر، وهو الريديوم، وكان مما يقذفان به - يعني اليورانيوم والريديوم -، كان مما يقذفان به أثناء تحللهما الإشعاعي الذاتي؛ كَانَ من ذَلِكَ: ذراتٌ مُكَهْرَبَةٌ مِنْ عُنْصرِ الْهِيلْيُوم، فكان هذا آخر عهد وأول عهد، كَانَ آخر عهد القول ببقاء المادة وبقاء العناصر، وأول عهدٍ بتركيب الذرة وتفجيرها، عهدٍ يراه الْعِلْماء ....«كلمة غير واضحة» الْعِلْم الْحَدِيث، ثبت فِيه أن المادة أَيْضًا أصلها واحد، وأن العناصر النَّيِّفَ والتسعينَ - كما دل على ذَلِكَ الجدولُ -،

هذه العناصر كلها مركبة من أصلين بسيطين تتركب منهما ذرة الأَيْدُرُوجِين، يسميهما الْإِفْرِنْج: «الْإِلِكْتُرُونْ وَالْبُرُوتُونْ»، وينبغي أن يُسَمَّيَا فِي العربية بِالْكُهَيْرِب والْأُبَيِّب، حتى يُؤْتَى بخيرٍ من هذين الاسمين؛ لأن هذه مُعْضِلَةٌ كبرى عَنْد المشتغلين باللغة العربية، فإن المجامع الْعِلْمية العربية لم تستطع أن تواكب المخترعاتِ والمستحدثاتِ التي جَدَّتْ على هذا الكون فِي هذا العصر بما يلائمها من التسميات العربية، فيأتون فِي النهاية بكتابة اللفظة الإفرنجية بحروف عربية. فالآخرون يَقُولون: «التليفزيون»، أو ما أشبه، فالعرب يَقُولون: «التلفاز».

فإذا سَمَّوْا أحيانًا سَمَّوْا بأسماء منفرة، يعني مثلًا؛ عَنْدما أرادوا أن يُعَرِّبُوا «السَّنْدوِيتْشْ»، فهذا له معنى عَنْد القوم، فقالوا: شاطرٌ ومشطورٌ وبينهما طازج.

أهذا هو؟!

هذا شيء يصد النَّفس.

فكذَلِكَ الكُهَيْرِبُ يمكن أن يكون بديلًا للإلكترون.

الأبيب كذَلِكَ يمكن أن يكون بديلًا لِلْبُرُوتُون، حتى يأتي الله بالخير؛ إذ ينبغي ألا تَطْغَى على العربيةِ المصطلحاتُ الأعجميةُ، وهي تُعَدُّ بمئاتِ الألوف.

المادة تتحول بالتحلل الإشعاعي والتفجيرِ إِلَى طاقة، والطاقةُ أصلها واحد، يتحول بعض أنواعها إِلَى بعض تحولًا كَمِّيًا على مقدارٍ مضبوطٍ معروفٍ.

فهذا يدل على وحدة نظام هذا الكون واتساق الفطرة - أي السننِ الإلهية – فِيه؛ فهذا يدل على ماذا؟

على الله الواحد الأحد الخلاق الْعَظِيم، وعلى أن خالق هذا النظام كله إنما هو الله عز وجل الواحد الأحد.

فوحدة نظام الكون إِذَا ما دُرِسَتْ دَلَّتْ على وحدانية الخَالِق لهذا الكون.

وتأمل فِي الطواف الَّذِي هو عَنْدنا وحدَنا نحن – المسلمين -، عَنْدما نطوف ببيت رب العالمين، تأمل فِي الطواف بنظرة علمية - كما يَقُول الغمراوي غفر الله له -.

ما يسميه الناس: «الطبيعة»، ينبغي أن يسمى: «الفطرة»، أن يسمى ب«السنن الالهية».

الفطرة مذكورة فِي القرآن؛ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»، وكذَلِكَ: «فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض»، ومذكورة فِي الْحَدِيث الشريف الَّذِي مر: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ".

أما الطبيعة؛ فلم تُذْكَرْ فِي القرآن قط، ولا كذَلِكَ ذُكِرَتْ فِي الْحَدِيث.

الطواف حول الكعبة من مميزات دين الإسلام بين الأديان.

هذا لنا وحدنا.

قد يَحُجُّ بعضُ أهلِ الأديانِ الأخرى إِلَى مَحَجٍّ لهم؛ ولَكِن ليس فِي غير حج الإسلام طواف.

الطواف ببيت الله مطلوب في غير الحج والعمرة ممن حضر البيت، فهو عبادة؛ أن يطوف الإنسان بالبيت في غير حج ولا عمرة؛ فهذه عبادة يتقرب بها إلى الله جل وعلا.

الكعبة التي جعلها الله مطافًا للناس فِي الحج جعلها الله للناس قبلة فِي الصلاة، فالطواف جزءٌ من كُلٍّ يُمَثِّلُ الجاذبيةَ التي ينبغي أن تكون بين العبد وبين بيت الله، يستقبله الإنسان ويتجه إِلَيْهِ فِي صلاته مراتٍ كل يوم وهو بعيد عَنْها، فإذا ما استطاع الحج إِلَيْهِ مرة فِي العمر؛ استقبله فِي صلاته أَيْضًا كما كَانَ، وزاد على ذَلِكَ أن يطوف به.

الناس لا يجدون صعوبة فِي التماس حكمةٍ لفرضِ قبلةٍ واحدةٍ عليهم فِي الصلاة، وأن تكون تلك القبلةُ بيتَ الله؛ لَكِنهم - فِيما يبدو - قد عجزوا عَنْ إدراك حكمة للطواف بالبيت.

يعني أن الله جعل لنا البيت الحرام قبلة، فهذا تستطيع أن تجد له حكمة ظاهرة؛ ولكنْ الطوافُ بالبيت ما حكمته؟

عجز الناس عن الوصول إلى حكمةٍ ظاهرة لهذا الطواف، فجعلوه أمرًا تعبديًا، وهو كذَلِكَ، يعني جعلوه عبادة لا يعرفون لها حكمة إلا النزول على حكم الله بالطاعة والتسليم؛ ولَكِن هل يستطيع الْعِلْم الْحَدِيث الَّذِي جعل كثيرًا من الناس يكفرون بالخَالِق الْعَظِيم؛ هل يستطيع هذا الْعِلْم الْحَدِيث نفسُه أن يظهر لنا حكمةً نُدْرِكُ بها ما فِي الطواف من معنى ومَغْزَى؟!!

أو أن يفتحَ لنا - على الأقل - البابَ إلى تَفَهُّمِ مغزى الطواف بالبيت؟!!

قد يبدو لأول وهلة أن هذا سؤال لا محل له، ولا فائدة ترجى من محاولة الإجابة عَنْه؛ إذ أيُّ صلة بين الطواف في الحج أو فِي العمرة أو فِي غير الحج والعمرة ببيت الله الحرام؛ ما الصلة بين هذا الطواف وبين الْعِلْم الْحَدِيث الَّذِي لا يبحث إلا فِي الماديات؟

هذا ما يبدو للنظرة الأولى، والنظرة الأولى دائمًا حمقاء؛ لَكِن السؤال ليس من النوع العَبَثِيِّ الَّذِي لا يمكن أن يؤدي إِلَى جواب معقول كما قد يبدو، فإن الْعِلْم يبحث عَنْ أسرار الفطرة، أي: عَنْ أسرار السنن التي جعلها الله فِي هذا الكون.

فاطرُ الفطرة سبحانه هو الَّذِي تعبد الناس بالطواف بالبيت الحرام، فليس بممتنع أن يكون الطواف رمزًا إِلَى سِرٍّ عظيم تستوي فِيه الروح والمادة، وأن يكون فِيما كَشَفَ عَنْه الْعِلْمُ من أسرار الفطرة ما يدل عليه أو يشير إِلَيْهِ.

لا يكاد الناظرُ يتجه هذا الاتجاه حتى ينكشف له فِيما كشف الْعِلْم عَنْه من حقائق الفطرة؛ ينكشف له نظائر الطواف، ثم تتكاثر عليه النظائرُ؛ حتى لا يوقن أَنَّهَا مَظْهَرٌ لِسُنَّةٍ عامةٍ فِي الخلق، وهذه السنة العامة فِي الخلق أَهَمُّ وأَجَلُّ كثيرًا فِي دلالتها مما يخطر لأول وهلة على بال.

أول ما يلقى الناظرَ من تلك النظائر؛ يلقاه فِي المجموعة الشَّمْسية، فالأقمار فِيها تدور أو تطوف حول كواكبها، فالقمر يدور حول الْأَرْض، أقمار المشترى تدور حول المشترى، الأرض وأخواتها من السيارات تدور وأقمارُها حول الشَّمْس دورانًا متصلًا يختلف حقًّا باختلاف كتلة السيارِ وبُعْدِهِ عَنْ الشَّمْس؛ لَكِنْ مهما يكن الاختلاف فِي الكيف والمدار؛ فالدوران أو الطواف حول الشَّمْس واقع من كلِّ سيار.

بَيَّنَ علمُ الفلك الْحَدِيث مبلغ انتشار ظاهرة الطواف هذه بين الكواكب؛ فُرَادَى وجماعاتٍ وعوالمَ أَيْضًا، فكم من كوكب يطوف حول كوكب تَوَائِمَ وغَيْرَ تَوَائِمَ، وعالَمُ المجرة الَّذِي منه مجموعاتنا الشَّمْسية يدور؛ بل العالم الفلكي كله يدور أو يبدو أَنَّهُ يدور؛ ولِذَلِكَ هو فِي حالة اتساع كما أثبت ذَلِكَ القرآنُ الْعَظِيم؛ ولَكِنه يدور دورانًا بطيئًا هائلًا حول مركزٍ دلَّ الكتابُ على منطقيته فِيما صُنِّفَ فِي ذَلِكَ خاصةً، وهو كتاب: «النجوم فِي مسالكها»، ففيه تجد الْمَثَلَ بعد المثلِ والتفصيلَ بعدَ التفصيلِ؛ ليظهر لك مبلغ انتشار ظاهرة الطواف فِي السماء، كَأنما هي مظهر سنة عليا فطر الله عليها السماوات، فإذا ما تركنا العالم الفلكي جانبًا ونزلنا إِلَى

العالم الذري من أكبر الْأَجْرَام فِي هذا الكون مما هو معهود لنا إِلَى أصغر هذه الْأَجْرَام - يعني الذرات -، فمن المجرة إِلَى الذرة؛ ستجد قانونًا واحدًا، فهذه المجرات كواكب تدور فِي أفلاكها فِي مداراتها حول شموسها، وكذَلِكَ الأقمار تدور حول كواكبها فِي مداراتها، والذرات كذَلِكَ، والكون كله من هذه الذرات: «كهيربات تدور حول أنويتها فِي ذراتها»؛ قانون واحد، والطواف فِي هذا كما هو فِي هذا.

لو نزلنا إِلَى العالم الذري؛ وجدنا الأمر أعجب وأغرب، أو هكذا يُخَيَّلُ إِلَى مَنْ يَسْتَثِيرُ الدَّقِيقُ مِنْ تَعَجُّبِهِ أَكْثَرَ مما يَسْتَثِيرُ الْجَلِيلُ.

الذرة لم يرها أحد قط، ولا يطمع فِي رؤيتها بالذات أحد؛ لبلوغها فِي الدقة والصغر غايةً تَقْطَعُ عَنْ إمكان رؤيتها الأطماعَ؛ لَكِنها مع ذَلِكَ لا يشك أحد من المشتغلين بالْعِلْم فِي وُجُودها، ولا فِي أن باطنها عالم مَائِجٌ عجيبٌ.

الْعلماء الْمُحْدَثون يشَبِّهون الذرة بالمجموعة الشَّمْسية، فهي جلها فراغ تتوسطه نقطة يتمركز فِيها ثقل الذرة ووزنها، تسمى «نواة الذرة»، يدور حولها فِي ذَلِكَ الفراغ الْعَظِيم بالنسبة لها عددٌ من الكهيربات السالبة الخاصة؛ ولَكِنَّها فِي مجموعها تكافئ بالضبط ما تحمل النواة من كهربية موجبة، أيْ أن كل نواة من ذرة عَنْصر تحمل من شحنات أو وحدات الكهربية الموجبة قدر عدد الكهيربات السالبة التي تدور حولها - أي حول النواة -، وكان من شأن الكُهَيْرِبِيَّتَيْنِ هَاتَيْنِ: أن يتحدا «سالبٌ وموجب»، فينجذب أحدهما إِلَى الآخر للتجاذب الْعَظِيم بينهما، كَانَ يجب أن يتحدا لو أن فاطر الفطرة وخالق الذرة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قضى للمادة بالوجود، فمنع ذَلِكَ الاتحاد بين كهريبات الذرة وأنويتها بحركة أنشأها وقَدَّرَها فِي الكهيربات حول النواة، فتأتي بما يسمى ب«قوة الطرد المركزي» «قوةِ الدفع المركزي» بالدفع مع الحركة عَنْ المركز؛ حتى لا يقع هذا المتحرك على مركزه وحينئذ تخمد الحياة، فجعل ذَلِكَ دائرًا لما أعطاه الحركة بهذه الكهيربات السالبة فِي مداراتها، فوقع ما يسمى بقوة الطرد المركزي، فأبعدت تلك الكهيربات على حسب مداراتها مع كونها على حركاتها لا تزال!!

فسبحان الله!!

فِي كل كهيرب، وفي كل سَيَّار؛ بل فِي كل قمر حركةُ فرارٍ وابتعادٍ عَنْ النواة أو الشَّمْس أو الكوكب الَّذِي يجذبه؛ وإلا لوقع القمر على الْأَرْض؛ ولَكِنه مع حركته يؤدي ما فِيه من قوة الطرد أو الدفع المركزي، إِلَى أن يظل فِي حركته فِي مداره حول الْأَرْض، مع أَنَّهُ يحدث فِيها جاذبية، فأنت ترى - مثلًا - ما يسمى ب«قوةِ الْمَدِّ» فِيما يعرف عنْد مَنْ هو قريب من الساحل فِي البحار المختلفة بالمد والجزر، فإن القمر إِذَا ما طَلَعَ مَارَسَ قوةَ جاذبيةٍ على سطح الْأَرْض، فيحدث لون من ألوان الالتواء فِي سطح الْأَرْض، فما يكون تحت البحار والمحيطات، فإذا ما علا دَفْعُ الماء إِلَى أعلى؛ فحينئذ يحدث المد، إِذَا ما غاب القمر يعود الأمر إِلَى أصله فِي قشرة الْأَرْض فِي قاع البحر أو المحيط، وحينئذ يعود الماء إِلَى حالة الجزر، وهو متحرك باق فِي مداره على حسب ما مر من قانون الدفع أو الطرد المركزي.

العجب العجاب أن عَنْاصر المادة تزيد على التسعين - كما مر - فِي الجدول الدوري للعناصر، ولا تختلف ذراتها فِيما بنيت منه، وخُلِقَت النُّوَيَّاتُ فِي كل الذرات فِي جميع العناصر، جوهرُها واحد، الكهيربات التي تدور فِي مداراتها حول الأنوية شيء واحد؛ لَكِنَّ عدد الكهيربات يبدأ من الواحد فِي ذرة الهيدروجين التي هي عبارة عَنْ كهيرب يدور حول أُبَيِّب، ويذهب العدد يزداد واحدًا بعد واحد فِي جدول العناصر الدورية.

كلما زيد كهيرب زيد فِي النواة ما يتحقق به التوازن الضروري فتنشأ ذرة جديدة لعنصر جديد، يمضي الأمر كذَلِكَ مبعدا فِي العناصر الطبيعية بترتيب محدود معروف من ذرة الأيدروجين ذات الكهيرب الواحد إِلَى ذرة اليورانيوم التي تبلغ كهيرباتها اثنين وتسعين كهيربا لَكِن ذرات العناصر على اختلافها متحدة فِي دوران كهيربات كل ذرة حول نواة فِي طبقات يزداد عددها أَيْضًا كلما ازداد عدد الكهيربات السالبة زيادةً كافية طبق نظام محكم بديع.

الآن؛ ما رأيك فِي انتشار ظاهرة الطواف هكذا فِي الفطرة من الذرة إِلَى المجرة وما فوقها؟

تَذَكَّرْ أن كل ذرة من مادةٍ فِي الكون فِيها – كُلُّ ذرة؛ فضلًا عَنْ المجرة -؛ كل ذرة فِيها طائفٌ ومَطُوفٌ به، وذَلِكَ كله فِي باطن الذرة تقوم عليه بِنْيَتُها وذَاتِيَّتُها، ولا سلطان لمخلوق عليه كما

لا سلطان لمخلوق على دوران الأقمار حول كواكبها، ولا السياراتِ حول شُمُوسِها فِي الكون الشاسع الْعَظِيم.

تَذَكَّر الآن أن فِي كل حالة من تلك الحالات فِي العوالم الذرية والفلكية؛ دائمًا المطوف به واحد، والطائف كثيرًا ما يتعدد، ففي كل ذرةٍ نواةٌ واحدةٌ تطوف بها الكهيرباتُ قَلَّتْ أو كَثُرَتْ، وفي كل مجموعةٍ شمسيةٍ شمسٌ واحدةٌ تطوف بها سياراتُها قَلَّتْ أو كَثُرَتْ كذَلِكَ.

العالم الْمَجَرِّيُّ بملايينِ شموسِه وكواكبه يدور أو يطوف حول شيء واحد، والكون كله بالألوف المؤلفة من عوالمه الْمَجَرِّيَّةِ؛ يبدو أَنَّهُ يدور أو يطوف حول شيء واحدٍ لا يُدْرَى ما هو.

تَوَحُّدُ المطوفِ به فِي كل حالة مع تعدد الطائفين فِي الكثرة الغالبة من الأحوال يُرِيكَ وجه الشَّبَهِ واضحًا بين الطواف الَّذِي هو مِنْ قِوَامِ الحج، وبين ظاهرة الطواف التي فطر الله عليها الكون، ويفتح أو يُرْجَى أن يفتح بابًا واسعًا من التدبر، وأفقًا شاسعًا من التفكير فِي حكمة الطواف، ودلالةِ انفراد الإسلام به من بين الأديان.

فكَأَنَّ الطائفَ إِذَا ما دخل فِي الطواف؛ دخل فِي منظومة الكون الطائف، فالكون كله من الذرة إِلَى المجرة - كما مر - بين طائف ومطوف به.

وقد أثبتت الدراسات الهندسية بأعقد الوسائل أن الكعبة مركزُ الْأَرْض.

الكعبة هي مركز الأرض؛ فأنت إِذَا ما دخلتَ البيت الحرام، ودخلت فِي الطواف؛ فأنت دائر حول مركز الْأَرْض.

لم نَقُلْ: هي مركز الكون.

قد يكون؛ ولَـكِن الَّذِي ثبت يقينًا بالدراسات الهندسية المعقدة: أن الكعبة هي مركز الْأَرْض، فأنت إِذَا ما دخلت البيت الحرام، وأخذت فِي الطواف؛ فقد دخلت فِي منظومة الكون الطائف، وهو عابد لله رب العالمين ومُسَخَّرٌ، كما لو أنك سجدت فإنك تدخل فِي منظومة السجود الأخضر؛ «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ».

في أحد التفسيرين أن النجم: ما لا ساق له من النبات، ما لا يقوم على ساق، هذا هو النجم.

والشجر: ما له ساق، فالله عز وجل يَقُول: «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ»، وقد يكون النجم على أصله؛ هو نجم السماء، هو ساجد سجوده الَّذِي أخبر عَنْه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهذا لا يُدْفَعُ، والآية تحمل على الأمرين معًا.

إذًا؛ النجم: ما لا ساق له من النبات ساجد لله، والشجر الذي له ساق ساجد لله، فهذا السجود الأخضر فِي النجم والشجر؛ إذ ما النبات سوى هذا؟!

ما له ساق، وما ليس له ساق.

هذا هو النبات.

فالنبات كله ساجد لله؛ «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ»، فإذا سجدتَ دخلتَ مع هذا النبات فِي السجود الأخضر فِي منظومته.

الكون كله عابد لله، مسبح بحمده كما قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

فهذا هو الْعِلْم الْحَدِيث يُثْبِتُ وحدانيةَ الله!!

لا يؤدي إِلَى الْإِلْحَاد كما يَقُول الْمُلْحِدُونَ الَّذِينَ اتخذوا الْعِلْم المادي الْحَدِيث بما وصل إِلَيْهِ من التقدم، وهو قرآني بطبيعته كما مر.

هذا العلم قرآني بطبيعته كما مر إثبات ذَلِكَ بما لا يدع مجالًا لشَكٍّ ولا ريبٍ.

وهذا الْعِلْم المادي بهذه السنن الإلهية التي جعلها الله فِي هذا الكون؛ كلما اكتشف الإنسان منه شيئًا؛ دَلَّهُ هذا الشيء على أن الله هو خالق الخلق، وهو واحد لا شريك له، كما مر إثبات ذَلِكَ بإثبات وحدة النظام الَّذِي يحكم العالم، فدل على أن الحاكم واحد، وهو الله. والقانون واحد؛ الَّذِي يحكم الذرة هو الَّذِي يحكم المجرة، من أدق الأشياء إِلَى أكبرها فِيما يعرفه الإنسان، أو فِيما هو فِي عالمه، ومع ذَلِكَ فقانونٌ واحد؛ «طائفٌ ومَطُوفٌ به»، فلعل ذَلِكَ يفتح الباب كما قَالَ الغمراوي غفر الله له، يفتح الباب للنظر فِي هذه العبادة المتفردة فِي دين الإسلام الْعَظِيم.

في الأديان سوى دين الاسلام حجٌّ، ولكل أمةٍ مَحَجٌّ، أيْ: لكل أمة مكانٌ يحجون فِيه أو إِلَيْهِ.

المسلمون يحجون إِلَى بيت الله الحرام، يذهبون إِلَى بلد الحرام، وإِلَى بيت الله الحرام مع المناسك المعروفة؛ ولَكِن يتميز حج المسلمين بهذا الأمر الَّذِي لا تجده عَنْد حج الأقوام أجمعين، وهو: مسألة الطواف، ومع ذلك؛ فهُنَالِكَ من يَقُول: «إن الطبيعة هي الخَالِق»!!

مع هذا كله؛ هُنَالِكَ من يَقُول: «الطبيعة هي الخَالِق»!!

فِي كتاب «العقيدة فِي الله»:

هذه فِرْيَةٌ راجت فِي عصرنا هذا، راجت حتى على الَّذِينَ نَبَغُوا فِي العلوم المادّية، وعلل كثيرون وُجُود الأشياء وحدوثَها بها، فقالوا: الطبيعة هي التي تُوجِد وتُحدِث!!

هَؤُلَاءِ يوجَّهُ لهم هذا السؤال: ما الذي تريدونه بالطبيعة؟

هل تعنون بالطبيعة ذواتِ الأشياء؟

أم تريدون بها السنن والقوانين والضوابط التي تحكم الكون؟

أم تريدون بها قوةً أخرى وراء هذا الكون أوجدته وأبدعته؟

ما الذي تريدونه بالطبيعة؟

إذا قَالوا: نعني بالطبيعة الكونَ نفسَه؛ فإننا لا نحتاج إِلَى الردّ عليهم؛ لأنّ فساد قولهم معلوم - كما مر -.

هذا القول يصبح ترديدًا للقول بأنّ الشيء يوجد نفسه.

يقولون: الطبيعة هي الكون، ويقولون: الطبيعة هي التي خلقت الكون!!

إذًا؛ خلق الكونُ نفسَه!!

وهذا – كما ترى – في غاية البطلان والفساد.

يَقُولون: الكون خلق الكون، السماء خلقت السماء، والأرض خلقت الْأَرْض، والكون خلق الإنسان والحيوان!!

العقل الإنساني يرفض التسليم بأنّ الشيء يوجِد نفسه، وأيضًا فالشيء لا يخلق شيئًا أرقى منه، فالطبيعة من سماء وأرض ونجوم وشموس وأقمار لا تملك عقلًا ولا سمعًا ولا بصرًا؛ فكيف تخلق إنسانًا سميعًا عليمًا بصيرًا؟!!

هو أرقى منها؛ فكيف؟!!

هذا لا يكون.

فإن قالوا: خُلق ذَلِكَ كله بالمصادفة؛ فالجواب: ثبت يقينًا أَن لَّا مصادفةَ فِي خلق الكون كما مَرَّ بالقانون الرياضي.

هنالك من قال بشبهة أخرى، وهي باطلة أيضًا.

قالوا: إنما وجد الكون بنظرية التولد الذاتي!!

فقيل: من أين هذا؟!

قالوا: إن نظرية التولد الذاتي أثبتها العلماء فيما شاهده الطَّبِيعِيُّونَ من تَكَوُّنِ الدُّودِ على براز الإنسان أو الحيوان، وتَكَوُّنِ البَكْتِيرْيَا التي تأكل الطعام وتفسده، فقالوا: ها هي ذِي؛ حيواناتٌ تتولد من الطبيعة وحدها.

كما كَانوا يَقُولون قديمًا – أعني الفلَّاحين -؛ يقولون: دُودُ الْمِشّ منه فِيه!!

طبيعيٌّ هو؟!!

هذه شبهة التولد الذاتي «منه فِيه»!! مع أَنَّهَا دورة، وهذا الَّذِي تراه مِنْ دُودِ الْمِشّ هو مرحلةٌ من مراحلِ وُجُودِ كائنٍ يصير يَرَقَةً، ثم يتطور حتى يصير بعد ذَلِكَ مما يطير، إِذَا ما فتحت الإناء الَّذِي فِيه؛ اندفع فِي وجهك، فهذا هو.

فهذه دورة حياة.

يَقُولون: هو التولد الذاتي!!

فساعد هذا على انتشار الوثنية الجديدة، وهي: القول بأن الطبيعة هي الخَالِق!!

هذه وثنية العصر الحاضر!!

يعبدون هذا الوثن!!

يقولون: الطبيعة هي الخالق!!

هم لا ينكرون وُجُود الخَالِق على هذا!!

يَقُولون: ولَٰكِن الخَالِق هو الطبيعة!!

فأثبتوا خالقا!!

فهذه هي الوثنية المعاصرة.

وهذه النظرية – أعني نظرية التولد الذاتي - مكنت لهذا الوثن الجديد – أعني (الطبيعة) - فِي قلوب الضالين التائهين بعيدًا عَنْ هدى الله الْحَقّ؛ لَكِن الْحَقّ ما لبث أنْ كشف باطل هذه النظرية على يد العالم الفرنسي المشهور (بَاسْتِيرْ)، الَّذِي أثبت أنّ الدود المتكون والبَكْتِيرْيَا المتكونةَ التي مَرَّ ذكرها لم تتولد ذاتيًا من الطبيعة التي يزعمونها خالقةً، وإنّما من أصولٍ سابقةٍ صغيرةٍ لم تتمكن العينُ من مشاهدتها، وقام بتقديم الأدلة التي أقنعت الْعلماء بصدق قوله.

وَضَعَ غذاءً وعَزَلَهُ عَنْ الهواء، وأمات البكتريا بالغليان، فما تكونت بكتيريا جديدة، ولم يفسد الطعام، وهي التي – أي هذه النظرية - التي قامت عليها صناعة الأغذية المحفوظة، بأن تُعَرِّضَ تلك الكائناتِ الحيةَ التي لا ترى بالعين المجردة إلى الهلاك والموت، بالغليان مثلًا؛ فحينئذ لا تتكاثر.

فأين التولد الذاتي؟!!

يقولون: الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون.

فيرى فريق آخر من الطبيعيين أن الطبيعة هي القوانين هي التي تحكم الكون، وهذا تفسير الَّذِينَ يدّعون الْعِلْم والمعرفة من القائلين بأنّ الطبيعة هي الخَالِق.

يَقُولون: إنّ هذا الكون يسير على سنن وقوانين تسيّره، وتنظم أموره فِي كل جزئية، والأحداث التي تحدث فِيه تقع وفق هذه القوانين، مَثَلُهُ كَمَثَلِ الساعة التي تسير بدقة وانتظام دهرًا طويلًا، فإنها تسير بذاتها بدون مسيّر – كما يقولون-!! مع أَنَّهُم هم الَّذِينَ صنعوها وجعلوا فِيها ما يحركها!!

هَؤُلَاءِ فِي واقع الأمر لا يجيبون عَنْ السؤال المطروح: من الذي خلق الكون؟

لَكِنهم يكشفون لنا عَنْ الكيفية التي يعمل الكون بها.

يعني لو قَالوا: القوانين هي التي تحكم الكون؛ فهذا ليس تفسيرًا لنشأة الكون!!

السؤال هو: من الَّذِي خلق الكون؟

يَقُولون: الطبيعة هي التي تحكم نظام الكون بقوانينها!!

فيقال: ما أجبتم عَنْ السؤال، السؤال على حاله: من الَّذِي خلق؟

أنتم الآن تقولون كيف يعمل، والسؤال: من الَّذِي خلق؟

من الَّذِي أَوْجَدَ؟

من الَّذِي بَرَى؟

من الَّذِي أنشأ؟

فهؤلاء يكشفون لنا عَنْ الكيفية التي يعمل الكون بها.

وهم يكشفون لنا؛ كيف تعمل القوانين فِي الأشياء!!

نحن نريد إجابة عَنْ موجد الكون، وموجدِ القوانين التي تحكم الكون.

والْعلماء عَنْدما نظروا فِي أمثال هذه الأمور؛ وجدوا أَنَّهُا متهافتة.

يعني - مثلًا - عَنْدما تسأل - كما فِي كتاب «الإسلام يتحدى»-:

يقول المريض أو يقول الإنسان للطبيب: ما سبب احمرار الدم؟

يقول: فِي الدم خلايا حمراء، حجمُ كل خلية منها: واحدٌ إِلَى سبعمائةٍ من البُوصة!

فيقول السائل: ولماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟

يقول: فيها مادة تسمى «الْهِيمُوجْلُوبِينْ»، وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين فى القلب.

فيقول السائل: ولَكِنْ مِنْ أين تأتى هذه الخلايا التي تحمل الْهِيمُوجْلُوبِينْ؟

فيقول: تُصْنَعُ فِي الكبد.

فيقول: عجيب! كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها بعضُها ببعض ارتباطًا كليًا، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟!!

يقول: هذا ما نسميه ب«قانون الطبيعة».

فيقول: ما المراد بقانون الطبيعة هذا؟

فيقول الطبيب: المراد بهذا القانون: الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية.

فيقول: ولَكِن لماذا تهدف هذه القوى دائمًا إِلَى نتيجة معلومة؟

وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيورُ فِي الهواء، وتعيشَ الأسماكُ فِي الماء، وحتى يوجَدَ إنسان فِي الدنيا بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة؟!!

فيقول الطبيب: لا تسألني عَنْ هذا، فإنَّ علمي لا يتكلم إلا عَما يحدث، وليس له أن يجيب: لماذا يحدث؟!!

"علمي لا يتكلم إلا عَما يحدث"، يعني: أنا أفسر الظواهر.

أمَّا: "لماذا تحدث تلك الظواهر؟ فهذا ليس من علمي".

إذًا؛ هذه هي القوانين الحاكمة؛ فمن الَّذِي أوجدها؟!

ومن الَّذِي أوجد الكون الَّذِي تتحكم فِيه تلك القوانين؟!

ما زال السؤال على حاله.

فوُجِدَ مَنْ يَقُول: الطبيعة قوةٌ أَوْجَدَت الكونَ، وهي قوةٌ حيةٌ سميعةٌ بصيرةٌ حكيمةٌ قادرةٌ.

فيقال: سميتم هذه القوة: «الطبيعةَ» لماذا؟

إن الَّذِي خلق الكون هو اللهُ القويُّ الحيُّ السميعُ البصيرُ العليمُ الحكيمُ القادرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المقتدرُ؛ فَلِمَ لا تقولون كما يقول المؤمنون ما دمتم لا تجدون مَنَاصًا عَنْ إثبات موجِدٍ لهذا الكون الكبير؟!!

ما هو إلا العنادُ والْمُكَابَرَةُ!!

والله المستعان وعليه التكلان.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«المُحَاضَرَةُ التَّاسِعَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد مر أن بعض الملحدين يقولون: إن الطبيعة هي التي خلقت الخلق أو أوجدته.

فهؤلاء الطبيعيون يُسْأَلُون: ما تريدون بالطبيعة؟

فإن قالوا: الطبيعة أزليةٌ أبديةٌ، موجِدٌ وموجودٌ، خالقٌ ومخلوقٌ؛ قيل: إن هذا لا يقبله العقل.

فإن قالوا: إن الطبيعة هي القوانين الحاكمة والنواميسُ السائرةُ السائدةُ التي تنظم هذا الكون بمفرداته؛ فإنه يقال لهم: ما زدتم الأمر إلا تعقيدًا، فقد جد هاهنا سؤال ثانٍ.

السؤال الأول هو: من الَّذِي أوجد هذا الوجود وخلق هذا الخلق؟ فأنتم تقولون: القوانين الحاكمة.

فيقال لكم: ومن الَّذِي أوجد هذه القوانين الحاكمة حتى يقال: إنَّهَا هي التي تنظم هذا الكون وتحكمه؟

فصار عَنْدنا سؤالان.

الأول: من الذي خلق الخلق؟

وهذا باقٍ على حاله.

والثاني: من الذي أوجد هذه القوانين الحاكمة؟

فإن قَالوا: إن الَّذِي خلق الخلق أو أوجد الوجود قوةٌ حيةٌ سميعةٌ بصيرةٌ قادرةٌ؛ فإنه يقال لهم: إن الله عز وجل هو الحي، وهو السميع، وهو البصير، وهو القدير، وهو سبحانه وتعالى خالق الخلق وموجِدُه؛ فلماذا لا تقولون ما يَقُول المؤمنون؟!!

الطَّبِيعِيُّونَ يعبدون وثن العصر الْحدِيث، وهو «الطبيعة»؛ لِأَنَّهُم يَقُولون: إنَّهَا هي خالق هذا الخلق، وموجد هذا الوجود!!

إذًا؛ هذا وثنٌ معبودٌ؛ ولَكِنه معبودُ هذا العصر.

فَوَثَنُ هذا العصرِ ومعبودُهُ هو الطبيعةُ التي يقول الطبيعيون بأنها هي موجِدُ الوجود وخالق الخلق!!

في كتاب «الوجود الْحَقّ» مبحثٌ عَنْ هذه الطبيعة، فيه:

أَنَّهُ بعدما تبين لنا بما لا يقبل الشك وُجُودَ الخَالِق الأول على حسب ما دلت عليه الفطرة، وما دل عليه العقل، وما دل عليه الحس.

فهذا كله من الدلالات على وُجُود الخَالِق الْعَظِيم، فالخَالِق الأول وُجُوده لا يقبل الشك ولا الارتياب، وهو الكامل المطلق، فالسؤال عَنْ خالق الكمال المطلق؛ هذا لا يصح، وحينئذ تتبدد أمام الناظرِ الشبهاتُ، وتبقى شبهة من شبهات العصر، وضلالةٌ أخرى من ضلالاته، وهي تَخَيُّمُ الأوهامَ؛ ولَكِنها بكل أسفٍ مع اصطناعها هذا وعدمِ استنادها إِلَى أساس؛ تجدها مسيطرة على عقول كثير ممن يدعون الثقافة والمعرفة، وقد انْطَلَتْ عليهم دون أن يكلفوا أنفسهم عَنْاءَ البحث والتمحيص!!

تلك الشبهة هي «الطبيعة» إلهٌ ووثنُ العصرِ المزعوم!!

حينما تبادر أحد الطَّبِيعِيِّينَ بالقول: من خلق السماوات والأرض؟ يَقُول لك: الطبيعة!!

فتقول: من خلق النبات والحيوان؟

يَقُول لك: الطبيعة!!

فتقول: من خلق الانسان؟

يَقُول: الطبيعة!!

من يدبر جميع هذه الأمور؛ الفلكيةِ والحيويةِ والغريزيةِ، وكُلٌّ بحسابٍ دقيقٍ ونظامٍ لا يَحِيد؛ مَنْ يدبر هذا؟

يَقُول لك: الطبيعة!!

فَيَتَذَرَّعُ لك بهذا السبب؛ لِأَنَّهُ لا يستطيع أن يَقُول لك: "إِنَّهَا تَحْدُثُ بذاتها أو مِنْ تِلْقَاءِ نفسها"؛ لأن هذا مما يدفعه العقل ولا يقبله، وينكر بقوله هذا قانونَ السببيةِ، فهو أصاب حين أقر بالسببية عَنْدما قَالَ: إن الَّذِي خلق هذه الموجوداتِ الطبيعةُ، فيقر بالسبب؛ لِأَنَّهُ لو قَالَ: خَلَقَتْ نفسها، لم يخلقها أحد؛ لكان معاندًا محايدًا لهذا القانون الَّذِي جعله الله رب العالمين مغروسًا فِي نفوس البشر، وهو قانون السببية.

فيقول لك: الطبيعة، فيثبت سَبَبًا؛ ولَكِنه يخطئ حين يجهل السبب الْحَقّيقي الَّذِي أوجد هذه الموجودات والذي خلقها كلها.

ليس من شأننا حين البحث أن نكتفي بالتسفيه والتشنيع، ولَكِنْ فَلْيُنَاقَشِ الأمرُ من جميع الوجوه، فما كَانَ من حقٍّ أقررناه، وما كَانَ من باطل فَنَّدْنَاه.

العاقل هو الَّذِي يُصِيخُ السمع إِلَى الْحَقّ، وأما الجاهل؛ فهو الَّذِي يتبع هواه، ويقيم على الباطل ولو تبين له الْحَقّ.

ما هي الطبيعة؟

وما هي مفاهيمها؟

وما هي حقيقة تأثيرها؟

الطبيعة فِي اللغة: السَّجِيَّةُ والْخُلُقُ؛ غير أن للطبيعة اليوم فِي عقول الناس على حسب مفاهيمهم مفهومان، للطبيعة اليوم مفهومان:

المفهوم الأول: أَنَّهَا عبارة عَنْ الأشياء بذاتها، فالجماد والنبات والحيوان؛ كل هذه الكائنات هي الطبيعة، وهو مفهومٌ غيرُ دقيقٍ، وحُكْمٌ غيرُ سديدٍ، كما سيتبين لنا إن شاء الله جَلَّ وَعَلَا.

وأما المفهوم الثاني؛ فهو أن الطبيعة عبارة عَنْ صفاتٍ وخصائصِها، فهذه الصفاتُ من حرارةٍ وبرودةٍ، ورطوبةٍ ويُبُوسَةٍ، ومَلَاسَةٍ وخشونةٍ، وهذه القابلياتُ مِنْ حركةٍ وسكونٍ، ونمو واغتذاء، وتَزَاوُجٍ وتَوَالُدٍ؛ كُلُّ هذه الصفاتِ والقابلياتِ هي «الطبيعة».

سواءٌ أكان القول الأول أو القول الثاني الْمُعَبِّرَ عَنْ الطبيعة بحق؛ فما نصيب هذا القول من الْحَقّ؟

أما القول الأول؛ فلا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عَنْ تفسير الماء بالماء، فالأرض خلقت الأرض، والسماء خلقت السماء، والأصناف صَنَّفَتْ نفسَها، والأشياء أوجدت ذاتها، فهي الْحَادث والمُحدِث، وهي المخلوق والخالق فِي الوقت ذاته!!

وبطلان هذا القول بَيِّنٌ؛ فهو إما ادِّعَاءٌ بأن الشيء وُجِدَ بذاته من غير سبب، وقد تبين لنا فساد هذا الزعم بقانون السببية، وإما إدماج الخَالِق والمخلوق فِي كائن واحد، فالسبب عين المسبَّب، وهذا مستحيل؛ بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج إِلَى الوقوف والشرح.

القول الثاني - وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها فِي التكوين -، فالقول فِيه: الْحَقيقةُ أن الَّذينَ يعزون الخلق إِلَى تلك القابليات والخصائص لا يَعْدُونَ عَنْ كونهم وَصَّافينَ لتلك الظواهر، لا يعرفون كُنْهَها، ولا يكلفون أنفسهم عَنْاء البحث عَنْ حقيقتها، ولو فعلوا ذَلِكَ لوجدوا أن القابلية التي اعتمدوا عليها فِي خلق الشيء سرابٌ خادعٌ يحسبه الظمآن ماء، حتى إِذَا جاءه لم يجده شيئًا.

ولإيضاح ذَلِكَ بالطريق الْعِلْمي؛ خذ هذا المثال:

تضع حبة فِي التراب، تسقيها بالماء، تنتفخ وتنفلق، فيظهر منها الرُّشَيْم، ويندفع منه الْجُذَيْرُ إِلَى الأسفلِ، والمجموعُ الْخَضَرِيُّ إِلَى الأعلى، وتنشأ الأوراق، فالأزهار والثمار، وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلًا، فالقابلية التي كَانَت فِي الحبة وهي الانتفاخ والانفلاق وظهور الرشيم، ولو لا هذه القابليات المتوالية لَمَا اطَّرَدَتْ تلك الظواهر الحيوية، ولما نشأت عَنْها الثمرة، فَلْنَأْتِ إِلَى هذه القابلية بالذات نبحث عَنْ حقيقتها؛ لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لَمَا نشأ شيء؛ فمن الَّذي نفخها وفلقها؟!!

لو كَانَ للحبة عقل وتدبير لقلنا: إن عقلها هو الَّذِي هيأ لها ذَلِكَ، ولو أن الماء هو الَّذِي نفخها وفلقها؛ لأمكن للماء أن ينفخ فِي الحديد وأن يَفْلِقَه.

إذًا؛ فلا بد من مؤثر وقبولٍ لتأثيرِ ذَلِكَ المؤثر، وإذا كَانَت الحبة بذاتها - جدلًا - انتفخت وانفلقت؛ فلماذا لم تَجْمُدْ وتَضْمُرْ بدلًا من أن تنتفخ وتنمو؟!!

بل هُنَالكَ ما هو أعجب من ذَلِكَ كما مر ذَلِكَ فِي أكثر من مجلس:

لو أننا أتينا بحبة من حبات الفول، وربطناها بخيط على قطعة من الخشب، ثم جعلناها فِي الماء مطمورة فِيه أو مغموسةً فِيه؛ سيظهر لنا ما مر ذكره؛ المجموعُ الخضري يتجه إِلَى جهة العلو؛ لِأَنَّهُ يتعامل مع الشَّمْس والهواء، فيكون فوق سطح التربة.

المجموع الجذري يتجه إِلَى جهة السفل.

لو أننا قلبنا الخشبة، فجعلنا ما ظهر متجهًا إِلَى العلو فِي جهة السفل، وما ظهر متجهًا إِلَى السفل فِي جهة العلو؛ فما الَّذِي يحدث؟

يستدير كُلٌّ ليصير إِلَى مكانه الَّذِي هو له، فالذي جعلناه إِلَى جهة العلو - وهو المجموع الجذري - سينحني من أجل أن يكون إِلَى جهة السفل، والذي جعلناه فِي جهة السفل والأصل أَنَّهُ للعلو - وهو المجموع الخضري -؛ فهذا سينثني من أجل أن يتجه إِلَى جهة العلو؛ فهذه القابلية من أين؟!

أفي الحبة عقل؟!

ولماذا يتجه هذا إِلَى جهة العلو وهذا إِلَى جهة السفل؟!

ثم هذه الحبة كَأَنَّها جماد، قبل أن تعالَجَ بالماء والتربة فإنها لا شيء فِيها، فإذا ما عولجت؛ انتفخت وانفلقت، وصار ما للعلو للعلو، وما للسفل للسفل؛ بأي شيء؟!!

فهذه يَقُولون: هي القابلية!!

لكي يحصل التكاثر والبقاء يحتاج الأمر إِلَى عقل وإدراك ومنهاج مرسوم من قِبَلِ تلك البذرة، البذرة لا تملك شيئًا من ذَلِكَ؛ فكيف حصلت إذًا ثمرةٌ بعينها؟!!

بل كيف حصلت ثمار كثير متنوعة؟!!

وكيف كَمَنَت الغاية الْمُعَيَّنَةُ والصفات المقصودة فِي صميم كل بذرة منها؟!!

لأنك خبير بأنك إن جعلت بذرة الإِجَّاصِ - وهو الكمثرى كما سيأتي - وبذرةَ المشمش فِي تربة مع التقارب بينهما، وراعيت كلًا منهما؛ فهذه لا تخطئ أن تعطيك ثمرتها، وهذه لا تخطئ أن تعطيك ثمرتها، وهما يُسْقَيَانِ بماءٍ واحد، وهما أَيْضًا فِي تربة واحدة؛ بل إن الحنظل يكون

بجوار ثمرة المشمش أو شجرة المشمش؛ فهذا يُخْرِجُ حنظلًا، وهذه تُخْرِجُ هذا الثمر الحلو؛ فمن الَّذِي جعل هذا فِي هذا وهذا فِي هذا؟!!

التربة واحدة، وهذه وهذه تُسْقَيَانِ بماءٍ واحد؛ فمن أين؟!!

الطبيعة؟!!

أَيُّ طبيعة؟!!

القابلية؟!!

أيُّ قابليةٍ التي تُمَيِّزُ هذا التمييزَ العجيب؟!!

الحقيقة: أن مَنْ أَنْعَمَ النظر فِي تعبير الطَّبِيعِيِّينَ المستندين إِلَى القابلية حينما يَقُولون: طُبِعَ النبات على ذَلِكَ!!

مَن الَّذِي طبعه إذًا؟!!

طبع النبات على ذلك؛ انتفخت الحبة وانفلقت، وتوالدت الخلايا، تميل الخلية الحية إِلَى الانقسام!!

مَنْ نظر إِلَى كلامهم هذا؛ وجد أن جميع ما قَالوا فِي التعليل إنما هي أفعال مبنية للمجهول لجهل الفاعل الْحَقيقي، فكأن الطبيعي أغمض العين عَنْ السبب الْحَقيقي، وَبنَى الفعلَ للمجهول تَخَلُّصًا؛ فمن الَّذِي نفخ الحبة؟!!

من الَّذِي فلقها؟!!

من الَّذِي أدى إِلَى التواجد؟!!

من الَّذِي جَبَلَ الخليةَ على الانقسام؟!!

كل هذا التحقيق لا تصل إِلَيْهِ نظرةُ الطَّبِيعِيِّينَ القصيرةُ بل المقتصِرةُ على وصف الظواهر دون الذهاب إِلَى أَسْبَابها؛ بل هي مخطئة فِي جعل الصفة المنفعلة سَبَبًا فاعلًا، وجَعْلِ القابلية مؤثرًا، وجَعْلِ الظاهرةِ المجهولةِ عاملًا مُكَوِّنًا، فالانتفاخ صفة نشأت عَنْ المؤثر الخارج عَنْ الشيء وعن قبول أثره فِي ذَلِكَ الشيء.

الانفلاقُ صفةٌ.

الامتداد صفةٌ.

ما زاد الطبيعي على أنْ جَعَلَ من مجموعِ هذه الصفات مفهومًا مركبًا سماه: «قابليةَ التواجدِ والنمو»، فجعل من القابلية التي هي عَرَضٌ من أعراض الشيء سَبَبًا فِي الخلق، ومن الصفة الانفعالية التي لا تعي ولا تدرك سَبَبًا فاعلًا واعيًا فِي تكوين الأشياء.

إذًا؛ فَمَن الَّذِي ركز الطبيعة فِي العناصر؟!

ومن الَّذِي نوع تلك الطبائع؟!

إن بذرة الإِجَّاصِ - أي الكمثرى – وبذرةَ المشمش حين توضعان في التراب؛ تنتج كل واحدة منهما ثمرًا يختلف عَنْ الآخر بلونه وطعمه ورائحته، مع أنه يُسْقَى بماء واحد، ومع اتفاقنا على أنه ليس للبذرة عقل ولا لجذرِ الشجرة إدراك؛ فكيف كَانَ الجذر يمتص الماء، ويصفي ذرات بعينها، ويُنْضِجُ النَّسْغَ ويَسُوقُهُ إِلَى الثمر، ويُكَوِّنُ العُصَارَةَ ويُنْشِئُ الحلاوة؟!!

كل ذَلِكَ يجعلنا نسأل عَنْ السبب ولا نقف عَنْد المجهول ولا نكتفي بوصف الظواهر؛ بل لا نصف هذه الظواهر خطأً بأنها أَسْبَاب الخلق الْحَقيقي.

ونحن نعلم أن القابلية ليست إلا صفة من صفات الشيء؛ فكيف تَخْلُقُه؟

نعلم أن الحبة بالنسبة للنبات جمادٌ لا يعقل؛ فكيف تُنَوِّعُهُ ولا عقل لها ولا إدراك؟!!

وإذا لاحظت أننا مجبورون بحكم هذه النظرة إِلَى طبائع الأشياء أن نسأل عَنْ حقيقة تلك الطبيعة، وعمن طبع الأشياء عليها، وكيف تؤثر؟

وهل تبدع، أم تصنف وتركب؟

وهل هي فاعلة بذاتها أم منفعلة لغيرها؟

ما دمنا مضطرين إِلَى هذه الأسئلة؛ فإننا ندرك أن الطَّبِيعِيِّينَ قد نقلونا من مجهول واحد إِلَى مجاهيل كثيرة، ومن الأصل الحاسم إِلَى الفروع التي لا تحسم الأمر، فبينما كنا نسأل عَنْ خالق الحبة وفالق النوى؛ انتقلنا بتلك النظرة القصيرة المتجاهِلة إِلَى صفاتٍ انفعاليةٍ ليس لها من القدرة على الخلق نصيب، ولو لا قِصَرُ النَّظَرِ عند الطَّبِيعِيِّينَ على هذه الأَسْبَابِ الغريبةِ الْمُحَيِّرَةِ دون مُبَرِّرٍ لوجدنا الجوابَ شافيًا منطقيًا منسجمًا مع ما تقدم من التحقيق الْعِلْمي فِي الآية الكريمة التالية، أَيْ لوجدنا الجواب مُتَّسِقًا مع الْحَقائق الْعِلْمية التي مرت فِي هذه الآية الكريمة: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ

اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥»)، وبذَلِكَ ترجع الأَسْبَاب كلها إِلَى الخَالِق الأول، وتُعْرَفُ المجاهيلُ، ويُحْسَمُ الأمرُ.

ولكي يزداد الأمر وضوحًا؛ خذ هذا المثال:

«محرك السيارة»؛ فإن تحرك أجزاء المحرك واحتراقَ البنزينِ والقوةَ الدافعةَ فِي محصول الانفجار؛ كل تلك الخصائص قابلياتٌ وطبائع؛ فهل تجد أن قابليةَ الاحتراقِ وخاصيةَ الانفجارِ وقوانينَ الْمِيكَانِك هي التي خلقت المحرك وأبدعت السيارة؟!!

لا شك أن القابلية غير ذات الشيء، وأنها وإن كَانَت سَبَبًا فِي اندفاع الظواهر وبروزِ المظاهر؛ فهو فِي حدود التركيب والتصنيف، لا فِي حدود الخلق والإبداع، وهي فِي المراحل الأخيرة - لا فِي المرحلة الأولى - من خلق الوجود، ولِذَلِكَ إِذَا أراد الطبيعيُّ الخروجَ مِنْ هذا الْمَأْزِقِ وأَقَرَّ مَعَنَا أن هذه الطبائع أَسْبَابٌ فرعية فِي مجال التكاثر والتنويع، ولا تعدو فِي حقيقتها نوعيةً تساندُ الأَسْبَاب التي مر الكلام عَنْها فِي مبدأ السببية؛ قلنا له: رجعتَ إِذًا إِلَى الأصل الَّذِي بحثنا عَنْه مِنْ قَبْلُ وأثبتناه، ولم تستطع أن تجد ضمن الكائنات من طبائعها ما يصح أن يكون سَبَبًا لإخراج الوجود من العدم، وإذا أردتَ أن تعرف العلة النفسية فِي تكوين هذا الإله الزائف - يعني وَثَنَ العصرِ الحاضرِ «الطبيعة» -، إِذَا أردت أن تعرف العلة النفسية لدى هَؤُلَاءِ فِي أخذهم بهذا الصنم؛ وجدتَهَا فِي السلسلة التالية:

عاين الإنسان صفة الشيء، فأضاف الصفات بعضَها إِلَى بعض، وكَوَّنَ من مجموع الصفات مفهومًا، سَمَّى المفهومَ قابليةً أو طبيعةً، مالت النفس إِلَى الراحة والاختصار، فجعلت من تلك الطبيعة فِي خيالها ذاتًا مستقلة فَعَّالَةً، وجَمَدَ الخيالُ البَشَرِيُّ على ذَلِكَ، وتَوَهَّمَ صاحبُه أَنَّهُ وجد إله الوجود، فأقبل عليه طائعًا، وأَسْلَمَ له خاضعًا مِنْ بَعْدِ أَنْ صَنَعَهُ بيده كما يفعل عابد الوثن، يصنعه ثم يتخيل أن له النفعَ والضُّرَّ، ثم يعبده.

وما أشد التشابه بين من كَانَ يعبد الأصنام من قبل ويجادل عَنْها، ومَنْ يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عَنْها!!

فالعلة النفسية واحدة، ونوعية الخطأ واحدة؛ ألا وهي الاصطناع فِي أول الأمر، وَتَوَهُّمُ الاستقلالِ والتأثيرِ فِي آخره، وقد أشار القرآن الكريم إِلَى هذه الخدعة فِي آيات كريمة، منها:

«مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)».

«قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)».

«قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١)».

فانظر من أي ناحية ضل البشر من قبل!! ومن أي ناحية يَضِلون اليوم!!

والقضية ليست إلا أسماءً يسمونها فِي البداية كما قَالَ الأولون، ثم يجادلون عَنْها كحقيقة واقعة فِي النهاية كما فعل اللاحقون، قَالوا: «الطبيعة»، ثم جادلوا عَنْها!!

وقالوا: هي الأبدية الأزلية!!

هي الخَالِق والمخلوق!!

هي الأثر والمؤثِّر!!

إِلَى غير ذَلِكَ مما قَالوا كما قَالَ الأولون، وَنَعَى عليهم القرآن فِي قوله: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ»، فهي فِي البدء أسماءٌ ثم يجادلون عَنْها، كما هو فِي المنتهى؛ أسماءٌ ثم يجادلون عَنْها.

يقولون:«الطبيعة»، ثم يجادلون عنها!!

فخلاصة القول فِي الطبيعة: أَنَّها إما قولٌ بأن الأشياء حدثت بذاتها؛ وهذا قول ساقط من كل اعتبار، وإما قولٌ بأن الصفات تخلق بالذات، وهو أشد تداعيًا وسقوطًا من القول الأول؛ لِأَنَّهُ إِذَا عجزت ذات الشيء عَنْ خلقه؛ فكيف تستطيعه الصفة؟!!

وهم يَقُولون: القابلية!!

وهذا كله منفعل وليس بفاعل، فيجعلون الصفة خالقًا!!

فإذا كَانَت الذات لا تستطيع أن تخلق؛ فكيف بالصفة؟!!

وأما اعتبار القابلية على أَنَّها سبب متأخر كبقية الأَسْبَاب؛ فتفتقر إِلَى السبب الأول، وهو الَّذِي به نقول.

إذًا؛ ففي الأحوال الثلاثة لا بد من الرجوع إِلَى الخَالِق الأول، وتأتي الطبيعة متأخرةً منفعلةً له، مفتقرةً إِلَيْهِ، وهكذا تجد أن الطبيعة - إلهَ العصرِ المزعومِ!! - لم تَثْبُتْ أمامَ النقدِ المنطقيِّ والشرحِ الْعِلْميِّ.

وليس بالنسبة للموجودات سوى صفاتها وقابلياتها وقوانينها التي تجري عليها، وأن طبائع الأشياء لا تخلقها، ومن كَانَ يبحث عَنْ ذات مستقلة لها مبدعةٍ فعالةٍ خارجةٍ عَنْ نطاق الأشياء؛ كَانَ لا شك باحثًا عَنْ عَنْقاءِ مَغْرِب، يعني عَنْ المستحيل.

فلا بد للعقل من الاعتراف؛ ولَكِنْ هذا اليأس الإنساني عَنْ معرفة أطوار الكائنات تفصيلًا فِي ماضيها ومستقبلها؛ يقابله يقين إجمالي ينطوي كل عقلٍ بشريٍّ على الاعتراف به طوعًا أو كرهًا، وأنه مهما طالت الأَسْبَاب الممكنة؛ لأن الَّذِينَ يَقُولون بنظرية التطور يُرجعون ذَلِكَ إِلَى أَسْبَاب سابقة، وهي نظرية متهافتة، أَثْبَتَ الْعِلْمُ نفسُه بطلانَها؛ ولَكِن مهما طالت الأَسْبَاب الممكنة؛ فإنه لا بد من الاعتراف بالسبب الأول، وقد مر أن الأخذ بسلسلة الأَسْبَاب هذه يُدْخِلُ فِي الدَّوْرِ والتسلسل، وهما باطلان عقلًا.

فإذًا؛ لا بد من وُجُود السبب الأولِ الَّذِي أعطى الحياة الوجود، أعطى الحياةَ الحياةَ؛ لِأَنَّهُ الحي، وأعطى الوجودَ الوجودَ؛ لِأَنَّهُ أولُ موجودٍ؛ لِأَنَّهُ أولٌ ليس له بدايةٌ، وأن وُجُوده لذاته من حيث هي.

فسواءٌ أَفُرِضَت الأَسْبَابُ متناهيةً أو غيرَ متناهيةٍ؛ فلا بد لتفسيرها وفهمها ومعقوليةِ وُجُودِها من إثباتِ شيءٍ آخَرَ يَحْمِلُ فِي نفسِه سببَ وُجُودِه وبقائِه، بحيث يكون الأولَ الْحَقَّ الَّذِي ليس قبله شيء؛ وإلا لبقيت كل هذه الممكناتُ فِي طَيِّ الكتمانِ إن لم يكن لها مَبْدَأٌ ذو وُجُود مستقل.

والله عز وجل بَيَّنَ لنا بالحجة القرآنية الْعَظِيمة، كما في قوله جل وعلا: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ (٣٥)»، فذَلِكَ شيءٌ لا يمكنهم أن يدَّعوه بوجهٍ، فهم منقطعون، والحجة قائمة عليهم؛ لِأَنَّهم لا يمكن أن يَقُولوا: "إنما خلقنا من غير شيء"، ولا يمكن أن يَقُولوا: "خلقنا أنفسنا"؛ بل يَقُول الله رب العالمين بارتقاءِ القرآن الْعَظِيم فِي الحجة: «أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)».

وهذا أمر لا يمكن أن يَدَّعوه، ومعلوم أن خلق السماوات والأرض كَانَ قبل خلق الإنسان.
لا يَدَّعِي إنسانٌ قط أَنَّهُ وُجِدَ أَوَّلًا بلا أرضٍ ولا سماءٍ، ولا شمسٍ ولا قمرٍ، ثم خَلَقَ اللهُ تبارك وتعالى الْأَرْضَ له والسماءَ من فوقه، وأَشْرَقَ عليه الشَّمْسَ، وأتى له بالليل فِيه القمرُ!!

هل يَقُول إنسان ذَلِكَ؟!!

إذًا؛ الإنسان طارئٌ على هذا الوجود، فالأرض والسماوات؛ كل ذَلِكَ وجد قبل خلق الإنسان؛ فمن الَّذِي خلق السماوات والأرض؟!!

لأَنَّهُ قد يَقُول قائل: "إِنَّهُ هو الَّذِي خلق نفسه"!!

كذَلِكَ الَّذِي كَانَ مباهتًا لإبراهيم عليه السلام؛ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

وهذا ارتقاء فِي الحجة؛ حتى لا يتوقف المرء مع هذه الْمُمَاحَكَاتِ التي لا تغني عَنْ الْحَقّ شيئًا؛ ولَكِنْ أَخَذَ برأسِه حتى دَقَّهَا بالْحَجَرِ أو دَقَّ بها الْحَجَرَ مِنْ أجل أن ينتبه، فهذا يَقُول: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾!! ويأتي بمغالطة مكشوفة، فيقول: فإن الله عز وجل هو الَّذِي يأتي بالشمس من المشرق، وأنت تَدَّعِي أنك ربٌّ وإلهٌ؛ إذًا فَأْتِ بالشمسِ من المغرب، فبُهِتَ الَّذِي كفر.

فقد يوجد من يَقُول سيرًا على هذا النهج المرذول: "إِنَّهُ هو الَّذِي خلق نفسه" كما قَالَ الأول!!

فيقال: فمن الَّذِي خلق السماوات والأرض؟!!

أخلقتها أنت؟!!

مَنْ خَلَقَها إذًا؟!

ولِذَلِكَ قرر الخطابي رحمه الله أن الكفار لا يمكن أن يَدَّعُو هذا، وفائدة ذكره والسؤالِ عَنْه: قَطْعُ اللَّجَاجِ والخِصامِ؛ إذ قد يوجد جاحدٌ مكابر يَقُول: "أنا خلقتُ نفسي" كما زعم مثيل له من قَبْلُ بأنه يحيي ويميت؛ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾؛ فماذا كَانَ الجواب؟

سؤال آخرُ أَبَانَ عجزَه وأَكْذَبَهُ فِي زعمه الأول - " أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت " -، «قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ»، فكانت النتيجة: «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)».

فَهَبْ شخصًا قَالَ: "أنا خلقت نفسي"؛ فهل يستطيع أن يزعم أَنَّهُ خلق السماوات والأرض؟!!

فإِذَا كَانَ العدم لا يوجِدُ سماءً ولا أرضًا، وإذا كَانَت السماء والأرض لم توجِدَا نَفْسَيْهِمَا، وإذا كَانَ هَؤُلَاءِ لا يستطيعون الادِّعَاءَ بأنهم أَوْجَدوا ذَلِكَ كله؛ لِأَنَّهُ لا بد لهذا كله من موجد، وهذا الموجد هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلا بد من التسليم لِمَا تقضي به العقول السليمة من هذا القانون الَّذِي إِذَا رُدَّ؛ فإنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يصح فِي العقل قانونٌ.

«قانون السببية»؛ جعله الله رب العالمين قانونًا فطريًا فِي كل فطرة إنسانية، وأنت تستعمل قانون السببية فِي كل أمر، ولَكِن من أجل توضيح ذَلِكَ بالمثال كما مر؛ أنت عَنْدما تجد إنسانًا فِي ساحة المسجد، ثم بعدَ حينٍ تجدُه فوق سطح المسجد؛ فأنت لا تسأل، لن تقول له: كيف صعدت إِلَى سطح المسجد؟ لأن هذا الإنسان قادر على الصعود إِلَى سطح المسجد؛ ولَكِن لو وجدتَ حَجَرًا – جمادًا - فِي ساحة المسجد، ثم بعد حينٍ - وقد غِبْتَ عَنْه - رأيتَه فوق سطح المسجد؛ فإنك ستقول: مَن الَّذِي صعد بهذا الحجر إِلَى هذا المكان؟ لِأَنَّهُ لا يستطيع أن يصعد وحده، فأنت تبحث عَنْ السبب، وكذَلِكَ الشأن فِي كل شيء.

فهذا الخلق؛ مَن الَّذِي أوجده؟

مَن السبب فِي وُجُود هذا المسبَّب؟

هذا أثرٌ؛ مَن الَّذِي أَثَّرَهُ؟

من الَّذِي كَانَ سَبَبًا فيه؟

العربي الَّذِي يعيش فِي الصحراء يرعى الإبل، ويأكل الشِّيحَ والقَيْصُوم، ويبول على عقبيه!! التفت إِلَى قانون السببية كما التفت إِلَيْهِ الْفَلَاسِفَةُ الأولون بلا خلاف ولا فرق.

قال: أثر الشيء يدل على المسير، البعرة تَدُلّ على البعير، والأثر يدل على المسير، ثم نظر إِلَى أَسْبَاب وراء مسبَّبات هو يعرفها، فقال: سماء ذات أبراج، أرض ذات فجاج، بحار ذات أمواج؛ أفلا يدل ذَلِكَ كله على اللطيف الخبير؟!

ما سبب هذا؟!

من السبب فِيه؟! وهذا عربيٌّ جاهلٌ أُمِّيٌّ، لم يجلس أمام عالم، ولم يدخل أكاديمية أَفْلَاطون ولا أَرِسْطُو مَنْ قَبْلُ، وإنما هَدَتْهُ الفطرةُ إِلَى الإقرار بهذا القانون، وهو قانون السببية.

فالمخلوق لا بد له من خالق، والقرآن يبين لنا ذَلِكَ بأعذب لفظ وأجمله، وأبلغِه وأفصحِه، مع قيام الحجة العقلية التي لا تدفع؛ «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)»، فينهار بهذا كلِّه هذا الوثنُ العصريُّ الَّذِي يعبد من دون الله جَلَّ وَعَلَا، أعني الطبيعة التي يَقُولون: إِنَّهَا أزلية أبدية!! وأنها هي التي خلقت الخلق وأوجدت العالم!! ويحاولون أن يُرِيحُوا أنفسهم، وهم بذَلِكَ وَثَنِيُّونَ مشركون، ليسوا بملحدين.

هؤلاء مشركون.

وقد مر أن كل ملحد إنما هو مشرك فِي الْحَقيقة؛ لأن الله فطر الناس على إثبات الخَالِق الصانع الموجد؛ ولَكِنهم يضلون، حتى الَّذِينَ فِي هذا العصر من الشيوعيين أنكروا وُجُود الخَالِق، هم عبدوا مؤسس المذهب، فكَانُوا يذهبون إِلَى زيارة قبره، وكانت رِمَّتُهُ فِيه مُحَنَّطَةً، وكَانُوا يطوفون ربما بذَلِكَ الميدان الأحمر، وفيه رمة مؤسس المذهب الإِلْحَادي فِي هذا العصر، ثم لما انهار الاتحادُ أَخْرَجُوا رِمَّتَه، فلا أدري أَلْقَوْهَا إِلَى الكلاب أم إِلَى ماذا؟

فهم كَانُوا يعبدونه من دون الله رب العالمين!!

والذين قَالوا: "لا خالق للكون، وإنما وُجِدَ بالطبيعة، أو أن الطبيعة هي التي أوجدته"؛ هَؤُلَاءِ يعبدون الطبيعة من دون الله جَلَّ وَعَلَا.

الإنسان متدين بالطبع؛ ولِذَلِكَ قَالوا: إن علماءَ الْحَفْرِيَّاتِ والذين يُنَقِّبُونَ فِي الآثار القديمة بالمدن والمدنيات؛ وجدوا كثيرًا من تلك المدن المطمورة أو المهجورة، فلما بحثوا ونقبوا؛ وجدوا مدنًا بلا حصون، وجدوا مدنًا بلا معاهد علمية، بلا مدارس، بلا مَشَافِي، إلى غير ذَلِكَ؛ ولَكِنهم لم يجدوا مدينة قط من المدائن القديمة بغير مَعْبَدٍ.

كل مدينة لا بد أن يكون فِيها معبد.

قومٌ يعبدون الشَّمْس، يعبدون الفرعون، يعبدون ما شاؤوا من أمثال هذه الأوثان؛ ولَكِنهم فِي المنتهى لا بد أن يكونوا عابدين لشيء؛ بل إن الَّذِي يريد أن يفر من العبودية للإله الحَقّ لا بد أن يكون كإبليس؛ فإن الله عز وجل لما أمر إبليس بالسجود لآدم أَبَى واستكبر، فامتنع أن يكون ساجدًا لآدم الَّذِي كرمه الله رب العالمين، ولَكِنه لم يستنكف بعدُ أن يكون قَوَّادًا للفجار من ذريته، فيصيرُ قوادًا من الداعرين لذرية آدم الفجارِ الفاسقين، وهو استنكف قبل أن يسجد لآدم كما أمره الله رب العالمين.

فكذَلِكَ كل من أراد أن يفر من أن يكون مُقِرًّا بالإله الحَقّ، عابدًا للإله الحَقّ؛ فلا بد أن يتخذ لنفسه صنمًا ووثنًا يعبده من دون الله جَلَّ وَعَلَا.

الإنسان مفطور على العبادة.

لا بد أن يكون عابدًا؛ إما أن يكون عابدًا للإله الحَقّ، وإما أن يكون عابدًا لإلهٍ من الآلهة الباطلة.

فنسأل الله - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - الذي هدانا للحق أن يُثَبِّتَنَا عليه حتى يَقْبِضَنَا عليه، وأن يحشرنا في زُمْرَةِ مَنْ جاء به، إنه تبارك وتعالى على كل شيء قدير.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«المُحَاضَرَةُ الْعَاشِرَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد مر في سياق الرد على الملحدين بعض المقدمات التي هي مقدمات ونتائج في حين، وكذلك مر بفضل الله تبارك وتعالى استعراضُ «دليلِ الحدوثِ»، أو «دليلُ الإمكان»، أو هو «دليلُ الخلق»، أو هو «دليلُ الاختراع»، أو هو «دليلُ الإبداع»، إلى غير ذلك من هذه الأسماء التي هي لمسمى واحد.

ومر بفضل الله تبارك وتعالى ذكرُ دليلِ الآيات، وما تكلم به شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في هذا، وعند العلماء رحمهم الله «دليل العناية»، هو أن الله تبارك وتعالى خلق هذا الخلق، وجعل له من أَسْبَاب استمرار وُجُوده ما جعل فِي هذه الحياة، وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله حاجة العالم إِلَى الرسالة والوحي فِي مواطن كثيرة من «مجموع الفتاوى»، منها:

قوله:

وَالرِّسَالَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْعِبَادِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا، وَحَاجَتُهُمْ إِلَيْهَا فَوْقَ حَاجَتِهِمْ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَالرِّسَالَةُ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ؛ فَأَيُّ صَلَاحٍ لِلْعَالَمِ إِذَا عَدِمَ الرُّوحَ وَالْحَيَاةَ وَالنُّورَ؟!!

وَالدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ مَلْعُونَةٌ إِلَّا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مَا لَمْ تُشْرِقْ فِي قَلْبِهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَيَنَالُهُ مِنْ حَيَاتِهَا وروحِها فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ؛ وَهُوَ مِنَ الْأَمْوَاتِ؛ قَالَ اللَّهُ تعالى: «أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»، فَهَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِ؛ كَانَ مَيِّتًا فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ بِرُوحِ الرِّسَالَةِ وَنُورِ الْإِيمَانِ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ؛ فَمَيِّتُ الْقَلْبِ فِي الظُّلُمَاتِ.

وقال رحمه الله تعالى ـ وكلامه كله داخل في هذا الدليل، وهو «دليل العناية»؛ أن الله تبارك وتعالى أرسل للناس الرسل، وأنزل عليهم الكتب من أجل أن يعرفوا الغاية التي لأجلها خلقوا ـ، قَالَ رحمه الله:

إن اللَّهَ سمى رِسَالَتَهُ رُوحًا، وَالرُّوحُ إِذَا عدِمَ فُقِدَتْ الْحَيَاةُ؛ قَالَ الله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا»، فَذَكَرَ هُنَا أَصْلَيْنِ، وَهُمَا: «الرُّوحُ وَالنُّورُ»، فَالرُّوحُ: الْحَيَاةُ، وَالنُّورُ: النُّورُ.

وقال رحمه الله تعالى:

إن الله يَضْرِبُ الْأَمْثَالَ لِلْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ وَنُورًا لَهَا بِالْمَاءِ الَّذِي يُنزلُهُ مِنْ السَّمَاءِ حَيَاةً لِلْأَرْضِ، وَبِالنَّارِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا النُّورُ، وَهَذَا كَمَا فِي قَوْله تعالى: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فيذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فيمْكُثُ فِي الْأَرْض كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ».

فَشَبَّهَ الْعِلْم بِالْمَاءِ الْمُنَزَّلِ مِنْ السَّمَاءِ؛ لِأَنَّ بِهِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ، كَمَا أَنَّ بِالْمَاءِ حَيَاةَ الْأَبْدَانِ، وَشَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْأَوْدِيَةِ؛ لِأَنَّهَا مَحَلٌّ لِلْعِلْم، كَمَا أَنَّ الْأَوْدِيَةَ مَحَلٌّ لِلْمَاءِ، فَقَلْبٌ يَسَعُ عِلْمًا كَثِيرًا، وَوَادٍ يَسَعُ مَاءً كَثِيرًا، وَقَلْبٌ يَسَعُ عِلْمًا قَلِيلًا، وَوَادٍ يَسَعُ مَاءً قَلِيلًا.

وَأَخْبَرَ تعالى أَنَّهُ يَعْلُو عَلَى السَّيْلِ مِنْ الزَّبَدِ بِسَبَب مُخَالَطَةِ الْمَاءِ، وَأَنَّهُ يَذْهَبُ جُفَاءً - أَيْ: يُرْمَى بِهِ وَيُخْفَى -، وَالَّذِي يَنْفَعُ النَّاسَ يَمْكُثُ فِي الْأَرْض وَيَسْتَقِرُّ، وَكَذَلِكَ الْقُلُوبُ تُخَالِطُهَا الشَّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ، ثُمَّ تَذْهَبُ جُفَاءً، وَيَسْتَقِرُّ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْقُرْآنُ الَّذِي يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَالنَّاسَ. وَقَالَ تعالى: «وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ»، فَهَذَا الْمَثَلُ الْآخَرُ؛ وَهُوَ النَّارِيُّ، فَالْأَوَّلُ لِلْحَيَاةِ، وَالثَّانِي لِلضِّيَاءِ.

وقال رحمه الله تعالى:

إن لهذين الْمَثَلَيْنِ نظيرًا، وهما الْمَثَلَانِ الْمَذْكُورَانِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)».

وذكر شيخ الإسلام – رحمه الله – وصف المؤمن، ثم قال:

وَأَمَّا الْكَافِرُ؛ فَفِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ غَيْرُ حَيٍّ، وَإِنْ كَانَتْ حَيَاتُهُ حَيَاةً بَهِيمِيَّةً، فَهُوَ عَادِمُ الْحَيَاةِ الرُّوحَانِيَّةِ الْعُلْوِيَّةِ الَّتِي سَبَبُهَا الْإِيمَانُ، وَبِهَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ السَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الرُّسُلَ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ فِي تَعْرِيفِهِمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ، وَتَكْمِيلِ مَا يُصْلِحُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَبُعِثُوا جَمِيعًا بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَتَعْرِيفِ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَيْهِ، وَبَيَانِ حَالِهِمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

وذكر – رحمه الله – الأصول التي دل عليها فقال:

فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقَدْرِ، وَذِكْرِ أَيَّامِ اللَّهِ فِي أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، وَهِيَ الْقِصَصُ الَّتِي قَصَّهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَالْأَمْثَالُ الَّتِي ضَرَبَهَا لَهُمْ.

وَالْأَصْلُ الثَّانِي يَتَضَمَّنُ تَفْصِيلَ الشَّرَائِعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِبَاحَةِ، وَبَيَانِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَمَا يَكْرَهُهُ.

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَعَلَى هَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ مَدَارُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَالسَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ، فالسعادة والفلاح مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ لَا يَهْتَدِي إِلَى تَفَاصِيلِهَا وَمَعْرِفَةِ حَقَائِقِهَا؛ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُدْرِكُ وَجْهَ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ؛ كَالْمَرِيضِ الَّذِي يُدْرِكُ وَجْهَ الْحَاجَةِ إِلَى الطِّبِّ وَمَنْ يُدَاوِيه، وَلَا يَهْتَدِي إِلَى تَفَاصِيلِ الْمَرَضِ وَتَنْزِيلِ الدَّوَاءِ عَلَيْهِ.

وقد قَالَ السفاريني فِي «لوامع الأنوار»:

اعْلَمْ أَنَّ حَاجَةَ الْخَلْقِ إِلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَبَعْثَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضَرُورِيَّةٌ، لَا يَنْتَظِمُ لَهُمْ حَالٌ، وَلَا يَصْلُحُ لَهُمْ دِينٌ وَلَا بَالٌ إِلَّا بِذَلِكَ، فَهُمْ أَشَدُّ احْتِيَاجًا إِلَى ذَلِكَ مِنْ إِرْسَالِ الْمَطَرِ وَالْهَوَاءِ؛ بَلْ وَمِنَ النَّفَسِ الَّذِي لَابُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، كَمَا فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» لِلْمُحَقِّقِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.اه

وكلام ابن القيم رحمه الله الَّذِي أشار إِلَيْهِ السفاريني رحمه الله هو فِي «مفتاح دار السعادة»، وهو :

حَاجَة النَّاس إِلَى الشَّرِيعَة ضَرُورِيَّة فَوق حَاجتهم إِلَى كل شَيْء، وَلَا نِسْبَة لحاجتهم إِلَى علم الطِّبّ إِلَيْهَا؛ أَلَا تَرَى أَن أَكثر الْعَالم يعيشون بِغَيْر طَبِيب؟ وَلَا يكون الطَّبِيب إِلَّا فِي بعض الْمدن الجامعة، وَأما أهل البدو كلُّهم، وَأهل الْكُفُورِ كلُّهم، وَعَامةُ بني آدم؛ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى طَبِيب، وهم أصح أبدانًا وَأقوى طبيعةً مِمَّن هُوَ متقيد بالطبيب، وَلَعَلَّ أعمارهم مُتَقَارِبَة، وَقد فطر الله بني آدم على تنَاول مَا يَنْفَعهُمْ وَاجْتنَاب مَا يضرهم، وَجعل لكل قوم عَادَةً وَعُرْفًا فِي اسْتِخْرَاج مَا يَهْجُمُ عَلَيْهِم من الأدواء، حَتَّى إن كثيرًا من أُصُول الطِّبّ إِنَّمَا أُخِذَتْ من عوائد النَّاس وعُرْفِهِم وتجاربهم، وَأما الشَّرِيعَة؛ فمبناها على تَعْرِيف مواقعِ رِضَى اللهِ وَسَخَطِه فِي حركات الْعباد الاختيارية، فمبناها على الْوَحْي الْمَحْض.

وَالْحَاجة إِلَى الشريعة أشد من الحاجة إِلَى التنفس؛ فضلًا عَنْ الطَّعَام وَالشرَاب؛ لِأَن غَايَة مَا يُقَدَّرُ فِي عدم التنفس وَالطَّعَام وَالشرَاب؛ موتُ الْبدن وتَعَطُّلُ الرُّوح عَنْهُ، وَأما مَا يُقَدَّرُ عَنْد عدم الشَّرِيعَة؛ ففساد الرّوح وَالْقلب جملَةً، وهلاكُ الْأَبدِ.

وشتان بَين هَذَا وهلاك الْبدن بِالْمَوْتِ، فَلَيْسَ النَّاس قطّ إِلَى شَيْء أحوجَ مِنْهُم إِلَى معرفَة مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول صلى الله عليه وآله وسلم، وَالْقِيَام بِهِ، والدعوة إِلَيْهِ، وَالصَّبْر عَلَيْهِ، وَجِهَادِ مَنْ خَرَجَ عَنْهُ حَتَّى يرجعَ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ للْعَالَمِ صَلَاحٌ بِدُونِ ذَلِكَ الْبَتَّة، وَلَا سَبِيل إِلَى الْوُصُول إِلَى السَّعَادَة والفوز الْأَكْبَر إِلَّا بالعبور على هَذَا الْجِسْر.

فهذا الَّذِي ذكره علماؤنا - رحمهم الله تعالى - هو أعظم عَنَاية بالجنس البشري فِي هذه الْأَرْض؛ أن الله تبارك وتعالى لِأَنَّهُ لم يخلقهم عبثًا؛ أرسل إِلَيْهِم الرسل، وأنزل عليهم الكتبَ من أجل أن يُبَيِّنُوا لهم مواقعَ مرضاةِ اللهِ ومساخطِهِ، من أجل أن يقوموا بوظيفتهم فِي هذه الحياة، وهذا أعظم مظاهر العناية بالكائن الإنساني فِي هذا الوجود، إلا أن الْعلماء - رحمهم الله تعالى - لما تعرضوا لذكر دليل العناية جعلوه شيئًا يشمل كل مَنْ وما فِي الْأَرْض مِنْ مخلوقٍ خلقه الله تبارك وتعالى، فقالوا - كما فِي كتاب «الله جل جلاله» -:

كل نعمة وراءها مُنْعِمٌ.

وَصْفُ دواءٍ لمريضٍ نعمةٌ وراءَها طبيب.

تأمينُ طعامٍ لجائعٍ نعمةٌ وراءها مُطْعِمٌ.

رعايةُ الطفلِ حتى يَكْبُرَ وَيَسْتَغْنِيَ نعمةٌ.

وهكذا نجد أن المعطَيَاتِ الْمُصْطَنَعَةَ للإنسان كلَّها وراءها مباشرةً مَنْ أَعْطَى وَاعْتَنَى.

أترى هذه المعطياتِ الكثيرةَ التي ليست من صنع الإنسان للإنسان؛ أليس وراءها يَدٌ؟!!

إن إنكار ذَلِكَ تعطيلٌ للعقلِ أَيَّ تعطيلٍ!!

ولما كَانَت هذه الظاهرةُ - ظاهرةُ العنايةِ والنعمةِ على الإنسان - من أكثر الظواهر تفصيلًا فِي القرآن، لِمَا يترتب عليها من إظهار فضل الله وكرمه ورحمته وعطائه، وبالتالي يستخرج بذَلِكَ شكر العاقل لله المنعِمِ جَلَّ وَعَلَا، أو إقامةِ الحجة على الإنسانِ وكفرِه وظلمِهِ وجحودِهِ؛ وبالتالي استحقاقه كلَّ عقاب؛ لما كَانَ ذَلِكَ كذَلِكَ؛ فقد ذكر الله رب العالمين فِي كثير من الآيات فِي القرآن المجيد بعضَ مظاهرِ العنايةِ بالإنسان كدليلٍ على وُجُوده جل وعلا.

قال جَلَّ وَعَلَا: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)»، وقال جَلَّ وَعَلَا: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)».

الملاحَظُ أن آية من الآيتين خُتِمَتْ بقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»، بينما خُتِمَت الأخرى بوصف الإنسان؛ «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

فإذا ما نظرتَ فِي سياق الآيتين وخِتَامَهما؛ اطَّلَعْتَ على مَعَانٍ، منها: أن هذه النعم التي لا تُعَدُّ ليست مصادفةً؛ بل هي من خلق الله جَلَّ وَعَلَا، وعفوُ الله ورحمتُه هما اللذان يَسَعَانِ الإنسانَ المؤمنَ إِذَا لم يَقُمْ لله بحق المعرفة أو بواجب الشكر قيامًا كاملًا؛ «إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ». وأيضًا ترى أن جهل الإنسان الَّذِي ينتج عَنْه الْكُفْر، وترى أن كبره الَّذِي ينتج عَنْه الظلم؛ هو الَّذِي يجعل الإنسان لا يرى بداهةَ نِعَمَ اللهِ عليه، ويجعله لا يَنْسُبُهَا إِلَى الله بإخلاص وتجرد؛ بل ينسبها إِلَى أي شيء مهما كَانَ تافهًا وباطلًا؛ «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

وقال ربنا جَلَّ وَعَلَا: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)».

وقد أجمل الله تعالى ماهيةَ عَنَايتِهِ بالإنسان ونِعَمَه عليه فِي آيات.

منها: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا»، وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً»، وقال تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ».

وفي هذا الإجمال تتبين أن أول مظهر من مظاهر نعمة الله على الإنسان: خلقته على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة.

وثاني هذه المظاهر: أن الْأَرْض بما فِيها والسماواتِ بما فِيها مسخرةٌ للإنسان، وأن هذا الأنعام كلَّها سخرها الله رب العالمين للإنسان، ومكنه الله تبارك وتعالى منها.

فهذا الإنعام كله بِجُزْئَيْهِ على الإنسان من الله جَلَّ وَعَلَا، وأَسْبَغَ كما قَالَ تعالى: «جميعًا منه»، ولا يمكن أن يكون إلا ذَاكَ؛ لأن مناسبة الكون للإنسان، ولأن إمكانه من تسخيره لا يكون إلا بمسخِّر.

وبعد هذا الإجمال يذكر الله تبارك وتعالى بعض تفاصيل هذين المظهرين من مظاهر نعمه على الإنسان فِي القران؛ «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)».

وقال تعالى: «الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)».

وقال تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)».

فلم يُنْعَمْ على مخلوق من المخلوقات كما أُنْعِمَ على الإنسان من حيث ما أُعْطِيَ من مُعْطَيَاتٍ خُلُقِيةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، وكذَلِكَ ما أَنْعَمَ اللهُ تبارك وتعالى عليه من اعتدالِ خَلْقه؛ «وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً».

كفى بالعقل للإنسان نعمةً، وبسبب مما أُعْطِيَ استطاع أن يُسَخِّرَ هذا الكونَ بما فِيه، أي بِسَبَب نعمة الله تبارك وتعالى عليه بالعقل.

ثم يعدد اللهُ نِعَمَهُ الكونيةَ على الإنسان، وما أكثرَ الآياتِ فِي ذَلِكَ، ويكفي أن نعرف أن سورةً طويلة هي سورة الأنعام كلُّها تقريبًا تتحدث عَنْ هذا الأمر، وكذَلِكَ سورة النمل، وكذَلِكَ سورة النِّعَم، وهي سورة النحل، فتأمل فِي قول ربك: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ».

وقال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ».

الطريق الوحيد الَّذِي يسلكه الإنسان لكي يتعرف على الطريق الصحيح فِي ظلمات البر والبحر؛ هو أن يتبع النجم، وقد كَانَت المسألة قديمًا أوضحَ منها الآن؛ لكثرة ما كَانَ يستفيد الإنسان من الاهتداء بالنجم، ولَكِن فِي الحاضر وإِلَى الأبد سيبقى اهتداءُ الإنسان بالنجم شيئًا ضروريًا، يهتدي بها قاطعُ الصحراءِ فِي سَيْرِهِ، والجنديُّ فِي معركته هجومًا أو انسحابًا، والإنسانُ حيث كَانَ.

إن السفينة فِي البحر إذ تَسْلُكُ طريقَهَا معتمدةً على الآلات وعلى خطوط الطول والعرض؛ هي حتى فِي هذه معتمدةٌ على النُّجُوم، إذ لو لا نَجْمُ القُطْبِ ما عُرِفَ طُولٌ ولا عرضٌ، ولو لا النُّجُوم الأخرى ما عُرِفَ نَجْمُ القُطْب، وبدون نجوم الكون؛ كم كَانَ يتعذب الإنسان؟!!

وكم كَانَ يضل؟!!

وكم كَانَ تَتَقَلَّصُ دائرةُ عَمَلِه؟!!

قال جَلَّ وَعَلَا: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)».

وقال جَلَّ وَعَلَا: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)».

وقال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)».

فبَيَّنَ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هذه الآيات وفي غيرها في كثيرٍ من الآيات فِي القرآن المجيد عَنَايَتَهُ بهذا الإنسان، بهذا الخلق فِي هذه الْأَرْض فِي هذه الحياة، وكيف أن الله تبارك وتعالى جعل ذَلِكَ مُمَهِّدًا لحياته ولِأَدَاءِ وظيفته فِي هذه الْأَرْض على النحو الَّذِي طلبه الله رب العالمين منه.

فدليل العناية يدل على وُجود الخَالِق جَلَّ وَعَلَا، وعلى أن الله تبارك وتعالى هو الَّذِي خلق هذا الخلق، وجعل هذه العناية مصروفةً لهذا الخلق فِي هذه الْأَرْض فِي هذه الحياة؛ من أجل أن يمارس وظيفتَه فِيها. على أن هُنَالِكَ فِي هذا العصر الْحَدِيث أمور أخرى، لَمَّا تأمل فِيها الْعلماءُ فِي مجالاتهم المختلفة؛ وصلوا إِلَى النتيجة ذاتها التي دلت عليها الآيات فِي ما مر ذكره.

في كتاب «العقيدة فِي الله» بيان لبعض هذا الدليل الْعَظِيم وهو دليل العناية.

فالعلماء يبينون عجائب صنع الله في خلقه، وقد كان العلماء ولا يزالون يبينون عجائب صنع الله في خلقه، ويَعِظُونَ أنفسَهم بذلك، كما يعظون غيرهم.

وتأمل في هذه النماذج؛ لتعرف أن الله رب العالمين قد أحسن إلى هذا الإنسان أعظمَ إحسان؛ إلا أن الإنسان ظلوم كفار كما ذكر ذلك عنه الذي سواه وبرأه.

هذه الأجسام الحية أجسام الأحياء؛ مم تتكون؟

وكيف تتكون؟

قال بعض المشتغلين بهذا العلم:

"معظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من تلك الوحدات الدقيقة الحجم التي تسمى ب(الخلايا)، كما يتكون المبنى من مجموعة من الأحجار المرصوصة ".

وخلايا أجسامِنا وأجسامِ غيرِنا من الحيوانات دائمةُ الانقسام، وذَلِكَ الانقسام يكون لنمو الجسم، أو لتعويض ما يفقد أو يموت من الخلايا لأسباب عديدة، وكلّ خلية من هذه الخلايا تتكون أساسًا من مادة عجيبة يطلق عليها اسم «الْبُرُوتُوبْلَازْمْ».

وتوجد بداخل كل خليةٍ محتوياتٌ عديدةٌ ذاتُ وظائفَ محددةٍ، ومِنْ هذه المحتوياتِ أجسامٌ دقيقةٌ تحمل عواملَ وراثيةً، هي التي يطلق عليها اسم «الْكُرُومُوسُومَات».

وعدد هذه «الْكُرُومُوسُومَات» ثابتٌ فِي خلايا كلّ نوع من أنواع الحيوانات والنباتات المختلفة، فعددها فِي خلايا القط - مثلًا - يختلف عَنْ عددها فِي خلايا الكلب أو الفيل، أو في نبات الجزر أو نبات الفول.

وفي كل خليّة من الخلايا التي يتكون منها جسم الإنسان يوجد ستة وأربعون من هذه (الْكُرُومُوسُومَات)، وعندما تنقسم الخلية إِلَى خليتين داخل أجسامنا؛ فإنّ كلّ خلية جديدة

لا بدّ أن تحتوي على العدد نفسه من (الْكُرُومُوسُومَات)، وهي ستة وأربعون، إذ لو اختل هذا العدد لما أصبح الإنسان إنسانًا.

والخلايا - كما مر - دائمةُ الانقسام، يحدث هذا فِي جميع ساعات اليوم؛ حتى فِي أثناء نومنا، ونحن حتى الآن لا ندرك حقيقة ما يحدث في هذه العملية المذهلة «عمليةِ انقسام الخلايا»، وإنما يكتفي الْعِلْمُ بوصف الخطوات العملية التي يمكن ملاحظتها تحت عدسات المجهر العادي، أو عَنْ طريق المجهر الإلكتروني، الَّذِي يكبر الأشياء تكبيرًا أكثرَ بكثيرٍ من تكبير المجهر العادي".

جميع الخلايا الناتجة عَنْ عمليات الانقسام فِي جسم الإنسان لا بدّ أن تحتوي على ستة وأربعين (كروموسومًا) فِيما عدا نوعين من الخلايا، هما: الخلايا التناسلية، أي الحيوان المنوي فِي الذكر والبويضة فِي الأنثى، وعندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين هذه الخلايا التناسلية، فإنها تُنْتِجُ خلايا لا تحتوي على ستة وأربعين (كروموسومًا)، بل تحتوي على نصف هذا العدد، أي يصبح فِي كل خليةٍ تناسليةٍ ذكريةٍ أو أنثويةٍ ثلاثةٌ وعِشرون كروموسومًا فقط ".

ويحدث هذا لحكمة بالغة ولهدف عظيم، إذ إنّ الخلية الذكرية - الحيوان المنوي - لا بدّ أن تندمج مع الخلية الأنثوية – وهي البويضة -؛ لتكوين أول خلية فِي جسم الجنين، وهي التي يطلق عليها اسم (الخلية الملقحة)، حيث ينضم الثلاثة والعشرون كروموسومًا التي فِي الخلية الذكرية إِلَى الثلاثة والعشرين كروموسومًا التي فِي الخلية الأنثوية؛ ليعود عدد (الْكُرُومُوسُومَات) فِي الخلية الجديدة إِلَى العدد الأصلي، وهو ستة وأربعون كروموسومًا.

هذه الخلية الملقحة التي أصبحت تحتوي على ستة وأربعين من حاملات الصفات توالي انقسامها، فتصبح خليتين، ثم أربعَ خلايا، ثم ثمانيَ خلايا وهكذا، حتى يتم تكوين الجنين الَّذِي يخرج من رحم أمه، ويستمر نموه عَنْ طريق انقسام الخلايا حتى يصبح إنسانًا كامل النمو، فِي كلّ خلية من خلاياه ستة وأربعون كروموسومًا، كما هو الحال فِي خلايا جسد أبيه وأمه وأجداده، وجميع أفراد الجنس البشري.

اختزال عدد حاملات الصفات (الكروموسومات) إِلَى النصف عنْد تكوين الخلايا التناسلية بالذات؛ لكي تندمج فيعودَ العددُ الأصلي لحاملات الصفات فِي الخلايا.

هذا لا يمكن مطلقًا أن يكون نتيجةَ مصادفةٍ عمياءَ؛ بل لا بدّ أن يكون نتيجةَ تقديرٍ دقيقٍ من الله جل وعلا الذي هو عليم بكل شيء.

وهي فِي الوقت نفسه لا يمكن أن تخضع للتجربة واحتمال الخطأ، إذ لو حدث خطأٌ مرةً واحدةً عَنْد بدءِ الخلق، كما يقولون: "إن ذلك إنما وقع بالتجربة والخطأ، حتى استقام الأمر على ما هو عليه"!!

معلوم أن ذلك الخطأ الذي زعموا لو وقع مرة واحدة عند بدء الخلق؛ لَقَضَى على الكائن الحي قبل تكوين الجيل الثاني، أي إنّ هذا الترتيب لا بد أن يكون قد تم منذ تكوين أول جنين ظهر فِي الوجود.

فيقال للملحد: ألا يكفي هذا وحده دليلًا على وُجُود الخالق العليم الخبير القدير السميع البصير؟!!

ما الَّذِي يجعل هذه الخلايا التناسلية خاصةً تكون على النصف فِي حاملات الوراثة - فِي حاملات الصفات -، حتى إِذَا ما انْدَمَجَ الحيوانُ الْمَنوِيُّ مع الْبُوَيْضَةِ الأنثويةِ؛ عاد العدد إِلَى أصله كما كَانَ فِي جسد الأب وفي جسد الأم وفي الجنس البشري.

فلأن ذَلِكَ يحدث - أي هذا الاندماج -، لأنه يحدث جعل الله رب العالمين العدد على النصف فِي الخلايا التناسلية، حتى إِذَا ما تم الاندماج؛ عاد العدد إِلَى أصله، وأما سائر الخلايا الجسدية فِي الجنس البشري؛ فإنها على الأصل الَّذِي مر ذكره، وهو ستة وأربعون.

فمن الَّذِي فعل ذَلِكَ؟!

وهل يمكن أن يقع ذَلِكَ على هذا النحو الدقيق مصادَفَةً أو مِنْ غير صانع؟!

هذا نوع - كما مر - يخالف سائر الخلايا الجسدية، وهُنَاكَ نوع آخر فِي الجسد الإنساني، وهو «الخلايا العصبية»، وهي تخالف بقية الخلايا فِي كونها لا تنقسم أصلًا، وأما السر فِي عدم انقسامها؛ فهو أنه لا يمكن أن يكون عَنْ طريق التجربة واحتمال الخطأ والصواب أن الخلايا الوحيدة التي لا تنقسم هي الخلايا العصبية التي يتكون منها المخ وباقي الجهاز العصبي، لو انقسمت كما يحدث لِبَاقي الخلايا لَحَدَثَتْ كارثةٌ مُرَوِّعَةٌ.

إنّ خلايا المخ فِي هذه الحال لا يمكنها الاحتفاظ بشخصية الإنسان، وسوف تتلاشى جميعُ معالِمِ الذاكرةِ فِي خلال ساعات قليلة.

فالخلايا العصبية لا تتكاثر، وإنما هي باقية على أصلها.

عدد الخلايا في المخ عَنْد ولادة الإنسان أو أي حيوان آخر لا تزيد بعد ذلك خليةً واحدةً إلى الوفاة، بينما نجد أنّ الكراتِ الدَّمَوِيَّةَ الحمراءَ التي تَسْبَحُ فِي الدم، وما هي إلا خلايا تموت، ويحلّ محلها خلايا جديدةٌ كلَّ نحوِ مائةِ يومٍ، وتتكون الخلايا الحمراء أو الكرات الحمراء فِي نخاع العظام، ثم تنطلق لكي تسبح فِي تيار الدم؛ لتحل محل الخلايا التي استهلكت، فهي دائمة التجدد، ليس لها ثبات.

وأما السر فِي تفاوت قوة عضلات الجسم - لأنه مما يلاحظ: أن العضلات فِي الجسم الإنساني متفاوتة من حيث القوة -؛ أقوى عضلاتٍ فِي جسم الإنسان أو الحيواناتِ الثَّدْيِيَّةِ: عضلاتُ الرَّحِمِ عَنْد الأنثى، فعضلات الرحم عند الأنثى في الإنسان وفي الحيوانات الثديية هي أقوى عضلات الجسم الإنساني؛ لأنها تدفع الجنين لِيَخْرُجَ من بطن أمه.

لو لم تكن هذه العضلات بهذه القوة منذ بدء خلق الإنسان أو غيرِه من الحيوانات الثديية؛ لَمَا خَرَجَ إِلَى الوجود أولُ جنينٍ مِنْ بطنِ أمه.

وتَقَلُّصَاتُها تكون عَنِيفَةً جدًا، وتكون مؤلمةً جدًا؛ لِذَلِكَ لما جاء الرجل من اليمن يحمل أمه على رقبته ويطوف بها حول البيت، ثم ذهب إِلَى ابن عمر رضي الله عَنْهُمَا فقال: أترى أني قد وَفَّيْتُها حقها؟ قَالَ: ولا بطلقة واحدة - وهو ما يكون من انقباض عضلات الرحم عَنْد الولادة -.

فهذه هي الطلقة التي تعاني منها المرأة عَنْد الوضع؛ قَالَ: "ولا بطلقة واحدة".

هذا الَّذِي صنعتَ؛ وقد أتى بأمه من اليمن إِلَى مكة، ثم هو يطوف بها حول البيت وقد صار لها بعيرًا مذلَّلًا؛ كل هذا ليس بمعادِلٍ لطلقة واحدة عَنْد ولادته.

فهذه العضلات هي أقوى عضلات الجسد الانساني.

تلي عضلاتِ الرحِمِ فِي القوةِ عضلاتُ القلبِ والْفَكَّيْنِ، فعضلاتُ القلب لا بد أن تكون قوية لِتَصْمُدَ للعملِ ليلًا ونهارًا لدفع الدم إِلَى الأوعية الدموية لمدة قد تطول لأكثر من مائة عام

بلا توقف، وكذَلِكَ الحال فِي عضلات الفكين التي ينبغي أن تظلّ قادرة على دفع الأسنان لينطبق بعضها على بعض؛ لكي تَمْضُغَ أطنانًا من الطعام طوال حياة الإنسان، فلذلك كانت من أقوى العضلات في الجسد الإنساني.

وقد قرر الْعِلْم الْحَدِيث وُجُود صفة مهمة تشترك فِيها جميع الكائنات الحية من أدناها إِلَى أرقاها، هذه الصفة هي «مقاوَمَةُ عَوَامِلِ الفَنَاءِ»، إذ إنّ خالق جميع هذه الكائنات يريد لها البقاء؛ حتى يَقْضِيَ عليها بالفناء.

«فيروس الْإِنفِلْوَنْزَا» يتشكل من آنٍ لآخر بأشكال مختلفة؛ لتصعب مقاومته والقضاء عليه، وهذا معروف فاش فِي معارف الناس الطبية فِي هذا العصر؛ أن هذا الفيروس يتكون حينًا بعد حينٍ فِيه أمورٌ تجعله عَصِيًّا على ما وصل إِلَيْهِ الإنسان من أَسْبَابِ مقاومته، فعندما يستعملون بعض المضاداتِ له؛ فإنها لا تُجْدِي فَتِيلًا، فما تزال التجارب شيئًا فشيئًا حتى يُتَوَصَّلَ إِلَى شيء، فيكون هو قد غَيَّرَ من كِيمْيَائِيَّتِهِ بقَدَرِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وكذَلِكَ الحشرات مع توالي الأجيال تكتسب مناعةً ضدّ المبيدات الكيمياوية؛ لكي تقاوم عوامل الفناء وانقراض الجنس؛ بل فِي الإنسان نفسه لوحظ كثرةُ الإنجاب فِي فترات الحروب، كما لوحظ أنّ أي سَيِّدَة – أَيَّ امرأة - تواظب على تناول الوسائل التي تَحُدُّ من الحمل، ثم تسهو عَنْ تناول تلك الوسيلة بعض الأيام؛ فتجد أن النتيجة فِي معظم الأحيان تكون إنجابَ عدةِ تَوَائِمَ؛ لتعويض النقص فِي الذرية الَّذِي حدث فِي أثناء فترة الامتناع.

إذا اسْتَأْصَلَ الإنسانُ إحدى الْكُلْيَتَيْنِ لِسَبَبٍ من الأَسْبَاب؛ فإنّ الكُلْيَةَ الباقية يزداد حجمها وتؤدي عمل الكليتين؛ حتى إنَّهُ يمكن أن يحيا بِثُمُنِ كُلْيةٍ.

إذا اسْتُأْصِلَتْ كُلْيةُ، وكذَلِكَ إِذَا تعطل فِي الأخرى سبعة أثمانها؛ فإنه يمكن بهذا الثُّمُنِ الباقي أن يظل مؤديًا لوظيفته من غير ما احتياجٍ إِلَى أن يغسل دمه بالوسائل الْحَدِيثة.

الله وحده هو الَّذِي زَوَّدَ هذه المخلوقاتِ بهذه القدرة العجيبة على التوازن؛ حتى لا تَنْقَرِضَ وتَتَعَرَّضَ للفناء، كما زَوَّدَ العديدَ مِنَ الحيواناتِ بوسائلَ للدفاعِ عَنْ أنفسها، لا يختلف فِي ذَلِكَ الإنسان عَنْ العقربِ أو الثعبانِ أو غيرِهِ من هذه الحيوانات؛ فَلِكُلٍّ وسائلُ دفاعِهِ التي جعلها الله تبارك وتعالى له مهما كَانَ ضعيفًا.

لا يمكن أن يكون هذا المبدأُ أو القانونُ الَّذِي يَسُودُ جميعَ الكائناتِ الحيةِ مِنْ صُنْعِ مصادفةٍ عمياءَ تَتَخَبَّطُ فِي الظلام، إذ إنّ المصادفة لا يمكن أن تَتَّخِذَ مَظْهَرَ قانونٍ عامٍ تَخْضَعُ له جميعُ الكائنات.

وقد مر أن هُنَالِكَ وحدةً للنظام فِي هذا الكون، وهي دليل على وحدانية الخَالِق الْعَظِيم سبحانه.

فِي كتاب «وجود الله بالدليل العقلي والنقلي»:

لو أخذنا ورقة نبات رقيقة وفحصناها تحت المجهر؛ لوجدناها تتألف من ملايين الخلايا التي تنتظم مع بعضها البعضِ فِي طبقاتٍ وصفوفٍ بشكل رائعٍ يَأْخُذُ الألبابَ، وينِمُّ عَنْ وُجُود خالقٍ مُبْدِعٍ لهذا التصميمِ الْعَظِيم. لو كَبَّرْنَا هذه الخلايا تحت المجهر باستخدام عدسات قوية؛ فإننا سنشاهد التركيب العجيب لكلٍّ منها، لكلِّ خليةٍ على حِدَةٍ، سنشاهد النواةَ - وهي المركز الحيوي فِي الخلية – وحولَها مادةٌ يقال لها: «السَّيْتُوبْلَازْمْ» الَّذِي يَحُدُّه غشاءٌ رقيقٌ متماسكٌ يحافظ عليه، ستقف مذهولًا عَنْدما تدرك الحركة الدائبة الموجودة داخل خلايا النبات، والتي لا يُنْبِئُ عَنْها ظاهرُ الورقةِ الخارجيُّ الساكنُ.

يعني: أنت عَنْدما تنظر إِلَى ورقة النبات؛ تجدها ساكنةً وفيها حركةٌ داخليةٌ مَوَّارَةٌ على مستوى ما لا يحصيه إلا الله من الخلايا التي تتكون منها الورقة، فهي فِي حركة دائبة؛ ولَكِنَّ العينَ المجردة تراها ساكنة؛ لِأَنَّهَا لا تستطيع أن ترى هذه الخلايا الدقيقة، سترى الْبُرُوتُوبْلَازْم يَتَهَادَى تَهَادِيَ السفنِ على ساحلِ بحرٍ خِضَمٍّ؛ فما هي القدرة أو القوة التي تدفع الْبُرُوتُوبْلَازْم إِلَى الحركة التي تُعْرَفُ فِي علم الأحياء ب«ظاهرةِ تَدَفُّقِ الْحَشْوَةِ» أو «تَدَفُّقِ الْبُرُوتُوبْلَازْم»؟!

ما هي القوة التي جعلت هذه المادة فِي هذه الحركة الدائبة؟!

فرغمَ صغر حجم الخلية النباتية التي لا ترى إلا بالمجهر؛ إلا أَنَّهَا تشكل جهازًا مُعَقَّدًا يقوم بالعديد من الوظائف الحيوية الدقيقة التي تفوق فِي دقتِها أقصى ما وصل إِلَيْهِ الإنسانُ من دقةٍ فِي صناعةِ الساعاتِ الصغيرةِ وما دونها حجمًا من المخترعات؛ فهل تُصَدِّقُ أن ساعةَ يدِك قد تشكلت بمحض الصدفة؟!

وهل يمكن لهذه الساعة أن توجِدَ نفسها بنفسها كما يَدَّعِي الماديون؟! المادة لا تَعْقِلُ ولا تدرك ولا تبصر؛ فهي إذًا عاجزةٌ كل العجز عَنْ الخلق والإبداع، وكذَلِكَ الحال بالنسبة لهذا الكون بما يحتويه من مجرات ونجوم وكواكب ومخلوقات ونباتات ومواد، فالذي خلقها هو الَّذِي أحسن كل شيء خلقه، وهو لا يمكن أن يكون إلا اللهَ عز وجل.

إذا فَحَصْنَا الْأَمِيبَا فِي قطرة ماء مأخوذة من مستنقع، لو فحصناها تحت المجهر؛ فإننا سَنُذْهَلُ لدى مراقبة العمليات الحيوية التي ينجزها هذا الحيوان البدائي المتناهي فِي الصغر، والذي يتكون من خلية واحدة؛ ولَكِنها خلية عجيبة، عجيبة لِأَنَّهَا تُحِسُّ وتدرك، فتتحركُ باتجاهِ فَرِيسَتِهَا فَتَلْتَهِمُهَا، ثم تَهْضِمُهَا، ثم تطرح الفضلاتِ الناجمةَ عَنْ هضمها، كما أَنَّهُا تتنفس وتتكاثر وتقوم بأعمال حيوية كثيرة أخرى، وهي ذَلِكَ الحيوان البدائي الَّذِي يتألف من بعض الْبُرُوتِينَاتِ التي تتألف بِدَوْرِهَا من بعض الأحماض الأمينية البسيطة.

هل بإمكان الصدفة أن توجِدَ هذا الحيوان المجهري الدقيق من بعض الأحماض الأمينية؛ أم هل خَلَقَ الْأَمِيبَا نفسَه بنفسه بعد أن جمع ذرات خليته من هنا وهُنَاكَ، ثم رتبها بهذه الطريقة البديعة الخَلَّابَةِ؛ لتقوم بالهضم والتنفس والإحساس والتكاثر وغير ذَلِكَ؟!

وهل للأميبا عقلٌ يُسَيِّرُهُ؛ أم أن قوةً إلهيةً أوجدته، ثم قَدَّرَتْ له حركاتِه وسَكَنَاتِهِ وكافةَ نَشَاطَاتِهِ الحيويةِ المذهلة؟!

وهل بإمكان الْعلماء أن يُرَكِّبُوا أحماضًا أمينية يسيرة كتلك التي يتركب منها الأميبا، ثم يجعلوها تقوم بكل هذه الوظائف الحيوية؟!

لن يكون هذا أبدًا بدون روح، والروح من أمر ربي فقط.

فالأحماض الأمينية موجودة؛ فهل يستطيعون أن يُكَوِّنُوا لنا هذه الخليةَ الحيةَ التي تحس وتتكاثر وتأكل وتُخْرِجُ، إِلَى غير ذَلِكَ من الوظائف الحيوية؟!

إن ذَلِكَ يحتاج إِلَى الروحِ، والروحُ من أمر ربي فقط.

قال بعض علماء الأحياء - وهو أستاذ كَانَ فِي جامعة «فْرَانْكْفُورْتْ» بألمانيا -:

لقد توصَّلْتُ من خلال أبحاثي فِي علم الأحياء إِلَى الإيمان بالله، وإِلَى الاقتناع بوجوده، وتأكد لِي أَنَّهُ هو المسير لكل ما فِي هذا الكون.

قال: وباعتقادي فإن الإيمان بالله يقوم على المنطق والاقتناع؛ ولَكِن لكي يصل الإنسان إِلَى هذه الْحَقيقة؛ لا بد له من بعض المنطق، ثم يتجه إِلَى الله بالتأمل والبحث والتفكير والاستدلال. انتهى كلامه

وقد مر أن وُجُود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يحتاج فِي الْحَقيقة إِلَى منطق واستدلال؛ لِأَنَّ وُجُوده جعله الله رب العالمين فطرةً فَطَرَ النَاسَ عليها؛ ولَكِن كما فِي هذه المجتمعات الملحدة، كما فِي هذه المجتمعات الكافرة المشركة يحدث التواءٌ للفطرة، يحدث غبش، فحينئذ لا تستطيع أن ترى الله رب العالمين ولا أن توقن بوجوده، فتحتاج إِلَى أمثال هذا الَّذِي يَقُوله هذا العالم الطبيعي؛ بل إن الله تبارك وتعالى دلنا على ما وصل هو إِلَيْهِ بطريقة هي أعمق من ذَلِكَ وأجل؛ «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ».

«سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا».

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ».

فبين لنا ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ضرورة النظر فِي آيات السماوات والأرض وما بينهما؛ من أجل أن نصل إِلَى هذا الأمر الكبير الَّذِي فَطَرَ النَاسَ عليه، إِذَا ما حادت الفطرة عَنْ مسلكها الَّذِي فُطِرَتْ عليه؛ فبالنظر والتأمل يصل الإنسان إِلَى هذا الأمر الكبير.

مستشارٌ هندسيٌّ كَانَ مُصَمِّمًا للعقل الإلكتروني بالجمعية الْعِلْمية لدراسة الْمِلَاحَةِ الجويةِ بمدينةِ «لَانْجِلِيفِيلْدْ» بأمريكا، قَالَ:

من أَسْبَاب إيماني بالله: ما أقوم به من أعمال هندسية، فبعد اشتغالي سنين عديدةً فِي عمل تصميمات لأجهزة كهربائية معقدة وعقولٍ آلية وحواسيب؛ ازداد تقريري لكل تصميم أو إبداع أشاهده، ثم وجدت أَنَّهُ مما لا يتفق مع العقل والمنطق: أن يكون التصميم البديع المذهل للعالم من حولنا، والذي يتألف من مليارات التصميمات المعقدة؛ قد وجد من غير إبداع إِلَهٍ عظيمٍ، إِلَهٍ لا حدود لحكمته، ولا نهاية لتدبيره.

حقيقةً أن هذه الطريقة من الاستدلال على وُجُود الله قديمةٌ وقديمةٌ جدًا؛ إلا أن العلوم الْحَدِيثة قد صَقَلَتْهَا وجَعَلَتْهَا أكثرَ بيانًا، وأسطعَ نورًا، وأقوى حجةً وإقناعًا منها فِي أي وقتٍ مَضَى.

إن كل ذرة من ذرات هذا الكون الْعَظِيم أكثر تعقيدًا من ذَلِكَ العقل الإلكتروني الَّذِي صَنَعْتُهُ بيدي – هذا كلامه –، فإن احتاج هذا الحاسوب إِلَى مهندسٍ وإِلَى مُصَمِّمٍ، ومِنْ ثَمَّ إِلَى مُنَفِّذٍ لإنجازه؛ فإن الجسد المليء بالأجهزةِ والأعضاءِ الحيويةِ التي يُنْجِزُ كلًّ منها من المهام الْفِسْيُولُوجِيَّةِ ما يَعْجِزُ عَنْه عشراتُ الآلاتِ والأجهزةِ الإلكترونية؛ هذا الجسد بحاجة إِلَى خالقٍ حكيمٍ وعالِمٍ عليمٍ لتصويرِه وبَرْئِهِ وإيجاده، وإذا قمنا بمقارنة أعقد وأضخم العقول الإلكترونية بالعقل البشري؛ فإن عظمةَ اللهِ وإبداعَه فِي خلقه ستتجلى لنا ساطعةً نَيِّرَةً.

فهذا كلامهم!!

أُولَئِكَ الَّذِينَ أحدثوا فِي هذا الكون ما أحدثوه من هذه الاكتشافات والمخترعات، فأدى هذا الأمر من الكشف عَنْ بعض أسرار الله تبارك وتعالى فِي المادة التي خلقها لنا؛ أدى هذا الأمر الْعَظِيمُ إِلَى إِلْحَادِ أقوامٍ بالله رب العالمين، وإِلَى جحد وُجُودِه، فكأنما أُنْعِمَ عليهم بنعمةٍ لم يُقَدِّرُوا مَنْ أَنْعَمَ بها، ولم يَقْدُرُوهُ قَدْرَه، ولم يَعْرِفُوا له نعمتَه عليهم، فكان أنْ جحدوا بنعمةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فكانت النعمةُ سبيلًا إِلَى جحد وُجُوده، فأنكروا وُجُود الله رب العالمين وألحدوا.

وقد يظن أقوام أن هذا الْإِلْحَاد إنما هو عَنْد أُولَئِكَ الَّذِينَ وصلوا إِلَى ما وصلوا إِلَيْهِ من هذا التقدم المذهل، فأدى بهم ذَلِكَ إِلَى إنكار وُجُود الْخَالِقِ الْعَظِيم، ولَكِن تَعْجَبُ الْعَجَبَ كلَّه مَنْ أنْ تَعْلَمَ يقينًا وتعرف أشخاصًا بأعيانهم قد ألحدوا فِي بعض القرى فِي مصر!!

هُنَالِكَ من ألحد وأنكر وُجُود الله تبارك وتعالى!!

وهم مبثوثون فِي النجوع وفي القرى!!

ليسوا بأُولَئِكَ الَّذِينَ وصلوا إِلَى ما وصلوا إِلَيْهِ من تقدمٍ مذهلٍ فِي التقنية، وإنما هم قوم ما زالوا يَحْيَوْنَ حياةً بُدَائِيَّةً بالنسبة إِلَى ما وصل إِلَيْهِ أُولَئِكَ الْمُلْحِدُونَ!!

فهذا أمر يحتاج إِلَى بذل المجهود من أجل حماية إيمان المؤمن، وتقويةِ هذا الإيمان من جانبٍ، واستنقاذِ مَنْ يَمُنَّ اللهُ تبارك وتعالى عليه بالحياة فِي ظل الإيمان الْعَظِيم من جانب آخر.

وأما مَنْ كُتِبَ عليه الشقاوةُ؛ فإنك لو بذلتَ له مِلْءَ الْأَرْضِ حُجَجًا مَا استقام على الْحَقِّ قلبُه وفؤادُه، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

هل تَأَمَّلَ أَحَدُنا فِي الْأَرْض التي نعيش عليها؟!

ذَلِكَ الكوكب الْمُعَلَّقُ فِي الفضاءِ الشاسع، وكيف أضحى ملائمًا لسكن الناس وعيش الحيوان ونمو النبات؟! بينما ملايينُ الملايينِ من الكواكبِ الأخرى ميتةٌ لا حياةَ فِيها.

لو كَانَت الْأَرْض صغيرة أو بحجم القمر مثلًا؛ فإنها ستعجز عَنْ الاحتفاظ بغلافها الجوي الَّذِي يحميها من الأشعة الكونية القاتلة، ويمنع تَسَرُّبَ الأكسجينِ إِلَى الفضاء الخارجي، فتصبح الحياة على سطحها مستحيلة، كما لن تتمكن الْأَرْض من الحفاظ على مياه بحارها ومحيطاتها، وبالتالي فإن دورة الماء فِيها ستنعدم، وستنعدم الأمطار وكلُّ أنواع الحياة، وبنقصان ماء الْأَرْض سترتفع درجة حرارتها؛ لتصبح غير ملائمة للحياة أَيْضًا.

لو كَانَ قُطْرُ الْأَرْض - لا أصغرَ -؛ بل كَانَ ضعف قطرها الحالي؛ لتضاعفت مساحة سطحها إِلَى أربعة أضعاف سطحها الحالي، وبالتالي ستزداد قوة جاذبيتها للأجرام السَّمَاوِيَّة العابرة بالقرب منها، كما سَتَقِلُّ سَمَاكَةُ غُلَافِهَا الجويِّ - وهو السقف المحفوظ -، مما سيؤدي إِلَى مهاجمتها بالقذائف الكونيةِ والْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ المختلفةِ مِنْ ساعةٍ إِلَى أخرى مما سيؤدي إِلَى القضاء على كل أنواع الحياة على سطحها، كما سيزداد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد على السَّنْتِيمتْر الْمُرَبَّعِ الواحدِ إِلَى كِيلُوَيْنِ، فتزيد بذَلِكَ مساحةُ المناطقِ الباردةِ والقطبيةِ زيادةً كبيرةً، وستتقلص مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، ويعاني الناس نقصًا كبيرًا، مما سيجعل الناس يتجمعون فِي مناطق سكنية محدودة تَفْصِلُهُم عَنْ بعضِهم مساحاتٌ شاسعةٌ من الأراضي الْجُرْدَاءِ الْقَاحِلَةِ، وسيكون هُنَاكَ فاقةٌ كبيرة فِي الماء وفي المنتجات الزراعية والحيوانية، بحيث لا تفي بحاجة سكان الْأَرْض.

لو كَانَ حجم الْأَرْض بحجم الشَّمْس مثلًا؛ فإن جاذبيتها للأجسام الكونية ستزداد مائة وخمسين ضعفًا، وبذَلِكَ سَتَرْتَطِمُ كُلَّ بضعِ دقائقَ بِجِرْمٍ سماويٍّ مُجَاوِرٍ؛ لِيَنْجُمَ عَنْ ذَلِكَ انفجاراتٌ نوويةٌ هائلةٌ على سطحها تَحْرِقُ الأخضر واليابس، وتقضي على كافة أنواع الحياة، كما سيزداد الضغط الجوي إِلَى مائة وخمسين ضعفًا على السنتيمتر المربع الواحد من سطحها مما سيؤدي إِلَى ازدياد وزن الأجسام والكائنات التي تَدِبُّ على سطحها مائةً وخمسين ضعفًا، كما سيتضاءل حجم المخلوقات كافة، حتى يصبح الإنسان بحجم السِّنْجَابِ أو ما شَابَهَهُ.

فكونها على ما هي عليه لحكمةٍ بالغةٍ، وهذه وحدَها نعمةٌ عظيمةٌ من نعم اللهِ الكثيرةِ التي أفاض علينا بها.

فليس كونُ الْأَرْض على ما هي عليه من حيث الكتلة ومن حيث الحجم؛ ليس ذَلِكَ عشوائيًا، وإنما هو على نحو مضبوطٍ قَدَّرَهُ العليمُ الحكيمُ، وجعل ذَلِكَ من مقومات وُجُود هذه الْأَرْض وقيام الحياة عليها، إِلَى غير ذَلِكَ مما دلنا عليه الباحثون فِي هذه الأمور، وليسوا هم بمسلمين حتى يَقُول قائل: "إن هذه الأمور موجَّهَةٌ، أتى بها المسلمون" ، كما يفعل كثير من البسطاء المساكين الَّذِينَ يأتون ببعض النظريات، ثم يَلْوُونَ أعناقَ الآيات من أجل أن يَقُولوا: "هذا عَنْدنا فِي كتاب ربنا"!! ثم يتبين بعدُ زيفُ ما ذهبوا إِلَيْهِ من تلك النظريات، ويقعون حينئذ فِي مأزق خطير، ولَكِن هذا الَّذِي قرره أُولَئِكَ بالحسابات الدقيقة والآلات المضبوطة على أحدث ما وصل إِلَيْهِ الْعِلْم من الوسائل والبحث؛ هذا كله وصل إِلَيْهِ أقوام لا يؤمنون بالله تبارك وتعالى فِي الجملة، وإن آمنوا بالله تبارك وتعالى فهم ليسوا بمسلمين.

الأرض بحجمها وبُعْدِها عَنْ الشَّمْس، وسرعةِ دَوَرَانِها حولها وحول نفسها، وسَمَاكَةِ غُلَافِها الجويِّ، وحجمِ مِيَاهِهَا بالنسبة لِحَجمِ قَارَّاتها، وتركيبِ غلافِها الجوي، وتركيبِ تُرْبَتِهَا وسَمَاكَتِهَا؛ كلُّها لا يمكن أن تتجمع معًا بمحض الصدفة لتكون هذا الكوكبَ الجميلَ الذاخرَ بالحياة، الغنيَّ بالمواردِ والكِنوزِ وبأسبابِ المعيشة اللازمة لحياة الإنسان الَّذِي اختاره الله تبارك وتعالى ليكون خليفةً فِي الْأَرْض، لو توفرت كل العوامل التي سبق ذكرها، وَانْعَدَمَ ماءُ الْأَرْض منها؛ ستصبح الْأَرْض كوكبًا ميِّتًا مهجورًا كباقي كواكبِ المجموعة الشَّمْسية؛ «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ».

قال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠»).

الله وحده لا شريك له سبحانه هو الَّذِي جعل لنا من أنفسنا ومن كل ذرةٍ من ذراتِ هذا الوجودِ آيةً عظيمةً تَشْهَدُ بوجودِه وعظيمِ قدرته، وبإبداعه فِي خلقه جَلَّ وَعَلَا.

بهذا التأملِ وهذا الاستدلالِ العقلي السليمِ؛ ستجد التوافق الكبير بين ما وصل إِلَيْهِ علماء العصر فِي كل مجالات العلوم، وما ورد فِي القرآن الكريم من آيات بينات، ومعجزاتٍ ساطعات التي

تنطق كلُّها بوجود الله رب العالمين، وتسبح بحمده وعظمته وقدرته وحكمته وحسن تدبيره جَلَّ وَعَلَا.

ولا تحسبَنَّ هذا الَّذِي نأتي لك به إنما هو بدعةٌ من البدع، أو هو مُحْدَثٌ من المُحدَثَاتِ؛ فَهَاكَ ما ذكره الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فِي «شفاء العليل»، وانظر؛ هل تجد جديدًا؟! بينما مر ذكره وما يذكره أو ما ذكره رحمه الله تبارك وتعالى منذ قرون فِيما يتعلق بهذا الأمر الَّذِي نحن بصدده.

قَالَ - رحمه الله - وهو يتأمل فِي هذا الخلق العجيب الَّذِي جعله الله رب العالمين آية للعالمين، وهو النحل، فالعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بَحَثَ كما فِي «شفاء العليل»، وكَذَلِكَ بَحَثَ كما فِي «مفتاح دار السعادة»، بَحَثَ أمورًا تجعلك تعتقد أَنَّهُ كَانَ عالمًا بالطب، وعالمًا بالهندسة، وعالمًا بالحشرات، وعالمًا بالنبات، وعالمًا بأمور كثيرة -رحمه الله رحمة واسعة-.

تأمل في قوله:

أمر النحل فِي هدايتها من أعجب العجب، وذَلِكَ أن لها أميرًا ومدبِّرًا، وهو الْيَعْسُوبُ – يريدُ مَلِكَةَ النحلِ -، وهو أكبر جسمًا من جميع النحل، وأحسن لونًا وشكلًا.

سآتيك بكلامه كما ذكره، وبكلام العلماء الْمُحْدَثِينَ فيما يتعلق بهذا الأمر الذي تَعَرَّضَ له خاصةً، وهو النحل، وتأمَّلْ؛ هل تجد كبيرَ فَرْقٍ بين كلامِه وكلامهم؟

قال – رحمه الله -:

ملكة النحل تَلِدُ فِي إقبال الربيع، وأكثر أولادها يَكُنَّ إناثًا، وإذا وقع فِيها ذَكَرٌ؛ لم تَدَعْهُ النحلُ بينها، بل إما أن تطرده، وإما أن تقتله إلا طائفةً يسيرةً، وذلك أن ذُكُورَ النحلِ لا تَعْمَلُ شيئًا ولا تَكْسِبُ، تَأْكُلُ فقط.

النحل تُقَسَّمُ فِرَقًا فِرَقًا، فمنها فرقةٌ تَلْزَمُ الملكة ولا تفارقها، ومنها فِرْقَةٌ تُهَيِّئُ الشمعَ وتَصْنَعُه، والشمعُ هو ثِفْلُ النحلِ أو ثِفْلُ العسلِ، وفيه حلاوةٌ كحلاوةِ التينِ.

وللنحلِ فِيه عَنَايَةٌ شديدةٌ فوقَ عَنَايَتِها بالعسلِ فَيُنَظِّفُهُ النحلُ – يعني الشمعةَ - ويُصَفِّيهِ ويُخَلِّصُه مما يخالطه، وفِرْقَةٌ من النحل تَبْنِي البيوت، وفرقة تسقي الماء وتحمله على متونها، وفِرْقَةٌ تَكْنُسُ الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجِيَفِ والزِّبْلِ، وإذا رأت بينها نحلةً مَهِينَةً

بَطَّالَةً؛ قَطَّعَتْها وقَتَلَتْهَا؛ حتى لا تُفْسِدَ عليهن بقيةَ العُمَّالِ بِكَسَلِها، وتُعْدِيهِنَّ ببطالتها ومَهَانَتِها، وأولُ ما يُبْنَى فِي الخلية: مَقْعَدُ الملكِ وبيتُه، فيُبْنَى له بيتٌ مُرَبَّعٌ يُشْبِهُ السريرَ والتَّخْتَ، فيجلس عليه، ويستدير حوله طائفةٌ من النحل تشبه الأمراءَ، والخدمُ والخواصُّ لا يُفَارِقْنَهُ، ويَجْعَلُ النحلُ بين يَدَي الملكِ شيئًا يشبه الحَوْضَ، يَصُبُّ فِيه من العسلِ أَصْفَى ما يَقْدِرُ عليه، ويَمْلَأُ منه الحوضَ، ويكون ذَلِكَ طعامًا للملك وخواصِّهِ، ثم يَأْخُذْنَ فِي ابْتِنَاءِ البيوت على خطوطٍ متساويةٍ كَأَنَّها سِكَكٌ ومَحَالٌّ، وتَبْنِي بُيُوتَهَا مُسَدَّسَةً متساويةَ الأضلاعِ، كَأَنَّها قَرَأَتْ كتابَ إِقْلِيدِس حتى عَرَفَتْ أَوْفَقَ الأشكالِ لِبُيُوتها؛ لأن المطلوب مِنْ بناء الدُّور: هو الوَثَاقَةُ والسَّعَةُ، والشكلُ الْمُسَدَّسُ دون سائرِ الأشكالِ إِذَا انْضَمَّتْ بعضُ أشكالِهِ إِلَى بعضٍ؛ صار شكلًا مستديرًا كاستدارةِ الرَّحَى ،ولا يبقى فِيه فُرُوجٌ ولا خَلَلٌ، ويَشُدُّ بعضُه بعضًا حتى يصير طبقًا واحدًا محكمًا لا يَدْخُلُ بين بيوتِهِ رؤوسُ الْإِبَرِ، فتبارك الَّذِي ألهمها أن تَبْنِيَ بيوتَها هذا البناءَ الْمُحْكَمَ الَّذِي يَعْجِزُ البشرُ عَنْ صُنْعِ مِثْلِه، فَعَلِمَتْ أَنَّهَا محتاجةٌ إِلَى أَنْ تَبْنِيَ بيوتَهَا من أشكالٍ موصوفةٍ بِصِفَتَيْنِ:

إحداهما: أَلَّا تكونَ زَوَايَاها ضيقةً؛ حتى لا يَبْقَى الموضعُ الضيقُ معطَّلًا.

والثانية: أن تكون تلك البيوتُ مُشَكَّلَةً بأشكالٍ إِذَا انضم بعضُها إِلَى بعضٍ، وامتلأت العَرَصَةُ منها؛ فلا يبقى منها ضائعًا.

ثم إِنَّهَا عَلِمَتْ أَنَّ الشكلَ الموصوفَ بهاتين الصفتين هو الشكل الْمُسَدَّسُ فقط؛ فإن المثلثاتِ والمربعاتِ وإنْ كُنَّ مما يمكن امتلاءُ العَرَصَةِ منها؛ إلا أَنَّ زواياها ضيقةٌ.

وأما سائر الأشكال -وإن كانت زواياها واسعةً-؛ إلا أَنَّهَا لا تمتلئ العَرَصَةُ منها؛ بل يبقى فِيما بينها فروج خالية ضائعة.

وأما الشكل المسدس؛ فهو موصوفٌ بهاتين الصفتين، فهداها سبحانه إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مَسْطَرَةٍ ولا آلةٍ ولا مثالٍ يُحْتَذَى عليه، وأَصْنَعُ بني آدم لا يَقْدِرُ على بناءِ البيتِ الْمُسَدَّسِ إلا بالآلات الكبيرة، فتبارك الَّذِي هداها أن تَسْلُكَ سُبُلَ مراعِيها على قوتها، وتَأْتِيها ذُلُلًا، لا تَسْتَعْصِي عليها ولا تَضِلُّ عَنْها، وأن تَجْتَنِيَ أَطْيَبَ ما فِي المراعى وأَلْطَفَهُ، وأن تعود إِلَى بيوتها الخاليةِ فَتَصُبَّ فِيها شرابًا مختلفًا ألوانُه، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ، فإذا فَرَغَتْ من بناء البيوت خَرَجَتْ خِمَاصًا تَسِيحُ سهلًا وجبَلًا، فأَكَلَتْ من الحَلَاوَاتِ المرتفعةِ على رؤوسِ الأزهارِ وورقِ الأشجارِ، فترجع بِطَانًا، وجعل سبحانه فِي أفواهها حرارةً منضِجَةً تُنْضِجُ ما جَنَتْهُ، فتُعِيدُه حلاوةً ونضجًا، ثم تَمُجُّهُ فِي البيوتِ، حتى إِذَا امتلأتْ خَتَمَتْهَا وَسَدَّتْ رؤوسَها بالشمعِ الْمُصَفَّى، فإذا امتلأت تلك البيوتُ عمِدت إِلَى مكانٍ آخَرَ إِنْ صَادَفَتْهُ فَاتَّخَذَتْ فِيه بيوتًا، فإذا امتلأت تلك البيوت – وهي عيون ذلك الشمع – على الطريقة السُّدَاسية التي مر ذكرها، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته، فاتخذت فيه بيوتًا، وفَعَلَتْ كما فَعَلَتْ فِي البيوتِ الأولى، فإذا بَرَدَ الهواءُ، وأَخْلَفَ الْمَرْعَى، وحيل بينها وبين الكسب؛ لَزِمَتْ بُيُوتَهَا، واغْتَذَتْ بما ادَّخَرَتْهُ من العسل، وهي فِي أيام الكَسْبِ والسعي تَخْرُجُ بُكْرَةً، وتَسِيحُ فِي الْمَرَاتِعِ، وتستعمل كُلُّ فرقة منها بما يَخُصُّها مِن العملِ، فإذا أمست رَجَعَتْ إِلَى بيوتها، وأما الملكة – هو يقول رحمه الله: "وأما الملك" -؛ فلا يُكْثِرُ الخروجَ من الخلية إلا نادرًا إِذَا اشتهى التَّنَزُّهَ، فَيَخْرُجُ ومعه أمراءُ النحلِ والخدمُ، فيطوف فِي الْمُرُوجِ والرياضِ والبساتينِ ساعةً من النهار، ثم يعود إِلَى مكانه.

ومن عجيب أمره: أَنَّهُ ربما لحقه أذىً من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه، فَيَغْضَبُ ويُخْرُجُ من الخلية ويتباعد عَنْها، ويَتْبَعُهُ جميع النحل وتبقى الخلية خالية - وهذا يحدث فعلًا -، فإذا رأى صاحبُ الخلية ذَلِكَ، وخاف أن يأخذ النحلَ – يعني الملكَ - ويذهبَ بها إِلَى مكان آخَرَ؛ احتال صاحب الخلية لاسترجاع الملك وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الَّذِي صار إِلَيْهِ بالنحل، فيعرفه باجتماع النحل إِلَيْهِ؛ فإن النحل لا تفارقه وتجتمع عليه حتى تصير على الملك عَنْقودًا، وهو إِذَا خرج غَضْبَانًا جَلَسَ على مكانٍ مرتفعٍ من الشجرة، وطافت به النحل وانضمت إِلَيْهِ حتى يصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رُمْحًا أو قصبةً طويلةً، ويَشُدُّ على رأسِهِ حُزْمَةً من النبات الطيبِ الرائحة العَطِرِ النظيفِ، ويُدْنِيهِ إِلَى محل الملك، ويكون معه إما مِزْهَرٌ أو يَرَاعٌ أو شيء من آلاتِ الطَّرَبِ، فيحركُه وقد أدنى إِلَيْهِ ذَلِكَ الحشيشَ، فلا يزال كذَلِكَ إِلَى أن يرضى الملك، فإذا رضي وزال غضبه؛ طَفَرَ ووَقَعَ على الضِّغْثِ، وتَبِعَهُ خَدَمُهُ وسائرُ النحلِ، فيحمله صاحبُه إِلَى الخليةِ، فَيَنْزِلُ ويَدْخُلُها هو وجنودُه، ولا يَقَعُ النحلُ على جيفةٍ ولا حيوانٍ ولا طعامٍ.

ومن عجيب أمر النحل: أَنَّهُا تقتل الملوك الظلمةَ الْمُفْسِدَة، ولا تدين لطاعتها، والنحلُ الصغارُ المجتمعةُ الخلقِ هي العَسَّالَةُ، وهي تحاول مقاتلةَ الطِّوالِ القليلةِ النفع، وإخراجَها ونفيَها عَنْ الخلايا، وإذا فعلت ذَلِكَ جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتلَه خارجِ الخليةِ صيانةً للخلية عَنْ جِيفَتِه.

ومن النحل صِنْفٌ قليلُ النفعِ كبيرُ الجسمِ، وبينها وبين العَسَّالة حربٌ، فهي تقصدها وتغتالها، وتفتح عليها بيوتها، وتقصد هلاكها، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها فِي بيوتها حَاوَلَتْها وأَلْجَأَتْها إِلَى أبواب البيوت، فَتَتَلَطَّخُ بالعسل، فلا تقدر على الطيران، ولا يُفْلِتُ منها إلا كُلُّ طويلِ العُمُرِ، فإذا انقضت الحرب وبَرَدَ القتالُ؛ عادت إِلَى القتلى فحَمَلَتْهَا وأَلْقَتْهَا خارجَ الخلية.

وفي النحل كرامٌ عمَّالٌ لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها لئام كُسَالَى قليلةُ النفعِ مؤْثِرَةٌ للبطالة، فالكرام دائمًا تطردها وتنفيها عَنْ الخلية، ولا تساكنها خشية أن تُعْدِيَ كِرَامَها وتفسدَها.

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه، ولِذَلِكَ لا تُلْقِي زِبْلَها إلا حين تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادًا من الكبار، وأقل لَسْعًا، وأجودُ عسلًا، ولَسْعُها إِذَا لَسَعَتْ أقلُّ ضررًا من لَسْعِ الكبار.

ولما كَانَت النحل من أنفع الحيوان وأبركه؛ فقد خُصَّتْ من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يَشْرَكْهَا فِيه غيرُها، وكان الخارجُ من بطونها مادةَ الشفاء من الأسقام، وكان النورَ الَّذِي يُضِيء فِي الظلام بمنزلةِ الهداةِ من الأنام، فلما كان ذلك بالنسبة للنحل؛ كَانَ أكثرَ الحيوان حائزًا للعداوة، وكان أكثر الحيوان له أعداءً، وكان أعداؤه من أقل الحيوان منفعةً وبركةً، وهذه سنة الله فِي خلقه، وهو العزيز الحكيم.

هذا ما ذكره العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - فِي «شفاء العليل».

وأما الْعِلْم المعاصر؛ فإنه نظر أَيْضًا فِي حياة النحل، وخَصَّها بكثيرٍ من النظر والبحث، فقد تقدم الْعِلْم اليوم كثيرًا، وبِتَقَدُّمِهِ تَعَرَّفْنَا على كثير من عجائب الخلق وأسرار الكون.

لقد أَكَّدَ لنا الْعلماءُ ما عرفناه من قَبْلُ مِنْ أن عالَمَ النحلِ ينقسم إِلَى ثلاثة أقسام، هي: النحلة الملكة، والنحلة الذَّكَر، والنحلة الشَّغَّالَةُ.

أما ملكة النحل؛ فهي أم الخلية كلِّها، وجميعُ النحل فِي الخلية أبناؤها، ويكفي أن تعلم أن الملكة تضع فِي كل يومٍ تَطْلُعُ فِيه الشَّمْسُ ما بين خمسمائةٍ وألفِ بَيْضَة «١٥٠٠» إِلَى أَلْفَيْ بيضة «٢٠٠٠»؛ بل يزيد العدد إِلَى (٣٥٠٠) خمسمائة وثلاثة آلاف بيضة في كل يوم، ويستمر هذا على امتداد موسم التكاثر الَّذِي يبدأ من إقبال الربيع، وينتهي بانتهاء الصيف.

وما هذا العدد الهائل من البَيْضِ إلا لمواجهة النقص المستمر الَّذِي يصيب خلية النحل، فالنحلة عمرها قصير، فعمر النحلة يتراوح بين خمسةِ أسابيعَ وسبعةِ أسابيعَ، ولِذَلِكَ فإنّ الخلية تحتاج إِلَى أجيال جديدة تُرْفِدُ الخليةَ بأعدادٍ كبيرةٍ تواجه النقص الَّذِي يَلْحَقُ بها، كي تستمرَّ الخليةُ فِي القيام بالواجبات التي يَحْتَاجُ إِلَيْها عالَمُ النحلِ، وحتى تستطيعَ الدفاعَ عَنْ نفسها فِي مواجهةِ الأعداءِ والأخطارِ، ولولا ذَلِكَ لانقرضت الخلية وبادت.

من بديع صنع الله فِي ملكة النحل: أَنَّهَا تَضَعُ بَيْضَهَا فِي البيوت التي تَبْنِيهَا الشَّغَّالَةُ بمقاساتٍ مختلفة، فالشغالة تبني البيوت الشمعية بمقاساتٍ مختلفة، المقاسُ الكبيرُ يُعِدُّه النحلُ لملكة المستقبل، البيضةُ التي تَضَعُهَا الملكةُ فِي ذَلِكَ البيت ذي المقاس الكبير تكون ملكة؛ لأن الشغالة تُغَذِّيها بغذاءٍ خاصٍّ بالْمَلِكَات، هو «الغذاءُ الْمَلِكِيُّ»، فتكون هذه البيضةُ مَلِكَةً بعد حين.

البيضة التي تضعها الملكة فِي البيت الأصغرِ حجمًا ومقاسُه رُبُعُ بُوصَة تصبح نحلةً ذكرًا، أما البيضة التي تضعها فِي البيت الصغير ومقاسُه خمس البوصة فيُنْتِجُ نحلةً شَغَّالَةً.

بقي أن نعلم أن الملكة تضع مع بيضةِ النحلةِ الشغالةِ ثلاثةً إِلَى أربعةِ حيواناتٍ مَنَوِيَّةٍ لإِخْصَابِهَا، فتكون نحلةً شغالة، بينما تضع فِي بيت النحلة الذكر بيضةً غير مُخَصَّبَةٍ.

من عجيب صنع الله فِي النحلة الملكة: أَنَّهَا لا تُلَقَّحُ إلا فِي الهواء فِي أثناء طَيَرَانِها، ولِذَلِكَ سِرٌّ عجيب، فالنحلة الذكر لا يُمْكِنُهَا تلقيحُ الملكة وهي رابِضَةٌ على الْأَرْض، وإنما يكون ذلك إذا كانت طائرةً في الفضاء، وعند ذَلِكَ تمتلئ أكياسٌ موجودةٌ فِي النحلةِ الذَّكَرِ بالهواء، فَتَنْتَفِخُ فِي أثناء الطيران، ويؤدي انتفاخها إِلَى الضغط على عضو التذكير، فيخرج من مَكْمَنِه.

ومن عجائب صنع الله فِي الملكة العذراء: قدرتها على دعوة الذكر لتلقيحها، وذَلِكَ بأصوات تصدرها تدعو بها الذكور إِلَيْها، وتخرج من خليتها حائمةً حولها مُصْدِرَةً تلك الأصوات،

وتستقبل الذكورُ هذه الدعوةَ لا فِي الخلية وحدَها، بل فِي جميع الخلايا المجاورة، وتنطلق أسراب الذكور خلف الملكة، وهي تُغِذُّ الطيران منطلقةً فِي الفضاء الرَّحْب، ويفوز بتلقيحها أقوى الذكورِ وأشدُّها وأسرُعها، ولَكِنه يفقد حياته بعد ذَلِكَ.

قد يَسْأَلُ سائلٌ عَنْ كيفية سماع الذكور لدعوة الملكة.

الجواب: أن الله زَوَّدَ كلَّ نحلةٍ بِقَرْنَي استشعار، هذان القرنان يتألفان من حلقات يتصل بعضها ببعض، عليها عدد كبير من الثقوب، ويبلغ عدد الحلقات فِي الذكر اثنتا عشرة حلقة، فِي حينِ أن عددها فِي الشغالة أو الملكة إحدى عشرة حلقة.

ويبلغ عدد ثقوب الحواس الكائنة على قرن الاستشعار عَنْد الذكر (٢٨٠٠) ثمانمائةٍ وألفي ثقبٍ، وفي الشغالة يبلغ (٢٤٠٠) أربع مائة وألفي ثقب، وفي الملكة يبلغ (١٦٠٠) ستمائة وألف ثقب.

والحقيقة أن قرني الاستشعار فِي النحلة بمنزلة هوائي الإذاعة، يستخدمه لالتقاط الأصوات الصادرة من الملكة، ولغير ذَلِكَ من الأصوات، كما تستخدمه فِي الشم والسمع واللمس.

وإذا فقدت النحلة الشغالة أو الذكر أو الملكة قرني الاستشعار؛ فإنها لا تستطيع أن تقوم بدورها، ففيه يتركز معظم حواسها: السمع والشم واللمس كما سبق.

وتكوين النحلة الذكر يتناسب مع المهمة التي خلق من أجلها، فهو كبير قوي، يأكل كثيرًا، ولا يعمل شيئًا، فلا يجمع الرحيق، ولا يصنعه، ولا يبني، ولا يحرس، حتى طعامُه، تضعه النحلة الشغالة فِي فَمِه، كل ما يستطيع القيام به هو تلقيح الملكة، ولذا فإن النحلة الشغالة بعد انتهاء مهمته تمتنع عَنْ إمداده بالغذاء، وأكثر من هذا تهاجم الشغالةُ الذكورَ فتقتُلُها أو تطردُها، فعند الرجوع من عملية تلقيح الملكة تعود الذكور، فإذا ما عادت تَلَقَّتْهَا الشغالةُ عَنْد باب الخلية، فَيَحْدُثُ ما يُعْرَفُ بِمَذْبَحَةِ الذكورِ، فتقتلها؛ لِأَنَّهُ لا فائدة منها.

ويبقي أن نعلم أن عدد الذكور من النحل قليلٌ بالنسبة لتَعداد النحل، فلا يتجاوز عددُها فِي الخلية الواحدة المائتين.

أما النحلة الشغالة؛ فإنها تكون مُمَثِّلَةً للعدد الأكبر فِي الخلية، كما أَنَّهُا العنصرُ الفَعَّالُ فِيها، وهي التي تقوم بالأعمال المختلفة والمهمات الصعبة؛ تجني الرحيق، تجمع غبار الطلع، تصنع العسل، تمدّ الملكة بغذائها الخاص، تبني الأقراص التي يحفظ فِيها العسل، وتُرَبِّي فِيها الأجيالَ

الجديدةَ من النحل، وتَحْرُسُ الخليةَ، وتقوم بتنظيفها والمحافظة عليها؛ بل تقوم بتهويتها وتدفئتها.

فسبحان من خلق هذا كله على هذا النحو البديع في هذه الحشرة، وجعلها على الإتقان كله.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«المُحَاضَرَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

ففي معرض الرد على الملحدين مر ذكر بعض ما يتعلق بِحَيَوَاتِ بعضِ الحشرات، كما مَرَّ التعرض لكثير من هذه الأدلة التي تتعلق بالفطرة الإنسانية وبغيرها مما جعله الله تبارك وتعالى دليلًا على العناية بالخلق، ودليلًا على هداية الخلق في الأرض؛ من أجل الإتيان بالواجب الذي كلَّف الله رب العالمين به الإنسانَ، وجَعَلَ هذه الأمورَ مُسَخَّرةً له؛ ليؤدي هذه لوظيفة على النحو الذي كلفه الله تبارك وتعالى به، على أن الإنسان إذا ما نظر إلى هذه الأمور في أقل الأشياء كما مر فيما يتعلق بالأميبا، وهي خلية واحدة جعل الله لها إحساسًا، وجعل لها حياةً تنتهي بالتكاثر، وفيها تغذيةٌ وتَنَفُّسٌ وإخراجٌ، إلى غير ذلك من الوظائف الحيوية، وهي في النهاية وهي خلية واحدة مجموعة من الأحماض الأمينية؛ إلا أن معرفة تركيب تلك الخلية لا

يمكن أن يكون سائقًا ولا مُؤَدِّيًا إلى تكوينها؛ لأن فيها خاصيةً هي مما يتعلق بالله تبارك وتعالى وحده، فيها الروح، والروح من أمر الله رب العالمين.

فهذه الحياة لا يَهَبُهَا أحدٌ ولا يُعْطِيها سوى الله، والبشر يمكن أن يأتوا بمثل هذه الأمور المركبة على حسب تركيبها الذي جعله الله رب العالمين فيها؛ ولكنَّ هذه المركباتِ لا روحَ فيها.

ومَرَّ ذكرُ بعضِ ما يتعلق بالنحل مما ذكره العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في «شفاء العليل»، ونقله عنه بِلَوْنٍ من التصرفِ اليسيرِ صاحبُ كتاب «العقيدة في الله»، ونَقَلَ أيضًا عن بعض الْمُحْدَثين من الذين يهتمون بأمثال هذه الشؤون وقد تخصصوا فيها، وهو: الدكتور يوسف عز الدين، فكان مما قال:

النحلة الشغالةُ تُكَوِّنُ العددَ الأكثرَ فِي الخلية، كما أَنَّهُا العنصرُ الفَعَّالُ فِيها، وهي التي تقوم بالأعمال المختلفة والمهمات الصعبة؛ فالشغالة من النحل هي التي تجني الرحيق، وتجمع غبار الطلع، وتصنع العسل، وتمدّ الملكة بغذائها الخاص، وتبني الأقراص التي يُحْفَظُ فِيها العسلُ، وتُرَبِّي فِيها الأجيالَ الجديدةَ من النحل، وتَحْرُسُ الخليةَ، وتقوم بتنظيفها والمحافظة عليها؛ بل تقوم بتهويتها وتدفئتها.

والمهمات فِي خلية النحل موزعة فِي تخصصات وهذه التخصصات ترتبط بعمر النحلة، فلكل سن من النحل عمل يقوم به، وكلما امتد العمر بالنحلة فإنها تتحول إِلَى عمر آخر، كأنما ترتقي كالبشر في الوظيفةِ تَرَقِّيًا وَتَدَرُّجًا وَظِيفِيًا، وبذَلِكَ تقوم النحلة بعد أن تستكمل عمرها بالمرور على كل الأعمال والمهمات التي تحتاج إِلَيْهِا الخلية، ويلاحظ أن النحلة تبدأ بالأعمال السهلة التي لا تحتاج إِلَى جهد كبير، وتنتهي إِلَى أشق الأعمال وأصعبها، وهي الجولان فِي الْحقول، وجَنْيِ الرحيقِ، وغُبَارِ الطَّلْعِ والماء، ثم تَصْنَعُ العسلَ وتُخَزِّنُهُ، ونلاحظ أَيْضًا أَنَّها تتدرج فِي الوظائف بحسب تكامل الخصائص التي يهبها الله إياها، فكل مهمة تصير إِلَيْهِا وتعمل فِيها تتلاءم مع تكامل أجهزتها التي تمكنها من القيام بالدور الجديد والمهمة الجديدة.

فالنحلة الشغالة فِي يومها الأول والثاني تقوم بمهمةِ تنظيف البيوت التي خرجت منها أجيال النحل التي تَكَامَلَ خلقها، فتنظف هذه البيوت، وتعدها لأجيال أخرى، ولا تضع الملكةُ البيضَ فِي هذه البيوت إلا بعد أن تتفحصها وتجدها نظيفة تمامًا.

وفي يوم النحلةِ الثالثِ، وكذا في يومها الرابع تقوم بدور الحاضنة ليرقات النحل الشغالة والذكور التي يزيد عمرها على ثلاثة أيام، فتقدم لها ما يسميه الْعلماء (بخبز النحل) وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح، تأخذه مما خزنته النحل فِي العيون السُّدَاسية.

وبعد اليوم الخامس حتى اليوم الثانيَ عشر من عمر النحلة تقوم بتغذية النحلة الملكة بالغذاء الْمَلِكِيِّ طيلة عمرها، كما تمدّ بهذا الغذاء الفاخر صغيرات الشغالة والذكور فِي يومهن الأول والثاني وكذا في اليومالثالث، والنحل يقوم بهذه المهمة فِي هذه السن؛ من خمسة ايام إلى اثني عشر يومًا (٥-١٢) لنمو غدد خاصة فِي هذه الفترة فِي جانبي البلعوم، تتمكن بها النحل من صناعة الغذاء الملكي.

وبعد اليوم الثانيَ عشر تتمكن النحلة من الطيران، ولَكِنها لا تذهب بعيدًا، كل ما تفعله أن تتعلم وتتمرن، ومهمتها الرئيسة من اليوم الثاني عشر إِلَى اليوم الثامن عشر: هو بناء الأقراص الشمعية التي تعد لتخزين العسل، وتربية أجيال النحل الجديدة.

والسبب فِي تخصصها بهذا الدور فِي هذه السن: هو نمو أربعة أزواج من الغدد الموجودة على حلقات البطن، ومن هذا الشمع باستخدام النحلة فَكَّيْهَا، تقوم النحل فِي هذه السن ببناء تلك البيوت التي بلغت الغاية فِي الدقة والإتقان بأبعاد محددة، وأشكالٍ هندسية فِي غاية الروعة والتنظيم.

وفي اليوم التاسع عشر واليوم العشرين تقوم النحلة بتنظيف الخلية وحراستها، وبعد اليوم العشرين تقوم النحلة بالانطلاق إِلَى الْحقول، وجمع الرحيق، وغبار الطلع، وصُنع العسل، وجلبِ الماء إِلَى الخلية، وهذه المرحلة الأخيرة تمثل الجزء الأكبر من عمر النحلة.

أجيالٌ تذهب من النحل، وأجيال تأتي، ويترقى النحل فِي سلسلة متوالية من الأعمال تضمن القيام بالأعمال كلها باستمرارٍ من غير أن تتخصص طائفة من النحل بعمل طيلة عمرها، ولَكِنَّ التخصص يأتي فِي كل مرحلة من مراحل العمر.

فسبحان الواحد الأحد، الإلهِ الصمد، الَّذِي خلق هذه الكائنات الصغيرة، وعلمها أن تقوم بهذه الأعمال بمثل هذه الدقة والإتقان.

إنَّهُ إبداع وإعجاز يدل على العليم الخبير.

ومن الإبداع الإلهي فِي النحلة: هذا التكوين الَّذِي أعطاه الله إياها، فقد جعل لها الباري سبحانه معدتين، فللنحلة معدتان، إحداهما تستعملها لجمع المواد الأولية التي تستخلصها من رحيق الأزهار، أو تحمل بها الماء، وتنقله إِلَى الخلية، والمعدة الثانية مخصصة للطعام الَّذِي تهضمه وتتغذى به.

ومن عجبٍ أن النحلة إذ تجمع فِي معدتها الأولى ما تجنيه من الرحيق، لا تكتفي بنقله، ولَكِنها فِي أثناء حملها له وتوصيله للخلية تقوم بعملية أولية لتحويله إِلَى العسل، وذَلِكَ بإفراز الخمائر اللازمة لتحقيق ذَلِكَ.

والنحلة تحتاج إِلَى غبار الطلع لأمور مختلفة فِي الخلية، وقد زودها خالقها بتجويف خاص لِخَزْنِ هذه الحبوب فِي الوجه الخارجي لساق الرِّجْل الخلفية، تُسَمَّى «سَلَّةَ الطَّلْع»، وجعل لها على الوجه الداخلي لِرُسْغِ الرِّجْلِ الخلفيةِ ما يشبه الفرشاة، تستعملها الشغالة فِي تمشيط غبار الطلع وتكتيله؛ تمهيدًا لجمعه فِي سلة الطلع.

ومن العجائب المذهلة التي اكتشفها الْعلماء فِي النحلة: تلك الغدة التي فِي مؤخَّرَةِ البطن، وقد سماها الْعلماءُ (غُدَّة نَاسَانُوف)، وهذه الغدة تفرز رائحة خاصة.

ومن العجيب: أن نحل كل خلية يتعارف على رائحة تميز نحلها عَنْ غيره، وتستطيع النحلة أن تعود إِلَى بيتها من مكان بعيد، تَهْدِيها تلك الرائحةُ المميزة عَنْ رائحة غيرها من النحل، وبَوَّابُوا الخلية وحُرَّاسُها يعرفون النحلة التي تَتْبَعُ الخلية عَنْ طريق تلك الرائحة المميزة المنبعثة من النحلة.

والعجب أن النحل قادر على التعارف على رائحة جديدة عَنْدما يحصل ما يستدعي ذَلِكَ، فمثلًا عَنْدما تخرج طائفة من النحل لِتُشَكِّلَ خليةً جديدة؛ فإن الخلية الجديدة تتعارف على رائحة جديدة، وعندما مزج الْعلماء بطريقةٍ علميةٍ طائفةً من النحل مع طائفة أخرى؛ وجدوا أن النحل بعد دَمْجِهِ تَعَارَفَ فيما بينه على رائحةٍ واحدةٍ جديدةٍ تميزه عَنْ غيره.

ومن عجائب هداية النحل: أَنَّهُ يبني جدرانَ البيوتِ السُّدَاسيةَ من الشمع الخالص الَّذِي لا ينفذ منه الهواء؛ ولَكِنه عَنْدما يغلق أبواب البيوت التي تحوي يرقات النحل؛ يخلط الشمع بحبوب اللقاح، وبهذا يتسرب الهواء من خلال حبوب اللقاح، فتبقى اليرقات حيّة، ولو لم يَهْدِها ربها إِلَى ذَلِكَ لماتت اليرقات، وزال النحل من فوق ظهر البسيطة.

وقد حَدَّثَنَا ربُّنا فِيما حَدَّثَنَا عَنْه من آياته الباهرة التي تستدعي التأمل والتفكر إِلَى هدايته العجيبة للنحل؛ «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)» [النحل: ٦٨-٦٩].

وقد اهتدى المسلمون للمنافع الْعَظِيمة التي فِي العسل، ولَكِن الضالون عَنْ هدى الله لم يكتشفوا ما فِيه من المنافع إلا فِي هذه الأيام، وقد اكتشف الباحثون حقائق مذهلة، فوجدوا أن العسل غذاءٌ ودواءٌ، وهو غذاء من نوع راقٍ، يحوي خصائص لا تكاد توجد فِي غيره، ووجدوا أَنَّهُ علاج يكاد يَصْلُحُ لجميع أنواع الأمراض، ولا يزال الْعِلْم يكتشف فِي كل يومٍ فِي العسل نفعًا جديدًا.

فهذا بعض ما يتعلق بحياة النحل داخلَ خلاياه.

وأما كيف يدل النحل بعضُه بعضًا على مكان الغذاء؟

فمما لاحظه الْعلماء المعاصرون: الطريقةَ التي يدل بها النحل بعضه بعضًا على مكان الغذاء.

يَقُول الدكتور يوسف عز الدين:

" لو اكتشف أحد عمال النحل حقلًا أو كميةً من النباتات تعتبر مصدرًا للغذاء؛ فإنّه يعود للمستعمرة ليخبر باقيَ العمال عَنْ هذا الَكِنز الَّذِي اكتشفه، وذَلِكَ عَنْ طريقِ طقوسِ رقصٍ عجيبةٍ تفعلُها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدري لماذا تفعل هذا.

إنها ترقص رقْصاتٍ غريبةً ذاتَ مدلولاتٍ معينةٍ، إذ إن جسمها يصنع فِي أثناء الرقص زاويةً تَدُلّ على زاوية الشَّمْس، وإذا كَانَ الْحَقل الَّذِي اكتشفه قريبًا من المستعمرة؛ فإنّ الرقصة فِي هذه الحال تختلف عَنْها فِي حال بُعد الْحَقل مسافة أطول.

ومن هذه الرقصات يفهم النحل أنّ حقلًا من البِرْسيم أو غيرِه من النباتات ذات الأزهار التي يحضر النحل غذاءه منها، يقع على بعد معين، والطريق إِلَيْهِ يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشَّمْس.

فيؤدي بعض العمال حينئذ الرقصةَ نفسها، عَنْد ذَلِكَ تطمئن النحلة التي اكتشفت الْحَقل إِلَى أنّ باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله، فيطير باقي الأفراد، ويصلون مباشرة إِلَى ذَلِكَ الْحَقل لإحضار مزيد من الغذاء.

إنّ النحلة المكتشِفة قد نقلت إِلَى النحل الَّذِي فِي المستعمرة عددًا من المعلومات بحركاتها تلك، ولو حاولنا نحن البشرَ أن نتوصل إِلَى ما توصل إِلَيْهِ النحلُ مِنْ فَهْمٍ لهذه الطَّلَاسِمِ عَنْ طريقِ رَسْمٍ بَيَانِيٍّ؛ لاستغرق منا وقتًا لا يقل عَنْ ثلث ساعة إن كَانَ لدينا إلمام كاف بالعلوم الرياضية؛ ولَكِن النحل يفهم كلّ ذَلِكَ فِي الحال، ويطير نحو الْحَقل فِي خط مستقيم ليُحْضِرَ ما يلزمه من غذاء.

شيء مذهل لا يمكن تفسيره إلا إِذَا آمنا بوجود إلهٍ خالقٍ أودع هذه المخلوقاتِ التي لا تملك قدرًا من العقل أو قدرةً على التفكير ما يُمَكِّنُها من القيام بما يلزمها ".

ومن عجائب النحل: رؤيته لونًا لا نراه نحن البشرَ، ولا يمكن أن نتصوره، وهو اللون فوقَ البَنَفْسِجِيّ الَّذِي نراه نحن أسودَ، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية.

ما الحكمة فِي ذَلِكَ؟

الحكمة فِي ذَلِكَ هي: أن تلك الأشعة هي الوحيدة القادرة على اختراق السحاب.

والنحل قد يعيش فِي مناطق يَكْسُوها السحابُ مُعْظَمَ شهورِ السَّنَةِ، ورؤية الشَّمْس ضرورية لمعرفة مكان الْحقول التي بها الغذاء، وهنا تكمن الحكمة فِي رؤية النحل لِذَلِكَ اللون فوقَ البنفسجي، فإنها بذَلِكَ يصبح فِي إمكانها رؤية الشَّمْس من خلال السحاب، فلا يموت النحل جوعًا فِي حالة اختفاء الشَّمْس خلف الغمام.

حقيقة مذهلة تَدُلّ على وُجُود خالقٍ مُدَبِّرٍ مُقَدِّرٍ يَعْلَمُ ما خلق، إذ إن القدرة على رؤية ذَلِكَ اللونِ لا يمكن أن تكون قد اكتسبها النحل مع مرور الزمن، بل لا بد أن تكونَ قد

وُجِدْت منذ أولِ لحظةٍ خَلَقَ اللهُ فِيها النحلَ، إذ لو لم توجد من أول الأمر؛ لانقرض النحل فِي تلك المناطق منذ أمد بعيد".

العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بعد أن ذَكَرَ ما ذَكَرَ فِيما يتعلق بهدايات النحل؛ ذَكَرَ فِي «شفاء العليل» بعض ما يتعلق بهدايات النمل، فقال رحمه الله تعالى:

وهذا النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتُها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها، وتطلب قوتها وإن بَعُدَتْ عليها الطريق، فإذا ظفِرت به؛ حَمَلَتْهُ وسَاقَتْهُ فِي طرقٍ مُعَوَّجَةٍ بعيدةٍ ذاتِ صعودٍ وهبوطٍ فِي غاية من التَّوَعُّرِ، حتى تصلَ إِلَى بيوتها، فَتَخزِنُ فِيها أقواتَها فِي وقتِ الإمكانِ، فإذا خَزَنَتْهَا عَمَدَتْ إِلَى ما يَنْبُتُ منها فَفَلَقَتْهُ فِلْقَتَيْنِ لئلا يَنْبُتَ، فإن كَانَ يَنْبُتُ مع فَلْقِهِ واحدةً – أي بعد أن يُفْلَقَ باثنتين -؛ فإنها تَفْلِقُهُ بأربعةٍ، فإذا أصابه بَلَلٌ وخافت عليه العفنَ والفسادَ؛ انتظرت به يومًا ذا شمس، فخرجت به فَنَشَرَتْهُ على أبواب بيوتها، ثم أعادته إِلَى بيوتها، ولا تتغذى منها نملةٌ مما جَمَعَهُ غيرُها.

ويكفي فِي هداية النمل ما حكاه الله سبحانه فِي القرآن عَنْ النملة التي سَمِعَ سليمانُ كلامَها وخطابَهَا لأصحابِها بقولها: «يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»، فاسْتَفْتَحَتْ خطابَها بالنداء الَّذِي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يُثْبِتُهُ مِنَ اسمِ الجنسِ إرادةً للعموم، ثم أَمَرَتْهُمْ بأنْ يدخلوا مساكنَهم فَيَتَحَصَّنُوا من العسكر، ثم أَخْبَرَتْ عَنْ سبب هذا الدخول، وهو خشيةُ أن يُصِيبَهم مَعَرَّةُ الجيشِ فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عَنْ نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذَلِكَ، وهذا من أعجب الهداية.

وتَأَمَّلْ كيف عَظَّمَ اللهُ سبحانه شأنَ النملِ بقوله: «وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ»، ثم قَالَ: «حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ».

فأخبر أَنَّهُم بأجمعهم مَرُّوا على ذَلِكَ الوادي، ودل على أن ذَلِكَ الوادي معروفٌ بالنمل؛ كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنةِ هذه النملة ودقةِ معرفتِها، حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصةَ بهم، فقد عرفت هي والنملُ أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يَدْخُلُ عليهم فِيه سواهم، ثم قَالَت: «لا يحطمنكم سليمان وجنوده»، فجمعت بين اسمه وعينه،

وعَرَّفَتْهُ بهما، وعَرَّفَتْ جنودَه وقائدَها، ثم قَالَت: «وهم لا يشعرون»، فكأنها جمعت بين الاعتذار عَنْ مضرةِ الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لَوْمِ أمةِ النملِ حيث لم يأخذوا حِذْرَهم ويدخلوا مساكنَهم، لِذَلِكَ تبسم نبي الله سليمان ضاحكًا من قولها، وإنه لَمَوْضِعُ تَعَجُّبٍ وتَبَسُّمٍ.

قال الإمام العلامة ابن القيم – رحمه الله -:

ولقد حُدِّثْتُ أن نملة خرجت من بيتها، فصادفت شِقَّ جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تُطِقْ، فذهبت وجاءت معها بأعوانٍ يَحْمِلْنَه معها، قَالَ: فرفعت ذَلِكَ من الْأَرْض، فطافت فِي مكانه فلم تجِدْه، فانصرفوا وتركوها، قَالَ: فوضَعْتُهُ، فعادت تحاول حَمْلَه فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم، فَرَفَعْتُهُ، فطافت فلم تجده، فانصرفوا، قَالَ: ففعلتُ ذَلِكَ مرارًا، فلما كَانَ فِي المرة الأخرى استدار النملُ حَلْقَةً ووضعوها – أي النملةَ - فِي وسط الحلْقة، وقَطَّعُوها عضوًا عضوًا، قَالَ شيخنا ـ يعني شيخ الإسلامِ ابنَ تيميةَ رحمه الله ـ وقد حكيتُ له هذه الحكايةَ فقال: هذا النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب.

قال العلامة الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

والنمل من أحرص الحيوان، ويُضْرَبُ بحرصَه المَثَلُ، ويذكر أن سليمان - صلوات الله وسلامه عليه - لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء؛ استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قَالَت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها فِي قارورة، وسَدَّ فَمَ القارورة، وجعل معها ثلاثَ حباتِ حنطةٍ، وتركها سنةً بعد ما قَالَت، ثم أمر بفتح القارورة عَنْدَ فراغ السنة، فوجد حبةً ونصفَ حبةٍ، فقال: أين زعمكِ؟! أنتِ زعمت أن قوتَك كلَّ سنةٍ ثلاثُ حَبَّاتٍ، فقالت: نعم، ولَكِنْ لما رأيتك مشغولًا بمصالح بني جنسك حسبتُ الَّذِي بقي من عمري، فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه استبقاءً لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية!!

ومن حرصها: أَنَّهَا تَكِدُّ طُولَ الصيف وتجمع للشتاء، علمًا منها بإعواز الطلب فِي الشتاء وتَعَذُّرِ الكسب فِيه، وهي على ضعفها شديدة القوى، فإنها تحمل أضعافَ أضعافِ وزنها، وتجره إِلَى بيتها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل؛ إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد فِي صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئًا لنفسها دون صَواحِبَاتِهَا.

ومن عجيب أمرها: أن الرجل إِذَا أراد أن يحترز من النمل لا يَسْقُطُ فِي عسلٍ أو نحوِهِ؛ فإنه يَحْفِرُ حُفَيْرَةً، ويجعلُ حولَها ماءً، أو يتخذُ إناءً كبيرًا ويملأُه ماء، ثم يضع فِيه ذَلِكَ الشيء الذي يريد حفظه من النمل، فيأتي الَّذِي يُطيف به، فلا يقدر عليه، فيتسلق فِي الحائط ويمشي على السقف، إِلَى أن يحاذي ذَلِكَ الشيء، فَتُلْقِي نفسَها عليه.

قال: وجَرَّبْنَا نحن ذَلِكَ.

هذا كلام العلامة ابن القيم رحمه الله: وجربنا نحن ذَلِكَ.

قال: وأحمى صانعٌ مرةً طَوْقًا بالنار، ورماه على الْأَرْض لِيَبْرُدَ، واتفق أنِ اشتمل الطوق على نمل فِي داخل هذا الطوق، فتوجه فِي الجهات ليخرج، فلحقه وَهَجُ النار، فلزم النملُ المركزَ وَسَطَ الطَّوْقِ، وكان ذَلِكَ مركزًا له، وهو أبعد مكانٍ من المحيط.

قال يوسف عز الدين عما كشف الْعِلْم من أسرار النمل الأبيض:

قال: ومن الغرائز التي وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة ما هو مذهل، يجعل كل ذي عقل من البشر يخرّ ساجدًا للخالق الْعَظِيم.

على سبيل المثال: ما تراه فِي مستعمرة فيها نوع من الحشرات يطلق عليه: (النمل الأبيض)، تعيش هذه الحشرات أَيْضًا فِي مستعمرات، إِذَا زاد أفراد المستعمرة عَنْ الحد المعقول بالنسبة لكمية الغذاء المتاحة؛ فإنّ هذه الحشرات تدرك هذه الْحَقيقة عَنْ طريق الغريزة، فتبدأ الأفراد فِي التهام عدد كبير من البَيْض، وبذَلِكَ يسهم النمل فِي حلّ مشكلة زيادة أفراد المستعمرة وفي حل مشكلة الغذاء، إذ إن التهام البيض يعتبر تغذية، وفي الوقت نفسه يقلل من عدد ذرية النمل الأبيض.

إنّ هذه الحشرات لا تدرك لماذا تفعل ذَلِكَ؛ ولَكِنها النفحة الإلهية التي تلهمها لعمل ما لا يمكن أن تدركه من الأشياء التي تعود عليها بالفائدة وتجنبها الفناء.

هذه الحشرات نفسها تتغذى على الأخشاب وتلتهمها بشراهة، إذ فِي بعض الأماكن الموبوءة بها ـ أي بالنمل الأبيض ـ يتناول أفراد الأسرة طعامهم على منضدة الطعام الخشبية، ثم يذهبون فِي الصباح لتناول إفطارهم، فيجدون تلك المنضدة قد تقوضت أركانها، وانهارت فِي خلال ليلة واحدة.

في بعض جهات استراليا الموبوءة بتلك الحشرات المدمرة قد يسأل أحد السائحين وهو ناظر من نافذة القطار عَنْ اسم القرية التي رآها على مدى البصر، فيقول: ما اسم هذه القرية؟ فيعتريه الذهول عَنْدما يخبرونه أن تلك القرية لا تضم آدميين، ولَكِنها المساكن التي أقامها النمل الأبيض ليعيش بها.

هذه المساكن ترتفع عَنْ سطح الْأَرْض عدة أمتار، وتصنعها الحشرات من مادة غريبة، هي خليط من لعابها وبعض المواد الأخرى، وهي أقوى من الإسمنت المسلح، ولا يمكن أن تخترقها الحشرات أو يتسرب إِلَيْها الماء من خلال جدرانها، وبداخلها أنفاق متشعبة يعيش فِيها النمل الأبيض.

وتَسْتَخْدِمُ هذه الحشراتُ للتَّخَابُرِ عَنْ بُعْدٍ نوعًا من الشَّيْفَرَةِ تُشْبِهُ شَيْفَرَةَ التِّلِغْرَاف، إذ تدق على جدران النفق برأسها عدة دقات، فيفهم باقي النمل ما تريد عَنْ طريق تلك الدقات الشَّفْرِيَّةِ، تفعل ذَلِكَ دون أن تدري ماذا تفعل، إذ إِنَّهُا تفعلها عَنْ طريق الإلهام الإلهي الذي جعله الله رب العالمين غريزة فيها.

احتار الْعلماء فترة طويلة فِي تفسير إمكان حياة مثل هذه الحشرات عَنْ طريق الغذاء على الأخشاب، فالخشب لا يحتوي على أَيَّةِ مَوَادَّ عضويةٍ قابلةٍ للهضم، وأخيرًا اكتشف العلماءُ السِّرَّ.

لقد وَجَدوا فِي داخلِ الجهازِ الهضميِّ لأفرادِ هذه الحشراتِ حيواناتٍ دقيقةً أوليةً يَتَكَوَّنُ جسمُها من خليةٍ واحدةٍ، وهذه الحيواناتُ الأوليةُ تُفْرِزُ أجسامُها إِفْرَازَاتٍ تُحَوِّلُ الخشبَ إِلَى مَوَادَّ غذائيةٍ قابلةٍ للهضمِ هي التي تُغَذِّي النملَ الأبيض.

ومن العجيب: أَنَّهُ لم يحدث إطلاقًا أن اكْتُشِفَتْ نملةٌ بيضاءُ واحدة تخلو أمعاؤها من هذه الحيوانات الأولية، ولو لم توجد هذه الحيوانات داخل أمعاء النمل الأبيض منذ بدء خلقها لما

أمكنها الحياة؛ لأنها لا تتغذى إلا على الخشب، ولانقرضت منذ أول جيل من أجيالها؛ فهل من الممكن أن يحدث هذا عَنْ طريق المصادفة؛ أو هو شيءٌ مُقَدَّرٌ مُدَبَّرٌ مرسومٌ لا يقوى عليه إلا العليم الحكيم؟!!

ومن عجب: أن النمل يُرَبِّي البقر!!

فالنمل يربي بقرةً كما يربي الإنسان بقرة!!

بل إن النمل يَفْلَحُ الْأَرْضَ!!

وهذا من عجائب النمل!!

النمل استأنس مئات من الأجناس من الحيوانات الأدنى منه شأنًا، بينما الإنسان لم يستأنس سوى نحو عشرين من الحيوانات الوحشية التي سخرها لمنفعته ومتعته، وعرف النمل الزرع والرعي عَنْ طريق الغريزة.

حشرات الْمَنّ التي يطلق عليها أحيانًا اسم (قمل النبات) التي نراها على أوراق بعض النبات؛ يرعاها النمل ليستفيد منها.

في الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا المن، فإذا جاؤوا به؛ وضعوه فِي مستعمراتهم حيث يضعون بيضهم، ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم، فإذا فقس بيض المن وخرجت منه الصغار؛ أطعموها وأكرموها، وبعد فترة قصيرة يأخذ المن يُدِرُّ سائلًا حلوًا كالعسلِ كما تُدِرُّ البقرةُ اللبنَ، ويتولى النمل حَلْبَ هذا المن للحصول على هذا السائل وكأنها أبقار.

ولا يعتني النمل بتربية المواشي وحدها، بل يعتني كَذَلِكَ بالزرع وفِلاحة الْأَرْض.

شاهد أحد الْعلماء فِي إحدى الغابات قطعة من الْأَرْض قد نما بها أُرْزٌ قصيرٌ مِنْ نوعٍ نِصْفِ بَرِّيٍّ، كَانَت مساحة القطعة خمسة أقدام طولًا فِي ثلاثة عرضًا، وكان طول الأرز نحو ستة سنتيمترات، ويتراءى للناظر إِلَى هذه البقعة من الْأَرْض أنّ أحدًا لا بد يعتني بها، فالطينة حول البذور كَانَت مشققة، والأعشاب الغريبة كَانَت مستأصلة، والغريب أَنَّهُ لم يكن على مَقْرُبَةٍ من هذا المكان عودٌ آخَرُ من الأرز، فهذا الأرز لم ينم من تلقاء نفسه، وإنّما زرعه زارع.

ولوحظ أن طوائف النمل تأتي إِلَى هذا المزروع وتذهب عَنْه، فانْبَطَحَ العالِمُ على الْأَرْض يلاحظ ما يصنعه، ولم يلبث أن عرف أنّ هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز فِي تلك البقعة من الْأَرْض، وأنه اتخذ من زراعتها مهنة له، تشغل كل وقته، فبعضه كَانَ يشق الْأَرْض ويحرثها، والبعض الآخر كَانَ يزيل الأعشاب الضارة، فإذا ظهر عود من عشب غريب قام إِلَيْهِ بعض النمل، فَيَقْضُمُونَهُ، ثم يحملونه بعيدًا عَنْ المزرعة.

نما الأرز حتى بلغ طولُه ستين سنتيمترًا أو ستة سنتيمترات كما مر.

كانت حبوب الأرز قد نَضِجَتْ، فلما بدأ موسم الحصاد شاهد صفًا من شغالة النمل لا ينقطع متجهًا نحو العيدان، فيتسلقها إِلَى أن يصل إِلَى حبوب الأرز، فتنتزع كل شغالة من النمل حبة من تلك الحبوب، وتهبط بها سريعًا إِلَى الْأَرْض، ثم تذهب بها إِلَى مخازنها تحت الْأَرْض.

بل الأعجب من ذَلِكَ: أنّ طائفة من النّمل كَانَت تتسلق الأعواد، فتلتقط الحب، ثم تلقي به، بينما طائفة أخرى تتلقاه، وتذهب به إِلَى المخازن.

ويعيش هذا النوع من النمل عيشة مدنية فِي بيوت كبيوتنا ذاتَ شُقَقٍ وطبقات، أجزاء منها تحت الْأَرْض، وأجزاء فوق الْأَرْض.

هذه معلوم.

هذه حقيقة رصدها علماء الحشرات، ولها صورها المعروفة.

فتحيا عيشة أو حياة مدنية فِي بيوت كبيوتنا ذاتَ شُقَقٍ وطبقات، أجزاء منها تحت الْأَرْض، وأجزاء فوق الْأَرْض، وفِي هذه المدن تجد الخدم والعبيد.

بل الأعجب من ذَلِكَ: أنك تجد المرضات اللاتي تُعْنَى بالمرضَى ليلًا ونهارًا، وتجد منها من يرفع جثث من يموت من النمل.

يفعل ذَلِكَ النوعَ من النمل كلّ هذا بدون عقل، بدون تفكير، إذ يتم ذلك بالهداية التي أودعها الله تبارك وتعالى فِي أجسام النمل الصغيرة.

فهل وقع ذَلِكَ اتفاقًا؟!!

هل وقع ذَلِكَ مصادفةً؟!!

هل فِي النمل من عَقْلٍ يفعل ذَلِكَ ويقوم به؟!!

العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يذكر نوعًا آخَرَ من مخلوقات الله تعالى التي لها فِي كتاب الله ذِكْرٌ، وهو الهدهد، فيتحدث عَنْ هداية الله تبارك وتعالى له فيقول:

هذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصرِه بمواضع الماء تحت الْأَرْض، لا يراه غيره.

ومن هدايته: ما حكاه الله عَنْه فِي كتابه أنه قَالَ لنبي الله سليمان وقد فَقَدَه وتَوَعَّدَه، فلما جاءه بَدَرَهُ بالعذر قبل أن يُنْذِرَهُ سليمانُ بالعقوبة، وخاطبه الهدهد خطابًا هَيَّجَهُ به على الإصغاء إِلَيْهِ والقبول منه، فقال له: «أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ»، وفِي ضمن هذا أَنِّي أتيتك بأمر قد عرفتُه حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلِذَلِكَ قَالَ: «وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ»، والنبأ هو: الخبر الَّذِي له شأن، والنفوس متطلعة إِلَى معرفته.

ثم وصفه بأنه نبأٌ يقينٌ لا شكَّ فِيه ولا رَيْبَ.

فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذَلِكَ النبأ، اسْتَفْرَغَتْ قلبَ المخبَرِ لِتَلَقِّي الخبرِ، وأوجبت له التشوقَ التامَّ إِلَى سماعه ومعرفتِه، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عَنْ حقيقة الخبر كشفًا مؤكَّدًا بأدلة التأكيد، فقال: «إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ»، ثم أخبر عَنْ شأن تلك الملكة، وأنها من أَجَلِّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يَصْلُحُ أن تُؤْتَاهُ الملوك، ثم زاد فِي عظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوه إِلَى قصدهم وغزوهم فِي عقر دارهم بعد دعوتهم إِلَى الله، فقال: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانًا بأنها هي المقصودة، وما قَبْلَها تَوْطِئَةٌ لها، ثم أخبر عَنْ الْمُغْوِي لهم الحاملِ لهم على ذَلِكَ؛ وهو تزيين الشيطان لهم أعمالَهم حتى صَدَّهم عَنْ السبيلِ المستقيمِ، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذَلِكَ الصَّدَّ حالَ بينَهم وبينَ الهدايةِ والسجودِ لله الَّذِي لا ينبغي السجودُ إلا له، ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراجَ الْخَبْءِ فِي السماواتِ والأرض، وهو المخبوء فِيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواعِ ما يَنْزِلُ من السماء وما يخرج من الْأَرْض، وفِي ذكر الهدهد هذا الشأنَ من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعارٌ بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الْأَرْض.

فهذا أَيْضًا طير من الطيور جعل الله تعالى له هذه الهداية الكاملة.

وكذلك الحمام:

قال العلامة الامام ابن القيم رحمه الله تعالى فِي عجيبِ هدايَتِه إِلَى ما هداه الله إِلَيْهِ فِي حديثٍ طويلٍ مُمْتِعٍ يدلُّ على أن التفكيرَ فِي خلقِ الله منهجٌ أَخَذَ به أهلُ الْعِلْمِ أنفسَهم؛ تحقيقًا لأمر الله لعباده، قال العلامة الإمام ابن القيم -رحمه الله-:

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هدايةً، حتى قَالَ الإمام الشافعي: "أعقلُ الطيرِ الْحَمَامُ".

وبُرُدُ الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب، وربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد، فإن الغرض الَّذِي يَحْصُلُ به لا يَحْصُلُ بمملوكٍ ولا بحيوانٍ غيرِه؛ لِأَنَّهُ يَذْهَبُ ويَرْجِعُ إِلَى مكانه مِنْ مسيرةِ ألفِ فَرْسَخٍ فما دونَها، وتُنْهِي الأخبارَ والأغراضَ والمقاصدَ التي تتعلق بها مهماتُ الْمَمَالِكِ والدولِ، والقَيِّمُونَ بأمرها يَعْتَنُون بِأَنْسَابِها ـ بأنسابِ الْحَمَامِ الَّذِي هو بُرُدُ الحمام، الَّذِي يقال له: «الحمامُ الزَّاجِل» ـ، القَيِّمُونَ بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناءً عظيمًا، فَيُفَرِّقُونَ بين ذُكُورِها وإناثِها وَقْتَ السِّفَادِ، وتُنْقَلُ الذكورُ عَنْ إناثِها إِلَى غيرِها، والإناثُ عَنْ ذكورها، ويخافون عليها من فساد أنسابها وحَمْلِها مِنْ غيرِها، ويَتَعَرَّفُونَ صحةَ طُرُقِها ومَحَلِّهَا، ولا يأمنون أن تُفْسِدَ الأنثى ذَكَرًا مِنْ عُرْضِ الحمام، فَتَعْتَرِيها الْهُجْنَةُ.

والْقَيِّمُونَ بأمرِها لا يحفظون أرحامَ نسائِهم ولا يحتاطون لها كما يحتاطون ويحفظون أرحامَ حَمَامِهِم ويَحْتَاطُون لها!!

والْقَيِّمُونَ لهم فِي ذَلِكَ قواعدُ وطرقٌ يعتنون بها غايةَ الاعتناء، بحيث إِذَا رأوا حمامًا ساقطًا؛ لم يَخْفَ عليهم حَسَبَهَا ونَسَبَهَا وَبَلَدَهَا، ويُعَظِّمُونَ صاحبَ التجربةِ والمعرفةِ، وتَسْمَحُ أنفسُهم بالْجُعْلِ الوَافِرِ له، ويختارون لِحَمْلِ الكتبِ والرسائلِ الذكورَ منها، ويقولون: هو أَحَنُّ إِلَى بيتِهِ لمكانِ أُنْثَاهُ، وهو أشدُّ مَتْنًا، وأَقْوَى بَدَنًا، وأَحْسَنُ اهتداءً.

وطائفةٌ منهم يختارون لِذَلِكَ الإناثَ، ويقولون: الذكر إِذَا سافر وبَعُدَ عهدُه؛ حَنَّ إِلَى الإناثِ، وتاقت نفسُه إِلَيْهِن، فربما رأى أنثى فِي طريقه ومجيئه، فلا يصبر عَنْها، فيترك الْمَسِيرَ، ومالَ إِلَى قضاءِ وَطَرِه منها.

وهدايتُه على قدر التعليم والتوطين، والحمامُ موصوفٌ باليُمْنِ والْإِلْفِ للناسِ، ويُحِبُّ الناسَ ويحبونه، ويَأْلَفُ المكانَ، ويَثْبُتُ على العهدِ والوفاءِ لصاحبه وإن أساء إِلَيْهِ صاحبُه، ويعود إِلَى

صاحبِه من مسافاتٍ بعيدةٍ، وربما صَدَّ فتَرَكَ وَطَنَهُ عَشْرَ حِجَجٍ وهو ثابتٌ على الوفاءِ، حتى إِذَا وَجَدَ فرصةً واستطاعةً عاد إِلَيْهِ.

الحمامُ إِذَا أرادَ السِّفَادَ؛ يَلْطُفُ للأنثى غايةَ اللُّطْفِ، وإذا عَلِمَ الذَّكَرُ أَنَّهُ أَوْدَعَ رَحِمَ الأنثى ما يكونُ منه الولدُ؛ يقوم هو والأنثى بطلبِ القَصَبِ والحشيشِ وصغارِ العِيدَانِ، فَيَعْمَلَانِ منه أُفْحُوصَةً، ويَنْسِجَانِهَا نَسْجًا متداخلًا فِي الوضع الَّذِي يكون بقدرِ حَيْمَانِ الحمامةِ، ويَجْعَلَانِ حروفَها شاخِصَةً مرتفعةً؛ لئلا يَتَدَحْرَجَ عَنْهَا البَيْضُ، ويكونُ حصنًا للحاضن، ثم يتعاودان ذَلِكَ المكان، ويتعاقبان الأُفْحُوصَ يُسَخِّنَانِهِ ويُطَيِّبَانِهِ، ويَنْفِيَانِ طِبَاعَهُ الأولَ، ويُحْدِثَانِ فِيه طبعًا آخَرَ مُشْتَقًّا ومستخْرَجًا من طِبَاعِ أبدانِهما ورائحتِهما؛ لكي تَقَعَ البيضةُ - إِذَا وقعت - فِي مكانٍ هو أَشْبَهُ المواضعِ بأرحامِ الحمامِ، ويكون على مقدارٍ مِنَ الْحَرِّ والْبَرْدِ والرَّخَاوَةِ والصَّلَابَةِ، ثم إِذَا ضَرَبَها الْمَخَاضُ بادرت إِلَى ذَلِكَ المكانِ، وَوَضَعَتْ فِيه البَيْضَ، فإِنْ أَفْزَعَهَا رَعْدٌ قَاصِفٌ رَمَتْ بالبيضةِ دون ذَلِكَ المكانِ الَّذِي هَيَّأَتْهُ؛ كالمرأة التي تُسْقِطُ من الفزع، فإذا وضعت البيض فِي ذَلِكَ المكان؛ لم يزالا يتعاقبان الْحَضْنَ، حتى إِذَا بلغ الْحَضْنُ مَدَاهُ وانتهت أيامُه؛ انْصَدَعَ عَنْ الفراخِ فأعاناه على خروجه، فيبدآن أولًا بنفخ الريح فِي حلقه حتى تتسع حَوْصَلَتُهُ، علمًا بأن الحوصلة تضيق عَنْ الغذاء، فتتسع الحوصلة بعد التحامها، وتَنْفَتِقُ بعد ارْتِقَاقِهَا، ثم يَعْلَمَانِ أن الحوصلةَ وإن كانت قد اتَّسَعَتْ شيئًا؛ فإنها فِي أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فَيَزُقَّانِهِ بِلُعَابِهِمَا المختلِطِ بالغذاءِ، وفيه قُوَى الطَّعْمِ، ثم يَعْلَمَانِ أن طَبْعَ الحوصلةِ يَضْعُفُ عَن استمرارِ الغذاء، وأنها تحتاج إِلَى دفع وتقوية لتكون لها بعضُ المتانة، فَيَلْقُطَانِ من الْغِيطَانِ الْحَبَّ اللَّيِّنَ الرَّخْوَ، ويَزُقَّانِهِ الفَرْخَ، ثم يزقانه بعد ذَلِكَ الحبَّ الَّذِي هو أقوى وأشدُّ، ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريجٍ بِحَسَبِ قوةِ الفَرْخِ، وهو يطلب ذَلِكَ منهما، حتى إِذَا علما أَنَّهُ قد أطاق اللقطَ منعاه بعضَ المنع؛ ليحتاج إِلَى اللقط ويعتادَه، وإذا عَلِمَا أن رِئَتَهُ قد قويت ونمت، وأنهما إن فَطَمَاه فَطْمًا تامًّا قَوِيَ على اللَّقْطِ وتَبَلَّغَ لنفسِه؛ ضَرَبَاهُ إِذَا سألهما الزَّقَّ ومَنَعَاه، ثم تُنْزَعُ تلك الرحمةُ العجيبةُ منهما، ويَنْسَيَانِ ذَلِكَ التعطفَ المتمكنَ حينَ يَعْلَمَانِ أَنَّهُ قد أطاق القيامَ بالتَّكَسُّبِ لنفسه، ثم يبتدآن العمل ابتداءً ذَلِكَ النظام.

ومِنْ عجيبِ هدايةِ الحمامِ: أَنَّهَا إِذَا حَمَلَت الرسائلَ؛ سَلَكَت الطرقَ البعيدةَ عَنْ القُرَى ومواضعِ الناسِ؛ لئلا يَعْرِضَ لها مَنْ يَصُدُّها، ولا يَرِدُ مياهَ الناس، بل يَرِدُ المياهَ التي لا يَرِدُها الناسُ.

ومن هدايةِ الحمام: أن الذَّكَرَ والأنثى يَتَقَاسَمَانِ أَمْرَ الفِرَاخِ، فتكونُ الحَضَانَةُ والتربيةُ والكفالةُ على الأنثى، ويكونُ جَلْبُ القُوتِ والزَّقُّ على الذكر، فإن الأَبَ هو صاحبُ العيالِ والكاسبُ لهم، والأمُّ هي التي تَحْبَلُ وتَلِدُ وتُرْضِعُ.

ومن عجيب أمرها: أن رجلًا كَانَ له زوجُ حمامٍ مقصوصٌ، وزَوْجٌ طَيَّارٌ، وللطَّيَّارِ فَرْخَانِ.

قَالَ: فَفَتَحْتُ لهما فِي أعلى الغرفةِ كُوَّةً للدخولِ والخروجِ وزَقِّ فِرَاخِهِمَا، قَالَ: فَحَبَسَنِي السلطانُ فَجْأَةً، فاهْتَمَمْتُ بشأنِ المقصوصِ غايةَ الاهتمامِ – لأنه لا يستطيع الطَّيَرَانَ -، ولم أَشُكَّ فِي مَوْتِهِمَا؛ لِأَنَّهما لا يَقْدِرَانِ على الخروج مِنَ الكُوَّةِ، وليس عَنْدَهما ما يَأْكُلَانِ ويَشْرَبَانِ.

قَالَ: فلما خُلِّيَ سبيلي؛ لم يكن لي هَمٌّ غيرَهما، فَفَتَحْتُ البيتَ، فوجدتُ الفِرَاخَ قد كَبُرَتْ، ووجدتُ المقصوصَ على أحسنِ حالٍ، فَعَجِبْتُ، فلم أَلْبَثْ أَنْ جَاءَ الزوجُ الطَّيَّارُ، فَدَنَا الزوجُ المقصوصُ إِلَى أفواههما يَسْتَطْعِمَانِهِمَا كما يَسْتَطْعِمُ الفَرْخُ، فَزَقَّاهُمَا.

فانظر إِلَى هذه الهداية؛ فإن المقصوصَيْنِ لَمَّا شاهدا تَلَطُّفَ الفِرَاخِ للأبوين، وكيف يَسْتَطْعِمَانِهِمَا إِذَا اشتد بهما الجوعُ والعطشُ؛ فَعَلَا كَفِعْلِ الفَرْخَيْنِ، فَأَدْرَكَتْهُمَا رحمةُ الطَّيَّارَيْنِ، فَزَقَّاهما كما يَزُقَّانِ فَرْخَيْهِمَا.

ومن هدايتها أيضًا: أنه إذا رأى الناسَ في الهواء – يعني أثناءَ الطَّيَرَانِ -؛ عَرَفَ أَيَّ صِنْفٍ يريدُه، وأَيَّ نَوْعٍ مِنَ الأنواعِ ضِدَّه – أَيْ مِنَ الناسِ -، فَيُخَالِفُ فِعْلَه لِيَسْلَمَ منه،

ومن هدايته: أنه ربما في أولِ نُهُوضِهِ كان غافلًا، يُمُرُّ بين النِّسْرِ والعُقَابِ، وبَيْنَ الرَّخَمِ والبَازِيِّ، وبينَ الغُرَابِ والصَّقْرِ، فَيَعْرِفُ مَنْ يَقْصِدُهُ ومَن لا يَقْصِدُهُ، وإن رَأَى الشَّاهِينَ – وهو مِنَ الطَّيْرِ الجوارحِ -؛ فكأنه يَرَى السُّمَّ النَّاقِعَ، وتأخُذُه حَيْرَةٌ كما يَأْخُذُ الشاةَ عند رؤيةِ الذئبِ، وكما يَأْخُذُ الحمارَ عند مشاهدةِ الأسد.

فهذا من عجيبِ هدايةِ اللهِ تبارك وتعالى لهذا الخلق.

وذكر العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله:

من عجيب هداية الثعلب: أَنَّهُ إِذَا امْتَلَأَ مِن الْبَرَاغِيثِ – امتلأَ جَسَدُه من البراغيث -؛ ماذا يصنع؟!

يأخذ صُوفَةً بِفَمِهِ، ثم يَعْمِدُ إِلَى ماءٍ رقيقٍ، فَيَنْزِلُ فِيه قليلًا، حتى ترتفعَ البراغيثُ إِلَى الصُّوفَةِ، فَيُلْقِيهَا فِي الماءِ ويَخْرُج.

ومِنْ عَجِيبِ أمرِ الثعلب: أنَّ ذئبًا أَكَلَ أولادَه، وكان للذئب أولادٌ، وهُنَاكَ زُبْيَةٌ ـ وهي الرَّابِيَةُ لا يعلوها الماء ـ، فَعَمَدَ الثعلبُ وأَلْقَى نفسَه فِيها، وحَفَرَ فِيها سِرْدَابًا يَخْرُجُ منه، ثم عَمَدَ إِلَى أولادِ الذئبِ فَقَتَلَهُم وجلس ناحيةً ينتظرُ الذئب، فلما أَقْبَلَ وَعَرَفَ أَنَّهَا فَعْلَتُه؛ هَرَبَ قُدَّامَه وهو يَتْبَعُهُ، فأَلْقَى الثعلبُ نفسَه فِي الزُّبْيَةِ، ثم خرج من السرداب، فألقى الذئب نفسه وراءَه، فلم يجده ولم يُطِقِ الخروجَ، فقتله أهل الناحية.

ومن عجيب أمره: أن رجلًا كَانَ معه دجاجتان، فاخْتَفَى له وخَطَفَ إحداهما وَفَرَّ، ثم أَعْمَلَ فِكْرَه فِي أخذ الأخرى، فَتَرَآى لصاحبِها من بعيدٍ وفي فمِه شيءٌ شبيهٌ بالطائر، وأَطَمَعَهُ فِي اسْتِعَادَتِها بأنْ تَرَكَهُ – أي ذلك الذي كان فِي فمه يشبه الطائر، فظنه صاحب الدجاجتين الدجاجةَ التي خطفها ومر -، فألقى ما كان فِي فمه وفر، فظن الرجل أَنَّهَا الدجاجة، فأسرع نحوَها وخالفه الثعلبُ إِلَى أختها فأخذها وذهب.

ومن عجيب أمره: أَنَّهُ أتى إِلَى جزيرة فِيها طَيْرٌ، فأَعْمَلَ الْحِيلَةَ؛ كيف يأخذ منها شيئًا، فلم يُطِقْ، فذهب وجاء بِضِغْثٍ من حشيشٍ وألقاه فِي مَجْرَى الماء الَّذِي نحو الطيرِ، ففَزِعَ الطَّيْرُ منه، فلما عَرَفَت الطيرُ أَنَّهُ حشيش؛ رَجَعَتْ إِلَى أماكِنِها، فعاد الثعلبُ لِذَلِكَ مرةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً حتى تواظبَ الطيرُ على ذَلِكَ وأَلِفَتْهُ، فَعَمَدَ إِلَى جُرْزَةٍ ـ والْجُرْزَةُ هي الْحُزْمَةُ مِنَ القَتِّ ونحوِه ـ، فَعَمَدَ إِلَى جُرْزَةٍ أكبرَ من ذَلِكَ الضغثِ، فدخل فِيها وعبر إِلَى الطير، فلم يَشُكَّ الطيرُ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ما قَبْلَه، فلم يَنْفِرْ منه، فَوَثَبَ على طائرٍ منها وَعَدَا به.

ومن عجيب أمره: أنه إِذَا اشتد به الجوعُ؛ انْتَفَخَ وَرَمَى بنفسِه فِي الصحَرَاءِ كَأنَه جيفةٌ، فَتَتَدَاوَلُهُ الطيرُ، فلا يُظْهِرُ حركةً ولا نَفَسًا، فلا تَشُكُّ أَنَّهُ ميتٌ، حتى إِذَا نَقَرَ بِمِنْقَارِهِ وَثَبَ عليها فَضَمَّهَا ضَمَّةَ الموتِ. ومن عجيب أمر الثعلب: أَنَّهُ إِذَا أصاب القُنْفُذَ قَلَبَه لِظَهْرِهِ لأجلِ

شوكِهِ، فيجتمعُ القنفذُ حتى يصيرَ كَبَّةَ شوكٍ، يجتمعُ على نفسِه حتى يصير شوكة كلَّه؛ فماذا يصنع الثعلب؟! يبول على بطنه ما بين مَغْرِزِ عَجْبِهِ إِلَى فَكَّيْهِ، فإذا أصاب البولُ القُنْفُذَ؛ اعْتَرَاهُ الأَسْرُ، فانْبَسَطَ، فَيَسْلُخُه الثعلبُ من بطنه، ويَأْكُلُ مَسْلُوخَه.

ومن عجيبِ أمرِ الذئب: أَنَّهُ عَرَضَ لإنسانٍ يريدُ قَتْلَهُ، فَرَأَى معه قوسًا وسهمًا، فَذَهَبَ وجاء بِعَظْمِ رَأْسِ جَمَلٍ فِي فِيهِ وأَقْبَلَ نحوَ الرجلِ، فجَعَلَ الرجلُ كلما رماه بسهمٍ اتَّقَاهُ بذَلِكَ العظمِ، حتى أعجزه وعاين نَفَاذَ سهامِهِ، فَصَادَفَ مَن استعان به على طَرْدِ الذئب.

من عجيب أمر القرود: ما ذكره البخاري فِي «الصحيح» عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونَ الأوديِّ قَالَ: «رَأَيْتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ قردًا وقِرْدَةً زَنَيَا، فاجْتَمَعَ عَلَيْهما القرود،فَرَجَمُوهُما حتى ماتا.

فهؤلاء القرود أقاموا حَدَّ اللهِ حين عَطَّلَهُ بنو آدم!!

من عجيب أمر الفِئْرَانِ: أَنَّهَا إِذَا شَرِبَتْ من الزيتِ الَّذِي فِي أعلى الجَرَّةِ فَنَقَصَ وعَزَّ عليها الوصولُ إِلَيْهِ لَمَّا غَارَ؛ ذَهَبَتْ وحَمَلَتْ فِي أفواهِها ماءً وَصَبَّتْهُ فِي الجَرَّةِ حتى يرتفعَ الزيتُ فَتَشْرَبَهُ.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

والأطباء تزعم أن الحُقْنَةَ أُخِذَتْ من طائرٍ طويلِ المِنقارِ، إِذَا تَعَسَّرَ عليه الذَّرْقُ جاء إِلَى البحرِ المالِحِ، وأَخَذَ بِمِنْقَارِهِ منه واحْتَقَنَ به، فَيَخْرُجُ الذَّرْقُ بسرعة.

وهذا الثعلب إذا أصابه صَدْعٌ أو جُرْحٌ؛ يأتي إلى صِبْغٍ معروفٍ، فيَأْخُذُ منه ويَضَعُهُ على جُرْحِهِ كالْمَرْهَمِ.

والدُّبُّ إِذَا أصابه جُرْحٌ؛ يأتي إِلَى نَبْتٍ قد عَرَفَهُ وجَهِلَهُ صاحبُ الحشائشِ – يعني الصَّيْدَلَانِيَّ قديمًا –، فَيَتَدَاوَى به الدُّبُّ فَيَبْرَأَ.

هذا كله ماذا؟!

هذا كله من الهداية التي جعلها الله رب العالمين فِي المخلوقات من العناية بخلق الله رب العالمين.

هذا الَّذِي ذكره العلامة الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - قليلٌ من كثيرٍ فِي ذَلِكَ الكتابِ الْعَظِيمِ، وهو «شفاء العليل».

وكذَلِكَ ذَكَرَ بعضَ الحكمةِ فِيما يتعلقُ بالخلقِ جملةً على ترتيبِ أصنافِها فِيما ذَكَرَ.

وكذَلِكَ فِي الأعضاء الإنسانيةِ، والحكمةِ التي اسْتَجْلَاهَا مِنْ خَلْقِهَا على النحوِ التي هي مخلوقةٌ عليه؛ ذكر ذَلِكَ - رحمه الله تعالى - فِي كتابِهِ العُجَابِ «مفتاح دارِ السعادةِ»، فأطال فِي ذَلِكَ وأطاب - رحمه الله رحمة واسعة -.

وهذا كله إنما كَانَ لِاسْتِجْلَاءِ بعضِ الحكمةِ الإلهيةِ فِي هذا الخلقِ الإنسانيِّ وهو يتكلمُ عَن الحكمة، وأن الله ربَّ العالمين لم يَخْلُقْ شيئًا إلا لحكمةٍ، فليس فِي هذا الكونِ كلِّه من شيءٍ مخلوقٍ إلا على مقتضى الحكمةِ خُلِقَ، وعلى مقتضى الْعِلْمِ وُجِدَ، والله رب العالمين هو العليم الحكيمُ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القادرُ القَدِيرُ المقتدرُ، وهو على كل شيء قدير.

فأمثال هذه الأمور ينبغي على المسلم قَبْلَ الملحدِ! قبل الشَّاكِّ! قَبْلَ المشركِ! أن يتأمل فِيها؛ فهَؤُلَاءِ أئمتنا - عليهم الرحمة - اعْتَنَوْا بأمثالِ هذه الأمورِ هذه العنايةَ الفائقةَ.

وكما قلتُ لك: لو تأملتَ فِي كلامِ العلامةِ ابنِ القيمِ - رحمه الله تعالى - فِي أمثال هذه المسائل؛ فكأنما يُخَامِرُكَ حينئذٍ كثيرٌ من الظن أن هذا الرجلَ قد ضَرَبَ بسهمٍ وَافِرٍ فِي جميعِ علومِ عصرِه، فكان طبيبًا صيدلانيًا، وكان عالمًا من علماءِ الطيورِ، عالمًا من علماء الحيوان، عالمًا من علماء الحشرات - رحمه الله رحمة واسعة -.

فهذا مما ذكره - رحمه الله تعالى - فِي هذا الكتاب، وكلُّه من دليلِ العنايةِ الَّذِي يَسْتَدِلُّ به الْعلماءُ - رحمهم الله تعالى - على وُجُود الخَالِقِ الْعَظِيمِ الَّذِي لم يَخْلُقْ شيئًا سُدَى، ولم يَتْرُك الناسَ فِي الْأَرْضِ بغيرِ هدايةٍ وعنايةٍ ورعايةٍ، أَرْسَلَ إِلَيْهِم الرُّسُلَ، وأَنْزَلَ عليهم الكُتُبَ، وَهَدَى كُلَّ مخلوقٍ لِمَا به قِوَامُ حياتِه؛ فالحمد لله الَّذِي هَدَانَا لهذا وما كنا لِنَهْتَدِيَ لو لا أَنْ هَدَانَا اللهُ.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِين.

«المُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد مر فِي دليل الكون ودليل الآيات أن حدوث الأشياء إنما هو دليل على حاجتها إِلَى خالقٍ يَخْلُقُها.

والحدوث: صفةُ كلِّ ما فِي الكون من مخلوقاتٍ، لِذَلِكَ كَانَ كلُّ منها آيةً وعلامةً دالةً على خالقه.

وأما فِي دليل العناية؛ فإن الصفة التي نستدل بها على وُجُود الخَالِق هي فِي علاقةِ هذه المخلوقاتِ بعضُها ببعضٍ، أو فِي علاقةِ أجزاءِ الواحدِ منها ببقيةِ الأجزاء.

إنَّ كل متأمِّلٍ للمخلوقات يَرَى أَنَّهَا ليست كَوْمَةً عشوائيةً من الموجودات، بل هي مرتبةٌ ترتيبًا، ومُصَمَّمَةٌ تصميمًا وراءَه غايةٌ تَدُلّ على أن لها صانعًا عالمًا حكيمًا، يتجلى هذا التصميمُ فِي الإحكام الَّذِي يجعل كلَّ مخلوقٍ أو كلَّ جزءٍ من مخلوقٍ مصنوعًا بطريقةٍ وموضوعًا وضعًا يجعله محقِّقًا لهدف، والذي يجعل حركة الخلق حركةً مُتَّسِقَةً لا يعطِّلُ بعضُها بعضا، والذي يجعلها أنواعًا متشابهة تشابهًا دقيقًا، والذي يجعل القوانين التي تَحْكُمُها قوانينَ واحدةً لا تختلف مهما اختلف الزمان أو المكان؛ اللَّهُمَّ إلا إِذَا أراد الله لها أن تتخلف تخلفًا يكون هو نفسُه معجزةً دالةً على الخَالِقِ الواضع لتلك القوانين.

فِي كتاب «الفيزياء ووجود الخَالِق»:

هذا الإحكامُ الدَّالُّ على أن للمخلوقاتِ خالقًا مُريدًا عليمًا حكيمًا؛ هذا الإحكامُ تُنَبِّهُنَا إِلَيْهِ كثيرٌ من آياتِ القرآنِ الكريم؛ «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)».

هذه الآيات لا تقول لنا: إن هُنَاكَ أرضًا وجبالًا، وبشرًا ونومًا وليلًا، وسماءً وشمسًا، وماءً ونباتًا، وجناتٍ أَلْفَافًا؛ فهذه كلُّها أمورٌ نَشْهَدُها ونُشَاهِدُهَا ونَعْرِفُهَا، وكلُّ إنسانٍ - كافرًا كَانَ أو

مؤمنًا - يُسَلِّمُ بها، وإنما تدعونا الآياتُ إِلَى أن نُفَكِّرَ فِي الصِّلَةِ بينَ كلِّ واحدٍ من هذه المخلوقاتِ والأحوالِ، وبَيْنَ شيءٍ آخَرَ هو الإنسانُ المخاطَبُ بهذا الكلام.

تدعونا الآيات إِلَى أن نلاحظ أن كل واحد من هذه الأشياء والأحوال يحقق بالنسبة لنا نحن البشرَ هدفًا، وهذا لا يمنع أن تكون لها غاياتٌ أخرى لا نعلمها، فالأرضُ؛ هذا المكانُ الَّذِي نعيشُ فِيه جُعِلَ لنا مهادًا - أي: فراشًا - كما جاء فِي آية أخرى.

والمقصود أَنَّهُا جُعِلَتْ مناسِبَةً لحاجتنا مناسَبَةَ الفراشِ لصاحبه من حيث اللِّينُ والسَّعَةُ والوِقَايةُ.

فكأن الآية تقول لنا: إِنَّهُ إِذَا كَانَت صناعةُ الفراشِ تَدُلُّ على أن إنسانًا عاقلًا صَنَعَهُ، وأنه لم يَأْتِ اتفاقًا؛ فمِنَ الأَوْلَى أن تَدُلَّ صناعةُ الْأَرْضِ بهذه الطريقةِ المناسِبَةِ لِمَعَاشِكُم على أَنَّ لها صانعًا حكيمًا.

«وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا»، فكما أن الوَتِدَ الَّذِي تصنعونه ليس مجردَ قطعةٍ من الخشبِ مغروسةٍ فِي الْأَرْضِ؛ بل هو مصنوعٌ ومغروسٌ بهذه الطريقةِ لِيُؤَدِّيَ غايةً؛ فكذَلِكَ الجبالُ ليست مجردَ نُتُوآتٍ فِي الْأَرْض؛ بل إن لها وظيفةً متعلِّقةً بالأرض، ومِنْ ثَمَّ بحياتِكم.

«وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا»؛ لكي يَسْتَمْتِعَ بعضُكم ببعض، ولكي تُنْجِبُوا أطفالًا تستمتعون بهم، ولكي يُحْفَظَ جِنْسُكُم البَشَرِيُّ.

«وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا» تَنْقَطِعُ فِيه حَرَكَتُكُم، وَتَرْتَاحَ فِيه أجسامُكم، وتَبْرُدَ أعصابُكم، وتتخلصون به من كثيرٍ من الهُمُومِ والمشكِلاتِ النفسيةِ.

والليل والنهار، إِنَّهُما ليسا مجردَ ظواهرَ فَلَكِيَّةٍ نَتَجَتَا مصادفةً عَنْ حَرَكَتَي الشَّمْسِ والأرضِ، بل إن لهما خالقًا جعلهما بهذه الطريقة خدمةً لكم، ففي الليل ترتاحون، وفي النهار تَكْدَحون، وحتى تلك الأفلاكُ البعيدةُ عَنْكم لها تَعَلُّقٌ بكم، فكما أن الْأَرْض لكم فراشٌ فالسماء لكم بناء - أي سقف -، والشمسُ سراجٌ يُمِدُّكم بالنور والحرارة اللَّتَيْنِ لا تكون بدونهما حياةٌ بشريةٌ ولا حيوانيةٌ ولا نباتيةٌ.

«الذي جعل لكم الْأَرْض فراشا والسماء بناء».

«وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)».

«وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦»).

إِذَا كَانَ كثير من الناس يَغْفُلُون عَنْ الحكمة فِي خلق ما مضى ذكره من ظواهر وأحوال؛ فلا يكاد أحدٌ يَنْظُرُ إِلَى الغيثِ على أَنَّهُ مجردُ ماءٍ نازلٍ على الْأَرْض من السحاب، بل إِنَّهُم لَيُدْرِكون صِلَتَهُم به وحاجتَهم إِلَيْهِ، فَبِهِ يَنْبُتُ الزرعُ الَّذِي يأكلون منه كما تَأْكُلُ أنعامُهم التي يَعِيشون عليها.

إن مِيزَةَ الأدلةِ القرآنية: أن دلالتها ليست قاصرة على أن للكون خالقًا؛ بل تتضمن الدلالة على أن هذا الخَالِقَ هو وحده الَّذِي ينبغي أن يُعْبَدَ ويُشْكَرَ ولا يُكْفَرَ؛ بل إن بعضها كما هو الحال هنا فِي الآيات لَيَتَضَمَّنُ الدلالةَ على أنَّ بَعْدَ هذه الحياةِ حياةً أخرى، يَلْقَى فِيها المحسِنُون جزاءَ إحسانِهِم، ويعاقَبُ فِيها الظالمون على ظلمهم.

إن بعضَ الْمُنْكِرِينَ لِوُجودِ الخَالِق، المستكْبِرِينَ عَنْ عبادته، يَذْهبون كلَّ مَذْهَبٍ فِي إنكار هذا التَّنَاسُقِ العجيبِ فِي المخلوقات؛ لِمَا يَعْلَمون من دلالتِه على وُجود الخَالِق ووجوبِ عبادتِه، وهم حتى يَعْتَرِفُون به يتعلقون بأَوْهَى النظريات التي تُفَسِّرُه تفسيرًا يَنْفِي عَنْه القصدَ، ويَجْعَلُه أمرًا حادثًا بالمصادفة.

فهذا هو دليلُ العنايةِ، وقد مَرَّ ذكرُ كثيرٍ من الأمثلة عليه فِيما يتعلق بالناس، وما يتعلق بكثير من الأحياء؛ بل من الموجودات.

ويلحق بدليل العناية: «الدليلُ الخُلُقِيُّ»، فالقِيَمُ الخُلُقِيَّةُ قِيَمُ الصدقِ والأمانةِ والوفاءِ وغيرِها قيمٌ ضروريةٌ لوجود المجتمعات البشرية.

إنَّهُا قيمٌ لا يقوم بدونها مجتمعٌ، ولِذَلِكَ قَالَ بعضهم: إِنَّهُا مِلَاطُ المجتمعِ الَّذِي يُمْسِكُ أفرادَه، كما يُمْسِكُ المِلَاطُ اللَّبِنَاتِ التي يَتَكَوَّنُ منها البناءُ.

إنه بغير هذه القيم لا يكون علمٌ - حتى بأمور الدنيا! -، ولا يكون اقتصادٌ، ولا تكون علاقاتٌ اجتماعية!!

تَصَوَّرْ مجتمعًا لا يَرَى بالكذبِ بأسًا، ولا يَعُدُّهُ مَذَمَّةً؛ فالناس فِيه كلُّهم كذابون، وليس من شرط الكذاب أَلَّا يَصْدُقَ أبدًا، بل هو يَصْدُقُ إِذَا رَأَى الصدقَ له، ويكذب إِذَا رأى الصدقَ عليه؛ هل يكون فِي هذا المجتمع الَّذِي خَلَا من الصدقِ عِلْمٌ؟!!

لا يكون؛ فإنَّ مِنْ ضروراتِ الْعِلْم: الصدقَ فِي الرواية، فإذا ادَّعَى إنسانٌ فِي مِثْلِ هذا المجتمعِ الَّذِي عَمَّ فِيه الكذبُ أَنَّهُ اكْتَشَفَ فِي مُخْبَرِهِ حقيقةً مَّا؛ فإننا لن نُصَدِّقَه؛ لأننا لا نعلم إن كَانَ صادقًا أو كاذبًا؛ بل سنقطع بكذبه إِذَا وجدنا أن هذه الدعوى تخدم غرضًا له، ولن تكون هُنَالِكَ كتب ولا دروس ولا محاضرات ولا مدارس ولا جامعات.

ما الفائدة من قراءة كتاب لا أعلم إن كَانَ صاحبه صادقًا أو كاذبًا؟! ولا أستطيع أن أستعين بغيري؛ لِأَنَّهُ هو الآخر قد يكذب عَلَيَّ!!

وقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ عَنْ الْمُدَرِّسِينَ والمحاضِرِينَ.

وقُلْ مثلَه عَنْ رواة الأخبار فِي سائر وسائل الإعلام.

وقُلْ مِثْلَه عَنْ التُّجَّارِ والزُّرَّاعِ والصُّنَّاع.

كيف تتعامل مع أَيٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا كنتَ لا تدري أصادقٌ هو أم كاذب فِيما يَدَّعِيهِ لك مِنْ ثَمَنِ بضاعةٍ، أو جودةِ محصولٍ، أو إحكامِ صنعةٍ؟!!

الصدق ليس إذًا فضيلةً خُلُقيةً فَحَسْب؛ بل هو ضرورةٌ اجتماعيةٌ أَيْضًا، وعليه فكلما كَثُرَ عددُ الصادقين فِي المجتمع؛ كَانَ المجتمعُ أقوى تماسكًا، وأَدْعَى لِأَنْ تَزْدَهِرَ فِيه العلومُ والتِّقْنِيَةُ والاقتصادُ إِذَا ما تَوَفَّرَتْ شروطُها الأخرى، وكلما تَفَشَّى الكذبُ بين حُكَّامِهِ وولاةِ أمرِهِ وعُلَمَائِهِ وتُجَّارِهِ وزُرَّاعِهِ وصُنَّاعِهِ؛ كَانَ أكثرَ تَمَزُّقًا وأَقَلَّ تطَوُّرًا فِي تلك الأمورِ كلِّها.

فالصادقون إذًا يُسْدُونَ إِلَى المجتمع خدمةً هي مِنْ ضروراتِ وُجُودِ المجتمعِ، والكَذَّابون هم مِنْ مَعَاوِلِ تَقْوِيضِ المجتمعِ؛ لَكِنَّ مشكلةَ الأخلاقِ فِي حياتِنا الدنيويةِ هذه هي أَنَّ الصادقَ قد لا يَجِدُ جَزَاءَ صِدْقِهِ؛ بل قد يكونُ صدقُهُ سَبَبًا فِي خَسَارَةٍ ماليةٍ، أو فِقْدَانِ مكانةٍ اجتماعيةٍ؛ بل قد يُوقِعُهُ الصدقُ حتى فِي عقوباتٍ جسديةٍ!!

والكاذب لا يعاقَبُ دائمًا على كذبه؛ بل قد يكونُ كَذِبُهُ وسيلةً إِلَى كَسْبٍ مَالِيٍّ، أو نَيْلِ مَنْصِبٍ اجتماعيٍّ، أو تَفَادِي أَذَىً جَسَدِيٍّ، ولو لا ذَلِكَ ما كَذَبَ إنسانٌ.

فالمشكلةُ إذًا هي أن الَّذِينَ يَنْفَعُون المجتمعَ قد يُضَارُّونَ مادِّيًّا، بينما الَّذِينَ يَضُرُّونَهُ قد يَنْتَفِعُونَ مادِّيًّا، فإذا لم يكن هُنَالِكَ مِنْ خالقٍ يَرَى ويَسْمَعُ ما يَفْعَلُ البشرُ، واذا لم يكن هُنَالِكَ من دارٍ أخرى يُثِيبُ اللهُ فِيها المحسنَ على إحسانِه، ويعاقِبُ المسيءَ على إساءَتِهِ، وكان

الكَسْبُ المادِّيُّ فِي هذه الحياةِ الدنيويةِ هو وحده الكَسْبَ الْمُعْتَبَرَ؛ لَكَان الصادقون الْأُمَنَاءُ الْمُوفُون بعهودهم هم الْمُغَفَّلِينَ الَّذِينَ لا عَقْلَ لهم، ولَكَانَ الكذابون الْخَوَنَةُ هم العقلاءَ؛ لَكِنَّ العقلَ يَقُول: إن الأمر لا يمكن أن يكون كذَلِكَ!!

لا يمكن أن يكون العقلاءُ هم الَّذِينَ يُقَوِّضُون المجتمعَ، والْمُغَفَّلُونَ هم الَّذِينَ يُبْقُونَه متماسكًا!!

لو كَانَ الأمر كذَلِكَ؛ لكانت اللَّاعَقْلَانِيَّةُ أصلًا أصيلًا فِي بِنْيَةِ هذه الحياةِ الدنيويةِ، ولكانت هذه الحياةُ لِذَلِكَ كلُّها عبثًا؛ لَكِنْ ما مِنْ عاقلٍ يمكن أن يَقْبَلَ نتيجةً كهذه؛ لأن فِيها مِنْ بَيْنِ ما فِيها تقويضًا لِأَهَمِّ مَبْدَأٍ تقوم عليه علومُنا الكونيةُ كلُّها.

إن هذه العلومَ كلَّها تقومُ على افتراضِ الْمَبْدَأِ الْمُسَمَّى بِتَنَاسُقِ الطبيعةِ، المبدأ الَّذِي يَقُول: إنَّ قوانينَ الطبيعةِ لا تَتَخَلَّفُ، وإنه لِذَلِكَ يمكن أن تُدْرَسَ دراسةً علميةً؛ بل رياضيةً؛ فكيف يكون هذا الكونُ فِي جانبه الماديِّ عقلانيًا، وفِي جانبه البَشَرِيِّ متناقضًا مع المبادىءِ العقليةِ؟!!

وهُنَالِكَ تناقضٌ آخرُ يؤدي إِلَيْهِ الْإِلْحَادُ بالنسبةِ لِلْقِيَمِ الخُلُقِيَّةِ.

إن الناس مفطورون على أن هذه القِيَمَ قِيَمٌ يَحْسُنُ بهم أن يلتزموا بها، فهي جزءٌ مِنْ تَكْوِينِهِمُ العقليِّ، وهم يَشْعُرُونَ لِذَلِكَ؛ وما دَامُوا مُحْتَفِظِينَ بِفِطْرَتِهِم يَشْعُرون بالسعادة حين يَصْدُقُون الْحَدِيثَ، ويُؤَدُّونَ الأمانةَ، ويُوفُون بالعهدِ، ويَشْعُرون بالشَّقَاءِ حين يَكْذِبُون أو يَخُونون ويَنْكُثُون.

فالملحد الَّذِي يريد أن يتصرف وَفْقَ ما يقتضيه إِلْحَادُه يَمُرَ بحالاتٍ يَشْعُرُ فِيها بالتَّمَزُّقِ بين وازِعِهِ الداخليِّ وتفكيرِه العقلانيِّ، فبينما يَقُول له الوازعُ الداخلي: "اُصْدُقْ، فهذا أكثرُ راحةً لنفسِك وأَسْعَدُ لقلبِك"؛ يَقُول له فِكْرُه: "لَكِنك تعتقدُ أَنَّهُ ليس وراءَ هذه الحياةِ مِنْ حياةٍ، والصدقُ فِي هذه الحالِ يُفَوِّتُ عليك لذةً عاجلةً؛ ففيم التضحيةُ بها وأنت لا تَنْتَظِرُ أخرى بعدها آجِلًا؟!".

يقول بعض مَنْ يَسْمَعُ مثلَ هذه الحجةِ: لَكِنَّ الواقعَ أنه ما كُلُّ الْمُلْحِدِينَ كَذَّابون، ولا كُلُّ المؤمنين صادقون، فَقَدْ يَصْدُقُ الملحدُ، وقد يَكْذِبُ المؤمنُ.

والجواب: أَجَلْ، إن هذا لا يحدث؛ لَكِن الملحد حين يصدق يتناقض مع مقتضياتِ مبدئه، أي أَنَّهُ لا يصدق صدقًا يُفَوِّتُ عليه مصلحةً إلا حين يتخلى مؤقتًا عَنْ مبدئِهِ أو عَنْ عقلِهِ.

أما المؤمن؛ فالأمر بالنسبة له عكسُ ذَلِكَ تمامًا، فهو حين يَكْذِبُ يكون قد سَلَكَ سلوكًا يتناقض مع مبدئِهِ ومع عقلِهِ، وحين يَصْدُقُ يكون موافقًا لهما ولِفِطْرَتِهِ.

وعليه؛ فإنه كلما كَثُرَ عددُ الْمُلْحِدِينَ، واشْتَدَّ اقْتِرَابُهُمْ مِنْ مقتضياتِ مذهبِهِم؛ فإن الكذب عَنْدهم سيزدادُ لا مَحَالة، وكلما كثر عدد المؤمنين، واشتد استمساكهم بدينهم؛ ازداد عدد الصادقين منهم لا مَحَالَة.

يقول بعضُ الْمُتَحَذْلِقِينَ مِنَ الْفَلَاسِفَة:

إنه لا معنى للسلوكِ الخُلُقِيِّ الا أن تُضَحِّيَ مِثْلَ هذه التضحيةِ التي لا ترجو لها ثوابًا، وأنك إِذَا عَمِلْتَ الخيرَ رجاءَ الثوابِ كما يفعل الْمُتَدَيِّنُونَ؛ لا يكون سلوكُك هذا سلوكًا خُلُقِيًّا؛ بل تُجَارِيًّا!!

لَكِنَّ هَؤُلَاءِ ما علموا أن التضحية المطلقة أمر يتنافى مع العقل الَّذِي يسير عليه الناس فِي حياتهم الدنيوية كلِّها، وإلا لو كَانَت مثل هذه التضحية مما يدعو إِلَيْهِ العقل؛ لكان أعقل الناس هم الَّذِينَ لا يسعون لنيل لذة، ولا يعملون، مما يؤدي إِلَى اتقاء الأذى، فلا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتقون حَرًّا ولا بردًا ولا خطرًا، وإذا كَانَ هذا غيرَ سائغٍ عقلًا؛ فلماذا يسوغ فِي حالة السلوك الخلقي؟!!

وما الفرق بين هذا السلوك وغيره من أنواع السلوك؟!!

قد يقال: إن الفرق هو ما ذكرتَه أنتَ نفسُك آنفًا مِنْ أَنَّ فِي الإنسانِ وازعًا داخليًا يدعوه إِلَى السلوك الخلقي.

ونقول: هذه هي المشكلة.

كيف نُوَفِّقُ بين هذا الوازِعِ الداخلي الَّذِي يَدْعُونا إِلَى مكارم الأخلاق، والعقلِ الَّذِي يدعونا إِلَى تحصيلِ ما ينفعنا ودَرْءِ ما يضرنا؟!

إِنَّهُ لا حَلَّ عَنْدَ الملحد.

إن إلْحاده يوجب عليه؛ إما أن يكون داعيًا إِلَى نبذ الأخلاق، أو أن يكون داعيًا إِلَى نبذ العقل، وكِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذَمِيمُ.

كيف يَحُلُّ الدينُ هذا الاشكال؟!

يَقُول الدين الحْقّ: نعم، إن الأخلاق من الخير الَّذِي فطر الله عليه عباده؛ ولَكِنَّ هذه الأخلاقَ نفسَها تقتضي أنْ يُثَابَ المحسنُ على إحسانه، وأن يعاقَبَ المسيءُ على إساءتِهِ؛ ولَكِنَّ هذا لا يتأتى فِي دار الدنيا هذه كما هو مشاهَد ولا يمكن اذن الا أن يتأتى فِي حياة أخرى بعد هذه الحياة ولا يتأتى فِي تلك الحياة الثانية؛ إلا إِذَا كَانَ هُنَالِكَ إلهٌ عليمٌ حكيمٌ عادلٌ يَعْلَمُ ما يَعْمَلُ الناسُ الآن ليجازيهم عليه غدًا، فالمؤمن يعمل الخير؛ لأن الله فطره على حبه، ويعمله لأن الله يثيبه على فعله، ولا تناقُضَ بين الأمرين؛ لأن إثابة المحسن هي نفسُها مَبْدَأٌ خُلُقِيٌّ، فإثابةُ المحسنِ نفسُها مَبْدَأٌ خُلُقِيٌّ.

ذَكَرَ تعالى ما أَعَدَّه لعباده الصالحين فقال: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩)»، ثم خَتَمَ هذا بقوله: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)».

فإثابة المحسن هي نفسُها مبدأ أخلاقي.

السؤال هاهنا: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)»؛ سؤالٌ استنكاريٌّ، فكأن الآية تقول: إن هذا هو الأمرُ الَّذِي تَدُلّكم عقولكم على أَنَّهُ ينبغي أن يكون؛ فكيف تتوقعون غيره؟!

لا شك أن الدليل الخلقي هو فرعٌ عَنْ دليل العناية؛ لأَنَّ فَحْوَى هذا الدليلِ الخلقي: أن الكون فِيه من التناسق والعناية ما يدل على أن له مُبْدِعًا حكيمًا، والحكيم لا يفعل شيئا عبثًا؛ لَكِنَّ عدمَ وُجودِ دارِ الآخرة يَلْقَى فِيها المحسنُ ثوابَ إحسانِه، والمسيءُ عقابَ إساءتِه هو مما يتناقض مع تلك الحكمةِ وهذا الإحكامِ.

فهذا الَّذِي مر ذكره مما يتعلق بالعناية يَمُتُّ بصلةٍ وثيقةٍ إِلَى هذا الدليل الخلقي، فمما لا يُخْطِئُهُ الناظرُ الْمُتَمَعِّنُ - لاسيما الناظرُ فِي القرآن الكريم -: أَنَّهُ يَجِدُ فِي الكتابِ العزيزِ عِدَّةَ آياتٍ تدعو إِلَى التفكُّرِ فِي الكون؛ لمعرفة أن له خالقًا حكيمًا ينبغي أن يُعْبَدَ وحدَه، وأَلَّا يُعْبَدَ غيرُه مما لا يَخْلُقُ.

ولِمَعْرِفَةِ أَنَّهُ لم يَخْلُقْ عبثًا ولا لَعِبًا ولا باطلًا، وإنما خَلَقَ بالحق، أيْ مِنْ أجلِ غايةٍ، وإنك لتجد فِي أكثر تلك الآيات أو فِي سياقها ربطًا بين نفي البطلان واللعب والعبث عَنْ خلق الكون، وبين أَنَّهُ لا بد أن تكون هُنَاكَ دارٌ آخرة، أيْ إِنَّهُ لو لم تكن آخرةً؛ لكان خَلْقُ هذا الكونِ كلِّه عبثًا وباطلًا ولَعِبًا ولم يكن حقًا؛ لأن هذا يتنافى مع الإحكام الَّذِي فِيه، ومع ما يدل عليه هذا الإحكام من كونه مخلوقًا لِخَالِقٍ حكيمٍ.

إن الخَالِقَ الحكيم لا يَخْلُقُ خَلْقًا فيأمرهم وينهاهم ثم يجعل مصير الَّذِينَ استجابوا لرسله فعملوا صالحًا كمصير الَّذِينَ تمردوا عليهم وخاضوا فِي كلِّ فعلٍ قبيحٍ!!

فالآخرة – إذًا - ضرورةٌ خُلُقِية.

الآخرة ضرورة خلقية.

وتأمل فِي هذه الآيات، وانظر كيف جَعَلَت الإحكامَ فِي خلق الله دليلًا على ضرورةِ وُجُودِ دارٍ آخرة، هذا الإحكامُ دلت الآياتُ على أنه لا بد من وجودِ دارٍ آخرةٍ؛ «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)»

تأمل كيف رَبَطَت الآيةُ بين خلق السماوات والأرض بالحق، وبين عدم الظلم.

وتأمل كيف ربطت الآية التالية بين عدم خلقها باطلًا - أي عَبَثًا -، وبين مساواة المحسنين بالمسيئين؛ «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)»).

إن أُولِي الألبابِ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ يتفكرون فِي الأمور ويستدلون بها الاستدلالاتِ الصحيحةَ، لا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدَّعُون العقلانيةَ وَهُمْ مِنْ أَبْعَدِ الناسِ عَنْ الالتزام بمقتضيات العقول.

هم الَّذِينَ يتدبرون فِي كون الله المخلوق، وفي كتابه المقروء، وفي آيات الله الكونية وآياته الكلامية، فَيَصِلُون بِفِكْرِهِمُ المستقيمِ إِلَى الْحَقِّ، ويلتزمون بمقتضياته.

هذه المعاني تتكرر فِي آيات كثيرة من آيات الكتاب العزيز.

قد يقال: إنَّ هذه الحجةَ إنما تَصْلُحُ لإنسانٍ يُؤْمِنُ بالخَالِقِ وينكرُ وُجُودَ الدارِ الآخرة؛ لَكِننا هنا بصدد إنسانٍ ملحدٍ يُنْكِرُ وُجُودَ الخَالِقِ، واللهُ ربُّ العالمين يَقُول: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣)»

فهذه الآية فِيها أمران: مِنْ ناحيةٍ تُخَاطِبُ مَنْ يُقِرُّ بوجودِ الخَالِقِ ويُنْكِرُ البعثَ؛ ولَكِنها مِنْ ناحيةٍ أخرى تَدُلّ على أن إحكامَ الخلقِ وما فِيه من تَنَاسُقٍ وعنايةٍ مِنْ بَيْنِها وُجُودُ قِيَمٍ خُلُقِيَّةٍ لا تَصْلُحُ مجتمعاتُ الناسِ إلا بها؛ يَتَنافَى مع عدمِ وُجُوده دارٍ آخرة؛ ولَكِنْ إِذَا كَانَت هُنَالِكَ دارٌ آخرةٌ، ولم يكن هُنَالِكَ إلهٌ شهيدٌ على الناس فِي هذه الحياة الدنيا كي يجازيَهم عليها فِي تلك الدار؛ لم يكن لها من فائدةٍ؛ بل صار الأمر فِيها كالأمر فِي هذه الحياة الدنيا.

فالآخرة – إذًا - ضرورةٌ خلقية، ولو شئتَ لقلتَ: هي ضرورةٌ عقليةٌ؛ لأن المبادىء الخلقية هي مِنْ بَيْنِ الموازينِ التي فَطَرَ اللهُ عليها العقولَ لِقِيَاسِ الأمورِ وتقويمِها، فالذي يَتَنَافَى مع الأخلاقِ يَتَنَافَى مع هذا العقلِ الفِطْرِيِّ، وإذا قَرَّرَ اللهُ تعالى أمرًا فِي صيغةِ سؤالٍ استنكاريٍّ؛ فإنه يدل على أن الأمرَ معروفٌ لا ينبغي أن يُنْكَرَ أو يُخَالَفَ.

ومما يدخل فِي هذا: ما كَانَ معروفًا فِي هذا العقل الفطري.

تأمل هذه الآيات؛ كيف تَسْتَنْكِرُ أن يكونَ مصيرُ المحسنينَ كَمَصِيرِ المسيئين سواءً بسواءٍ؛ لأن هذا مما يتنافى مع تلك المبادىءِ الخُلُقِيَّةِ العقليةِ الفِطْرِيةِ، وعليه؛ فلا بد من دارٍ آخرةٍ يستقيمُ فِيها هذا الأمرُ؛ «كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

«أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ».

هُنَالِكَ مشكلةٌ أخرى تتعلق بالقيم الخلقية: إنَّهُ لا مكانَ فِي الفيزياء - مثلًا - ولا فِي غيرها من العلوم الطبيعية للقيم الخلقية، أو للقيم الجمالية، أو غيرها من القيم؛ ذَلِكَ لأن مجال هذه العلوم إنما هو الكائناتُ الطبيعية؛ لَكِنَّ الناسَ لا يَكْفِيهِم فِي حياتِهِم عِلْمُهُمْ بالطبيعةِ؛ مهما ازداد وعَظُمَ.

إنَّهُم يحتاجون مع هذا إِلَى قيم يهتدون بها فِي معاملاتهم، فإذا حَلَّت العلومُ الطبيعيةُ مَحَلَّ الدينِ كما يريد لها الْمُلْحِدُونَ فِي عصرنا، وإذا حُصِرَ الْحَقُّ فِيها وفيما يأتي عَنْ طريق هذه العلومِ الطبيعيةِ؛ فأَنَّى يَجِدِ الناسُ تلك الهدايةَ التي هي مِنْ ضروراتِ حياتهم؟!!

إن كثيرًا من ملاحدةِ الْعلماءِ الطَّبِيعِيِّينَ يعترفون بهذه المشكلة؛ لَكِنهم لا يَذْكُرُونَ لها جوابًا.

يَنْقُلُ «تِيلَرْ» عَنْ عالِمِ الأحياءِ البريطانيّ «مِيدَاوَرْ»، وهو ملحد مثله، ينقل عَنْه قوله: "ان الاجابة عَنْ الأسئلة المتعلقة بالبدايات والنهايات أمر خارج منطقيا عَنْ مقدرة الْعِلْم الطبيعي".

لَكِنه يُعَلِّقُ على هذا بقوله:

إن هذا مسلكٌ يَصْعُبُ قبولُه، فما زالت هُنَاكَ فجوة فِي حياة أناس كثيرين بِسَبَب انعدام الغاية هذه.

لقد كَتَبَ العالِمُ النفسانيُّ «يُونْكْ»:

إنَّهُ لم يكن مِنْ بَيْنِ كُلِّ مَرْضَايَ الَّذِينَ هم فِي النصف الثاني من عمرهم بعد سن الخامسة والثلاثين؛ لم يكن مِنْ بينِهم أحدٌ لم تكن مشكلتُه فِي النهايةِ هي الظَّفَرَ بنظرةٍ دينيةٍ إِلَى الحياة.

ثم يَنقُلُ عَنْ صَحفِيٍّ معاصِرٍ يَقُول عَنْه: إنَّهُ ابنٌ لأحدِ الفيزيائيين، ينقل عَنْه قولَه:

إن الْعِلْم الطبيعي ليس سلعة محايِدَةً أو بريئةً يُمْكِنُ أن يستخدِمَها الناسُ للاستفادةِ منها، بحيث إنَّهُم لا يريدون إلا أن يكون لهم نصيب من قوة الغرب المادية.

إن هذا الْعِلْم الطبيعي مُدَمِّرٌ روحِيًّا، مُودٍ بكل المرجعيات والتقاليد القديمة، وبعد أن يُودِيَ بكل منافسيه؛ يبقى السؤال: أيُّ نوعٍ من الحياة تلك التي يُقَدِّمُها الْعِلْمُ الطبيعيُّ لأهله؟

ماذا يَقُول لنا عَنْ أنفسنا؟

وكيف نحيا؟

ثم يقول: ليس هُنَاكَ من جوابٍ جاهزٍ عَنْ هذا السؤال!!

فالذين يريدون أنْ يَحِلَّ الْعِلْمُ الماديُّ مكانَ الدينِ؛ إنما يَسْعَوْنَ إِلَى تدميرِ الإنسانية، إِلَى تدمير هذه الحياة، إِلَى تدمير هذا الوجود؛ لأن الناس لا يمكن أن يَحْيَوْا على الْعِلْمِ المادي وحده؛ لِأَنَّهُ - كما مَرَّ - ليس سلعةً مُحَايِدَةً، ليس سلعةً بريئةً يمكن أن يستخدمها للاستفادة منها قومٌ لا يريدون إلا أن يكونَ لهم نصيبٌ مِنْ قوةِ الغربِ الماديةِ.

إن هذا الْعِلْم الماديَّ مُدَمِّرٌ روحِيًّا، مُودٍ بكل المرجعيات والتقاليد القديمة، وبعد أن يودي بكل منافسيه يبقى السؤال: أي نوع من الحياة تلك التي يقدمها الْعِلْم الطبيعي لأهله؟!!

ماذا يَقُول لنا العلم الطبيعي عَنْ أنفسنا؟!!

وكيف نحيا؟!!

إِذَا لم يُعْطِنَا الطريقةَ التي نَحْيَا بها، وهو لا يُعْطِينا من ذَلِكَ شيئًا!!

وليس هُنَالِكَ مِنْ سؤالٍ يمكن أن يكونَ له إجابةٌ جاهزةٌ على هذا النحو المذكور!!

الإنسان مِنْ أَعْظَمِ ما خَلَقَ اللهُ، لِذَلِكَ كَانَ أَبْدَعَ ما يُعْرَفُ اللهُ به، فَبِقَدْرِ ما يَعْرِفُ الإنسانُ نفسَه يَعرِف ربَّه، وبِقَدْرِ ما يَجْهَلُ نفسَه يَجْهَلُ ربَّه.

وأَهَمُّ شيءٍ فِي الإنسانِ: صِفَاتُهُ الأساسيةُ التي لا يُمْكِنُ تَعْلِيلُها إلا بأنها قَبَسٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، ثُمَّ أخلاقُ الإنسانِ والصفاتُ الأساسيةُ للإنسان: الْعِلْمُ والإرادةُ والقدرةُ.

المادة لا تَعْرِفُ نفسَها، ولا تَعْقِلُ غيرُها.

المادةُ لا يمكن أن يكونَ لها خِيَارٌ.

قُدْرَتُهَا قُدْرَةٌ مَحْدُودةٌ بِإِطَارٍ.

أما الإنسان؛ فَيَعْلَمُ ويُرِيدُ تَبَعًا لهذا الْعِلْم، وقدرتُه تَنْفُذُ فِي ضوءِ هذه الإرادة.

إن استعداد الإنسان للعلمِ ظاهرةٌ من أعظمِ ظواهرِ الوجودِ؛ إذ الإنسانُ وحده من هذه المخلوقات التي نراها عِنْده استعداد لِيَعْرِفَ كُلَّ شيءٍ؛ يُحَلِّلُ، ويُرَكِّبُ، ويُقَايِسُ، ويُعَلِّلُ، ويَقْبَلُ ويَرْفُضُ، ويَتَصَوَّرُ، ويستطيعُ أن يُفَكِّرَ حتى يَعْرِفَ مجهولًا فِي ضوءِ معلومٍ، ويَرْسُمَ للحياةِ طريقًا أو طُرُقًا، وَيَبْنِي حَضَارةً أو يَهْدِمُها.

ويَتْبَعُ ظاهرةَ الْعِلْمِ ظاهرةُ التَّعْبِيرِ حين يُعَبِّرُ الإنسانُ عَنْ كلِّ هذا، تارةً أَدَبًا، وأحيانًا كلمةً؛ بهدوءٍ أو بشدةٍ، بِعَاطِفَةٍ أو بِعَقْلٍ.

إنَّ عِلْمَ الإنسانِ وبيانَه يَدُلَّانِ مباشرةً على الله؛ «الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)».

«اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)».

المادة لا تُرِيدُ، ليست لها إرادةٌ؛ بل هي خاضعةٌ لإرادةٍ، وهذه الإرادة لا تَتَغَيَّرُ ولا تَتَبَدَّلُ سُنَنُها.

الحيوانُ إن كانت له إرادةٌ فهي إرادةُ غريزةٍ ضِمْنَ أُطُرٍ مُعَيَّنَةٍ: إطارِ الحياةِ أو الموتِ، إِطَارِ الرزقِ أو السِّفَادِ.

أمَّا ما عَدَا هذا؛ فهو فِي بهيمِيَّةٍ غامضةٍ لا يَعْرِفُ معنى الإرادةِ حِينَ يُرِيدُ؛ ولَكِنَّ الإنسانَ عَنْدَه طاقةُ إرادةٍ يُرَجِّحُ بها بين الْمُتَقَابِلَيْنِ، ويَخْتَارُ مِنْ بَيْنِ الضِّدَّيْنِ.

كلامُهُ بِإِرَادَةٍ، وَحَرَكَتُهُ بِإِرَادَةٍ، وَعِلْمُهُ بِإِرَادَةٍ.

إن الإنسان وحده يملك حرية الاختيار بشكلٍ لا مَثِيلَ له بينَ أجزاءِ العالَمِ المحسوسِ، يختار الكذبَ فَيَكْذِبُ، ويختارُ الصدقَ فَيَصْدُقُ، ويختارُ الخَرَابَ فَيُخَرِّبُ، والإعمارَ فَيُعَمِّرُ.

طاقةٌ هائلةٌ من الإرادة يُرَافِقُها طاقةٌ هائلةٌ من القدرة.

إنه بِقَدْرِ ما أُعْطِيَ الإنسانُ مِنْ طاقةِ إرادةٍ أُعْطِيَ قدرةً، ومَظْهَرُ هذه القدرة: إمكانيةُ التسخيرِ والاستفادةِ مِنْ كلِّ شيءٍ.

إنه يستطيع أن يَسْتَنْبِتَ الْأَرْضَ إذَا لم تُنبِتْ، وأنْ يَحْصُدَ إِذَا زَرَعَ، وأنْ يَرْكَبَ مَتْنَ الرِّيحِ والماءِ، وأنْ يَأْكُلَ لحمَ الطَّيْرِ والسمكِ، وأنْ يَسْتَخْرِجَ مِنْ كلِّ شيءٍ ما يَنْفَعُ نفسَه، وأنْ يَتْرُكَ مِنْ كلِّ شيءٍ ما يضرُّه.

إنَّ عِلْمَ الإنسانِ وإرادةَ الإنسانِ وقدرةَ الإنسانِ تَدُلُّ بشكلٍ واضحٍ على تَمَيُّزِ الإنسانِ على المادة، والمادةُ لا يمكن أنْ تُعْطِيَهُ عِلْمًا ولا إدراكًا ولا قدرةً ولا إرادةً، بل اللهُ وحدَه هو الَّذِي يَمْلِكُ أن يُعْطِيَ الإنسان هذا؛ «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا».

«هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا».

«هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا».

«وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨)».

«أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)».

فهذا كله يتعلق بعلمه وإرادته وقدرته.

وأما الأخلاق؛ فإنها تلك المشاعر التي تُنْتِجُ سلوكًا، ومَحَلُّ هذه المشاعر: عالَمُ النفسِ عَنْد الإنسان، إنَّها عالَمٌ كاملٌ لا نَعْرِفُ عَنْه إلا أَثَارَةً نُحِسُّها فِي أعماقنا، وتَظْهَرُ تارةً على صَفْحَاتِ وجوهِنا، أو على ألسنَتِنا، أو على جوارحنا.

مشاعرُ الرحمةِ والقسوةِ، مشاعرُ العفوِ والانتقامِ، مشاعرُ الذِّلَّةِ والعزةِ، والعدلِ والظلمِ، والأمنِ والخوفِ، والحربِ والسِّلْمِ، والغضبِ والحلمِ، والجُبْنِ والشجاعةِ، والكِبْرِ والتواضعِ، والجَبَرُوتِ واللِّينِ، والهدايةِ والضَّلَالِ، والقَبْضِ والبَسْطِ، والانخفاضِ والارتفاعِ، والتَّجَمُّعِ والتَّفَرقَةِ، والحُبِّ والبُغْضِ، ومَشَاعِرُ الحِقْدِ والغِلِّ، والكراهيةِ والحسدِ، والإحساسِ بالجمالِ والإخلاصِ لِلْمُثُلِ، ومشاعرُ تُفِيضُ بها النَّفْسُ وكَأَنَّها أمواجُ بحرٍ كبيرٍ.

نُسَاءُ فَنَبْكِي، ونُسَرُّ فَنَضْحَكُ، ونُحِبُّ ونُبْغِضُ مَنْ أَحْبَبْنَا، ونرجو ونَيْأَسُ.

إنها النَّفْسُ؛ أَغْمَضُ ما فِي الإنسان.

إنَّ تَجَمُّعَ بُروتِينَاتٍ وإِلِكْتُرُونَاتٍ لا يَكُونُ إحساساتٍ خُلُقِيَّةٍ؛ «وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي».

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)».

إنَّ على الانسانِ أَلَّا يَخْدَع نفسَه؛ فلو فَكَّرَ الإنسانُ بِعُمْقٍ ونَظَرٍ وإنصافٍ مِنْ نفسِه؛ سواءٌ كَانَ عالمًا أو جاهلًا؛ فماذا يَرَى؟!!

إنَّ اللهَ تعالى يُخَاطِبُ الإنسانَ فِي القرآن؛ «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)»، ففي النَّفْسِ آياتٌ كثيرةٌ، كلُّها تُشِيرُ إِلَى أَنَّ اللهَ هو الَّذِي خَلَقَ.

وجودُ النَّفْسِ نفسُه آيةٌ، وكلُّ صفةٍ من صفاتِها الخَيِّرَةِ أو الشِّرِّيرَةِ آيةٌ، وعَدَا هذا ففي النفسِ آياتٌ أخرى تَدُلُّ على أنَّ هذا الكونَ فِيه عجائبُ ليست بِمَادِّيَّةٍ.

إنَّ نشأةَ الحياةِ دليلٌ على اللهِ، وتَعْقِيدَاتُ الحياةِ دليلٌ على اللهِ، وتَنَوُّعُ الأحياءِ دليلٌ على اللهِ، ومَرْكَزُ الإنسانِ فِي هذا الكونِ بِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا دليلٌ على اللهِ.

وفي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ - أَخْلَاقِها وعَجَائِبِها - دليلٌ على اللهِ، وهذا وَحْدَهُ كَافٍ لِتَعْرِفَ به اللهَ؛ فكيف إِذَا اجْتَمَعَ معه ما سَبَقَ ذِكْرُهُ؟!!

وكيف إِذَا اجْتَمَعَ مع هذا وَحْيٌ يَتَنَزَّلُ ومُعْجِزَاتٌ تَتَحَدَّثُ؟!

وكيف إِذَا اجْتَمَعَ مع هذا رُسُلٌ صادقونَ صالحونَ أَتْقِيَاءُ أَذْكِيَاءُ أَزْكِيَاءُ بَرَرَةٌ؟!

فهل يَبْقَى بَعْدَ هذا كُلِّهِ لِكَافِرٍ مِنْ حُجَّةٍ أو سَبِيلٍ إِلَّا حُجَّةَ الْجَهْلِ وسَبِيلَ الْهَوى الْمُؤَدِّي إِلَى الْبَوَارِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ؟!!

أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ الْمُلْحِدِينَ.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«الْمُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

ففي سياق الرد على الملحدين مَرَّ ما يتعلق بالأدلة العلمية العقلية على وجود الرب تبارك وتعالى.

الْعدم لا يخلق شيئًا، العدم الذي لا وجود له لا يستطيع أن يصنع شيئًا؛ لِأَنَّهُ غير موجود، وإذا ما تأملنا فِي المخلوقات التي تولد فِي كل يومٍ؛ من إنسان وحيوان، والتي توجد؛ من نبات وظواهر يجعلها الله عز وجل فِي هذا الكون، وتفكرنا فِي كل ما يحدث فِي الوجود من رياح وأمطار وليل

ونهار، ونظرنا إِلَى ما يجري فِي كل حينٍ من حركات منتظمة للشمس والقمر والنجوم والكواكب، إِذَا تأملنا فِي هذا وغيره من التغيرات المحكَمَةِ التي تجري فِي الوجود فِي كل لحظة؛ فإن العقل يجزم بأن هذا كله لا يمكن أن يكون من صُنْع العدم؛ لأن العدم لا وُجُود له، وإنما هذا كله من صنع الخَالِق الموجود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال جَلَّ وَعَلَا: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)»، فالتفكر فِي المصنوع يدل على وُجُود الصانع؛ بل وعلى صفاته، فكل شيء يوجد فِي المصنوع يدل على قدرةٍ أو على صفةٍ عَنْد الصانع، فلا يمكن أن يوجَد شيء فِي المصنوع إِذَا كَانَ الصانع لا يملك قدرة ولا صفةً مَكَّنَتْهُ من فعل ذَلِكَ الشيء فِي المصنوع؛ فضلًا عَنْ أن يكون هذا المصنوع وُجِدَ بغير صانع.

يعني: أنت إِذَا رأيت بابًا من خشب قد أُتْقِنَ صُنْعُهُ؛ فإنك ستعلم أن الصانع مَلَكَ هذا الخشب، واستطاع أن يقطعه بانتظام وإحكام، وجعله على هذا النحو بابًا من الأبواب، فهو قادر على أن يجعل الخشب أملس، ويملك الأدوات التي يستطيع أن يفعل بها ذَلِكَ، وهو يملك القدرة على تثبيت أجزاءِ هذا الباب بالوسائل الممكنة، وأن لديه علمًا بصناعة هذا الأمر، وله خبرة، فإذا وجدنا ثقبًا منتظمًا فِي الباب مَحَلًّا للمفتاح؛ شهد لنا ذَلِكَ بأن الصانع لديه قدرة على ثَقْبِ هذا الباب بهذه الدقة، وأن لديه إحكامًا فِي عمله، وكَذَلِكَ نجد كل شيء فِي المصنوع يدل على وُجُود صانعه ابتداءً، ويدل على قدرته، ويدل على علمه وعلى إرادته؛ لِأَنَّهُ يخصِّص هذا الممكنَ ببعض وجوهه الممكنة، فلا يمكن أن يوجد شيء فِي المصنوع إلا إِذَا كَانَ الصانع يملك قدرة أو صفة تُمَكِّنُه على صنع ذَلِكَ الشيء.

كذَلِكَ لو أننا تفكرنا فِي المصنوع؛ فإنه يدلنا على بعض صفات صانعه، فمن هنا نعرف أن التفكر فِي المخلوقات يدل على بعض صفات الخَالِق؛ قَالَ ربنا جَلَّ وَعَلَا: «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)

- وتصريفُها: تَقْلِيبُها فِي مَهَابِّهَا، تصريفُها في أحوالها - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)».

إذا تأملنا وتفكرنا فِي المخلوقات؛ فسَتُعْلِمُنا آياتُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيها ببعض صفات الله جَلَّ وَعَلَا؛ «قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

«أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)».

فهذا الخلق دليلٌ مادي على وُجود الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا أردنا أن نبدأ بالأدلة المادية على وُجود الله جَلَّ وَعَلَا؛ فلا بد أن نبدأ بالخلق؛ لِأَنَّهُ الدليل الَّذِي نراه جميعًا أمام أعيننا ليلًا ونهارًا، ونَلْمَسُهُ لأننا نعيشه.

فالبداية هي: أن هذا الكون بكل ما فِيه قد وجد أولًا قبل أن يخلق الإنسان، وتلك قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فِيها، فلا أحد يستطيع أن يقول: إن خلق السماوات والأرض قد حدث بعد خلق الإنسان، بمعنى أن الإنسان جاء ولم تكن هُنَالِكَ أرضٌ يعيش عليها، ولا شمسٌ تُشْرِقُ عليه، ولم يكن هُنَالِكَ ليل ولا نهار، ولا هواءٌ يَتَنَفَّسُهُ، إِلَى غير ذَلِكَ من مفردات هذا الوجود.

الإنسان جاءَ وكلُّ شيء قد أُعِدَّ له قبل أن يجيء - قبل أن يوجد -، بل إن هُنَاكَ أشياءَ أكبرُ من قدرة الإنسان خُلِقَتْ وَسُخِّرَتْ لِتَخْدُمَهُ وتُعْطِيَهُ كل متطلبات الحياة بدون مقابل، وأشياء أخرى خلقت وسخرت للإنسان تعطيه ما يشاء؛ ولَكِنها محتاجة إِلَى جُهد الإنسان وعمله، وذَلِكَ حتى تَتِمَّ عِمَارةُ الْأَرْض؛ فإن الله عز وجل جعل الشَّمْس تشرق على هذا الكون تَمُدُّه بالطاقة، وهي لا تميز بين مؤمن وكافر، ولا بر وفاجر، وإنما هي مسخرة هذا التسخير بأمر الله جَلَّ وَعَلَا.

وكذَلِكَ جعل الله جَلَّ وَعَلَا الْأَرْض مسخَّرةً لِفَلْحِها وزراعتها؛ ولَكِنْ هذا يحتاج إِلَى جُهْدٍ إنسانيٍّ وعمل، فهذا وهذا مسخر، والفرق بينهما ما مر؛ ولَكِن لا أحد يستطيع باستخدام العقل وحده أن يجادل أن هذا الكون قد خلق وأعد لحياة الإنسان قبل أن يُخْلَقَ الإنسان نفسه، فإذا قَالَ الله جَلَّ وَعَلَا لنا: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى

السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)»؛ فلا يستطيع أحد بعد ذَلِكَ أن ينكر أن الكون قد تم خلقه قبل خلق الإنسان؛ فكيف يكون للإنسان عملٌ قبل أن يوجد ويخلق؟!

ثم تأتي الآية، وهي قول الله جَلَّ وَعَلَا: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»، فتأكد أن الكون أعد للإنسان قبل أن يخلق، وهذه قضية يأكدها العقل، ولا يستطيع أحد أن يجادل فِيها، فإذا وصلنا إِلَى هذه المسألة - وهي أن الله سبحانه وتعالى بكمال صفاته وقدرته قد خلق هذا الكون ونظَّمه غير مستعين بأحد من خلقه، ولا محتاجٍ لأحد من عباده -؛ وصلنا إِلَى أننا جميعًا – أي البشر – قد جئنا إِلَى كون مُعَدٍّ لنا إعدادًا كاملًا؛ ولَكِنَّ قدرة هذا الكون لا تخضع لنا ولا لقدراتنا، بل هي أكبر من هذه القدرات بكثير، فالشمس مثلًا أقوى من قدرة البشر جميعًا، وكذَلِكَ الْأَرْض والبحار والجبال.

إذًا؛ فلا بد أن تكون هذه الأشياء قد أُخضِعت لنا بقدرةٍ من خالقها وموجدها، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم تُخْضَعْ لنا بقدرتنا نحن، وإنما بقدرة الَّذِي أوجدها، خلقها لنا قبل أن يخلقنا، فخلق الله السماوات والأرض، وجعل هذا الكون مهيًا للإنسان على هذا النحو، وخلق الإنسان، فلا بد أن تكون قد أُخْضِعَت لنا مِنْ قِبَلِ من خلقها؛ لِأَنَّهُا لا تخضع لنا بقدرتنا نحن، فهي مسخرة لنا، ولا تستطيع أن تعصي أمره.

الشَّمْس لا تستطيع أن تشرق يومًا وتغيب يومًا على حسب هواها؛ لتعطي الدفء ووسائلَ استمرار الحياة لمن تريد وتمنعه عمن تريد.

الهواء لا يستطيع أن يهب يومًا ويتوقف يومًا.

المطر لا يستطيع أن يمتنع عَن الْأَرْض، فتنعدمَ الحياة ويهلكَ الناس.

الأرض لا تستطيع أن تمنع نفسها عَنْ إنبات الزرع.

لا تستطيع البشرية كلها أن تدَّعي أن لها دخلًا فِي خلق هذه الأشياء، ولا فِي مُهَمَّتِها، ولا فِي استمرارِها فِي عملها.

فهذا كله لا يخضع لإرادة البشر، فإذا جئنا إِلَى الإنسان؛ وجدناه هو الآخر لا بد أن يشهد بأن له خالقًا وموجدًا، فلا يوجَد من يَدَّعِي أَنَّهُ خَلَقَ إنسانًا، ولا مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ خلق نفسه؛ ولَكِن

إِذَا جاء بعض الناس فقال: "إن هذا الكون خُلِقَ بالمصادفة"؛ فهو مُقِرٌّ بأن له خالقًا؛ ولَكِنه ضل عَن الحَقّ فِي إثبات الخَالِق، فادعى أن المصادفة هي التي أَوْجَدَت.

إذًا؛ هو يُقِرُّ بأن هذا الكون لا بد له من موجد، ولكنه يقول:"أَوْجَدَت المصادفةُ هذا الكونَ"!!

فيقال لهم: إن المصادفة لا تُنْشِئُ نظامًا دقيقًا كنظام الكون الَّذِي لم يَخْتَلَّ رَغْمَ مرورِ ملايين السنين.

وإذا جاء بعض الْمُلْحِدِينَ ليدعي أَنَّهُ كَانَت هُنَاكَ ذرات ساكنة، ثم تحركت وتكثفت واتحدت...... إِلَى آخر ما يَقُولون؛ فيقال لهم: ومن الَّذِي أوجد هذه الذرات بدءًا؟!

ومن الَّذِي حركها من السكون؟! لأنهم يقولون: "كانت هناك ذرات ساكنة"؛ من الذي أوجدها؟!

ثم يقول: "إنها تحركت وتكثفت واتحدت، فَنَشَأَت الحياة".

فيقال: من الَّذِي حركها؟!

والعقل قاض بأنه لا يمكن أن يوجد متحرك بغير محرك، ولا يمكن أن يوجد موجود بغير موجد، ولا يمكن أن يكون خلق بغير خالق.

فإذا قيل: إن الحياة بدأت بخلية واحدة فِي الماء نتيجةَ تفاعلات كيمياوية...إِلَى آخر ما يَقُولون؛ فيقال لهم: ومن الَّذِي أوجد هذه التفاعلات لتصنع هذه الخلية؟!!

هذه التفاعلات فِيها دقة شديدة، وفيها نظام محكم؛ فكيف كَانَت على هذا النحو؟!

ومن الَّذِي أنشأ هذا؟! فضلًا عَنْ السؤال الأول، وهو: من أوجد هذه الخلايا التي وقعت فِيها تلك التفاعلات؟!

والعاقل لا يَدْخُلُ فِي جدل عقيم مع أمثال هَؤُلَاءِ، وإنما يَقُول لهم: إن من إعجاز الخَالِق: أَنَّهُ أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا، وأنبأنا أن هَؤُلَاءِ مضِلون، أي ليسوا على حق، ولَكِنهم على ضلال، وفي ذَلِكَ يَقُول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)»، فهذا دليل على وُجُود الله، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الخَالِق، وأنه علام الغيوب؛ لِأَنَّهُ أخبرنا عَنْ هَؤُلَاءِ المضِلين قبل أن يوجدوا، فذكر لنا أن هَؤُلَاءِ سيقولون كلامًا على هذا النحو الَّذِي مر من ذَلِكَ الكلام الفارغ الَّذِي يأتي به الْمُلْحِدُونَ.

إذا جاء بعضُ المضللين لِيُضِلَّ النـاسَ بنظريات كاذبة عَنْ أصل خلق الإنسان، فيدعي – مثلًا – أن الجد الأعلى للإنسان فِي آخر مراحل التطور الإنساني إنما هو القرد!!

فيقال له: أصله قرد؛ فمن الَّذِي أوجد القرد الأول؟!!

وكذَلِكَ من الَّذِي أوجد الشجرة الأولى؟!!

إنَّهُ الله، فلا أحد يستطيع أن يدعي أَنَّهُ خلق الشجرة الأولى أو أوجدها من عدم، وهذا الدليل ذكره الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ على صورة أخرى، لما قال الأعرابي والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ينفي العَدْوَى، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إن الإبل تكون في الرمال كالظِّبَاء، فيدخل بينها أو فيها الجمل أو البعير الأجرب فيُجْرِبُهَا؟ يريد أن يثبت العدوى التي نفاها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟».

يعني: أنت الآن تريد أن تقول: إن هذه الإبل لما أصابتها العدوى؛ إنما انتقلت إِلَيْهِا من هذا البعير الأجرب، فَلْنَتَسَلْسَلْ فِي هذا:

هذا البعير الأجرب من أجربه؟

سيقول: بعير أجرب كَانَ قبله.

والَّذِي قبله؟ إِلَى أن نصل إِلَى أول بعير على ظهر الْأَرْض أصابه الجرب، من أجربه؟

قال: فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟ صلى الله وسلم وبارك عليه.

وكذَلِكَ أنت إِذَا ما انتقلت إِلَى أنواع الموجودات: الثمرة الأولى من كل فاكهة، حبة القمح الأولى، شجرة القطن الأولى؛ من الَّذِي أوجد هذه المسائل والأشياء أول مرة؟

إنك تجد هذه وغيرَها من كل ما تنتجه الْأَرْض، إنما هو من خلق الله جَلَّ وَعَلَا، خلقه الله عز وجل خلقا مباشِرًا، ثم بعد ذَلِكَ استمر وُجُودها بالأَسْبَاب التي خلقها الله عز وجل فِي الكون وهي من خلقه، فالخلق كله له.

وهذه الأمور المبتَدَأة أول مرة؛ من الَّذِي أنشأها؟

أنشأها الله رب العالمين، ثم جعل لها أَسْبَابًا فِي استمرارها فِي هذا الوجود.

قد يقال مثلًا: إنَّ هُنَالِكَ تَهْجِينًا أو تحسينًا أو خلطًا بين الأنواع لِتُنْتِجَ نوعًا أكثرَ جودة على حسب قواعد الهندسة الوراثية كما هو فِي هذا العصر.

فيقال: هذا كله لا ينفي أن الثمرة الأولى مخلوقة خلقًا مباشرًا من الله.

قد يدعي بعض الْعلماء أَنَّهُم حَسَّنوا أو استنبطوا أنواعًا جديدة.

فيقال لهم: هذا لا ينفي الوجود الأول من الله جَلَّ وَعَلَا، وإنما هم استخدموا ما خلق الله من الْعِلْم المتاح لهم من الله فِي كل ما فعلوه، ولَكِنَّ أحدًا لا يستطيع أن يدعي أَنَّهُ أوجد أي شيء فِي الْأَرْض من عدم، فكل هذه الاكتشافات الْعِلْمية هي من موجودٍ، ولا يوجد اكتشاف علمي واحد من عدم، وفي هذا أَيْضًا وجه من وجوه الرد على الَّذِينَ فُتِنوا أو ضلوا بِسَبَب الاستنساخ؛ لِأَنَّهُم قَالوا: "إن الاستنساخ كَأنه خَلْقٌ، وقد عرفنا سِرَّ الخلق"، فهم يأخذون خلية من الخلايا –ولو كَانَ من ميتٍ مات من عشرات السنين –، ومن معالجات معينة يتم التعامل مع هذه الخلية، ثم بعد ذَلِكَ يمكن أن يزرع ما هُنَالِكَ فِي رحم المرأة إِلَى أن يتم وضعها، كما حدث فِي النعجة دُلِّي، وكما وقع فِي بعض الأجنة الإنسانية، إِلَى غير ذَلِكَ، وفتن الناس فتنة عظيمة، وقالوا: لقد عُرِفَ سِرُّ الخلق !!

أين هي المعرفة بسر الخلق؟!!

أنت أخذت ما خلقه الله، فجعلتَه فِي الظروف التي خلقها الله، وبالأدوات التي خلقها الله، وغَذَّيْتَ ذَلِكَ بالغذاء الَّذِي خلقه الله، إِلَى أن وصلت إِلَى خلق الله؛ فأي خلق هذا؟!!

ولَكِن دع هذا كله جانبًا، واخلق من العدم كائنًا، فهذا لا يستطاع، وإنما أنت تأتي بما خلق الله لتتعامل معه بالْعِلْم الَّذِي جعله الله فِي رأسك، وهو من خلق الله جَلَّ وَعَلَا فِي أحوالٍ نَظَّمها الله رب العالمين، وبأدوات خلقها الله رب العالمين، ثم بعد ذَلِكَ تقول: إن هذه فتنة؟!! ليست بفتنة، وإنما هذا كله تعاملٌ مع خلق الله رب العالمين.

لو أننا انتقلنا من النبات إِلَى الحيوان؛ فكل الحيوانات والطيور والحشرات بَدَأَت بخَلْقٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وبخلقٍ من ذكر وأنثى، وهذه هي بداية الخلق جميعًا، ولا يستطيع أحد أن يَدَّعِيَ أَنَّهُ خَلَقَ من عدم ذكرًا وأنثى من أي نوع من النبات أو الحيوان.

الله عز وجل لفت أنظارنا وعقولنا إِلَى هذا الأمر الكبير فِي القرآن الكريم، فقال: «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ»؛ بل إِنَّهُم يَقُولون: إن الزوجية موجودة على جميع المستويات، حتى فِي الذرة، ففي الذرة كهيرب سالب وشحنة موجَبة تكون فِي النواة، فإذا زاد عدد الكهيربات السالبة؛

زاد ما يقابلها أَيْضًا من هذه الشحنات الموجبة فِي أنوية الذرات، فقالوا: الكون كله مبني على الزوجية، ثم قَالَ بعض أهل الْعِلْم: إن ذَلِكَ يدلنا على أن الله رب العالمين وحده هو الواحد الأحد، وأما جميع الخلق؛ فجعله الله زوجين زوجين؛ «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ»، حتى على مستوى الجمادات بهذا النحو الَّذِي مر ذكره.

لم يأت أحد من المخترعين ليقول لنا: إِنَّهُ أوجد شيئا من عدم، أو أَنَّهُ خلق ذكرًا وأنثى من أي شيء من الموجودات فِي هذا الكون، وما أكثرَ الموجوداتِ فِي كون الله جَلَّ وَعَلَا.

لم يحدث هذا، ولن يحدث أبدًا.

وهنا تأتي حقيقة قرآنية عظيمة تتحدى الخلق أجمعين؛ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣»).

هذا هو التحدي الإلهي الَّذِي سيبقى قائمًا إِلَى يوم القيامة.

لن يستطيع علماء الدنيا مهما بلغوا - ولو اجتمعوا - على أن يخلقوا ذبابة.

وضرب الله تبارك وتعالى المثل بالذبابة وهي مخلوق محتقَر؛ ليدل على عجز هَؤُلَاءِ الناس؛ بل إن الأمر ترقى فِي التحدي إِلَى ما هو أعلى من ذَلِكَ، فإن الله عز وجل أسقط عَنْهُمْ الأمر بالتحدي هاهنا فِي مسألة الخلق، فقال: «وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣»)، فإن الطِّيبَ الَّذِي كَانوا يضعونه على آلهتهم كَانَ الذباب يحط عليه؛ لِيَمُصَّهُ بِخَرَاطِيمِه، فتحداهم الله رب العالمين أن يستنقذوا هذا الطيب من الذباب الَّذِي استلبه منهم؛ «وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣»)، فهذا التحدي الإلهي الَّذِي سيبقى قائمًا إِلَى يوم القيامة لن يستطيع علماء الدنيا – ولو اجتمعوا – أن يواجهوه، ولا أن يقبلوه؛ لِأَنَّهُم – ولو اجتمعوا – لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابة.

لقد وصل الإنسان إِلَى القمر – كما قيل -، وقد يصل إِلَى الْمَرِّيخ كما يحاولون، وقد يتجاوز ذَلِكَ، كل هذا بابُ الاحتمالات فِيه مفتوح؛ ولَكِنَّ الإنسان مع هذا التقدم التقني الْعَظِيم سيظل عاجزًا عَنْ خلق ذبابة!!

فيا أيها الَّذِينَ صنعتم ما صنعتم، واخترعتم ما اخترعتم، وجاوزتم ما جاوزتم فِي أجواز الفضاء، وغُصْتُم فِي الماء، إِلَى غير ذَلِكَ مما وصلتم إِلَيْهِ؛ لن تستطيعوا أن تخلقوا ذبابة ولو اجتمعتم على خلقها، فالله رب العالمين لن يعطي أحدا القدرة على الخلق؛ لأن الخلق لله رب العالمين وحده، ولا أحد يمكن أن يخلق شيئًا من العدم مهما صَغُرَ شأنه، حتى ولو كَانَت ذبابة، وهذا من إعجاز الله؛ لِأَنَّهُ وحده الَّذِي خلق كل شيء، والْعِلْمُ كاشفٌ لقدرات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْأَرْض؛ ولَكِنه ليس موجدًا لشيء، ولِذَلِكَ يَقُول القرآن الكريم: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ»، فمهما حاول الناس فإنما يحاولون فِي هذه البابة، وهي أن يكتشفوا أسرار الله عز وجل فِي كونه، أما أن يخلقوا – ولو ذبابة -؛ فهم عَنْ ذَلِكَ فِي أَقْمَإٍ وأَحَطِّ وأحقر درجات العجز؛ لأن هذا لا يكون بحال أبدًا.

فيَثْبُتُ لنا بالدليل العقلي وبالقرآن الكريم بالدليل النقلي - أن الله وحده هو خالق كل شيء، وأنه تعالى على كل شيء قدير.

وتلحظ شيئًا آخر، وهو ما يتعلق بقدرة الله رب العالمين الطليقة، فمظاهر طلاقة هذه القدرة هي المعجزات التي تخرق النواميس؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى جعل السنن الإلهية قائمة فِي كونه؛ ولَكِنها مطردة إلا إِذَا خرقها الله رب العالمين بآية – أي بمعجزة - يؤيد بها رسله وأنبياءه، فأنت تعلم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى جعل قانون الماء على الاستطراق، فهذا الاستطراق من قانون الماء، وهذا هو القانون الَّذِي هو من سنن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هذا الخلق فِي الْأَرْض؛ ولَكِنه يُخْرَق، فيضرب موسى البحر بعصاه، فيجد طرقًا بعدد الأسباط، ثم يكون الماءُ قائمًا والطريقُ يابسًا، وتَجِدُ هذا كلَّه حتى يَعْبُرَ موسى وقومُه، فإذا ما أتى فرعون وملأه، فدخلوا حيث دخل موسى؛ عاد الماء إِلَى قانونه، فأُطْبِقَ عليهم فأهلكهم.

القمر جعله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى – وهو آية سماوية – على النحو المعروف؛ ولَكِنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشير إِلَيْهِ، فينفلق إِلَى شقين، ويكون الجبل بينهما، فإذا كل شق على جانب من جانبي جبلِ أبي قُبَيْس، يشاهدون ذَلِكَ ويرصدونه فِي الهند؛ لِأَنَّهُ وجد فِي بعض آثارهم ما يرجع إِلَى أَنَّهُم رصدوا فِي ليلة كذا من سنة كذا بتقويمهم ظاهرةً غريبةً جدًا وقعت للقمر فِي السماء، وهو انشقاقه، فإذا قوبل ذَلِكَ بالتاريخ الَّذِي كَانَ فِيه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

داعيًا للناس إِلَى دين الحَقّ؛ وُجِدَ ذَلِكَ متطابقًا؛ ولَكِنَّ ناموسَ هذا المخلوق والجِرْمِ السماوي ليس على هذا النحو، وطلاقة القدرة هاهنا تَدُلّك على أن وراءها إلهًا قادرًا مريدًا حكيمًا فاعلًا، لأن اضطراد السنن يُنْسِي أحيانًا مَنْ سَنَّها؛ كاطِّرادِ النِّعَمِ يُنْسِي أحيانًا مَنْ أَنْعَمَ بها، فإن الإنسان إِذَا ما عان العافية؛ فإنه لا يتذكر المرض، والنعمة التي ينعم الله عز وجل بها على الإنسان من إلف عادته لها لا يحس بها، فالمرء إِذَا كَانَ صحيح البصر؛ فإنه لا يحس أن له عينين، ولَكِنه إِذَا ما أصيب ورَابَهُ من بصره شيء؛ فحينئذ يعرف أن الله قد خلق له عينين.

القلب الإنساني يدق منذ المرحلة الرَّحِمِية الجَنِينية، والكائن الإنساني ما زال فِي مرحلة التخلق فِي رحم أمه جنينًا بعد، فيبدأ القلب فِي مراحل التكون والتخلق فِي الرحم؛ يبدأ فِي الدق، والأطباء عَنْد فحص المرأة يسمعون ذَلِكَ، وقد يُكَبِّرُونه حتى يسمعه من كَانَ حاضرًا، فيَسْمع دقات قلب الجنين فِي رحم أمه، ثم إِذَا ما دفعته إِلَى هذه الحياة فبقي فِيها قرنًا من الزمان مثلًا؛ فقلبه يدق لا يتوقف، لو توقف مات، ولَكِنه ربما يحيا قرنًا من الزمان ولا يحس أن له قلبًا، لا أعني أن له قلبًا من الناحية الروحية ولا من ناحية الخشوع، ولَكِن من الناحية العضوية، فإذا ما آلمه منه شيء أو اعتل هذا العضو فِي جسده؛ حينئذ يتذكر أن له قلبًا، فكذَلِكَ ما يحدث فِي كون الله من هذه السنن المطردة.

الشمس تشرق، ثم تغيب من المشرق إِلَى المغرب، وكذَلِكَ ما يكون من الليل والنهار، وكذَلِكَ ما يكون من البحار والأنهار، إِلَى غير ذَلِكَ من هذه الأمور، إِلْفُ الإنسان لها يُنْسِيه خالقها، يُنْسِيهِ مَنْ سَبَّبها، فإلف الإنسان للسبب ينسيه المسبِّبَ، وهذا من الخلل الكبير من الناحية العقلية ومن الناحية الشرعية، فعلى الإنسان دائمًا أن يتأمل فِي هذا.

جعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى طلاقة القدرة نافذة فِي أمثال هذه الظواهر المألوفة فِي كونه، وأجرى على أيدي أنبيائه ورسله آيات أو معجزات لتدل على صدقهم.

جعل الله رب العالمين من هذه السنن: أَنَّهُ إِذَا التقى الذكرُ والأنثى؛ كَانَ بينهما ولد، ولَكِنَّ هذا ليس بمطرد، فالله عز وجل يَلْفِتُنا إِلَى هذا بقوله: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا

وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا أَنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠»)، فيلتقي الذكر والأنثى ولا يكون بينهما ولد؛ «وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا»، وهذا من بعض الحكمة التي يستجليها كثير من أهل الْعِلْم فِيما تجده فِي الخلق من بعض الأمور التي تختل فِيها أعضاؤهم الظاهرة، فإنك ترى بعض الناس على صفة معينة من حيث الخلق، ويعجب الإنسان من هذا، يقول: أهذا الكائن؛ وبعض الناس يتفلسف في هذا فيقول: ما ذنبه إذ وُلِد بغير يدين، أو ولد أكمه لا عين له، إِلَى غير ذَلِكَ من هذه الأشياء!!

أنت عندما تنظر إِلَى هذا؛ تعلم أن ما تراه من السنة المطردة فِي الخلق على ما خلقهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه ليست فاعلةً بذاتها، وليست بمحض عملية طبيعية تكون من التقاء الذكر بالأنثى مع ما يكون فِي الرحم، ثم يدفع الرحم ما فِيه، فيأتي هذا الكائن الإنساني على هذا النحو، وإنما يتوقف هذا الاطراد أحيانًا، فتجد أمثال هذه الأمور، فإذا رأى الإنسان ذَلِكَ قَالَ: "الحمد لله الَّذِي عافاني مما ابتلى به غيري، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا"؛ لِيُخْرِجَ الإنسانَ قَسْرًا من إِلْفِ العادة فِيما يتعلق بأعضائه وصحته إِلَى معرفة أن هذا من محض النعمة والفضل عليه؛ لأن الإنسان إِذَا رأى مبتلى؛ فإنه يَقُول: "صَحَّحَ الله لي نظيرَ ما ابْتُلِيَ هذا به"، فيحمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على ما أنعم عليه به.

وأما إِذَا ما كَانَ الأمر مطردًا فِي الجميع؛ فإن ذَلِكَ يكون أدعى لنسيان نعمة الله على العبد؛ لإلف العادة فِي هذه الأمور المنعَمِ بها.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل فِي قوانين الأَسْبَاب أَنَّهُ متى تزوج الذكر والأنثى يأتي الولد، ولَكِن أبقى لنفسه سبحانه طلاقة القدرة، فجعل هُنَاكَ ذكرًا وأنثى يتزوجان أعوامًا طويلة ولا يُرْزَقَانِ ولدًا، فمع قوانين الأَسْبَاب كَانت هُنَاكَ أَيْضًا الإرادةُ الحازمة، وطلاقةُ القدرة لم يجعلها الله رب العالمين عامة، بل جعلها فِي أمثلة قليلة؛ لِتَلْفِتَنَا إِلَى طلاقة قدرته؛ «وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا»، فحتى لا نحسَبَ أننا نعيش بالأَسْبَاب وحدها، ولا تجد هذا فِي الإنسان وحده؛ بل إِنَّهُ لَيَمْتَدُّ لِيَشْمَلَ جميعَ الخلق فِي جميع أوجه الخلق فِي هذا الوجود.

الأصل فِي الإيجاد من ذكر وأنثى؛ ولَكِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بطلاقة القدرة خلق إنسانًا بدون ذكر أو أنثى، وهو آدم عليه السلام، وخلق خلقًا بدون أنثى، خلق من ذكر بدون أنثى، فخلق

من آدم زوجه، فجعلها مخلوقة من ذكر بلا أنثى، خلقها من ضِلَعِهِ كما قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، وخلق الله رب العالمين إنسانًا من أنثى بلا ذكر، وهو عيسى بن مريم عليه السلام، فهذا كله يدلنا – مع أَنَّهُ قد حَدَثَ مرة بعد مرة – على أن الأمر ليس مطردًا، هذا من خلق الله، فإذا شاء أن يُخَالَفَ هذا القانونُ المطرد؛ خولف.

إن الله عز وجل بدأ خلق آدم من طين، من تراب، من صلصال، من حمإ مسنون، ونفخ فِيه من روحه، فخلق آدم من غير وساطةِ ذكر ولا أنثى، ثم خلق من آدم زوجه، فخلق أنثى من ذكر على هذا النحو بلا أنثى، فخلق حواء من ضِلَعِ آدم، وخلق الله رب العالمين عيسى من مريم بغير واسطةِ ذكرٍ، فخلق أَيْضًا من أنثى بلا ذكر، كما خلق من ذكر بلا أنثى، كما خَلَقَ مِنْ لا ذكرَ ولا أنثى، ثم يأتي عامة الخلق الإنساني من ذكر وأنثى.

فهذا يَلْفِتُنا إِلَى أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه ليس لقدرته من حَدٍّ تقف عَنْده ولا قيدٍ يقيدها، فهي قدرة طليقة بلا قيد ولا حد.

الله عز وجل خالق الأَسْبَاب، وقدرته تبارك وتعالى فوق الأَسْبَاب، فالله يفعل ما يشاء.

لو نظرنا إِلَى المطر – مثلًا -؛ لوجدناه سبحانه قد جعل فِي الكون مناطق ممطِرة، ومناطق لا ينزل فِيها المطر، ثم كشف الْعلماء من علم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما جعلهم يضعون خريطة للأسباب تحدد المناطق الممطرة والمناطق التي لا مطر فِيها؛ ولَكِنْ قد يحدث العكس فِي بعض الأحيان؛ ليوجهنا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى طلاقة القدرة، وإِلَى أن الماء الَّذِي ينزل من السماء ليس خاضعًا للأسباب وحدها؛ ولَكِنَّ الَّذِي يحكمه هو إرادة الله رب العالمين على حسب علمه وحكمته؛ حتى لا نعتقد أننا أخذنا الدنيا وملَكناها بالأَسْبَاب، ولَكِن نعرف أن هُنَاكَ طلاقة قدرة الله سبحانه الَّذِي يسبب ما يشاء، ويغير ما يشاء، ويبدل ما يريد، وهو على كل شيء قدير.

فالْعلماء الآن فِيما يعرف بالأرصاد وغيرها يَقُولون: نحن نتوقع – إن شاء الله – على حسب الصور الأقمار الصناعية، وعلى حسب الخرائط الفلكية الجغرافية، إِلَى غير ذَلِكَ من وسائلهم؛ أن يوم كذا سيقع فِيه كذا، ثم لا يقع، وأحيانًا يقع، وهذا ليس من باب التنبأ فِي شيء، ولا من باب التدخل فِي خلق الله رب العالمين فِي شيء، ليس هذا من التنجيم؛ لِأَنَّهُ مبني على قواعد

الحساب التي تَوَصَّلَ إِلَيْهِا هَؤُلَاءِ بحسب علمهم؛ ولَكِنِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يفعل ما يريد، وأنت تعلم أَنَّهُ قد قيل: إن الأمس مثلًا كَانَت درجة الْحَرَارَة ستصل إِلَى درجتين مأويتين، يعني فوق درجة الصفر المأوي بدرجتين، ولم يقع من ذَلِكَ شيء، بل كَانَ الجو محتمَلًا ولطيفًا أو دافئًا أو ما شئت؛ لأن الله فعال لما يريد، الناس يستعملون علمهم؛ ولَكِنَّ علمهم ليس بحاكم على قدرة الله، الله فعال لما يشاء.

كذَلِكَ عَنْدما ندرس الكون؛ نرى فِيه هداية كاملة من أصغر ذراته إِلَى أكبر أجرامه، من أبسط أشكاله إِلَى أعقد مظاهره؛ فما هو تعليل ذَلِكَ؟

كيف وجد ذَلِكَ؟

وكيف استمر؟

وكيف ثبت؟

هُنَالِكَ جواب واحد يقدمه العقل على ذَلِكَ، وهو وُجُود ذاتٍ هاديةٍ، وُجُودُ الله.

لا يمكن أن يعلَّل مثل ذَلِكَ إلا بوجود الله تبارك وتعالى العليمِ الحكيمِ القديرِ، الَّذِي هو سبحانه وتعالى يريد ما يشاء، ويفعل بما يريد.

لو أنك – مثلًا - نظرت إِلَى ثعبان الماء: متى اكتمل نموه؟ هاجر من مختَلَفِ البِرَكِ والأنهار قاطعًا آلاف الأميال فِي المحيط، قاصدًا إِلَى الأعمال السحيقة جنوبِ بَرْمُودَا، حيث ملتقى ثَعَابِينِ الماء فِي كل أنحاء العالم، فتبيض الإناثُ وتموت، وأما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة تتعرف بها على أي شيء سوى أَنَّهُا فِي مياه غريبة؛ فإنها تعود أدراجَها مرة أخرى؛ كيف؟ تجد طريقها إِلَى الشاطئ الَّذِي جاءت منه أمهاتها، ومِنْ ثَمَّ إِلَى كل نهرٍ أو بُحَيْرَةٍ أو بِرْكَةٍ صغيرة، ولذا يظل كل جسم من الماء آهِلًا بثعابين البحار، ولم يحدث قط أنْ صِيدَ ثعبانُ ماءٍ أمريكيٌّ فِي المياه الأوروبية – مثلًا -، لم يدخل فِي المياه الإقليمية الأوروبية ثعبانٌ أمريكي، ولم يخترق هذا السياج؛ من الَّذِي دل هذا على هذا؟!!

ومن الَّذِي علمه؟!!

ومن الَّذِي أرشده؟!!

الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عامًا فِي ولايةِ «يُوإنجِلَانْدَ» يغادر شقوقه تحت الْأَرْض، حيث عاش فِي ظلام مع تغير طفيف فِي درجة الْحَرَارَة، ويظهر بالملايين فِي الرابع والعشرين من مايو من السنة السابعة عشرة من عمره تمامًا، بحيث يَضْبِطُ مواعيدَه للظهور فِي اليوم تقريبًا – أي فِي ذَلِكَ اليوم – بهداية يعجز الإنسان عَنْها لو أَنَّهُ استعمل التقويم.

خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض دون حضَّانة الدجاج؛ بأن يضع البيض فِي نفس الْحَرَارَة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض، ووضعه فِي جهاز التفريخ؛ نصحه فلاحٌ أُمِّيٌّ أن يُقَلِّبَ البيض؛ لِأَنَّهُ رأى الدجاجة تفعل ذَلِكَ، فسخر منه العالم، وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل من البيضة حرارة جسمها التي حُرِمَتها، وأما هو؛ فقد أحاط البيضَ بجهاز يَشِعُّ حرارة ثابتة لكل أجزاء البيض.

استمر العالم فِي عمله حتى جاء دور الفَقْسِ، وفات ميعاده ولم يخرج فرخٌ واحد، ولا فَقَسَت بيضة واحدة، فأعاد التجربة آخذًا بنصيحة الفلاح، أو بالأحرى: أراد أن يقلد الدجاجة، فصار يقلب البيض حتى إِذَا وَاتَى ميعادُ الفَقْسِ؛ خَرَجَت الفَرَارِيجُ.

ما هو التعليل الْعِلْمي لهذا؟

آخِر تعليل علمي لتقليب البيض – وهو ما تقوم به الدجاجة – أن الفرخ حينما يخلق فِي البيضة؛ ترسب المواد الغذائية فِي الجزء الأسفل من جسمه، فإذا بقي بدون تحريك لأوعيته؛ أدى ذَلِكَ إِلَى هلاكه، فالدجاجة لا تقلب البيض لِذَلِكَ لا فِي اليوم الأول ولا فِي اليوم الأخير؛ فمن الَّذِي عَلَّمها؟!

هذه الهداية الكاملة في عملية بناء هذه العمليات المعقدة التي تؤدي إِلَى بقاء الأجناس المختلفة فِي الْأَرْض في الدجاج، بقي بهذه العملية الدجاج فِي العالم؛ لِأَنَّهُ يعلم تمامًا ما ينبغي أن يفعله، الدجاج يعرف تمامًا ما ينبغي أن يفعله، وما فعلته الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج فِي الْأَرْض؛ من أين أتت به؟!

ومن الَّذِي عَلَّمها؟!

لو أنك نظرت إِلَى ترتيب الأذن فِي الإنسان وفي عدد من الحيوانات الأخرى؛ فلا يمكن أبدًا لأي عاقل أن يتصور حدوث ذَلِكَ عَنْ طريق المصادفة، للأذن طبلة تستقبل الموجات الصوتية،

فتتذبذب تلك الطبلة، هذه الذبذبات تؤثر فِي ثلاث عظام دقيقة مرتبة ترتيبًا معينًا، والضغط على جانبي الطبلة ينبغي أن يكون متساويًا، لهذا الغرض تمتد أنبوبة خلف الطبلة تُوصِلُ إِلَى تجويف الأنف؛ لكي يكون هُنَاكَ تعادل بين الضغط فِي الجانبين – أي فِي جانبي الطبلة -، لِذَلِكَ إِذَا ركبت الطائرة واختلف ضغط الهواء؛ يقال لك: افتح فمك، تنفس من فمك، وإلا طارت الطبلة؛ لأن الضغط يكون شديدًا، ولا يكون الضغط خلف غشاء الطبلة من الداخل مساويًا للخارج، فمع الضغط يمكن أن يطير، فيقول لك حينئذ: تنفس من فمك؛ لكي تعادل الضغط فِي الداخل مع الضغط على الطبلة طبلة الأذن من الخارج.

فهُنَالِكَ أنبوب خلف الطبلة يوصل إِلَى تجويف الأنف، ويصل بالجزء الداخلي للأذن عظمة تشبه القوقعة فِي شكلها، وظيفتها تحليل الصوت، وهي تؤدي وظيفة أخرى هي مسألة الحفظ على التوازن، ولِذَلِكَ الَّذِينَ يدورون يدورون؛ يختل هذا السائل الَّذِي يحفظ التوازن فِي القوقعة فِي الأذن الداخلية، فإذا ما اختل؛ لا يستطيع هو أن يحفظ توازنه، وهذا يفعله الصبيان أو الغلمان أو الأطفال عَنْدما يدورون، ثم لا يستطيع الواحد منهم أن يحفظ توازنه؛ من أجل أن هذا السائل حدث له اختلال؛ لِأَنَّهُ مثلُه - لا أقول هو مثل؛ بل مثله - ميزان الماء.

تتميز الأنغام المختلفة على حسب الذبذبات عَنْد نقلها إِلَى المخ من أجل التفسير، هذا يفسَّر صوتًا، وأنت تعرف صوت فلان من فلان وأصواتَ المخلوقات بعضَها من بعض، كيف تُرْجِمَتْ هذه الاهتزازات إِلَى شيء أنت تسمعه وتدركه؟

وكذَلِكَ هذا الضوء عَنْدما ينعكس على الأشياء، ثم يأتي إِلَى العين، ويُنْقَلُ عَنْ طريق العصب البصري إِلَى مركز الترجمة فِي المخ، وفيه أَيْضًا تكبير؛ لأنك خبير بأنك إِذَا رأيت جملًا؛ فعينك صغيرة، ومُخُّكَ ليس بحجمِ الجمل، يعني كلما رأيت شيئًا يكون مُخُّكَ مثلَ ما رأيت؟!

فكيف تعطيه أنت نسبة التكبير التي تجعله على حقيقته؟!

هذا تفسيره فِي المخ، فأنت ترى الأشياء على حقيقتها، مع أَنَّهَا عَنْدما تُنْقَلُ؛ تنقل مقلوبة، فإذا ما ذهبت إِلَى مركز الترجمة فِي المخ لكي يعيدها إِلَى أصلها؛ أعادها إِلَى وضعها الأصلي، وأعطاها حجمها الأصلي.

هذا كله إنما هو مؤثرات تتعلق بالضوء، وكل الخلايا العصبية جعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لها مؤثراتها، فأنت – مثلًا - إِذَا ما ضغطت فجعلتَ المؤثر هاهنا هو الضغط على الأذن؛ سمعت صوتًا، وكَذَلِكَ إِذَا ضغطت على العين؛ فإنك ترى نجومًا، فيتحول الضغط هاهنا من مؤثر هو الضغط إِلَى ما يستجيب له هذا العضو من المؤثرات وهو الضوء، فإذا ضغطت على عينك؛ رأيت النُّجُوم فِي عز الظهر، وكَذَلِكَ إِذَا ما ضغطت على أذنك؛ فإنك تسمع وَشًّا كما يَقُولون؛ فهذا كله من المصادفة؟!!

هذا كله من لا شيء؟!!

هذا كله خلقه الإنسان بنفسه لنفسه؟!!

تنتقل الذبذبات بعد ذَلِكَ عَنْ طريق الأعصاب إِلَى مركز السمع بالمخ؛ ليدرك الإنسان أو الحيوان سماع الأصوات المختلفة بعضِها عَنْ بعض؛ هل يمكن أن يحدث كل هذا فِي وقت واحد عَنْ طريق المصادفة؟!!

نظرية الاحتمالات فِي العلوم الرياضية تنفي المصادفة هاهنا نفيًا قاطعًا، وتَحْدُثُ فِي الكائنات الحية أشياءُ عجيبةٌ جدًا، وهي لا تعد ولا تحصى، فما كشفه الإنسان منها وما وصل إِلَيْهِ لا شيءَ بالنسبة لحقيقة وُجودها، وهذه كلها تَدُلّ على وُجُودِ مَنْ رَتَّبَ وقَدَّرَ لاستمرار بقاء الكائنات.

هُنَاكَ أمور تَحْدُثُ - مثلًا - لِدِيدَانِ الفِلَارْيَا، وهذه الديدان إِذَا أصيب بها الإنسان؛ سببت له مرضًا يقال له «مرض الفيل»، سببها ديدان الفلاريا هذه.

هذه تَغِيضُ فِي طورها الكامل فِي الأوعية اللِّنفَاوِيَّةِ والغُدَدِ اللنفاوية للإنسان، وتسد الأوعية اللنفاوية، فتسبب تضخم بعض الأعضاء، وعلى الأخص ما يحدث فِي الساقين أو فِي إحداهما، حتى تصبح ساق الإنسان فِي حجم ساق الفيل، ولِذَلِكَ قيل له: «داء الفيل»، أو «مرض الفيل».

تتزاوج هذه الديدان فِي أثناء وُجُودها داخل الأوعية اللنفاوية للإنسان، وتنتج ديدانًا صغيرة تنتقل من الأوعية اللنفاوية إِلَى الأوعية الدموية، وإذا بقيت هذه الديدان فِي الأوعية الدموية للإنسان؛ فإنها تعجز عَنْ إتمام دورة حياتها، إذ لا بد لها من أن تنتقل إِلَى جسم بعض أنواع البعوض؛ لكي تتم تلك الدورة، ولكي تصبح قادرة على عدوى الإنسان، فإذا امتصت البعوضة

دم إنسان مصاب؛ فإنها تمتص مع الدم عددًا من هذه الديدان الصغيرة التي تنمو داخل جسم البعوضة حتى يكتمل نموها فِي دورة حياتها، وتصبحُ قادرة على عدوى الإنسان إِذَا حقنتها البعوضة فِي دمه فِي أثناء عملية امتصاصها لدم الإنسان الَّذِي تتغذى عليه.

وما الَّذِي يجعلها تحقنها فِي دمه؟

لِأَنَّهَا تُفْرِزُ مادةً تَحْقِنُها فِي دم الإنسان حيث لدغته؛ من أجل ألا يتجلط الدم، فكَذَلِكَ تصنع البعوضة، فحينئذ يكون ذَلِكَ الطور من أطوار حياة تلك الدودة جاهزًا لإصابة الإنسان.

حاول الْعلماء الحصول على هذه الديدان من دم المصابين بهذا المرض؛ ولَكِنَّ جميع محاولاتهم كَانَت تبوء بالفشل، إِلَى أن وقع شيء عجيب :

فِي إحدى الليالي كَانَ أحد الْعلماء ساهرًا فِي معمله حتى ساعة متأخرة من الليل، فأخذ عَيِّنَةً من دم إنسان مصاب بتلك الديدان، وفحصها تحت المجهر، فوجئ بعدد هائل من هذه الديدان فِي العينة التي أخذها، فِي أثناء النهار فِي اليوم التالي أخذ عينة من المصاب نفسه، فلم يجد للديدان أثرًا، احتار فِي تفسير هذه الظاهرة العجيبة؛ لماذا توجد هذه الديدان فِي عينة الدم التي أخذها من المصاب ليلًا، ولا تظهر إِذَا أخذها نهارًا؟

ثم اتضح بعد ذَلِكَ أن تلك الديدان الصغيرة تهرب إِلَى الأوعية الدموية الداخلية فِي أثناء النهار، ثم تعود إِلَى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد فِي أثناء الليل، والحكمة فِي ذَلِكَ: هي أن البعوض الَّذِي يتغذى على دم الإنسان فِي هذه الأماكن لا ينشط إلا فِي أثناء الليل، ولذا فإن الديدان تنتقل إِلَى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد؛ لكي يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم؛ لِتُتِمَّ دورةَ حياتها داخل جسم البعوضة.

فهذه الديدان قطعًا لا تدرك شيئًا من هذا ولا تعلمه، ولا تعلم شيئًا عَنْ البعوضة التي ستُتم دورة حياتها داخل جسمها، بل تفعل هذا عَنْ غريزة وتوجيه وهداية من الله جَلَّ وَعَلَا.

إذًا؛ هُنَالِكَ سبب وراء ذَلِكَ، وهذا السبب خالق خلاق عليم قدير فعال لما يريد.

ومن العجيب: أَنَّهُ فِي الأماكن التي تنشط أنواع البعوض التي تمتص الدم فِيها نهارًا ولا تنشط ليلًا، تجد أن الديدان تفعل العكس، فتبقى فِي الأوعية الدموية الداخلية ليلًا، وتهاجر إِلَى الأوعية الدموية نهارًا؛ ليتمكن البعوض فِي هذه الحال من امتصاصها مع الدم، فهذا

بعوض نهاري، فتتعرض هي له، تتبرج له بتعرضها تبرجَ الأنثى تصدت للذكر؛ لتتم دورة الحياة، وأما البعوض الليلي؛ فهذا البعوض الليلي تظهر له ديدان الفِلَاريا فِي الأوعية الدموية السطحية من أجل أن تُتِمَّ دورةَ الحياة فِي ذَلِكَ البعوض.

هل يحدث هذا عَنْ طريق المصادفة؟!!

يقول ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)»، فتأكد هذه الآية الْعَظِيمة مع آيات أخرى كثيرة فِي القرآن المجيد أن الله سبحانه هو الخَالِق وحده لهذا الكون بإرادته، وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَى جعله على هذا النحو بتلك الإرادة الفاعلة والقدرة الطليقة على مقتضى علمه وحكمته.

والباحث المتأمل فِي كل خلق إلهي يجد الكثير من الدلائل التي يدحض بها مزاعم الْمُلْحِدِينَ والمشركين وافتراءاتِهم؛ سواءٌ فِيما يزعمون من نشأة الحياة بالصدفة، أو ما ينسبونه للطبيعة من قدرة على الاختيار والانتقاء، وإعمالِ القوانين فِي حركة الكون والحياة، أو ما يزعمون من تطورٍ للمخلوقات أدى إِلَى ارتقاء الجماد والحيوان، وانحدار الإنسان من أصل مشترَك بينه وبين القِرَدَةِ العليا، وهذه كلها مزاعم فلسفية، هذه ليست بالمزاعم الْعِلْمية، هذه مزاعم فلسفية!!

خيالات!!

والمنطق الْعِلْمي نفسه يرفض تلك المزاعم، ويكشف غاياتها الخبيثة فِي تزيين الْكُفْر والإِلْحَاد.

إذا بحثنا فِي جسم الإنسان - على سبيل المثال -؛ نجد العديد من التوافقات المذهلة والتنظيمات العجيبة التي تؤكد أن الإنسان لم ينشأ نتيجة صدفة عمياء، ولم يتطور من جماد وحيوان بفعل قوى الطبيعة المزعومة، بل هو من صنع إله قادر عليم جبار يملك القدرة المطلقة على التدبير والتخطيط، وهذه القوة هي قوة القصد الإلهي التي تؤكد أهمية الغاية والهدف من وراء خلق الكائنات مصداقا لقوله تعالى: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)»، ولقوله تبارك وتعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)».

من أمثلة التوافقات والتنظيمات المعجِزة فِي جسم الإنسان: أن خلايا الجسم دائمة الانقسام للعمل على نمو الجسم، أو لتعويض ما يفقد أو يموت من هذه الخلايا.

أما الخلايا العصبية؛ فهي لا تنقسم؛ لِأَنَّها لو انقسمت؛ تحدث كارثة مروعة بتلاشي جميع معالم الذاكرة فِي الخلايا العصبية للمخ، فهذه الخلايا العصبية هي هي؛ ولَكِن هذه الخلايا العصبية لها قانونها الخاص، وهي خلية حيوانية؛ ولَكِنها سوى الخلية الجسمية، فالخلايا الجسمية تتكاثر، وأما الخلايا العصبية؛ فما دمر منها فإنه لا يعاد.

عضلات الرحم عَنْد المرأة أقوى عضلات الإنسان؛ للحاجة إِلَى تلك العضلات فِي دفع الجنين عَنْدما يأذن فِي دفع الجنين عَنْدما يأذن الله تعالى بخروجه من بطن أمه.

تلي عضلات الرحم عضلات القلب التي لا بد أن تكون قوية لتحتمل العمل ليلًا ونهارًا، وتدفع الدم باستمرار إِلَى الأوعية الدموية لمدةٍ قد تطول فِي بعض الأحيان لأكثر من مائة عام.

وكذَلِكَ ما يتعلق بعضلات الفكين؛ لِأَنَّهُ لا بد من طحن ذَلِكَ الغذاء، فالإنسان كم يطحن من أطنان من الطعام فِي حياته؟!

فهو يحتاج إِلَى أن تكون هذه العضلات فِي غاية من القوة.

عند حدوث جرح من الجسم؛ يندفع الدم من الأوعية الدموية المجروحة؛ ولَكِنه لا يلبث أن يتجلط عَنْد مكان الجرح لِيُوقِفَ استمرارَ النزيف، ولو لا هذا التجلط لظل النزيف حتى الموت.

المعدة فِي الإنسان أشبه بمصنع كيميائي أعده الله تعالى لكي يعمل وينتج مواد كيميائية أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره الإنسان، فالمعدة تقوم تلقائيًا بتحليل ما يتناوله الإنسان من أطعمة على اختلاف أنواعها، وتقوم بمعالجتها وتجهيزها من جديد، وتتولى فرزها وتصنيفها وتوريدها بصورة مستمرة ومنتظمة إِلَى الأمعاء من أجل أن تُمْتَصَّ إِلَى الدماء؛ لتصل إِلَى كل خلية من بلايين الخلايا على حسب احتياجات هذه الخلايا وتخصصاتها؛ لتكوين العظام أو الأظافر أو الشعر أو اللحم أو الأسنان أو الأنسجة أو الدم أو غيرِ ذَلِكَ.

ولا تَغْفُلْ عَنْ شيء مهم يدل على وحدة النظام فِي الكون، وهو بالتالي يدل على الإله الواحد الأحد: أن هذا الغذاء واحد، فالَّذِي تأكله شيء واحد، يعني مهما تعددت أنواعه من طعام

وشراب هو شيء واحد؛ ولَكِنه يصير على هذا النحو يصير خلايا جسدية، يصير حيوانات منوية، أو يصير بويضات عَنْد الأنثى، يصير عرقًا، يصير دموعًا، إِلَى غير ذَلِكَ من هذه الأمور، وهو شيء واحد!!

فالذي يؤخذ ليصير على هذه التنوعات المختلفة هو شيء واحد، ولَكِن الله عز وجل هو الخلاق العليم.

الأذن البشرية – كما مر – عضو معقد جدًا، وهو بالغ الحساسية، يقوم بتحليل الأمواج الصوتية ونقلها إِلَى المخ فِي صورة تيار معين يَسْرِي فِي العصب السمعي إِلَى مركزٍ خاصٍّ فِي المخ، فَيُحِسُّ الإنسان بسماع الصوت.

خلق الله الأذن البشرية، وجعل استجابتها محدودةً بِمَدىً معين من الذبذبات، يتراوح ترددها - وهو عددها فِي الثانية الواحدة؛ مثل ما تأتي بالشوكة الرنانة، ثم تضربها فِي جسم ما، ثم ترى تلك الذبذبات، فعدد الذبذبات فِي الثانية الواحدة هو التردد -.

الأذن تسمع ترددات الأصوات من عشرين إِلَى عشرين ألف ذبذبة فِي الثانية الواحدة، لو قل عَنْ هذا العدد – عَنْ العشرين ذبذبة فِي الثانية الواحدة -؛ لا يسمع.

كم من الأصوات فِي الكون تحت هذا المستوى من الذبذبات وأنت لا تسمعه؟!

كثيرة هي.

وكذَلِكَ ما فوق العشرين ألفًا من الذبذبات فِي الثانية الواحدة، ما زاد على ذَلِكَ لا تسمعه، فيكون حولك وأنت لا تسمعه؛ لكي تنعم بالهدوء، ولكي لا تسمع الموجات الأقل أو الأكبر من هذا المدى، وإلا ظللت فِي شغل دائم أبدًا حتى لا تنام.

لو استجابت الأذن لكل الذبذبات الصوتية؛ لعاش الإنسان فِي ضجيج لا ينقطع، لِذَلِكَ تنفي هذا الأثير من أصوات تلتقط بوسائل معينة وأنت لا تسمعها.

الزحام فِي الأثير أكبر من الزحام فِي الْأَرْض، زحام ترددات الأصوات فِي الأثير على حسب الإرسال والاستقبال لا يعلم عدده إلا الله جَلَّ وَعَلَا، لِذَلِكَ تتكلم الملائكة وأنت لا تسمع، تتكلم الشياطين وأنت لا تسمع، تتكلم الحيوانات أنت لا تسمع، ولَكِن إِذًا مكنك الله تَبَارَكَ

وَتَعَالَى من ذَلِكَ؛ فهذا شيء آخر، فقد مكن الله جَلَّ وَعَلَا سليمان عليه السلام من معرفة لغات تلك المخلوقات.

الذي يقال عَنْ الخلايا والعضلات والدم، وكذَلِكَ عَنْ المعدة والأذن؛ يقال عَنْ العين واللسان والأنف والحنجرة والجلد وغيرها من ملايين التنظيمات والتوافقات الرائعة فِي جسم الإنسان؛ بل ومختلف التنظيمات الموجودة فِي كل الكائنات النباتية والحيوانية مما يدل على أن جميع المخلوقات خلقت منذ البداية على نحوٍ من الدقة المقصودة التي لا تدع مجالا للصدفة أو للاحتمال.

قال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)».

هذه الآية الكريمة وغيرها، كثير من آيات القرآن المجيد تدعو إِلَى إعمال العقل فِي إثبات وُجُود الإله الواحد والخَالِق العليم كضرورة حتمية لوجود هذا الكون، واستمرارِ حركتِهِ منذ بداية خلقه، وحتى يقضي الله فِيه أمرًا كَانَ مفعولًا؛ لَكِنَّ الْمُلْحِدِينَ والكافرين لا يعلمون، أو لعلهم لا يريدون أن يعرفوا.

هذه الْحَقِيقة الواضحة بالرغم من اعتراف بعضهم بوجود النظام فِي الكون وسريان الحكمة والروح فِي الوجود؛ فهم عاجزون عَنْ أن يشعروا بوجود منظم مدبر خالق لهذا الكون؛ لِأَنَّهُم استسلموا لأوهام الفكر، وبالغوا فِي تقديس العقل وما يستنبطه من علم، ونَسَوْا أو تَنَاسَوْا وُجُود خالقِ العقلِ وخالقِ الْعِلْم وخالقِ كل شيء فِي هذا الوجود؛ ليقوم بوظيفته التي هيأه وأعده لها على أكمل وجه.

لقد تمادى هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ عبر العصور فِي غيهم، وحاولوا أن يبدلوا سنة الله التي لا تتبدل، وأن يثبتوا أن الله غير موجود، ولم يستطع أحد منهم أن يقدم دليلًا واحدًا يؤيد إنكارهم لوجود الله.

كما مر: الَّذِي يجحد وُجُود الخَالِق، ويطلب من المؤمن أن يأتي بالأدلة على وُجُود الخَالِق الْعَظِيم؛ فليقل له المؤمن: فلتأت أنت بدليل واحد على أَنَّهُ غير موجود!!

يعني أنت تطالب المؤمن بأن يأتي بأدلة على وُجُود الله جَلَّ وَعَلَا، وهو يطالبك لأنك أنكرت، فهو يطالبك بأن تأتي بدليل واحد على عدم وُجُود الخَالِق الْعَظِيم!!

لا يملكون دليلًا أبدًا؛ بل الأدلة كلها تثبت وُجُود الخَالِق الْعَظِيم، ولَكِنْ عبثًا يمكن إقناعهم؛ لأن لديهم بقعة عمياء فِي عقولهم تمنعهم من تصور الله، تجعلهم لا يستمعون إِلَى كلام الله، ولا إِلَى بلاغ الأنبياء والرسل، بل لا ينصتون لحقائق البحث الْعِلْمي فِي مختلف ظواهر الكون والحياة؛ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)».

والعِلْم الصحيح يقدم لنا الأدلة الكثيرة على وُجُوده تعالى وعلى وحدانيته، ويدحض مزاعم الْمُلْحِدِينَ والكافرين، ويقف بقوة – أي الْعِلْم المادي الَّذِي يتخذونه تَكِأَةً من أجل إنكار وُجُود الخَالِق!! –، فالعلم نفسه يقف بقوة مع دعوة الدين إِلَى إعمال العقل بعيدًا عَنْ الهوى والتعصب؛ لكشف حقائق الوجود، والاهتداء إِلَى الإيمان الخالص بالخَالِق الواحد الأحد - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - على هدى وبصيرة، فليس من المعقول أن يفكر الجماد فِي تطوير نفسه، أو أن تمنح الطبيعة الجامدة نفسها قبس الحياة، أو أن تحكم المصادفةُ حركةَ الكون، ويتولدَ النظام تلقائيًا من الفوضى والعشوائية!!

من المستحل أَيْضًا: أن تتكرر المصادفة لتتخذ شكل ظاهرة عامة تسري على ملايين الكائنات الحية فِي النبات والإنسان والحيوان، وعلى ملايين الظواهر الكونية فِي السماوات والأرض؛ سواءٌ فِيما يتصل بمقاومة عوامل العَطَبِ والفناء، أو فِيما يتعلق بالتركيب الخارجي والداخلي للأفراد والمفردات المختلفة التي تعمل فِي توافقٍ عجيب وتعاون مذهل لاستمرار هذه الحياة.

لقد اكتشف الْعِلْم الْحَدِيث أن الْأَرْض التي شاء الله أن يجعلها مقرًا للإنسان مسخَّرة لكل ما فِيها وما عليها لاحتضان الحياة والأحياء، وتتخذَ ملاءمتُها للحياة صورًا عديدة من التنظيمات والتوافقات الرائعة التي لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية؛ فكيف تعرف الطبيعةُ الجامدةُ عَنْ طريق الصدفة أن الْأَرْض يجب أن تكون بهذا الحجم، بهذا الوزن، بهذا التكوين، وأن غلافها الجوي لا بد أن يكون له هذا التركيب والتوزيع أفقيًا

ورأسيًا، وأن موقعها من الشَّمْس والكواكب الأخرى لا بد أن يتحدد بهذه الدقة العجيبة التي تنسجم انسجامًا معجِزًا مع كل مقومات الحياة التي أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها؟!!

كيف يمكن أن ينشأ هذا البناء الكوني المحكم عَنْ طريق الصدفة؟!

وهل من المعقول - مثلًا - أن تَنْشَأَ عمارةٌ أَنِيقَةٌ رائعةٌ من انفجارٍ عشوائي فِي تِلَالٍ من الأحجار والحديد والأخشاب والزجاج؟!!

يبقى بعد هذا كلِّه سِرُّ أسرارِ الحياة «الروح» التي جعلها الله مصدر الوعي ومنبع الشعور، فقد خلق الله الإنسان خلقًا يجمع بين المادة والروح، فالإنسان بجسمه المادي مشدود إِلَى الْأَرْض، له دوافعه وشهواته ومطالبه الحيوانية، وبروحه الشفافة يتطلع إِلَى السموم، أما النفس؛ فلها طبيعة مزدوجة تحتوي على معنويات الخير والشر والتقوى والفجور، ورغم أن الْعِلْم قد تعرف على التركيب المادي لجسم الإنسان بعناصره ومركباته، وذَلِكَ عَنْ طريق التحليل الكيميائي؛ إلا أَنَّهُ لا يزال عاجزًا وسيظل حيال عالم النفس الَّذِي يحاول اقتحامه، كما أَنَّهُ يقف عاجزًا أمام عالم الروح، ولن يُقَدَّرَ للعلم البشري أن يصل إِلَى سر الحياة الَّذِي استأثر به خالق الكون والحياة، فالإنسان يكون أمام المحتضَر وهو فِي آخر نزع معلقًا بين الحياة والموت، ثم فجأة يصير ميتًا، ما الَّذِي جرى؟!

لقد كَانَ منذ قليل يحب ويكره، يأكل ويشرب، يتحرك ويسكن، ثم مات، ما الَّذِي دهاه؟!

ثم هذه الجثة ما هي؟!

أي شيء هذه؟!

وما تكون؟!

وما الَّذِي استلب منها؟!

وما الَّذِي تحتاجه أن يعاد إِلَيْهَا حتى تعود إِلَى سالف عهدها؟!

هذا كله سر الأسرار فِي الروح التي استأثر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بعلمها؛ «وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)».

«الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)».

«وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)».

تُقرر هذه الآية الكريمة أن جميع المخلوقات والكائنات فِي هذا الكون الفسيح على اختلاف أنواعها وأحجامها ونواميسها، يجمع بينها مهمة التسخير للإنسان، ويوحد بينها أَنَّهُا مقدرة بقدرة الخَالِق الواحد الأحد، والإيمانُ الخالصُ بوحدانية الله سبحانه أساس العقيدة الإسلامية، وأمر فطري ينعم به على كل من أراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له الهداية والسعادة، فينعم به كل إنسان يتمتع بفطرة نقية؛ لَكِن البحث الْعِلْمي يوصلنا إِلَى حقائق كونية تُسَيِّرُ قبولَ العقول بِمُسَلَّمَةِ التوحيد الإسلامي أمرًا حتميًا، وشتان بين إيمان القلب وإيمان العقل، إن إيمان القلب هو إيمان الفطرة التي ترجع إِلَى ربها تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتحن إِلَى عبادته؛ بل لا تكون سوية إلا بعبادته وإخلاص العبادة لوجهه.

وأما العقل؛ فإن هذه الأمور تعرض عليه، فقد يُقِرُّ، ويبقى القلب جامحًا كالفَرَسِ الشَّمُوسِ، لا تذلل، ولا يحكمها خطام ولا لجام، فنسأل الله أن يمن علينا بهداية القلوب، إنه تعالى على كل شيء قدير.

قد مر أن الْعلماء يتخذون الخلق وسيلة للوصول إِلَى إثبات الخَالِق، وهذا أمر بدهي فطري، فدليل الخلق دليل لا يدفع، ومع ذَلِكَ فبعض الفيزيائيين – كما فِي «الفيزياء ووجود الخَالِق» – يزعم أن هذا الدليل الكوني – أن هذا الخلق - دليل فاسد من حيث المبدأ؛ لِأَنَّهُ متناقض؛ لَكِن مسألة صحة دليلٍ مَّا أو فساده مسألة منطقية، لا تعلق لها بالفيزياء التي هي تخصص أمثال هَؤُلَاءِ، لهذا فعندما يزعم فِيزيائي كـ«دِيفِز» أن الدليل الكوني ليس صحيحًا؛ فإنه لا يفعل هذا بوصفه فِيزيائيًا، بل هو متأثر فِي ما يَقُول ببعض مشاهير الْفَلَاسِفَة الغربيين؛ بل هو ناقل عَنْهُمْ ومقلد لهم؛ لأن كثيرًا من الناس يحدث عَنْده خلط كبير، فيأتي مثل هذا العالم الفيزيائي ليقرر أمثال هذه الْحقائق – كذا يجعلها حقائق !!- وهي فِي غير تخصصه الَّذِي يُنْظَرُ إِلَيْهِ فِيه، فيتلقاها من يتلقاها من الأغرار المخدوعين على أَنَّهُا من نتاج علمه فِي تخصصه، ولَكِنه لا يَقُول مثل هذا القول على أَنَّهُ فِيزيائي، ولا عالِمٌ فِي الطبيعة، وإنما هو مقلد فِي ذَلِكَ لبعض الخائبين من الْفَلَاسِفَة المنحرفين الغربيين، فيقول ديفيز:

إن الدليل الكوني مبني على افتراض أن كل شيء لا بد له من سبب - وهو قانون السببية -.

فيقول:

الدليل الكوني الَّذِي يصل به المؤمنون إِلَى إثبات وُجُود الخَالِق الْعَظِيم، أو كما يَقُول المتقدمون: السبب الأول الَّذِي هو سبب الأَسْبَاب. يَقُول: إن هذا الدليل الكوني مبني على افتراض أن كل شيء لا بد له من سبب؛ لَكِنه ينتهي إِلَى القول بأن هُنَالِكَ شيئًا واحدًا على الأقل – يعني الله عز وجل – ليس له سبب.

يقول: فالدليل يبدو متناقضًا.

شرحه: كيف تقولون: إن لكل شيء سَبَبًا، ثم تقولون: إن الله لا سبب له؟

هو نفسه يعترف بأن هُنَالِكَ صيغًا مختلفة للدليل الكوني، وهو بالطبع لا يشير هنا إِلَى صيغة القرآن التي لا يصدق عليها ما يَقُول؛ لَكِن كثيرًا من اعتراضاته لا تصدق حتى على صيغتها التي اختارها للمناقشة، هذه الصيغة تقول: "كل حادثة لا بد لها من سبب".

ولا يمكن أن تكون هُنَالِكَ سلسلة غير متناهية من الأَسْبَاب، وإذًا فيلزم أن يكون هُنَالِكَ سبب أول لكل الأشياء، وهذا السبب هو الله.

هذه الصيغة تقول: "كل حادثة لا بد لها من سبب".

لَكِنه جعل الصيغة هكذا: "كل شيء لا بد له من سبب"!!

وشتان بين الصيغتين!!

الصيغة تقول: "كل حادثة لا بد لها من سبب، كل حادث لا بد له من محدث، كل مخلوق لا بد له من خالق، كل موجود لا بد له من موجد".

وأما هو؛ فيقول: "كل شيء لا بد له من سبب"، فيقول: الله عز وجل لا بد له من سبب – على القانون الَّذِي صاغه هو -!!

والفرق بين الصيغتين كبير؛ فالحَادثة لها بالضرورة بداية؛ لَكِن ما كل شيء حادث، وما كل شيء يلزم أن تكون له بداية، فالله تعالى شيء؛ «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ»، ومع ذَلِكَ فهو أزلي.

وعليه؛ فليس هُنَالِكَ من تناقض فِي قول القائل: "كل شيء حادث لا بد له من سبب".

وأما الأشياء التي ليس لوجودها بداية؛ فلا يمكن أن يكون لها سبب.

هذه الحجة كَانَت تصلح..... «كلمة غير واضحة» الجدوى لو أَنَّهَا بدأت بالقول بأن كل شيء حادث، ولا بد لكل حادث من سبب، فيلزم أن يكون له سبب فاعل، وانتهت إِلَى القول بأنه حتى الأشياء التي لا بداية لها؛ فلا بد لها كذَلِكَ من سبب فاعل.

الحجة - بحسب ما ساقها هو - تبدأ بتقرير أن لكل حادثة سَبَبًا، وتنتهي إِلَى القول بأن كل الأشياء يلزم أن يكون لها سبب.

لعله وقع منه ذهول فِي تقرير الحجة، فلعله تأثر فِي هذا بما قَالَ الفيلسوف البريطاني «أَنْتُونِي فْلُو»؛ لأن اعتراضه هو عين اعتراض هذا.

قال بعضهم: إِنَّهُ إِذَا كَانَ الكون بحاجة إِلَى سبب؛ فالله كذَلِكَ بحاجة إِلَى سبب!!

يقول دِيفِزْ أَيْضًا: حتى لو سلمنا للدليل الكوني إِلَى حد القول بأن للكون سَبَبًا؛ فهُنَالِكَ مشكلة منطقية فِي عزو ذَلِكَ السبب إِلَى الله؛ لِأَنَّهُ يمكن حينئذ أن يقال: وما الَّذِي سَبَّبَ الله؟

الإجابة المعهودة: هي أن الله لا يحتاج إِلَى سبب، لِأَنَّهُ واجب الوجود، ولا سبب له إلا نفسُه، ثم إِنَّهُ إِذَا كَانَ المرءُ مستعدًا للتسليم بأن شيئًا مَّا هو الله؛ يمكن أن يكون موجودًا من غير سبب خارجي؛ فلماذا الْمُضِيُّ إِلَى هذا الحد فِي السلسلة؟!

لماذا لا يكون الكون موجودًا من غير سبب خارجي؟!!

هل يقتضي القول بأن الكون خلق نفسه تعليقًا أعظم لعدم الإيمان من القول بأن الله خلق نفسه؟!!

فلماذا تسير فِي هذه السلسة؟!!

لماذا لا تقول من البداية: إن الكون هو سبب نفسه، فيكون سَبَبًا ومسبَّبًا فِي آن واحد، وخالقًا ومخلوقًا فِي آن واحد؟!!

فاعتراضه على الدليل الكوني هو بعينه اعتراضُ «هُيُوم» عليه، لِذَلِكَ فهو ينقل عَنْه موافقًا له فِي قوله: إِذَا كنا نقف ولا نمشي أبعد عَنْ الله – كذا يَقُولون -؛ فلماذا نمضي إِلَى هذا الحد؟!

لماذا لا نقف عَنْد حدود العالم المادي بافتراضنا أَنَّهُ يتضمن فِي نفسه مبادىء نظامه، فنكون قد أكدنا القول بأنه هو الله؟

حجته هذه؛ بل كل حججه فِي تأييد الْإِلْحَاد - لِأَنَّهُ من كبار الداعين إِلَى الْإِلْحَاد ومن كبار الْمُلْحِدِينَ - هي حجج فِي غاية التهافت؛ لَكِنها وجدت طريقها إِلَى قلوب أعداد كبيرة من المفكرين الغربيين المعاصرين، فهم يقلدونه فِيها من غير نظر ولا تفكير، فها هو الفيزيائي «بَارُو» يأتي من بَعْدِ «دِيفِزْ» ليقول: لِأَنَّهُ يزعم أن كل شيء يجب أن يكون له سبب؛ عليه فيجب أن يكون للكون سبب مختلف فِي جوهره عَنْ الكون، بَيْدَ أن منطق هذه الحجة بالذات ليس قوي الإلزام – كذا يَقُول -، إن كل من يستطيع أن يَقْنَعَ بمفهوم للخالق على أَنَّهُ سبب غريب مسبِّب؛ يستطيع بكل تأكيد أن يقنع بالكون نفسه على أَنَّهُ سبب غير مسبب!!

وهذا عكس للدليل!!

والجواب: إن الدليل الكوني لا ينتهي إِلَى القول بأن الله خالق نفسه؛ بل بأن الله أزلي، والأزلي لا يكون له خالق.

كذَلِكَ لا يمكن أن يتصور أن إنسانًا مفكرًا – مؤمنًا كَانَ أو غير مؤمن – يمكن أن يتساءل جادًا: من خلق الله؟

هل يعرف المعنى التي تَدُلّ عليه هذه الكلمة؟

لا شك أَنَّهُ يبدو أن بعض كبار الفيزيائيين الغربيين والْمُلْحِدِينَ يأخذون هذا السؤال مأخذ الجِدّ؛ بل ويعدونه من المآخذ الكبيرة على القول بوجود الخَالِق سبحانه، فها هو «هُنكْ» يَقُول عَنْ الله: ومن الَّذِي خلقه؟!

والإجابة عَنْ هذا السؤال الَّذِي يظنه هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَة والْعِلْماءُ وكثيرون غيرهم سؤالًا عويصًا؛ هو فِي غاية السهولة.

إذا سلم الخصم بأن الكون الحادث لا بد له من سبب غير حادث، ثم سلم بأن هذا السبب غير الحادث – أي الأزلي – هو المسمى: الله؛ فإن سؤاله عَنْ خالقه أو سبب لله لا يكون له معنى إطلاقًا!!

إِنَّهُ سؤال من لا يتصور ما يَقُول!!

إنَّهُ سؤال ينطوي على تناقض عجيب؛ لأن السبب ضرورةً سابقٌ للمسبَّب، ولأن الأزلي ضرورةً غيرُ مسبوق بشيء؛ فكيف يكون له سبب؟!

فالذي يَقُول بضد ذَلِكَ هو لا يدري ما يخرج من رأسه!!

قول القائل: من خلق الله؟ يساوي قوله: ما الَّذِي سبق الشيءَ الَّذِي لا شيء قبله؟!

أو: ما بَعْدَ الشيء الَّذِي لا شيء بعده؟!

فهل تجد لمثل هذا السؤال من معنى؟!

إذا أخبرت إنسانًا بأن فلانًا كَانَ أول العَدَّائين؛ فهل يصح أن يَقُول لك: نعم؛ ولَـكِن من الَّذِي سبقه؟!!

لله المثل الأعلى.

قام الدليل على أن الله هو الأول الَّذِي لا شيء قبله؛ فكيف يقال: ما سببه؟!!

أو: من خالقه؟!!

ومن العجب العجاب: أن ديفز الَّذِي قلد هيوم فِي هذا الاعتراض على وُجُود الخَالِق قَالَ بنقيضه تمامًا فِي سياق آخر أتى به أَيْضًا للاعتراض على وُجُود الخَالِق سبحانه!!

اسمعه يَقُول: انظر فِي هذا القول الجازم السابق: "كل شيء يجيء إِلَى الوجود يكون قد أوجده شيء"؛ ماذا لو أن الشيء لم يجئ إِلَى الوجود أبدًا، بل كَانَ دائمًا موجودًا؟ هل من معنى للسؤال عما إِذَا كَانَ هُنَالِكَ سبب لشيء هو موجود أزلًا لشيء لم يكن غير موجود فِي أي وقت من الأوقات؟

والجواب: أجل؛ إِذَا كَانَ الكون أو شيء فِيه موجودًا أزلًا؛ فإنه لا معنى للسؤال عَنْ موجد له، ولَـكِن إِذَا ثبت أَنَّهُ لا الكون ولا شيء منه موجود أزلًا؛ فلا بد له موجد أزلي، فلا معنى للسؤال بعد ذَلِكَ عَنْ موجد أو خالق لهذا الخَالِق الأزلي؛ لَكِنك تسلم بهذه الحجة حين تفترض الأزلي شيئًا فِي هذا الكون، وتنكرها حين يكون هو الخَالِقَ الَّذِي تتحدث عَنْه الأديان!!

فيتبين لنا الآن سهولة الرد على هذا السؤال الَّذِي طرحه هذا الملحد ديفز، ومن قبله طرحه الملحد هيوم: إِذَا كَانَ الله تعالى موجودًا من غير سببٍ موجِدٍ؛ فلماذا لا يكون العالم أَيْضًا موجودًا من غير سبب موجد؟

والإجابة: لأن الله تعالى أزلي، أول لا بداية له، ولا شيء قبله، بينما الكون حادث، أوجده الله رب العالمين الَّذِي أوجد كل شيء، وخلقه الله تعالى الَّذِي خلق كل شيء.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يحفظ علينا إيماننا، وأن يثبتنا عليه حتى نلقى الله تبارك وتعالى غير شاكِّين ولا مترددين ولا زائغين ولا ضالين ولا مضلين، إنه تعالى على كل شيء قدير.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِين.

«المُحَاضَرَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن كثيرًا من الملحدين أَتَوْا بشبهات واعتراضات، ومعلوم أن المؤمن عنده جواب عن كل اعتراضٍ وإجابةٌ عن كل سؤال، وما يأتي به هَؤُلَاءِ لا يخرج عَنْ كونه مَحْضَ مغالطاتٍ، كما فعل «دِيفِزْ» تبعًا لـ«هِيُومْ»، وهما من كبار الْمُلْحِدِينَ، وقد تبين لنا سهولةُ الرد على سؤال «دِيفِزْ» ، ومِنْ قَبْلِهِ «هِيُومْ»، وهو السؤال القائل: إِذَا كَانَ الله تعالى موجودًا من غير سببٍ موجِدٍ؛ فلماذا لا يكون العالم أَيْضًا موجودًا من غير سبب موجد؟

والإجابة: لأن الله تعالى أزلي، بينما الكون حادث.

«دِيفِزْ» و«بَارُو» ومن نحا نحوهم فِي تقليد هيوم يعطون انطباعًا بأن المستدلين على وُجُود الخَالِق بالدليل الكوني؛ قرروا بمحض الهوى أن الكون يحتاج إِلَى سبب موجد، ثم قرروا اعْتِبَاطًا أن الله لا يحتاج إِلَى مثل هذا السبب، ولِذَلِكَ زعموا – أعني أُولَئِكَ الْمُلْحِدِينَ – أَنَّهُ لا يمكن الوقوف عَنْد حدود العالم؛ لَكِنهم عَنْدما وصلوا إِلَى الله؛ وقفوا عَنْده، فلم يَتَعَدَّوْهُ.

فهذا كلام الْمُلْحِدِينَ بالنسبة للمؤمنين.

ولا فرق – بزعمهم! - بين الوقوف هنا والوقوف هُنَالِكَ، وهذا منهما ومن غيرهِما تَخْلِيطٌ غَفَلَ أصحابُه عَن الفرق الكبير بين طبيعة الكون الحَادث والخَالِقِ الأزلي، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أخبرنا أن السؤال عمن خلق الله هو من إيحاء الشيطان؛ فقد روى البخاري في «صحيحه» بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه -، أن رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ قال: "يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فيقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ من خلق كَذَا؟ حَتَّى يَقُول: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَه؛ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - معلقًا على هذا الْحَدِيث:

العلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع صحة الفطرة وسلامتها، وقد يعرض للفطرة ما يفسدها ويمرضها، فترى الْحَقّ باطلًا، كما فِي البدن إِذَا فسد أو مرض؛ فإنه يجد الحلو مُرًّا، ويرى الواحد اثنين، فهذا يعالج بما يزيل مرضه، والقرآن فِيه شفاء لما فِي الصدور من الأمراض، والنبي صلى الهم عليه وآله وسلم عَلِمَ أن وسواس التسلسل فِي الفاعل يقع فِي النفوس، وأنه معلومُ الفسادِ بالضرورة، فأمر عَنْد ورود ذلك الوسواس بالاستعاذة بالله منه والانتهاء عنه.

الْحَدِيث فِيه إشارة لطيفة إِلَى أن إنكار بَدَائِهِ العقولِ ودلالاتِها القطعيةِ يُعَدُّ مخالفة للدين الْحَقّ واتباعًا للشيطان، ويلزم عَنْ هذا أن يكون فِي مخالفة ما جاء به الدين الْحَقّ؛ أن يكون فِيه مخالفة لمقتضيات العقل، فأَنَّى يكون مَنْ يُثِيرُ الشبهات حول بعض الْحَقائق الشرعية عقلانيًا؟!

فليت الإسلاميين المعاصرين يُسَمُّون أمثالَ هَؤُلَاءِ ب«أهلِ الأهواء» كما كَانَ يسميهم أهل السنة قديمًا؛ لأن هذا هو الوصفُ المناسِبُ لحالهم، ولأن وصفهم بالعقلانيين يزيدهم غرورًا

وشرًا؛ لِأَنَّهُ يزين لهم أن العقل معهم، وأن المستمسكين بالنصوص عاطفيون وليسوا بعقلانيين؛ لِأَنَّهم يَقُولون عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُخَلِّطِينَ مِنَ الْمُلْحِدِينَ والْمُخَرِّفِينَ؛ يقولون عنهم: "هم العقلانيون"، فيُعْطُونهم سندًا وحجةً مما يزيدهم غواية وشرًا؛ لأنهم يحسبون حينئذ أن العقل معهم، وأن المستمسكين بالنصوص في الجانب المقابل ليس معهم العقل، وإنما معهم محض العاطفة!!

شَبِيهٌ بما سَبَقَ: قولٌ يردده كثير من الْفَلَاسِفَة الْمُلْحِدِينَ، ويأخذه عَنْهُمْ ويردده على الطلابِ فِي الجامعاتِ بعضُ الأساتذة، فَحْوَى هذا القول: أن فكرة الإله القادر على كل شيء فكرةٌ متناقضة، يستحيل كما يزعمون أن يكون أحدٌ قادرًا على كل شيء؛ لماذا؟

يجيبون بأنه إِذَا كَانَ قادرًا على فعل كل شيء؛ فلْيَقْدِرْ على فعل كذا وكذا، ثم يأتون ببعض المحالات العقلية: هل يستطيع أن يُرَبِّعَ الدائرةَ؟!!

هل يستطيع أن يفعل ما لا يمكنه فعله؟!!

هل يستطيع أن يخلق حَجَرًا لا يمكنه تحريكه؟!!

سُخْفٌ كثيرٌ كَمِثْلِ هذا!!

ما عَلِمُوا أن علماءنا قد قَالوا منذ زمان بعيد: "إن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيلات"، ولم يَقُولوا: "إِنَّهُ لا يقدر على فعل المستحيلات"؛ لأن الله تعالى قادر على فعل كل شيء، وأما المستحيل؛ فليس بشيء؛ لأن المستحيل: عدمه لذاته من حيث هي، فهو معدوم أصلًا، فلا تتعلق به قدرة الله رب العالمين!!

فقدرة الله جَلَّ وَعَلَا لا تتعلق بالمستحيلات، ولَكِن علماءنا كَانوا أعظمَ دقةً وأكثرَ أَدَبًا، فلم يَقُولوا: "إن الله لا يقدر على كذا" من هذه المستحيلات العقلية، وإنما قَالوا: "لا تتعلق بها قدرة الله".

ولم يقولوا:"إنه لا يَقْدِرُ على فعلها"؛ لأن الله تعالى قادر على فعل كل شيء.

وأما المستحيل؛ فليس بشيء أصلًا؛ لأنه معدوم!!

هب زيدًا من الناس اتُّهِمَ بحادث سرقة، فجيء بعمرو أمام القاضي ليشهد، فجرى بينه وبين القاضي الحوار التالي:

ما اسمك؟

قال: ليس لي من اسم، لَكِن اسمي بطرس.

هل رأيت هذا الرجل من قبل؟

نعم رأيته.

منذ متى؟

منذ الغد.

هل رأيته يسرق؟

رأيته؛ لَكِني لم أره ألبتة.

ماذا يفهم القاضي من هذه الأجوبة البطرسية؟!!

لا شيء.

هل عدم فهم القاضي راجع إِلَى نقصٍ فِي عقله، بحيث إِذَا جئنا بقاض آخر أذكى منه؛ يستطيع أن يفهم ما لم يفهم هو؟

الجواب: كلا؛ لماذا؟

لأن عمرًا لم يقل شيئًا، والفهم إنما يكون لمعنىً يُدْرَكْ، فإذا كَانَ الكلام لا معنى له يدرك؛ فإنه لا يفهم منه شيء، ولِذَلِكَ كَانَ من الإنصاف لمن لا يفهم من الكلام المتناقض شيئًا؛ ألا نقول: "إِنَّهُ لم يفهم"؛ لِأَنَّهُ ليس هُنَالِكَ شيء يفهم، ثم هو لم يفهمه، ولَكِن إِذَا قلنا: "إِنَّهُ لم يفهم" – أعني الكلام المتناقض -؛ فهذا يوحي بأن هُنَالِكَ شيئًا يمكن أن يفهم؛ لَكِنه عجز عَنْ فهمه، لَكِن الواقع أَنَّهُ ليس هُنَالِكَ ما يفهم، لِذَلِكَ اختار علماؤنا ذَلِكَ التعبير الدقيق فقالوا: "إن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمحالات العقلية"، ولم يَقُولوا: "إِنَّهُ لا يقدر عليها"، وإنما قالوا:"قدرة الله عز وجل لا تتعلق بالمستحيل"، ولم يَقُولوا: "إِنَّهُ لا يقدر على فعله"؛ لِأَنَّهُ ليس بشيء يُفْعَلُ أصلًا؛ فهذا المستحيل معدوم.

انظر الآن فِي كل الأمثلة التي يُسْتَدَلُّ بها على أن مفهوم القدرة على كل شيءٍ مفهومٌ متناقضٌ، كما ضَرَبُوا لِذَلِكَ الأمثلةَ السابقةَ؛ فلننظر فِيها مثلًا مثلًا:

إذا كَانَ المقصود - مثلًا - بتربيع الدائرة؛ لأنهم يقولون: تقولون: إن الله قادر على كل شيء؟

فيقول المؤمن: نعم.

فيقول: هل يستطيع أن يُرَبِّعَ الدائرة؟

فيقال له: ما المقصود بتربيع الدائرة؟

هل المقصود: أن تُجْعَلَ خطوطًا، فيكون عَنْدنا شكل مربع؟ يعني أن نأخذ الخط الَّذِي تَكَوَّنَ منه محيطُ الدائرةِ لنجعله شكلًا مربعًا؟

إن قال: نعم؛ قيل له: هذا أمر عادي يقدر عليه أي أحد من البشر!!

فهذا يسير.

وأما إِذَا كَانَ المقصود به: هو أن تجعل الشيء دائريًا ومربعًا فِي الوقت نفسه؛ فهذا كلام متناقض؛ لأن الشيء إِذَا كَانَ مربعًا؛ فيلزم ألا يكون دائريًا، وإذا كَانَ دائريًا؛ فيلزم ألا يكون مربعًا.

فهذا - كما ترى - كلام متناقض لو أُرِيدَ، وإن أراد بجعل الشيء الدائري مربعًا بمعنى: أننا نجعل محيط الدائرة مربعًا؛ فهذا يقدر عليه كل أحد.

وأما أن يكون دائريًا مربعًا في الوقت عينه؛ فهذا كلام متناقض!!

قد لا يكون الأمر جليًا هذا الجِلَاءَ بالنسبة لمسألة الحَجَرِ؛ لَكِنك إِذَا تأملته؛ وجدته هو الآخر كلامًا متناقضًا.

نقول: إن الله تعالى قادر على كل شيء، فيقول لنا هذا المنكر لوجود الله: هل يستطيع ربكم أن يخلق حجرًا لا يستطيع تحريكه؟ وهو يظن أن سؤاله هذا يَضْطَرُّنَا إِلَى القول بأن الله ليس قادرًا على كل شيء.

لا تحسب هذا إلقاء بشبهات؛ فإن أخًا لنا كريمًا أخبرني الآن قبل هذا المجلس أن هُنَالِكَ محاضِرًا دكتورًا فِي كلية من الكليات الشرعية سألهم هذا السؤال، فقال: هل يستطيع الله تبارك وتعالى أن يخلق حجرًا لا يستطيع تحريكه؟!!

فقلت له: اجلس، ستسمع الإجابة إن شاء الله، وهذا من عجائب الموافقات، وهو يدلنا على أن الله يثبتنا بمشيئته ورحمته فِي هذا الَّذِي نحن فِيه؛ لأن لقائل أن يَقُول: هذه كلها من الشبهات التي يثيرها الملاحدة، ولَكِنها ما زالت تَزْحَفُ - أو قُلْ: تَطِيرُ -، حتى وقعت على أُولَئِكَ الْمَخَابِيلِ من الَّذِينَ يُدَرِّسُون حتى فِي الكليات الشرعية، وهم يسوقون بذَلِكَ لا من أجل أن يَحُلُّوا الإشكال فِيه، وإنما يُلْقُونَ الشبهةَ، ثم يَفِرُّون كالجُبَنَاءِ!!

فالآن: هل يستطيع ربكم أن يخلق حجرًا لا يستطيع – سبحانه -تحريكه؟

عَنْدما يأتي الملحد بهذه الشبهة، بهذا السؤال؛ يظن أن سؤاله هذا يضطرنا إِلَى القول بأن الله ليس قادرًا على كل شيء؛ لِأَنَّهُ يظن أننا مضطرون أن نجيب؛ إما ب«نعم» أو ب«لا»، وفي كلا الحالين يتحقق له ما يريد.

فإن قلنا: "نعم، يستطيع"؛ قَالَ: إِذَا هُنَالِكَ شيء لا يستطيعه، وهو تحريك هذا الحجر الَّذِي خلقه.

وإن قلنا: "لا"؛ قَالَ: "إِذَا هُنَالِكَ شيء لا يستطيعه، فهو ليس قادرًا على كل شيء"؛ لَكِننا لن نجيب بهذا ولا بذاك، لن نقول:"نعم" ولا "لا"؛ بل نقول له: إن سؤالك ينطوي على تناقض، فهو أمر مستحيل عقلًا، قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيلات، وإنما بالممكنات العقلية؛ لأن المستحيل عقلًا هو ليس فِي الْحَقيقة بالشيء حتى يقال: إِنَّهُ يقدر عليه أو لا يقدر عليه، فالمستحيل عقلًا هو: المعدوم، عدمه لذاته من حيث هي، فإذا وجد؛ فإنه لا يكون مستحيلًا، وإنما يصير ممكنًا.

السؤال معناه: هل يستطيع القادر على كل شيء ألا يقدر على بعض الأشياء؟!

هذا معنى سؤال الحجر الذي أتى به الْحَجَرُ!!

هل يستطيع القادر على كل شيء ألا يقدر على بعض الأشياء؟!

هذا سؤال متناقض!!

فإذا سألنا هذا السؤال صفعناه على قفاه!!

هل يستطيع القادر على كل شيء أن يقدر على أن يَحُدَّ من قدرته على كل شيء؟!

كل هذا – كما ترى – كلام متناقض!!

ثم إن حجرًا لا يستطيع الخَالِقُ – سبحانه – تحريكه؛ هو أمر غير متصور عقلًا؛ لماذا؟

لأن الخَالِق ما دام قادرًا على كل شيء؛ فمعنى ذَلِكَ أَنَّهُ ليس لقدرته حد، فافتراض حجرٍ لا يستطيع الخَالِق تحريكه؛ هو افتراض لمستحيلٍ عقلًا؛ لِأَنَّهُ افتراضٌ لوجودِ شيءٍ يحتاج تحريكُه إِلَى قدرةٍ هي أكبرُ من القدرةِ التي لا نهايةَ لها.

هل يستطيع الإنسان أن يصنع شيئًا أن يبني - مثلًا - بناء لا يستطيع تحريكه؟

نعم؛ لِأَنَّهُ لا استحالة عقلية فِي هذا السؤال.

الإنسان يصنع شيئًا لا يستطيع تحريكه.

الذي جعل هذا ممكنًا عقلًا فِي حال الإنسان: هو أن الإنسان لا يخلق المواد التي يركِّب منها ما يصنع، فهو - مثلًا - ينقل حجرًا يستطيع حمله، ثم يضيف إِلَيْهِ حجرًا آخر مثله، وهكذا، فإذا تجمعت هذه الحجارة فِي بناء؛ لم يقدر على تحريكه.

أإذا بَنَى البَنَّاءُ بيتًا؛ يستطيع أن يحمله على كاهله؟!! أو أن يجعله على ظهر حمار؟!!

إذًا؛ هو إذا جَمَّعَ هذه الحجارة فِي بناء؛ لم يقدر على تحريك البناء؛ لأن تحريكه يحتاج إِلَى قوةٍ فوقَ قوته؛ لَكِنِ الخَالِق هو خالق كل شيء، فلا يمكن أن يعجزه شيء.

فالإجابة يسيرة كما ترى؛ لأن السؤال متناقض، وكَذَلِكَ فِي سائر هذه الشبهات التي يأتي بها أُولَئِكَ القوم.

قال بعض الْفَلَاسِفَة: إن أهم مقدمة يقوم عليها هذا الدليل: هو أَنَّهُ لا بد لكل حادث من سبب؛ ولَكِن ما الدليل على هذا؟

لماذا لا تحدث بعض الأشياء بغير سبب؟

مَرَّ مِنْ قَبْلُ أَنَّهُ إِذَا لم يكن للحادث سبب؛ فلا مَنَاصَ من القول إما بأنه جاء من العدم المحض، أو أَنَّهُ خلق نفسه، أو أَنَّهُ أحدثه حادث مثله، وقد مر بيان فساد القول بكل هذا.

لم يبق إلا القول بأنه لا بد للحوادث من أَسْبَاب، ثم إنك تجد بعض القائلين بإنكار السببية هَؤُلَاءِ حين يكون الأمر متعلقًا بوجود الخَالِق؛ هم من أكثر المتمسكين بالسببية؛ حتى يكون الأمر لهم.

أما إِذَا كَانَ دفاعًا عَنْ فاعلية الخَالِق، عَنْ خالقية الخَالِق الْعَظِيم؛ فإنهم يَرُدُّون قانون السببية!!

فهَؤُلَاءِ متلاعبون!!

هَؤُلَاءِ حمقى مخرِّفون!!

وأكثرهم يعلمون أَنَّهُم ضالون مضلون!!

فإذًا؛ ثبت بالدليل العقلي، كما ثبت بدليل الفطرة، كما ثبت بدليل الهداية، كما ثبت بدليل العناية، كما ثبت بدليل الآيات، كما ثبت بالدليل الخلقي - فِيما مر ذكره فِي الرد على الْمُلْحِدِينَ -؛ ثبت بهذا جميعه أَنَّهُ لا بد من مسبِّب، لا بد من سبب لكل مسبَّب، ولا بد للمخلوق من خالق، لا بد للموجود من موجد؛ ولَـكِن من هو الخَالِق؟

الأدلة كلها تدل بيقينٍ لا يقبل الريبَ ولا الشكَّ أن المخلوق لا بد له من خالق؛ ولَـكِن من هو الخَالِق؟

الدليل العقلي أوصَلَنا إِلَى وُجُود خالق للكون؛ فمن هو هذا الخَالِق؟

إنه لا يمكن عقلًا أن يكون شيئًا غيرَ الخَالِق الْحَقّ الَّذِي تدركه الفطرة، والذي دعت إِلَى عبادتِه رسلُ الله، أي أن الخَالِق الَّذِي أوصلنا إِلَيْهِ الدليلُ العقلي هو الخَالِق نفسه الَّذِي يحدثنا عَنْه النص الديني «القرآن الْعَظِيم»، ولا غرابةَ فِي ذَلِكَ؛ لأن الله الَّذِي خلق الكون، وجعله دليلًا على وُجُوده؛ هو الَّذِي أنزل الكتاب مُصَدِّقًا لشهادة الكون، ومفصلًا لتلك الشهادة.

وإليك الأدلة على ذَلِكَ:

استنتجنا من وُجُود الأشياء الحَادثة وُجُودَ خالق لها، واستنتجنا بعض صفات هذا الخَالِق، ويمكن أن نستنتج من تلك الصفات صفاتٍ أخرى، هي صفات الخَالِق الْحَقّ جَلَّ وَعَلَا.

من هذه الصفات:

أولًا: صفة الخَالِقية:

صفة الخَالِقية أنت تثبتها للسبب، تثبتها للموجِد، تثبتها للمؤثِّر، تثبتها للخالق؛ فلا بد من أن تكون له صفة الخَالِقية، وقد وردت فِي مثل قوله تعالى: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ».

«هُوَ اللَّهُ الخَالِق الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ».

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)».

«وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ».
«بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».
فإذًا؛ استنتجنا بالدليل العقلي وُجُودَ السبب، ونستنتج أَيْضًا بالدليل العقلي ثبوتَ صفة الخَالِقية له جَلَّ وَعَلَا.
كذَلِكَ نستنتج صفةً أخرى، وهي: كونُهُ أزليًا.
هُنَالِكَ صفاتٌ أخرى يمكن استنتاجها عقليًا من هاتين الصفتين، وصفاتٍ يمكن استنتاجُها من تلك الصفات المستَنْتَجَةِ.
صفةُ الأبدية:
مَرَّ مِنْ قَبْلُ البرهانُ الدالُّ على أن صفة الأزلية تستلزم صفة الأبدية، فالأول هو الآخر، الأول الَّذِي لا قبل له هو الآخر الَّذِي لا شيء بعده، الأول الذي لا شيء قبله هو الآخر الذي لا شيء بعده، وما سمي بالأزلية والأبدية فِي أمثال هذه الأدلة العقلية هما الصفتان الواردتان فِي القرآن الكريم فِي مثل قوله تعالى: «هو الأول والآخر»، فالأولية كما قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيث الَّذِي أخرجه مسلم فِي «صحيحه»: "أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ".
فالأولية والآخرية هي الأزلية والأبدية، وقد ورد فِي القرآن الْعَظِيم، وورد تفسيره فِي سنة النَّبِيّ الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
فالله تعالى سابقٌ فِي وُجُوده لكل موجود، فكل موجودٍ اللهُ عز وجل سابقُ وجوده؛ لِأَنَّهُ هو الَّذِي أعطاه الوجود، فهو بهذا المعنى أولٌ، وهو باق بعد زوال كل مخلوق زائل، فهو بهذا المعنى آخِر، فأشار ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى ذلك بقوله: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)»، وقال النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دعائه: "أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ".
إذا كَانَ كل ما فِي الوجود ما عدا الموجودِ الأزلي حادثًا، وكان هو سَبَبًا لكل حادث؛ فلا حادثَ يعتمد اعتمادًا كليًا على حادثٍ غيره، لا فِي مجيئه إِلَى عالم الوجود -أي فِي ابتداءِ وُجُوده-، ولا فِي استمراره موجودًا.

وإذًا؛ فكما أن الموجود الأزلي خالقُ الحوادث وموجِدُها؛ فهو حافظها وراعيها، وهذا معنى الربوبية، فتَسْتَنْتِجُ أَيْضًا صفةَ الربوبية، فالله عز وجل خالقٌ بمعنى أَنَّهُ يُكَوِّنُ الأشياءَ ويُوجِدُها، وهو أَيْضًا ربٌّ وحافظٌ ومُقِيتٌ، بمعنى أَنَّهُ الَّذِي تَعْتَمِدُ عليه المخلوقاتُ فِي استمرار وُجُودها، وهذا هو الْمَغْنِيُّ بآياتٍ؛ كقوله تعالى: «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ».

«وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيم (٢٥٥)».

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا».

«اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)».

وإذا كَانَ كل شيء سواه مخلوقًا له؛ فهو معتمدٌ فِي استمرار وُجُوده عليه، وهذا هو معنى صفةِ القَيُّومِيَّةِ التي وردت فِي مثل قوله جَلَّ وَعَلَا: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».

«وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ»؛ لأن القيوم هو القائمُ بنفسه، الْمُقِيمُ لغيره.

كذَلِكَ تَسْتَنْتِجُ صِفَةَ الأَحَدِيَّةِ، فالخَالِقُ الأزليُّ الأَبَدِيُّ القيومُ لا بد أَنْ يكونَ واحدًا، واحدًا فِي ذاته وصفاته، فلا ثَانِيَ له يُمَاثِلُهُ، وواحدًا فِي أفعاله، لا يَشْرَكُهُ فِي فعلِها شيءٌ؛ لِأَنَّهُ لو شَرَكَهُ؛ فإما أَنْ يكونَ الأثرُ معتمِدًا عليهما معًا، بحيث إنَّ أحدَهما لا يستطيع الاستقلالَ به، وفي هذه الحال يكون كُلُّ منهما عاجزًا معتمِدًا فِي فعله على غيره؛ لأن كُلًّا منهما ما كَانَ لِيَسْتَطِيعَ الفعلَ لو لا موافقةُ الآخرِ أو مساعدَتُهُ؛ لَكِنَّ الدليلَ سَاقَنا مِنْ قَبْلُ إِلَى أنَّ ما كَانَ أزليًا لا بد أَنْ يكونَ قائمًا بنفسه، مستقِلًا عَنْ غيره؛ وإذًا فالذي يَعْتَمِدُ فِي فعلِه على غيرِه لا يكون أزليًا؛ بل يَلْزَمُ أَنْ يكونَ حادثًا.

وإما أَنْ يُضَادَّ عَمَلُ أحدِهما عَمَلَ الآخرِ، وبذَلِكَ ومِنْ بابِ أَوْلَى تَنْتَفِي عَنْهُمَا صفةُ الأزلية.

هذا الدليل هو الَّذِي سماه علماءُ المسلمين مِن قَبْلُ: «دليلَ التَّمَانُعِ»، وقد قرره شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى- تقريرًا موجزًا وافيًا، فقال – رحمه الله جل وعلا -:

ذَلِكَ أن هَؤُلَاءِ النُّظَّارِ قَالوا: إِذَا قُدِّرَ رَبَّانِ متماثلانِ؛ فإنه يجوز اختلافُهما، فَيُرِيدُ أحدُهما أَنْ يَفْعَلَ ضِدَّ مُرَادِ الآخَرِ، وحينئذٍ: فإِمَّا أَنْ يَحْصُلَ مرادُ أحدِهما، أو كلاهُما، أو لا يَحْصُلُ مراد واحدٍ منهما.

والأقسامُ الثلاثةُ باطلةٌ، فَيَلْزَمُ انتفاءُ الملزوم.

فأما الأول؛ فلأنه لو وُجِدَ مُرَادُهُمَا؛ لَلَزِمَ اجتماعُ الضِّدَّيْنِ، وأنْ يكونَ الشيءُ الواحدُ حيًا ميتًا، متحركًا ساكنًا، قادرًا عاجزًا إِذَا أراد أحدُهما أَحَدَ الضِّدَّيْنِ، وأراد الآخَرُ الضِّدَّ الآخَرَ، فإذا نَفَذَتْ إرادتُهُما مَعًا؛ لزم مِنْ ذَلِكَ وُجُودُ الضِّدَّيْنِ، وهذا مُحَالٌ.

وأما الثاني؛ فلأنه إِذَا لم يَحْصُلْ مرادُ واحدٍ منهما؛ لَزِمَ عَجْزُ كلٍّ منهما، وذَلِكَ يُنَاقِضُ الربوبيةَ.

وأيضًا فإذا كَانَ الْمَحَلُّ لا يخلو مِنْ أَحَدِهِمَا؛ لَزِمَ اختلافُ القِسْمَيْنِ المتقابِلَيْنِ؛ كالحركةِ والسكونِ، والحياةِ والموتِ، فِيما لا يخلو عَنْ أحدهما.

وإِنْ نَفَذَ مرادُ أحدِهما دونَ الآخرِ؛ كَانَ النافِذُ مُرَادُهُ هو الرَّبَّ القَادِرَ، والآخَرُ عاجزًا ليس بِرَبٍّ، فلا يكونان مُتَمَاثِلَيْنِ.

فلَمَّا قيلَ لهم: هذا إنما يَلْزَمُ إِذَا اخْتَلَفَتْ إرادَتُهُمَا، فَيَجُوزُ اتفاقُ إرادَتِهِمَا؛ أجابوا بأنه إِذَا اتَّفَقَا فِي الإرادةِ؛ امْتَنَعَ أنْ يَكُونَ نَفْسُ ما فَعَلَهُ أَحَدِهِمَا نَفْسَ مفعولِ الآخرِ، فإنَّ استقلالَ أحدِهِمَا بالفعلِ والمفعولِ يَمْنَعُ استقلالَ الآخَرِ به؛ بل لا بُدَّ أنْ يَكُونَ مفعولُ هذا مُتَمَيِّزًا عَنْ مفعولِ هذا، وهذا معنى قولِهِ تعالى: «إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ»، وهذا مُمْتَنِعٌ، لأنَّ العالَمَ مُرْتَبِطٌ ارْتِبَاطًا يُوجِبُ أنَّ فاعِلَ هذا ليس هو مُسْتَغْنِيًا عَنْ فاعلِ الآخَرِ، لِاحْتِيَاجِ بعضِ أجزاءِ العَالَمِ إِلَى بَعْضٍ.

وأيضًا فلا بُدَّ أنْ يَعْلُوَ بعضُهم على بَعْضٍ، فإنَّ ما ذكرناه مِنْ جَوَازِ تَمَانُعِهِمَا، إنما هو مَبْنِيٌّ على جوازِ اختلافِ إِرَادَتِهِمَا.

وذَلِكَ أمرٌ لازمٌ مِنْ لَوَازِمِ كَوْنِ كُلٍّ منهما قادرًا، فإنهما إِذَا كَانَا قَادِرَيْنِ؛ لَزِمَ جَوَازُ اختلافِ الإرادةِ.

وإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ لا يجوزُ اختلافُ الإرادةِ، بل يَجِبُ اتفاقُ الإرادةِ؛ كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي دَلَالَتِهِ على نَفْيِ قُدْرَةِ كُلِّ واحدٍ منهما، فإنه إِذَا لم يَجُزْ أنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا ويَفْعَلَ إلا ما يُرِيدُهُ الآخَرُ، ويَفْعَلُهُ الآخَرُ؛ لَزِمَ أَلَّا يَكُونَ واحدٌ منهما قادرًا إِلَّا إِذَا جَعَلَهُ الآخَرُ قادرًا، ولَزِمَ أَلَّا يَقْدِرَ أَحَدُهُمَا إِلَّا إِذَا لم يَقْدِرِ الآخَرُ.

وعلى التَّقْدِيرَيْنِ؛ يَلْزَمُ أَلَّا يَكُونَ واحدٌ منهما قادرًا، فإنه إِذَا لم يُمْكِنْهُ أَنْ يُرِيدَ ويَفْعَلَ إلا ما يُرِيدُهُ الآخَرُ ويَفْعَلُهُ، والآخَرُ كذَلِكَ، وليس فَوْقَهُمَا أَحَدٌ يَجْعَلُهُمَا قَادِرَيْنِ مُرِيدَيْنِ؛ لم يكن هذا قادرًا مُرِيدًا حتى يكونَ الآخَرُ قادرًا مريدًا.

وحينئذٍ فإِنْ كَانَ كُلٌّ منهما جَعَلَ الآخَرَ قادرًا مُرِيدًا؛ كَانَ هذا دَوْرًا قَبْلِيًّا، وهو دَوْرُ الفَاعِلِينَ والعِلَلِ.

كما لو قِيلَ: لا يُوجَدُ هذا حتى يُوجِدَهُ هذا، ولا يُوجَدُ هذا حتى يُوجِدَهُ الآخَرُ؛ فإنَّ هذا مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ فِي صريحِ العقلِ.

انتهى كلامُ شيخِ الإِسلامِ الرَّبَّانِيِّ العَالِمِ شيخِ الإِسلامِ ابنِ تيميةَ – رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً - .

هُنَالِكَ صفةٌ أخرى نَسْتَنْتِجُها مما مَرَّ تقريرُه بالدليلِ العقلي، وهي صفةٌ عظيمةُ الشأنِ؛ لِأَنَّها ستكون المِفْتَاحَ لِمَا يَلِيهَا مِنْ صفاتٍ، والبرهانَ الحاسِمَ على أنَّ الموجودَ الأزليَّ الَّذِي قَادَنَا إِلَيْهِ البرهانُ هو الإِلَهُ الَّذِي يُحَدِّثُنا عَنْه القرآنُ، ولَكِنْ فَلْنَبْدَأْ بهذا السؤالِ:

كيف تَصْدُرُ المخلوقاتُ عَنْ ذَلِكَ الخَالِقِ الأزلي؟

نحن نَعْرِفُ مِنْ تَجْرِبَتِنَا طَرِيقَتَيْنِ لِصُدُورِ الحوادثِ، فالأشياءُ الجامدةُ وبعضُ الأشياءِ الحَيَّةِ تَصْدُرُ عَنْها آثارُها صُدُورًا طبيعيًا، أو قُلْ: قَسْرِيًّا، وأما بعضُ الأشياءِ الحَيَّةِ الأخرى – وأَرْقَاهَا: الإنسانُ -؛ فإنَّ بعضَ آثارِها تَصْدُرُ عَنها صدورًا إِرَادِيًّا.

فهل تَصْدُرُ الحوادثُ عَنِ الخالقِ صدورًا قَسْرِيًّا يَقْتَضِيهِ خَالِقِيَّتُهُ مِنْ غيرِ شعورٍ منه ولا تدبيرٍ؛ أو أَنَّها عَنْه بإرادَتِهِ؛ إِنْ شَاءَ فَعَلَ، وإِنْ شَاءَ تَرَكَ؟

كيف يمكن لهذه الحوادثِ المختلفةِ التي نشاهدها أَنْ تَصْدُرَ عَنِ الخَالِقِ صدورًا يقتضيهِ خَالِقِيَّتُهُ مِنْ غيرِ شعورٍ منه ولا قصدٍ ولا إرادة؟

دَعْنَا نحاولُ فَهْمَ ذَلِكَ؛ بأَنْ نَأْخُذَ مخلوقًا واحدًا، ولْيَكُنْ الإنسانَ، ولْنَتَسَاءَلْ:

كيف أَوْجَدَهُ الخَالِقُ؟

إذا قلنا: إِنَّ وُجُودَ الإنسانِ أَمْرٌ تقتضِيهِ خَالِقِيَّةُ الخَالِقِ؛ فَيَلْزَمُنا القولُ بأَنَّ الإنسانَ أَزَلِيٌّ مع الخَالِقِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ المستحيلِ عقلًا: أَنْ يُوجَدَ الشيءُ ولا يوجَدَ معه الشيءُ الَّذِي تقتضِيهِ طبيعتُهُ،

لَكِنَّنا نَعرِفُ أنَّ عُمُرَ الإنسانِ ليس مِنَ الأزليةِ فِي شيءٍ، بل هو عُمُرٌ لا يتجاوز بضع آلافٍ من السنين؛ فكيف تَأَخَّرَ عَنْ الخَالِق شيءٌ تقتضي طبيعتُه وُجُودَه؟

قد يقال: إن طبيعته اقتضت وُجُوده فِي الوقت الَّذِي وُجِدَ فِيه من غير تقدُّمٍ ولا تَأَخُّرٍ، لَكِنَّ هذا قولُ مَن لا يَتَصَوَّرُ معنى الأزليةِ ولا مَعْنَى الاِقْتِضَاءِ؛ لأننا إِذَا فرضنا الشيءَ موجودًا مِنْ غيرِ أنْ يوجَدَ معه ما يقتضيه طَبْعُهُ؛ فكأنما فَرَضْنَاه موجودًا بطبعٍ سوى طَبْعِهِ، وإذا لم نَقُلْ: إنَّهُ أمرٌ يقتضيه طَبْعُهُ؛ فماذا نقول؟!!

أنقول: إنَّهُ يُحْدِثُ آثارَه كما تُحْدِثُ المخلوقاتُ الطبيعيةُ آثارَها؛ كالمطر الذي يُنْبِتُ الزرعَ، والزرعِ الَّذِي يُخْرِجُ الثَّمَرَ، والدَّفْعِ الَّذِي يُحَرِّكُ الْحَجَرَ، والضَّرْبِ الَّذِي يَقْتُلُ....وهكذا؟

لَكِنك إِذَا تأملتَ هذه الأَسْبَابَ الطبيعيةَ؛ وجدتَهَا كما كَانَ يَقُول علماؤنا: "لا تَسْتَقِلُّ بفعلٍ"، بل إن أفعالها كلها تعتمد على توفر شروطٍ خارجة عَنْها، فالمطر لا يُنْبِتُ الزرعَ إلا إِذَا كَانَ السحابُ قد ساقه إِلَيْهِ، وإلا إِذَا كَانَت درجةُ الْحَرَارَةِ مناسِبَةً لِتَحَوُّلِ السحابِ إِلَى قَطَرَاتِ ماءٍ، وإلا إِذَا كَانَت هُنَاكَ جاذبيةٌ تَسْمَحُ بسقوطِهِ، لا بِبَقَائِهِ معلَّقًا فِي الهواء، وإلا إِذَا كَانَت هُنَاكَ أرضٌ صالحةٌ للزرعِ، وإلا إِذَا كَانَ فِيها بَذْرٌ صالِحٌ للإنبات، وإلا إِذَا تَوَفَّرَ له الْأُكْسُجين.....وهكذا وهكذا، إِلَى ما لا يكادُ يُحْصَرُ مِنْ هذه الشروطِ والأَسْبَابِ الخارجةِ عَنْ نِطَاقِ الماءِ النازلِ مِنَ السماءِ.

فإذا قلنا: إنَّ الخَالِقَ أَيْضًا لا يَخْلُقُ إلا بِمِثْلِ هذه الشروطِ والأَسْبَابِ الخارجيةِ عَنْ قدرتِهِ؛ لم يَعُدْ هو الخَالِقَ الَّذِي مَرَّ التدليلُ على وُجُوده؛ لأنَّ الدليلَ سَاقَنَا إِلَى خالقٍ هو خالقٌ لكُلِّ شيءٍ، فمِنَ التناقضِ أنْ نقول: "إنَّهُ خالقٌ لكلِّ شيءٍ"، ثم نقول: "إنَّهُ لا يَخْلُقُ إلا بشروطٍ وأسبابٍ خارجةٍ عَنْ إرادته"!!

مَنِ الَّذِي خَلَقَ إِذًا تلك الأَسْبَاب؟!

وإذا لم يكن الخَالِقُ خالقًا بالطَّبْعِ؛ فالْمَعْنَيَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا – أي بهذا المعنى وهذا -؛ فلم يَبْقَ إلا أنْ يكونَ خالقًا بالإرادة، وإذًا فهذا الخَالِقُ مُرِيدٌ، وهذا هو الوصفُ الَّذِي وَرَدَ وَصْفُهُ بِهِ فِي القرآنِ الكريم:

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُول لَهُ كُنْ فيكُونُ».

«إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ».

«إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ».

«إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ».

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

«إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ».

«وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ».

فصفة الإرادة لا بد من إثباتها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حتى الَّذِينَ كَانوا يُثْبِتون وُجُودَ الخَالِقِ الْعَظِيم ويَنْفُونَ الصفاتِ، ويُعَطِّلُون اللهَ تبارك وتعالى مِنْ كمالاتِهِ ومِنْ صفاته؛ لم يستطيعوا نفيَ صفةِ الإرادةِ؛ لِأَنَّهُا لا بد أن يُثْبِتَهَا العقلُ، وقد مَرَّ فِي كلام علمائنا المتقدمين أن الإرادة هي: تخصيصُ كلِّ مُمْكِنٍ بأحدِ وُجُوهِهِ الْمُمْكِنَةِ.

كُلُّ ما تَرَاهُ مُمْكِنٌ، وخُصِّصَ بوجهٍ مِنْ وجوهه الممكنةِ فِي الوجود، فالسماء هي السماء على هذا النحو؛ لماذا كَانت كذَلِكَ؟

كَانَ يمكن أَلَّا تكون كذَلِكَ، والأرضُ كذَلِكَ، والشجر والحجر والجبال والدواب؛ بل الإنسان؛ لماذا وُجِدْتَ على ما أنتَ عليه من حيث الطول، ومن حيث اللون، ومن حيث الفهم، ومن حيث الذكورة، إِلَى غير ذَلِكَ؟

كَانَ يمكن أن يكونَ أنثى، لا ذكرًا، والأنثى كذَلِكَ، كَانَ يمكن أن تكون ذكرًا؛ فَلِمَ خُصِّصَ هذا بالذُّكُورِيَّةِ، وخُصِّصَتْ تلك بالأُنُوثَةِ؟

وكذَلِكَ كَانَ يمكن أن يكون هذا وهذا خُنْثَى مُشْكِلًا، أو خنثى غيرَ مُشْكِلٍ.

فتخصيصه بهذا دليلٌ على اتصاف الخَالِقِ الْعَظِيم بصفة الإرادة، لِذَلِكَ كَانوا لا يستطيعون عَنْها فَكَاكًا.

هم يُنكِرُونَ سائرَ صفاتِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا قَالَ لهم الْمُثْبِتُونَ من أهل السنة: هل تَنْفُونَ عَنِ اللهِ صفةَ الإرادة؟

قَالوا: "لا، نثبت لله صفةَ الإرادة"، فكان أهل السنة يأخذون بِخَنَاقِهِم، إِذَا أثبتوا صفة الإرادة؛ قَالوا لهم: شَبَّهْتُم على قانُونِكُم؛ لِأَنَّهُم كَانوا يَقُولون لأهل السنة: أنتم إِذَا أَثْبَتُّم للهِ السمعَ

والبصرَ، إِلَى غير ذَلِكَ من صفات الكمال الإلهي؛ فأنتم مُشَبِّهُون، فكَانُوا يَنفُونَها بِزَعْمِ التَنْزِيهِ، فيقولُ لهم أهل السنة: هل تثبتون الله صفة الإرادة؟ لا يمكن أن يَقُولوا: لا نثبتها؛ لأن هذا الخلق كله يدل على صفة الإرادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بتخصيصه، خَصَّصَ اللهُ كلَّ موجودٍ بوجهٍ مِنْ وجوهِهِ الممكنة.

فهذا إثبات لصفة الإرادة لله جل وعلا.

فيقال لأولئك المعطلة: تُثْبِتُونَ صفةَ الإرادة؟

فيقولون: نعم.

فيقول لهم أهل السنة: شَبَّهْتُمْ.

فيقولون: كيف؟

يقولون: أَثْبَتُّمْ لله الإرادةَ، وقد أثبت الله الإرادةَ لكثيرٍ مِنْ خلقِهِ؛ حتى أثبتها للجدار؛ ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾.

فيقولون: لا، إنما أثبتنا صفة الإرادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على أَنَّها إرادةٌ لا كإرادة المخلوق.

فيقال لهم: القول فِي صفةٍ من الصفاتِ كالقولِ فِي سائرِ الصفات، ونحن نُثْبِتُ لله سمعًا لا كَسَمْعِ المخلوق، وبصرًا لا كَبَصَرِ المخلوق.

فإذًا؛ صفة الإرادة يَسْتَدِلُّ العقلُ عليها بمجردِ النظرِ فِي خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إذا كَانَ مريدًا؛ فيلزم أن يكون عالمًا؛ لأن الإرادة تَسْتَلْزِمُ الْعِلْم، لِأَنَّهَا: تخصيصُ المُمكِنِ بِوَجْهٍ مِنْ وُجُوهِهِ الْمُمْكِنَةِ.

وإذًا؛ فصفةَ الإرادة تستلزم صفةَ الْعِلْم.

كيف تُرِيدُ ما لا تَعْلَمُ؟!

إنَّ مَنْ يَفْعَلُ شيئًا بغير علم؛ لا يقال: "إنَّهُ أراده"، بل يُسْتَشْهَدُ بعَدَمِ عِلْمِهِ بما فَعَلَ على عدم إرادتِهِ له، وما دام هذا الخَالِقُ هو الخَالِقَ لكلِّ شيءٍ؛ فَيَلْزَمُ أن يكون عالمًا بكل شيء؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فإذًا؛ نثبت لله صفة الإرادة.

ولا بد من إثبات صفة الْعِلْم.

ما دُمْتَ أَثْبَتَّ صِفَةَ الإرادةِ؛ فلا بد من إثباتِ صفةِ العلمِ، وعِلْمُهُ بما فِي مخلوقاته من أشكالٍ وألوانٍ وأحوالٍ؛ يقتضي أنْ يكونَ سميعًا بصيرًا، ولِذَلِكَ فكثيرًا مَّا يَقْرِنُ القرآنُ الكريمُ بَيْنَ صِفَتَيِ الْعِلْمِ والسمعِ، والسمعِ والبصرِ:

«وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

«وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

وإذا كَانَ عالمًا مريدًا سميعًا بصيرًا؛ فلا بد أن يكون حيًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا لم يكن حيًا؛ لم يكن مريدًا، ولم يكن عالمًا، ولم يكن سميعًا، ولم يكن بصيرًا.

فإذًا؛ كَانَ عالمًا مريدًا سميعًا بصيرًا؛ فلا بد أن يكون حيًا؛ لأن صفة الحياة من لوازم هذه الصفات، أي أن الشيء لا يمكن أن يكون مريدًا عالمًا سميعًا بصيرًا، ثم يكونُ مع ذَلِكَ ميِّتًا، أو يكونُ جمادًا؛ بل لا بد أن يكون حيًا، وأَنْ تكونَ حياتُهُ أَرْقَى أنواعِ الحياةِ؛«وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا».

«وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا».

«هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

هذا القَدْرُ مِنَ الصفاتِ يَكْفِي الآنَ لِبَيَانِ أَنَّ الخَالِقَ الَّذِي دَلَّنَا العقلُ على وُجُودِه هو الخَالِقُ الَّذِي دَعَانَا الشرعُ لِلْإِيمانِ به وعِبَادَتِهِ، مع أَنَّ صفاتٍ غيرَها كثيرة مذكورةٌ فِي الكتاب والسنة الصحيحة.

وعليه؛ فإِنَّ كُلَّ محاولةٍ لِجَعْلِهِ مادَّةً مِنَ الْمَوَادِّ، أو كائنًا من هذه الكائنات، إنما هو شَطَطٌ مِنَ القولِ؛ لأن كثيرًا مِنْ أُولَئِكَ الضُّلَّالِ يُسَلِّمون بالدليلِ العقلي، فيقولون: نعم، سَلَّمْنَا بأنه لا بُدَّ لكلِّ مُسَبَّبٍ مِنْ سَبَبٍ، سَلَّمْنَا بأنَّ لكلِّ موجود موجِدًا، وأن لكل مخلوقٍ خالقًا.

فيقال لهم: وهذا الخَالِقُ مَنْ هُوَ؟

فأما المؤمنون؛ فإنهم يَمُدُّون الخَطَّ على استقامتِهِ، ويقولون: هذا الخَالِقُ الَّذِي دلنا العقلُ بأدلتِه العقليةِ – كما مَرَّ – على وُجُوده له هذه الصفاتُ، فإذا رَجَعْنَا إِلَى كتاب ربنا وسنةِ نبينا؛ وجدنا الصفاتِ التي هدانا إِلَيْهِا العقلُ مذكورةً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَوَرَاءَ ذَلِكَ من الصفاتِ ما قَرَّرَهُ اللهُ رَبُّ العالمينَ فِي كتابِه وعلى لسانِ رسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

هذه هي الصفات.

فَلْنَنْتَقِلْ فِي الْحَدِيثِ مِنْ هذه الصفاتِ إِلَى الذاتِ الْحَامِلَةِ لهذه الصفاتِ:

الأمور التي نتحدث عَنْها نوعان: نوع له وُجُود خارجي مستقل عَنْ أذهاننا، فهو موجود؛ سواء علم الناس أو غيرُهم من المخلوقات بوجوده أم لم يعلموا، ونوع له وُجُودٌ فِي أذهاننا، ولا وُجُود له إلا فِي أذهاننا فقط، فهذا لا يوجد إلا إِذَا وُجِدت الأذهان، وليس هُنَالِكَ من نوع ثالث، وإنما هو العدم المحض.

مثال النوع الأول: هذه المخلوقات التي نشاهدها لها وُجُود خارجي مستقل عَنْ أذهاننا، من أناس وحيوانات وبحار وأنهار، وما لا نشاهده؛ كالمخلوقات التي تسكن فِي قاع البحار، وكالمخلوقات التي أخبرنا عَنْها ربنا ولم نرها؛ من ملائكة وجن وجنة ونار.

مثال النوع الثاني – وهو الذي يوجَد في الأذهان -: ما يَتَعَاوَرُنا من أحوال نفسية؛ من سرور وحُزْن، وحب وبغض، ورجاء ويأس، وما نستحدثه بخيالنا من كائنات؛ كالغُولِ والعَنْقَاءِ - أَلَا إن المستحيل ثلاثة: الغول والعنقاء والْخِلُّ الوَفِّيُّ -، وما نتصوره من معان مجردة كالزيادة والنقصان، فهذا يوجد فِي أذهاننا، نحن نُحِسُّ ونشعر بالحب وبالبغض، وباليأس وبالرجاء، نحن نحس بالسرور وبالحزن؛ ولَكِنْ أين هذا؟!

هل له وُجُود مستقل خارجي؟!

هذا إنما نُحِسُّه، هذا يوجد فِي الأذهان، لا يوجد فِي الأعيان.

ما نتصوره من معان مجردة كالزيادة والنقصان، وما نجرده من الموجودات؛ كجنس المادة وجنس الإنسان، أي: المادة التي لا تتصف بصفة من الصفات.

الإنسان الَّذِي يشار إِلَيْهِ بالبَنَان.

الموجودات كلها؛ سواءٌ ما كَانَ منها ذا وُجُود حقيقي موضوعي، أو وُجُودٍ ذهني؛ لها خصائص تميزها عَن المعدومات، فالموجود سواء كَانَ فِي الأعيان أو كَانَ فِي الأذهان؛ له خصائص تميز هذا الموجودَ عَن المعدوم.

أهم هذه الخصائص: كونها توصف بصفات ثبوتية، فالنهر عميق أو ضَحْلٌ، طويلٌ أو قصيرٌ، كثيرُ التَّعَرُّجِ أو قَلِيلُه.

الفكرة التي فِي الذهن – وهي من الموجود فِي الأذهان – واضحةٌ أو غامضةٌ، مُعَقَّدَةٌ أو يسيرةٌ، حسنةٌ أو خبيثةٌ.

فالموجودات كلها تتميز إِذًا عَن المعدومات بكون الأخيرة لا يمكن أن توصف بصفة ثبوتية، فأنت لا تستطيع أن تصف المعدوم بصفة ثبوتية، ويمكن أن توصَفَ تلك المعدوماتُ بما لا نهايةَ له من الصفات السلبية، فإذا لم يكن الشيء موجودًا بل كَانَ معدومًا؛ أَمْكَنَ أن نقول عَنْه: إنه ليس بطويل ولا قصير، ولا فوقَ ولا تحتَ، ولا فِي هذه الجهة ولا تلك، ولا مادةَ ولا رُوحَ، ولا تراه الأعينُ ولا تَسْمَعُهُ الآذَانُ، ولا تَلْمَسُهُ الأَيْدِي ولا تَشُمُّهُ الأُنُوفُ، ولا يَتَحَرَّكُ ولا يَسْكُنُ.....وهكذا وهكذا، إِلَى ما لا نهاية له من هذه السُّلُوب، فهذا كله للمعدوم.

الموجودات الخارجية الموضوعية لها خصائص تميزها؛ ليس عَن المعدومات فحسب، بل عَنْ الموجودات الذهنية – إن صح أن تسمى تلك الموجودات الذهنية ب«الموجوداتِ» أصلًا –.

مما يميزها: كونها لها ذوات تحمل صفاتها، ولها صور تميز كلًا منها عَنْ غيره من الموجودات.

ومن أهم خصائصها: كونها مما يمكن من حيث المبدأ مشاهدتُه والإشارةُ إِلَيْهِ، فهي بهذه الصفة كلُّها محسوسات، وما لا يمكن مشاهدته على الإطلاق، وتحتَ أي ظرف من الظروف، وبأي موجود من الموجودات؛ فهذا لا وُجُودَ حقيقيَّ له، بل إما أن يكون عَدَمًا، أو أن يكون أَمْرًا ذهنيًا مجردًا.

وأما الموجودات التي لها واقع خارجي، لها وجود خارجي حقيقي؛ فهذه هي التي يمكن أن تُبْصَرَ بالأعين، وأن يشار إِلَيْها حيث هي.

فماذا تقول الآن عَن الخَالِق؟!!

إنه لا يمكن أن يكون عدمًا.

هذا أمر بديهي.

وإذا لم يكن عدمًا؛ فلا بد أن يوصَفَ بصفاتٍ ثبوتية؛ لأن العدم وحده هو الَّذِي لا يوصف بالصفات الثبوتية، وإنما يوصف بالصفات السلبية.

ولا يمكن أن يكون ذا وُجُودٍ ذهنيٍّ مجرد؛ لِأَنَّهُ هو خالق الأذهان، فوجودُهُ سابقٌ للأذهان.

لم يَبْقَ إذًا إلا أن نقول: أَنَّهُ ذو وُجُودٍ خارجيٍّ حقيقيٍّ موضوعي، وإذا قلنا ذَلِكَ؛ لَزِمَنَا القولُ بأنه شيءٌ كما أخبر عَنْ نفسه؛ «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ»، وأن له ذاتًا تَحْمِلُ صفاتِهِ، وأن له صورةً، وأن له كيفًا يتميز به عَنْ مخلوقاته، وهذا الكيف يتعلق بصفاته، ونحن نثبت ذَلِكَ الكيف؛ ولَكِننا نقطع الطَّمَعَ عَنْ معرفته وعلمه، فليس معنى أننا نقول: نحن نعرف الصفة، ونعرف معنى الصفة، ولَكِننا نُفَوِّضُ الكَيْفَ إِلَى الله تبارك وتعالى؛ أَنَّهُ ليس له كيفٌ؛ بل قولنا هذا "نُفَوِّضُ الكَيْفَ إِلَى الله"، "نفوض الكيفية إلى الله"؛ دليلٌ على أن للصفة كيفيةً؛ ولَكِن نحن لا نعرفها؛ بدليل قولك: "ونفوض الكيفية إِلَى الله"، نقطع الطمع عن معرفتها.

فإذًا؛ إذا كَانَ كذَلِكَ؛ لَزِمَ إمكانُ رؤيته، بل لزم أَيْضًا إمكانُ الإشارة إِلَيْهِ كما فعل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذه صفاتٌ لازمةٌ لكل موجودٍ؛ خالقًا كَانَ أم مخلوقًا، فما لا يتصف بها لا يكون موجودًا حقيقيًا، دَعْكَ أَنْ يكونَ خالقًا.

وبعض الناس سَيَقِفُ شَعْرُهُمْ مِنْ هذا الكلام؛ كالأشاعرة والماتريدية والمعطلة وغيرهم؛ لأن بعض الأفكار الفلسفية المادية وَجَدَت طريقَهَا - مع الأسف - إِلَى العقيدة الإسلامية منذ زمن بعيد، فأَفَسَدَتْ على الناسِ فِطْرَتَهُمْ، ثم أَفْسَدَتْ عليهم عُقُولَهم، فَجَعَلَتْهم يَأْنَسُون إِلَى ما تَنْفِرُ منه الطِّبَاعُ الفِطْرِيَّةُ، ويُقَرِّرون ما تُنكِرُهُ العقولُ السَّوِيَّةُ.

أصل هذه الفلسفة المادية التي تَأَثَّرَ بها الجهميةُ والمعتزلةُ من ناحيةٍ، والمشبهةُ المجسمة من ناحية أخرى: أن الموجود حقيقةً هو هذه المخلوقات المادية المشاهدة، فإذا كَانَ الشيء موجودًا؛ فلا بد أن يكون مثلها، وإلا فما هو بموجود!!

مَالَ المشبِّهُ إِلَى جانب إثبات وُجُود الخَالِق، ولما كَانَ الموجود عَنْدهم – كما مر بحسب تلك الفلسفة – لا بد أن يكون مشابهًا لهذه الموجودات المخلوقة؛ فقد شبهوا الله سبحانه

بمخلوقاته، فجعلوا صفاتِه مِنْ سمعٍ وبصرٍ وكلامٍ ويَدٍ وعَيْنٍ مشابِهَةٌ لصفاتِ الأجسامِ الحَادثة هذه، قَالوا: مع فارق فِي العِظَمِ والقوةِ!!

فإِلَى هذا صار وذَهَب المشبهة.

وأما الجهمية؛ فمَالُوا إِلَى جانبِ تَنْزِيهِ الخَالِقِ عَنْ مخلوقاته؛ لَكِنهم لما اعتقدوا أن الموجود حقيقةً لا بد أن يكون جسمًا كهذه الأجسام؛ اعتقدوا أن كل صفة توصَف بها هذه المخلوقاتُ لا يمكن أن يوصف بها الخَالِق، وإلا كَانَ مشابهًا له، فصار غلاتهم ينكرون كل الصفات الثبوتية للخالق، أو يأولونها تأويلًا يعطل معانيها، ولا يصفونه إلا بالأوصاف السلبية.

وأما غير الغلاة منهم – وتندرج تحت هَؤُلَاءِ جماعاتٌ كالأشاعرة وغيرهم -؛ فجعلوا يفعلون هذا مع بعض الصفات دون بعض، ينكرون أو يأولون من الصفات ما يرونه دالًّا على المشابهة؛ كالذات والعين واليد، ولَكِنْ ما لا يوصف إلا بالصفات السلبية إنما هو العدم – كما مر -.

لقد فَرَّ الجهمية من تشبيه الخَالِق بالمخلوقات، فوقعوا فِيما هو شَرٌّ منه، وهو تشبيهُهُ بالمعدومات، لِذَلِكَ قَالَ أهل السنة: إن الْمُجَسِّمَةَ يَعْبُدُونَ صَنَمًا، والْمُعَطِّلَةَ يَعْبُدُونَ عَدَمًا.

الجهمية النُّفَاةُ فَرُّوا من تشبيه الله تبارك وتعالى بخلقه، فقالوا: "لو أَثْبَتْنَا الصفاتِ لله تبارك وتعالى؛ كنا مُشَبِّهِينَهُ بخلقِهِ"!!

فَنَفَوْا عنه الصفاتِ!!

فَفَرُّوا مِنْ تشبيهِ الخالقِ العظيمِ بالموجودات إلى تشبيهِهِ بالمعدومات؛ لأنهم إنما جعلوا له كل السُّلُوبِ!! فهم يَقُولون: لا فوقَ ولا تحتَ، ولا يمينَ ولا يَسَارَ، ولا أَمَامَ ولا خَلْفَ، ولا موجودَ ولا معدومَ، إِلَى غير ذَلِكَ مما إِذَا وُصِفَ العَدَمُ به؛ قيل: هذا هو العَدَمُ حقًا، ولا يُوصَفُ العَدَمُ بِأَبْلَغَ منه!!

فهذا التصور الجهمي التعطيلي للخالق الْعَظِيم صار - مع الأسف الشديد - التصورَ الشائعَ الآنَ بين جماهيرِ المثقفين من المنتسبين إِلَى الإسلام.

وإذا كَانَ أصل البلاء إنما جاء من الفلسفة اليونانية المادية؛ فإن هذه الفلسفة هي الإرث الفكري الَّذِي وَرِثَهُ الغَرْبُ، وبَنَى عليه فَلْسَفَتَهُ الماديةَ الْحَدِيثةَ، وإذا كَانَت المادية القديمة هي الأصلَ الَّذِي نَشَأَت عَنْه المشكلة؛ فإن المادية الْحَدِيثة هي الغذاء الَّذِي يُمِدُّها اليومَ بالحياة.

لقد تَغَلْغَلَ الفِكْرُ الماديُّ المعاصر فِي تصورات الناس كما لم يتغلغل الفكر المادي الأول، فصار جزءًا من مفهوم الْعِلْم؛ بل صار عَنْد كثير من الناس- حتى المعارضين له – جزءًا من مفهوم العقل، لِذَلِكَ صرتَ ترى المؤمنين المستمسكين بالدين الْحَقّ يصفون أصحاب هذا الاتجاه بالعقلانيين، فجعلوا أُولَئِكَ المعطلةَ النفاةَ آخِذِينَ بالعقل، كَأَنَّما العقلانيةُ والدينُ الصحيحُ لا يجتمعان!!

أما أهلُ السنةِ السابقون؛ فكَانُوا يسمونهم ب«أهل الأهواء».

المعاصرون يقولون عن هؤلاء: "هم العقلانيون"، فيجعلون العقل في صَفِّهِم؛ إذًا فالعاطفة في صف المثبتين!!

فَيُسِيئُون إلى أنفسِهم، ويَمُدُّونَ أولئك في غُرُورِهِم وطُغْيَانِهِم وهم لا يشعرون!!

سَلَفُنَا سَمَّوْا أولئك المعطلة ب«أهلِ الهواء»، ب«أهلِ البدع»، وأما المعاصرون؛ فيسمونهم ب«العقلانيين»؛ لِأَنَّهُم كانوا – أعني السابقين من علماءنا يعلمون أن العقل لا يمكن أن يكون سَبَبًا للضلال، وإنما الَّذِي يسبب الضلالَ هو اتباع الهوى، فقالوا: هم أهل الأهواء.

مشكلة المعطل: أَنَّهُ يريد أن يكون ماديًا، ويريد مع ذَلِكَ أن يكون مؤمنًا بالله، ولهذا يقع فِي تناقضٍ لا مَخْرَجَ له منه إلا باللجوء إِلَى التعطيل أو غير التعطيل.

إن ماديته تقتضيه أن يَقُول: "إِنَّهُ لا موجودَ إلا ما كَانَ مركَّبًا من هذه المادة"، فهذه ماديته، تقضي بهذا، وإيمانه يقتضيه القول بوجودِ موجودٍ غيرِ مُرَكَّبٍ من المادة، فهو لا يريد أن يصف الخَالِق بأي صفة ثبوتية؛ لأن هذا يجعله ماديًا، ولا يريد أن ينفي عَنْه صفة الوجود؛ لأن هذا يتناقض مع إيمانه، فيَبْقَى مؤمنًا بوجود شيءٍ يَصِفُهُ بأنه فِي كل مكان، وأنه لا يَحُدُّهُ زمانٌ ولا مكانٌ، وأنه مُطْلَقٌ لا يُشَارُ إِلَيْهِ بالبَنَانِ، ولا صورةَ له، ولا يوصَفُ بِعُلُوٍّ ولا انخفاضٍ، ولا بِكَوْنِهِ داخِلَ العالَمِ ولا خَارِجَهُ، وأنه لا يَرَى، ولا يَتَكَلَّمُ، ولا يتحرك، ولا يَرَى، ولا ....ولا ......من هذه السلوب!!

أليس من حق الملحد المنكِرِ لوجود الخَالِق أن يَقُول لأمثال هَؤُلَاءِ: ما الفرق الْحَقيقي بيني وبينكم؟!! إنكم تصفون هذا المعدومَ بكونه خالقًا، وأنا أقول: ما دام معدومًا؛ فليس هُنَالِكَ من خالق، لَكِن إِذَا اتفقنا على الْحقائق؛ فلا مشاحة فِي الألفاظ!!

أَمَا وقد ظَهَرَ أن هذا الموقفَ التعطيليَّ مِنْ صفاتِ الخَالِقِ الْعَظِيم سبحانه ليس مَوْقِفًا عقلانيًا؛ فقد آنَ أن يَتَبَيَّنَ الآنَ أَنَّهُ ليس أَيْضًا بموقفٍ إسلامي؛ لِأَنَّهُ يخالِفُ صريحَ النصوصِ القرآنيةِ والسُّنِّيَّةِ، ولأن تأويلاتِهِ تخالِفُ قواعدَ اللغةِ التي نَزَلَ بها هذا القرآنُ المجيدُ وجاءَتْ بها هذه السنةُ المجيدة الرشيدة، فهو مخالفٌ للعقل، مخالفٌ للفطرة، مخالفٌ للحس، مخالفٌ لِلُّغَةِ، ومخالفٌ للنقل.

الصفات التي دُلِّلَ عليها فِيما مضى بالعقل والشرع؛ يلزم أن تكون ثبوتية حقيقية.

العلاقة بين الذوات وبعض الصفات علاقةٌ ضرورية، أيْ أَنَّهُ إِذَا كَانَت هُنَالِكَ ذات أو ذوات؛ فلا جَرَمَ تكون لها صفات.

لا توجد ذات لا توصف بصفة.

إذا وجدت الذات؛ فلا بد من أن تكون الذات موصوفة.

هذا أمرٌ حَتْمٌ يقضي به العقل؛ أنه لا توجد ذاتٌ أبدًا بغير صفةٍ من الصفات، على الأقلّ توصَفُ بأنها موجودةٌ، وإلا فكيف تُثْبِتُ ذاتًا ولا تُثْبِتُ لها الوجودَ؟!!

هذا على أقل تقدير.

فأنت إذا قلتَ: "أُثْبِتُ الذاتَ"؛ فلا بد من أن تُثْبِتَ لها الصفات.

فإذا قلتَ: "هي ذاتٌ"؛ فَعَلَى الأَقَلّ تُثْبِتُ لها صفةَ الوجود.

فإذا قَالَ: هو وُجُودٌ لا كالوجود فِي المخلوقات؛ فيقال: وكَذَلِكَ سائرُ الصفات.

إِذَا كَانَت هُنَالِكَ صفاتٌ وجودية؛ فلا جَرَمَ تحملها ذات، فالصفات لا تكون مجردةً عَن الذوات، ولا الذات تكون مجردة عَنْ الصفات إلا فِي الأذهان، وهذا ما مر ذكره كثيرًا: أن هذا المطلق – أعني المطلق الكلي – هو الَّذِي يوجد فِي الأذهان، ولا يكون فِي الأعيان؛ لِأَنَّهُ إن وجد فِي الأعيان؛ صار من كونه موجودًا فِي الأذهان إِلَى تَحَقُّقِهِ فِي الأعيان؛ كالوجود، فصفة الوجود تثبتها للخالق الْعَظِيم الَّذِي أوجد كل موجود، وتثبتها للموجودات.

هذه الصفة؛ عَنْدما تقول: "أنا أُثْبِتُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هذه الصفةَ"؛ فيقال لك: ولَكِنها ثابتة أَيْضًا للمخلوق، فأنت تقول: "أنا أُثْبِتُ القَدْرَ المشتَرَكَ، أو ما يقال له: «الكُلِّيَّ العامَّ»".

هذا يكون متحقِّقًا فِي الأذهان، لا متحققًا فِي الأعيان، فإذا ما صار وُجُودُ الخَالِق له؛ كَانَ على قَدْرِه، فتكونُ الصفةُ على قدرِ الذات، فيكونُ وُجُود الخَالِق الْعَظِيم على قَدْرِ ذاتِهِ، وذاتُهُ ليس كَمِثْلِها ذاتٌ، فوجودُه ليس كمثله وُجُودٌ، ويكون وُجُودُ كُلِّ موجودٍ على قَدْرِه، فالوجودُ لِلْحَجَرِ سِوَى الوجودِ للنبات، سِوَى الوجودِ للحيوان، سِوَى الوجودِ للإنسان، إِلَى غيرِ ذَلِكَ من أصنافِ الموجودات.

إذًا؛ عَنْدنا هذا القَدْرُ المشْتَرَكُ، فهذا يُثْبِتُهُ العقلُ، وهو معنى قولِ أهلِ السنة: إننا نَفْهَمُ المعنى، يعني «الرحمنُ على العرش استوى»، نحن نفهم المعنى، نعرف معنى الاستواء، ولَكِن إِذَا قيل: "استوى الرحمن على عرشه"؛ صار استواؤه له، فيكونُ لائقًا بذاته، وكذَلِكَ إِذَا قَالَ قائل: "استوى الرجلُ على ظهر الدابة"، "استوت السفينةُ على الجُودِيِّ، على الجبل"؛ فَيَكُونُ استواءُ كلٍّ على قَدْرِ كُلٍّ.

فالصفات تكون على قدر الذوات.

وأما أن تَفْرِضَ ذاتًا مجرَّدَةً من الصفات؛ فهذا لا يكونُ إلا فِي الأذهان.

لا يكون فِي الأعيان.

أما الواقعُ المعايَنُ؛ فلا يَعْرِفُ صفاتٍ مجردة، ولا يَعْرِفُ ذاتًا مجردَةً من الصفات.

هذا ما يَقْضِي به العقلُ، وهذه هي الأدلةُ قد أَدَّتْ بنا فِي نهاية الأمر إِلَى هذا السؤال.

إذًا؛ الأدلةُ العقليةُ إِلَى ما يُضَمُّ إِلَيْهِا من أدلةِ الفطرةِ، وأدلةِ الآياتِ، وأدلةِ الحِسِّ؛ بل وأدلةِ الإجابة، فدليلُ الإجابةِ يَعْرِفُهُ كُلُّ إنسانٍ بِتَجْرِبَتِهِ؛ يَقَعُ فِي الضَّائِقَةِ، فَيَسْأَلُ ربَّه ويَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ – ولو كَانَ كافرًا –، فيأتِي التَّفْرِيجُ عَنْه، وتأتي الإجابةُ له، فَيَسْتَدِلُّ بذَلِكَ على وُجُود الخَالِق الْعَظِيم.

فالدليل العقلي مضمومًا إِلَيْهِ ما مَرَّ من سائر الأدلة؛ دَلَّنَا على وُجُود خالقٍ لهذه المخلوقات، وموجِدٍ لهذا الوجود، فيأتي السؤال:

ومَنْ هو الخَالِق؟

هو الَّذِي دلنا عليه الكتاب المجيد، ودلنا على صفاته، ودلنا كَذَلِكَ نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صفاته فِي سنته الشريفة.

فهذا هو المطلوب إثباته، والحمد لله رب العالمين.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«المُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد مَرَّت الأدلةُ بفضل الله تبارك وتعالى في الرد على الملحدين بما لا يَدَعُ لهم مَخْرَجًا إلا أن يُقِرُّوا بخالقٍ لهذا الكونِ الكبير، ثم جاء بعدَ ذلك سؤالٌ، وهو: إذا كان هذا الكون مخلوقًا لخالقٍ؛ فمَنْ هو هذا الخالق؟

وقد مَرَّت الإجابةُ عن هذا السؤال، وأنَّ ما يَهْدِي إليه الدليلُ العقليُّ هو ما قرره النصُّ القرآني، وكذا ما وَرَدَ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يتعلق بصفات ربنا جل وعلا.

وهذه الطريقةُ التي مَرَّت؛ إنما تَكُونُ في الرد على الملحدين إذا أنكروا وجودَ الخالقِ جل وعلا بناءً على شبهاتٍ عقلية.

وأما إذا كان إلحادُهم إلحادَ بَطْنٍ وفَرْجٍ؛ فهؤلاء في الحقيقةِ لا يَنْفَعُ معهم إلا النَّعْلُ، وأما العقلُ؛ فَهُمْ بِمَبْعَدَةٍ عنه!!

على كلِّ حالٍ؛ منهجُ القرآنِ فِي الاستدلال بالآيات الكونية على وُجُود الخَالِق الْعَظِيم هو المنهجُ الَّذِي تُقِرُّه الفطرةُ، ويُسَلِّمُ له العقلُ، ويَشْهَدُ به الحس، إلا أن الْمُلْحِدِينَ -كما هو معلوم- ينكرون أصلًا أنْ يكونَ القرآنُ مِن لَدُنْ ربِّنا جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهُم ينكرون وُجُود الباري سبحانه، وبالتالي ينكرون الوحيَ، وينكرون الرسالةَ، وينكرون البعثَ، وينكرون الجزاءَ.

في كتاب «العقيدة فِي الله»:

يَأْخُذُنا القرآنُ فِي جَوْلاتٍ وجَوْلَاتٍ نَرْتَادُ آفَاقَ السماءِ، ونَجُولُ فِي جَنَبَاتِ الْأَرْضِ، ويَقِفُ بنا عَنْد زَهْرَاتِ الْحُقُولِ، ويَصْعَدُ بنا إِلَى النُّجُومِ فِي مَدَارَاتِهَا، وهو فِي كُلِّ ذَلِكَ يَفْتَحُ أبصارَنا وبصائِرَنَا، فَيُرِيَنَا آثارَ قدرةِ اللهِ وتقديرِهِ فِي المخلوقات، ويَكْشِفُ لنا أسرارَ الخلقِ والتكوينِ، ويَهدِينا إِلَى الحكمةِ من الخلقِ والإيجادِ والإنشاءِ، ويُبَيِّنُ عَظِيمَ النِّعَمِ التي حَبَانَا بها ربُّنا تبارك وتعالى فِي ذَوَاتِ أنفسِنا، وفي الكونِ مِنْ حَوْلِنَا.

هو حديثٌ طويلٌ فِي كتابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا يُطَالِعُنَا فِي طِوالِ سُوَرِ القرآنِ وقِصَارِه، وهو حديثٌ مُشَوِّقٌ تُنْصِتُ إِلَيْهِ النَّفْسُ، ويَلَذُّهُ السَّمْعُ، ويَسْتَثِيرُ المشاعرَ والأَحَاسِيسَ.

وإذا طَالَعْتَ الكثيرَ مما تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ والْعُلَمَاءُ فِي شَتَّى جَوَانِبِ الحياةِ، يُبَيِّنُونَ أَسْرَارَ الخَلْقِ، ودَلَالَةَ الخلقِ على الخَالِقِ، إذا طَالَعْتَ ذلك؛ فَلَنْ تَجِدَ فِي شيءٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّه ما تَجِدُهُ فِي القرآنِ

مِنْ جمالِ وَصْفٍ، وَوَفْرَةِ عِلْمٍ، واسْتِثَارَةِ مَشَاعِرَ، وحُسْنِ تَوْجِيهٍ، ودِقَّةِ اسْتِنْتَاجٍ، وكيف لا يكونُ كذَلِكَ وهو تَنْزِيلُ الحكيمِ الحميدِ؟!!

تَعالَ فَلْنَقُمْ بِجَوْلَةٍ مع الآياتِ القرآنيةِ؛ نَرْتَادُ هذا الكونَ لِيُرِيَنَا كيف تَعْمَلُ هذه القُدْرَةُ العظيمةُ فِي مُخْتَلَفِ أَرْجَاءِ الكونِ:

فِي الْحَبّةِ تُلْقَى فِي التُّرْبَةِ الْمُظْلِمَةِ فَتَنْفَلِقُ، وتَضْرِبُ بِجُذُورِهَا فِي تلك التُّرْبَةِ، فَيَخْرُجُ مِنَ الْحَبَّةِ الْجَامِدَةِ حَيَاةٌ تَتَمَثَّلُ فِي سُوقٍ وأَوْرَاقٍ، وأزهارٍ تَفُوحُ بِالشَّذَى، وثِمَارٍ يَتَغَذَّى بها الإنسانُ والحيوانُ.

وكذلك فِي الإصباحِ وهو يَنْبَلِجُ، وفِي سُكُونِ الليلِ السَّاجِي، ومَسِيرِ الشَّمْسِ والقمرِ؛ «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)» [الأنعام: ٩٥-٩٦].

وانظر إِلَى السحابِ؛ كيف يُنْشِأُهُ اللهُ، والبَرَدِ كيف يُكَوِّنُهُ ويُصَرِّفُهُ؛ «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)» [النور: ٤٣].

ويُحَدِّثُنَا اللهُ تبارك وتعالى عَنْ فِعْلِهِ فِي الظِّلِّ؛ «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)» [الفرقان: ٤٥-٤٦].

وانْظُرْ إِلَى تَصْرِيفِهِ سبحانه شُؤُونَ الحياةِ والأحياءِ والليلِ والنهارِ؛ «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)»[آل عمران: ٢٦-٢٧].

لا يكتفِي القرآنُ بأنْ يُرِيَنَا قدرةَ اللهِ وهي تَعْمَلُ فِي الكَوْنِ، وعِلْمَهُ يُحِيطُ بالمخلوقاتِ، وتَصْرِيفَه للشُّؤُونِ المختلفةِ؛ ولَكِنه مع ذَلِكَ يُعَرِّفُنَا بالغايةِ التي خُلِقَ الكونُ مِنْ أَجْلِهَا.

خَلَقَ اللهُ هذه الْأَرْضَ مِنْ أَجْلِ الإنسان؛ «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» [البقرة: ٢٩].

خَلَقَها لنا على نحوٍ يَتَوَافَقُ مع طَبِيعَتِنَا وتَكْوِينِنَا، ويُحَقِّقُ لنا الصلَاحَ، وهذا ما سماه القرآنُ بالتَّسْخِيرِ.

وهو لا يخبرنا بذَلِكَ مجردَ إخبار، وإنّما يُوقِفُنا على هذا التسخير الَّذِي جعله الله فِي الكون؛ «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» [لقمان: ٢٠].

والنجومُ خُلِقَتْ لِنَهْتَدِيَ بها فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ؛ «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)» [الأنعام: ٩٧].

والأرضُ والسماءُ، وإنزالُ الماءِ من السحاب، والسُّفُنُ السَّابِحَةُ فِي البحرِ، والأنهارُ الجاريةُ فِي جَنَبَاتِ الْأَرْضِ، والشمسُ والقمرُ، وتَعَاقُبُ الليلِ والنهارِ... كُلُّ ذَلِكَ مخلوقٌ لنا ولِخَيْرِنَا وَلِصَلَاحِنَا؛ «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ»[إبراهيم: ٣٢-٣٥].

عَرَّفَنَا القرآنُ بأنَّ اللهَ خَلَقَ هذا الكونَ وسَخَّره لنا، فَجَعَلَهُ مُتَوَافِقًا مع جِبِلَّتِنا، وقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا تَصْلُحُ به حياةُ الإنسانِ، والقرآنُ يَتَّخِذُ مِنْ هذا الْحَدِيثِ والبَيَانِ سَبِيلًا لِيَشْكُرَ الإِنْسَانُ رَبَّهُ، إِذِ الإنسانُ مَفْطُورٌ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ؛ «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)» [الرحمن: ٦٠].

ولِذَلِكَ فقد أَفَاضَ القرآنُ فِي ذِكْرِ النِّعَمِ التي حَبَاهَا اللهُ عِبَادَه فِي ذَوَاتِ أنفُسِهِمْ؛ «قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣)» [الملك: ٢٣]، وكذَلِكَ جَعَلَهَا مَبْثُوثَةً فِي الكونِ مِنْ حَوْلِهِم؛ «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عليه» [الزخرف: ١٠-١٣].

وخَلَقَ لنا الشَّمْسَ والقمرَ على نحوٍ يُحَقِّقُ النَّفْعَ والصَّلَاحَ؛ «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْس ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ» [يونس: ٥].

والأنعامُ مِنَ الجِمَالِ والأبقارِ والأغنامِ، وكذَلِكَ خَلَقَ الخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ، خَلَقَهَا لَنَا على نَحْوٍ يُفِيدُنَا، وَيَتَنَاسَبُ مَعَ طَبَائِعِنَا وَتَكْوِينِنَا؛ «وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)» [النحل: ٥-٨].

والبحرُ مخلوقٌ لنا أَيْضًا، وفي خَلْقِهِ على ما هو عليه ما يُحَقِّقُ لنا الكثيرَ والكثيرَ؛ «وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)» [النحل: ١٤].

والنَّحْلُ خَلَقَهُ اللهُ لِيَقُومَ بذَلِكَ العَمَلِ الرائِعِ؛ لِيُنْتِجَ لنا ذَلِكَ الشَّرَابَ الْمُخْتَلِفَ الألوانَ، لِيَتَغَذَّى به البَشَرُ، ويَكُونَ لهم شِفَاءً؛ «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)» [النحل: ٦٨-٦٩].

وقد حَثَّ القرآنُ عبادَ اللهِ على النظر فِي آيات اللهِ الكونية: الْأَرْضِ، والسماءِ، وما فِيهما وما بينَهما، وجَعَلَ النظرَ والتأملَ فِي ذَلِكَ مِنَ الذِّكْرَى التي تَنْفَعُ المؤمنينَ، وهذا ما سُمِّيَ بـ«قانونِ السَّيْرِ والنَّظَرِ»؛ لِكَثْرَةِ حَثِّ الآياتِ القرآنيةِ على ذَلِكَ، وقد يكونُ السَّيْرُ والنَّظَرُ حِسِّيَّانِ، فَيَسِيرُ المرءُ على قدميه، وينتقل من بلدٍ لِآخَرَ، كما قد يكون النظر بالبصر، وقد يكونان – يعني السير والنظر - بالفكر والعقل.

وقد جاء الأمر فِي القرآن أمرًا عامًا؛ «قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [يونس: ١٠١]، وقد يأتي أمرًا خاصًا؛ «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ».

«فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) [عبس: ٢٤].

ويتخذُ القرآنُ مِنَ الآياتِ الكونيةِ مادةً يناقِشُ بها المشركين، ويُقِيمُ بها الْحُجَّةَ عليهم؛ «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)» [الأنبياء: ٣٠-٣٢].

ويُبَيِّنُ لهم فَسادَ مُعْتَقَداتِهِمْ فِي مَعْبُوداتِهِم، فهي لا تَمْلِكُ شيئًا مِنْ صفاتِ الرُّبُوبِيَّةِ والأُلُوهِيَّةِ التي تَسْتَحِقُّ أنْ تُعْبَدَ لِأَجْلِها، وتُتَّخَذَ آلهةً من دون الله؛ «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تعالى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)» [النمل: ٥٩-٦٤].

إنّ الآياتِ تبين عدم صلاحِيَةِ الآلهة الْمُدَّعَاةِ للعبادة والتقدير، فالله وحده الخَالِقُ للسماء والأرض، المنْزِلُ للماء من السماء، الْمُنْبِتُ به الحدائقَ التي تَسُرُّ النفس، وتُبْهِجُ النظرَ، وهو الَّذِي جعل الْأَرْض قرارًا وسَيَّرَ خلالها الأنهار، وثبتها بالجبال، فهو المعبود الْحَقّ، وغيره لم يفعل شيئًا، فلا يستحق أن يعبد من دون الله.

وعلينا أن نستخدم هذا النوع من الاستدلال فِي مواجهة الْكَفَرَةِ والْمُلْحِدِينَ، فقد استخدمه الرسلُ مِنْ قَبْلُ، وأَكْثَرُوا مِنَ الاحتجاجِ به، فهذا إبراهيمُ خَلِيلُ الرحمنِ - عليه الصلاةُ والسلامُ - يُنَاقِشُ الملحِدَ، ويُقِيمُ عليه الحجةَ بهذا النوعِ مِنَ الاستدلالِ، بحيث يَخْرَسُ لسانُه ويَدْهَشُ فِكْرُهُ؛ «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ

الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)»[البقرة: ٢٥٨].

وهذا موسى كليمُ الله – عليه الصلاة والسلام - يَسْتَخْدِمُ الاستدلالَ نفسَه فِي مواجهةِ طاغيةِ عصرِه فرعون، ولا يزال يأتيه بالدليل فِي إِثْرِ الدليلِ حتى يُعْجِزَه، فَيَلْجأ إِلَى التهديدِ والوعيد؛ «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)» [الشعراء: ٢٣-٢٩].

الكفر مُستَنْكَرٌ مُتعَجَّبٌ منه مع وضوحِ الأدلة، لِذَلِكَ يَسْأَلُ القرآنُ سؤالًا يَشِي بالعَجَبِ مِنْ كفرِ الكافرينَ مع وضوحِ الأدلة والبراهين؛ «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)» [البقرة: ٢٨].

ويَسْأَلُ فِي آيةٍ أخرى: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)» [الانفطار: ٦-٨].

إنَّ مُقْتَضَى نَظَرِ الإِنْسَان فِي نفسِه وفِي الكونِ مِنْ حولِهِ يوجِبُ عليه التَّوَجُّهَ إِلَى خالقِه، وتعظيمَه، ولِذَلِكَ كَانَ غريبًا كُفْرُ الكافرينَ وَجَحْدُ الجاحدين؛ «مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)»[نوح: ١٣-١٨].

ولكنَّ آياتِ اللهِ فِي الكونِ لا تَتَجَلَّى على حقيقتِها الْمُوحِيَةِ إلا للقلوبِ الذاكرةِ العابدة؛ لأنَّ هذه القلوبَ انكشفت عَنْها الْحُجُبُ، وتَفَتَّحَتْ واتَّصَلَتْ بالكون العجيب، فالقرآنُ أقام الوُصْلَةَ بين القلبِ البَشَرِيِّ وما في هذا الكونِ الهائلِ الجميل، وهذه الوُصْلَةُ هي التي تجعل للنظرِ فِي كتابِ الكونِ والتعرفِ إِلَيْهِ أثرًا فِي هذا القلب البَشَرِيِّ، وقِيمَةً فِي الحياة البشرية.

هذه هي الوُصْلَةُ التي يُقِيمُها القرآنُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ، بَيْنَ الإنسانِ الَّذِي يَعْلَمُ ويَعْرِفُ، ولِذَلِكَ نَصَّ القرآنُ على أن الَّذِي يَهْتَدِي بِآيَاتِ الكَوْنِ هُمْ صِنْفٌ مُعَيَّنٌ مِنَ النَّاسِ؛ «إِنَّ فِي

خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)»[آل عمران: ١٩٠-١٩١].

هَؤُلَاءِ هم الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِآيَاتِ الكونِ؛ لِأَنَّهُم لم يَقِفُوا عَنْد حدودِ الْمَنْظَرِ المَشْهُودِ البَادِي لِلْعِيَانِ.

إنهم يَسْتَخْدِمُونَ أَبْصَارَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ وَعُقُولَهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ عَلَى خَيْرِ وَجْهٍ فِي هذا المَجَالِ، مُسْتَرْشِدِينَ بِآيَاتِ الكتابِ التي تُعِينُ السَّمْعَ والبصرَ والفِكْرَ والعَقْلَ على التَّوَصُّلِ إِلَى خيرِ ما يُمْكِنُ للإنسانِ أنْ يَصِلَ إِلَيْهِ؛ «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)» [الروم: ٢١-٢٤].

فالآيات تَتَكَشَّفُ للذين يتفكرون ويَسْمَعُونَ ويعقلون؛ أيْ على وجهِ الْحَقِيقَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى المطلوبِ.

أَمَّا الكُفَّارُ؛ فإنهم يُشَاهِدونَ الحَدَثَ ولا يَتَجَاوَزُونَهُ بِعُقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ إِلَى صَانِعِهِ وَخَالِقِهِ، ولا يُدْرِكُون الحكمةَ مِنْ وَرَاءِ الخَلْقِ؛ «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»؛ ولِذَلِكَ لم يَنْتَفِعُوا بالآياتِ الكونيةِ؛ لِأَنَّهُم لم يَنظُرُوا إِلَيْهَا بالْمِنظَارِ القرآني؛ «قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١)»[يونس: ١٠].

ولِذَلِكَ فإن القرآن ينكر على الكافرين والجاحدين تَرْكَهُمُ النظرَ والاعتبارَ؛ «أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)»[الأعراف: ١٨٥].

إنَّ الخلقَ يدل على الخَالِقِ، وعلى صفات الخَالِقِ الْعَظِيمِ.

إذا نَظَرْنَا إِلَى آلةٍ دَقِيقَةِ الصُّنْعِ، بَدِيعَةِ التكوين، غَايةٍ فِي القوةِ وَالمَتَانَةِ، تَقُومُ بِعَمَلِهَا على خيرِ وَجْهٍ؛ فلا بد أنْ نُدرِكَ بِلَا كَثِيرِ تَفْكِيرٍ أَنَّ صَانِعَهَا يَتَّصِفُ بِصِفَةِ الحَيَاةِ، بِصِفَةِ الْعِلْمِ، وَنُثْبِتُ له قُدْرَةً وَإِرَادَةً، إِلَى آخِرِ تلك الصفاتِ التي تُنْبِأُنَا عَنْها تلك الآلة، وهذا الكونُ يَشِي ويُعَرِّفُ بكثيرٍ مِنْ صفاتِ الخَالِقِ الْعَظِيمِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

قُدْرَتُه وَعِلْمُهُ:

هذا الكونُ الهائلُ الضَّخْمُ الشَّاسِعُ الواسعُ، السائرُ وَفْقَ نِظَامٍ دَقِيقٍ؛ لا بد أنْ يَكُونَ صَانِعُهُ حَيًّا قديرًا عليمًا مُرِيدًا، والله خَلَقَ الخلق بهذا التكوين الهائل، وهذا النظامِ الكاملِ؛ لِيُعَرِّفَنَا بقدرتِه وعِلْمِهِ؛ «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)»، ولا بد أنْ يَكُونَ الْعِلْمُ الَّذِي يَحْكُمُ هذا الكونَ عِلْمًا شاملًا كاملًا؛ «وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)»، وهو حكيمٌ؛ بل هو الحكيم.

فالنظر فِي هذا الكون يَشِي بأنه مُحْكَمٌ مُتْقَنٌ، قد وُضِعَ كُلُّ شيءٍ منه فِي مَوْضِعِه المناسِب، وخُلِقَ بالمقدارِ المناسِب، فِي غايةِ الجَوْدَةِ والإتقانِ؛ «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ».

«الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ»، لِذَلِكَ فإن الناظر المتبصر فِي خلق الله لا يرى إلا الكمال والإتقان، ولو بحث عَنْ عيب فِي الخلق ما وجده؛ «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)».

ما ذُكِرَ من دلالةِ الخلقِ على بعضِ صفاتِ خَالِقِهِ يُرَادُ به التمثيلُ، لا الحصرُ والاستقصاءُ، وهو تمثيلٌ يَفْتَحُ البابَ للاستدلالِ والبحث، وإلا ففي الكونِ الكثيرُ من الآياتِ الدَّالَّةِ على عَظَمَةِ الله وعِزَّتِهِ، ولُطْفِهِ وحِكْمَتِهِ.

واسْتَمِعْ إِلَى الصفات الإلهية التي ذَكَرَهَا اللهُ فِي ختامِ كل آية من الآيات التالية؛ «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥)».

والهدايةُ التي يَجْلِبُهَا النَّظَرُ والتَّفَكُّرُ فِي الآياتِ الكونيةِ تُوَجِّهُ إِلَى عبادة الله وحده، فاللهُ وَحْدَهُ هو الخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، هو الْمُقِيمُ للسماواتِ والأرضِ، الرَّازِقُ؛ هو الْمُسْتَحِقُّ للعبادةِ دُونَ سِوَاهُ؛ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)» [البقرة: ٢١-٢٢].

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)» [فاطر: ٣].

بهذا الطريقِ أَثْبَتَ القرآنُ بُطْلَانَ الآلِهَةِ الْمُدَّعَاةِ، وَعَدَمَ اسْتِحْقَاقِهَا شيئًا مِنَ العبادةِ؛ «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)» [لقمان: ١٠-١١].

ولِذَلِكَ فإنّه – تعالى – يَذْكُرُ خَلْقَهُ ويُذَكِّرُهم بالآيات الكونية، وتصريفِه الأمورَ، وتدبيرِه الشؤونَ، ثم بَعْدَ أنْ يَذْكُرَ خَلْقَه على هذا النحو؛ يُعَقِّبُ عليه فِي كثيرٍ مِنْ آيِ القرآنِ بقوله: (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم) [الزمر: ٦]، أي ذَلِكُمُ الإلهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ العبادةَ دُونَ سِوَاهُ.

وتَأَمَّلْ فِي هذه الآياتِ، وتَأَمَّلْ فِي التَّعْقِيبِ عليها: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)»[الزمر: ٥-٦].

فهذا مَسْلَكُ القرآنِ الْعَظِيم، وكُلُّ أَحَدٍ عِنْدَهُ تَجْرِبَتُهُ الخاصةُ فِيما يَتعلَّقُ بِإِجابَةِ رَبِّهِ إِيَّاه، فَمَا مِنْ وَاحِدٍ مِنَّا نَحْنُ المؤمنينَ باللهِ، وَحتَّى مَنْ كَانَ غَيْرَ مؤمنٍ؛ ما مِنَّا إلا مَنْ مَرَّتْ فَتْرَةٌ فِيها شدةٌ، فيها اضْطِرَابٌ، فيها قَلَقٌ، تَوجَّهَ فِيها إِلَى اللهِ بِقَلْبٍ كُلُّهُ انْكِسَارٌ، وَكُلُّهُ رَجاءٌ وَأَمَلٌ، وإذا بالْكَرْبِ يَزُولُ، والشِّدَّةِ تَنْتَهِي، وَيَجْعَلُ اللهُ مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ يُسَرًا، ويَعُودُ الرَّخَاءُ بَعْدَ الضَّرَّاءِ؛ ولَكِنَّكَ تَجِدُ قُلُوبًا بَقِيَتْ شَاكِرَةً مُتَذَكِّرَةً زَادَ إِيمانُهَا، وأُخْرَى عَادَتْ إِلَى غَفْلَتِهَا مُتَنَاسِيَةً ما ذَكَرَتْهُ سَاعَةَ الْمِحْنَةِ.

إنَّ الأمرَ الْمُسَلَّمَ به: أَنَّهُ ما من نَفْسٍ إلا وتَلْجَأُ إِلَى اللهِ ساعةَ الخَطَرِ، وقد أشار القرآنُ إِلَى هذا المعنى كثيرًا، فقال جلَّ وَعَلَا: «قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)».

«وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢»).

«وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧»).

«هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ».

«قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤»).

وقد جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ أَنْ يُجِيبَ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ؛ كائنًا من كَانَ، حتى لو كَانَ كافرًا ما دَامَ تَوجَّهَ إِلَى الله؛ «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ».

فهذا ما تَيَسَّرَ جَمْعُهُ وتَحْرِيرُهُ فِيمَا يَتعَلَّقُ بهذا الأَمْرِ الجَلَلِ، وهو «الرَّدُّ عَلَى الملحدين».

أسأل اللهَ أَنْ يَنْفَعَ به أقوامًا ضَلَّتْ أَقْدَامُهُمْ عن الصراطِ المستقيمِ، وأَنْ يُثَبِّتَ به المؤمنين، وأَنْ يَجْعَلَهُ لنا ذُخْرًا يَوْمَ الدِّين، إنه تَعَالَى على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

وبَعْدُ:

فهذا ما مَنَّ اللهُ تعالى به مِنْ جَمْعٍ وتَرْتِيبٍ، وَتَحْرِيرٍ وَتَقْرِيبٍ، وَشَرْحٍ وَتَعْلِيقٍ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ الجَلَلِ «الردُّ على الملحدين».

وقد كان ذلك - بفضل الله تعالى ونِعْمَتِهِ، وَحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَجُودِهِ سبحانه وَمِنَّتِهِ – في مَجَالِسَ، أَوَّلُهَا: في يومِ الخميسِ، التاسِعِ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ، سَنَةَ خمسٍ وثلاثين وأَرْبَعِمائَةٍ وأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ، الْمُوَافِقِ لِلثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ دِيسَمْبِر، سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَلْفَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ الصَّلِيبِيِّ.

وَآخِرُهَا: في يومِ الخميسِ، السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ، سَنَةَ خمسٍ وثلاثين وأَرْبَعِمائَةٍ وأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ، الْمُوَافِقِ لِلتَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ دِيسَمْبِر، سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَلْفَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ الصَّلِيبِيِّ.

وذَلِكَ - بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ، وَحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ وَنِعْمَتِهِ – فِي الْمَسْجِدِ الشَّرْقِيِّ بِسُبْكِ الْأَحَدِ، مِنْ أَعْمَالِ مُحَافَظَةِ الْمُنُوفِيَّةِ، بِمِصْرَ حَفِظَهَا اللهُ وَسَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِلْحَادِ وَالْمُلْحِدِينَ، وَالشِّرْكِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَالْبِدْعَةِ وَالْمُبْتَدِعِينَ.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَتُبْ عَلَيْنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

وصَلَّى اللهُ تعالى على نَبِيِّنَا محمدٍ، وعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أجمعينَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كثيرًا.

وَآخِرُ دَعْوَانا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تفريغ الأخ الفاضل: أبو الفضل محمود بن سيد جابر –وفقه الله وحفظه-.

وهذا التفريغ بتوفيق الله ومنتهِ ليكون هذا الموضوع المهم على طرف بنانِ كل طالب علم وكل مسلم حتى يمُنَّ اللهُ بطباعة الكتاب في أفضل صورة، وما كان من خطأ في التفريغ فَلْيَدُلَّنا عليه إخواننا وليتواصلوا مع إخواني في صفحة تفريغات خطب الجمعة كاملة للعلامة رسلان –حفظه الله- وموقع تفريغات شيخ المحنة العلامة رسلان.   والله الموفق والمستعان